

مكتبة الدراسات الأدبية

٢٣

الدكتور زكي المحاسني

شعر الحرب في أدب العرب

في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة



دار المغارف

شعر الحرب في أدب العرب

في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة

مكتبة الدراسات الأدبية

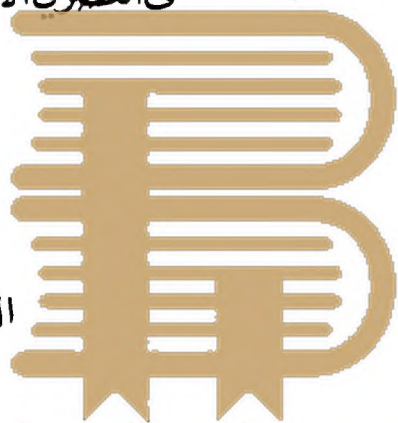
٢٣

شعر الحرب في أدب العرب

شبكة كتف الشيعية
في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة

بقلم

الدكتور زكي المحاسني



shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net



دار المعارف بمصر

١٩٦١

فاتحة الكتاب

باسم الله ، قد اخترتُ موضوع هذا الكتاب « شعر الحرب في أدب العرب ، في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة » ، وهو موضوع يتناول البحث الفني في شعر الحرب الذي قالته العرب في عصور مجدها تصف فيه بأس أبطالها في حومات الوغى وفروسياتهم في زحمات القتال ، وبلاءهم في أشرف أيامهم وأروعها ، وأشد حروبهم وأقساها ، حين كان بعضهم يغير على بعض أو يجتاز حدود بلاده للفتوح في صدر الإسلام ، أو يحارب جيوش البيزنطيين في زمن المعتصم أو عهد سيف الدولة .

وقد عُنيت في هذا الموضوع باستجلاء مظاهر الحماسة في شعر العرب في الفترة التي أبحاثها منذ منتصف القرن الأول للهجرة حتى منتصف القرن الرابع ، وهي فسحة الزمن الذي غلى فيه شعر الحماسة كمرجل تستعر ، فتوخيت إلى تلك العناية أن أعرض شعر الحرب عند العرب في معارض شتى أجيء بها حيناً مكسوة بالسياسة وآونة محفوفة بالتاريخ ، إذ لم أجد الفن وحده راضياً باحتضانها . وما كان أدب العرب ولا شعرهم في زمن من أزمانهم بمعزل عن قضايا تاريخهم ، إن كل قصيدة من قصائدهم مربوطة بحادث يمت إلى التاريخ ويمسه من قريب أو بعيد . وقد كانت منازع الأحزاب وسطوة التاريخ على شعر الحماسة العربية في العصر الأموي أقوى مما كانت عليه في العصر العباسي ، ولذلك جاء موضوع كتابي في العصر العباسي متسماً بمياسم الفن بنصيب أوفى من اتسامه بالتاريخ ، لأن شعراء العصر العباسي كانوا قد تحرروا من ربة التقليد التاريخي وانطلقوا منذ بشار وأبي نواس في أجواء الفن الصافي ، ولا أعنى بذلك أنه لم يكن لحوادث التاريخ سلطان عليهم ، وإنما أرمي إلى أنهم أصبحوا في طور من الاستقلال الفني يصلهم بالتاريخ في بواعثه وغاياته ، لكن قوام قصائدهم كان لوجه الفن ، فكم من فارق في شعر الحماسة والحرب ، أو الفخر والهجاء بين قصائد الفحول كالفرزدق وصاحبيه جرير والأخطل وقصائد أبي تمام والبحرئى والمتنبى شعراء الحماسة الأخيرة . فإن أولئك كانوا مسوقين بنداء السياسة والتاريخ ليقولوا ما قالوه

فكان ذلك مزاج قصائدهم ، وهؤلاء على ما كانوا عليه من صلة بسبب التاريخ أو غايته ، كانوا يجرون أشعارهم في مضمار الفن يطاردون بها قنائص الصور الجميلة وروائع الخيال في تحاسينهم المعنوية واللفظية .

وإذا كان شعر الحرب في الأدب العربي هو أقوى ما نظم الشعراء وأبقى على ترادف الأحقاب لأنه يتصل بالامة فيضم مجد ماضيها إلى عزة حاضرها ، وهو وحده سجل فخرها وعنوان بأسها وأناشيد بطولتها ، فقد اخترت أن أولف كتابي فيه . وسدد عزيمتي بذلك الحرب العالمية الثانية التي وضعت أوزارها على مناكب الإنسانية الحديثة ، وما زال دهاقين ساستها إلى اليوم ، بعد اندحار أعدائهم ، يتعاورون ما بينهم حرباً في خبايا النفوس بعد أن اقتسموا الأسلاب والمغانم ، فأهاجت عندي الحرب بويل آلاتها ، وبطش دهايتها ، تلك الحرب العربية الغابرة التي اتخذت شعر العرب وصفاً لها ومجلى لوقائعها وكان أبطالها الكماة المناجيد ، أحلاس الخيل وأعلام الشجاعة ، يجمعون إلى الفروسية والبطولة فنون الشعر وسحر البيان .

وقد اتخذت لبחי النهج الجامعي في التبويب والتفصيل والترقيم ، معتمداً على التحليل والتركيب حيناً والمقارنة والنقد حيناً آخر لاستكشاف الظواهر الأدبية الحماسية وربطها — إذا دعا الأمر — بأسباب السياسة أو التاريخ ، ونظرت إلى موضوعي الذي أثرته وارتضيته فوجدت الشروع فيه من العصر الأموي يستدعي التمهيد له بالملاحم والقصص الحربى في الآداب العالمية والعربية ، وبعد أن استقصيت ما عند الأمم كافة — في القديم والحديث — من ملاحم وقصص حرب ، منذ عام ١٩٤٧ حين حصولي على الدكتوراه في الآداب العربية من جامعة القاهرة ، نقتب عن الملحمة العربية ، وعرضت بالبحث والدرس إلى عرب الجاهلية ، فتناولت طائفة من أروع حروبهم التي كانوا يسمونها أياماً ووقائع ، وخرجت من ذلك بعد الاستقراء والاستقصاء إلى أن العرب أمة حرب في فطرتها . وكان طبعياً أن أخلص في أعقاب هذا التمهيد إلى لغة الحرب لأنها لغة الشعر الحربى الذى أكسبت على دراسته في موضوع رسالتى . فتبعت هذه اللغة من شعرها الأول متقريباً ألفاظها وقد رددتها في غالبها إلى الحرب منذ عهد امرئ القيس إلى زمن شوقي .

وحين أقبلت على دراسة الشعر الحربى في العصر الأموى ، وجدته يصور الحماسة

العربية في أصدق مظاهرها وأروع بيئاتها ، مسكوباً عليه لوزان من العبقريّة ، أحدهما عربي صميم في باديته وإبله وخشونته وبأسه ، والثاني إسلامي ديني في روحه وبواعثه وثوابه وآخرفته . وملكت شعوري بطولة الحوارج التي رأيته تبذ فروسية أبطال الأساطير الذين حدثنا عنهم هوميروس ، ورق قلبي لأحزان الشيعة التي شاعت في حميتهم وفدائهم ، معتزاً بحماسة الأمويين ومعجباً بشعراء الفخر والهجاء .

وكان نهجي في بحث شعر الحرب في العصر الأموي خاضعاً للتيارات الأدبية في النوازع الحزبية والسياسية ، إذ كان الشعراء قد ذهبوا شيعاً متحيزين حسبما دعت الأيام والبيئات ، وعلى مقتضى الأساليب التي كان يريدونها الساسة والحكام ووفق التناوب القبلي وعصبية النسب التي كانت بين اليمانية والعدنانية والتغلبية والقيسية .

وفي العصر العباسي غالبتني الطريقة الفنية التي يقتضيها الشعر العباسي وحده لضعف السياسة يومئذ وتوزع السلطان ، فكنت أحاول ما استطعت أن ألفت أجنة الشعر الحماسي الفني إلى أسباب التاريخ ودواعي السياسة ، حتى أوفيت على زمن المعتصم وسيف الدولة فأخضعت البحث للنص إذ أخرجت من دواوين البحري وأبي تمام والمتنبي وأبي فراس ، حوادث البطولة وأوصاف الحروب التي سكت التاريخ عن كثير منها أو تغافل .

ونظرت فيمن سبقني إلى هذا الموضوع فوجدت المتقدمين من العرب قد عالجوه لا بسبيل الفن وإنما فعلوا ذلك لغاية التاريخ وفي مطالب اللغة لتفسير كلماتها أو للإعراب ، في مناقشة وجوهه ، كما فعل أبو زكريا التبريزي في شرح حماسة أبي تمام وما صنعه أبو الفتح عثمان بن جني في إعرابه لشواهد الحماسة الطائية أو نقده اللغوي . وقد استطاع الخالديان وهما شاعران أديبان كانا في بلاط سيف الدولة أن يصنفا كتابهما الحماسة الخالدية المعروفة بالأسباه والنظائر وقد أوجدا فيه روحاً فنية بدائية للبحث والتفكير في بعض أبيات الحماسة .

وكان هؤلاء السابقون لمعالجة شعر الحماسة وأضرابهم من المؤلفين القدامى مولعين بجمع الشعر الحماسي جمعاً فحسب بعد أن يتخيروا أحسنه ، لا يعنون فيه بتصنيف أو تنسيق ينتمي إلى التاريخ أو إلى الفن ، وكان دأبهم أن يبرزوا مختاراتهم في مجموعات لا يربط بين أجزائها رابط سوى تشابه الموضوع .

وقد عجموا كلمة الحماسة على كل شعر وجدوا فيه قوة وروعة ، وجزالة وأسرّاً ، ولد

نرى أبا تمام الطائي يحشد في كتابيه « الحماسة الكبرى » و « كتاب الوحشيات » المعروف بالحماسة الصغرى ما راقه مما قيل في روائع الشعر منذ العصر الجاهلي إلى زمنه ، في أبواب يخرج فيها من الحماسة إلى الغزل والوصف والمديح وذم النساء وذكر الشيب وغير ذلك من أبواب الشعر وفنونه . وقد فعل ذلك أمثاله كالحالدين اللذين جاءا في أواسط القرن الرابع للهجرة .

وهم في عملهم هذا قد وسعوا معنى الحماسة وبسطوا من شمولها وآفاقها ، ولا أنسى ما سرده أبو عبيدة من نقائض جرير والفرزدق وما شرحه أبو تمام في نقائض جرير والأخطل ، وكل ذلك لا يخرج عما سلف ، وإنه ليزيد بذكره أيام العرب وروايتها رواية تاريخية بغير نقاش أو تحليل شأن الكثير من أدبائنا الأقدمين .

إذن لا أستطيع أن أجد في الأوائل من نهج مثل طريقي أو أجرى التأليف في شعر الحرب فيما نهجت وأجريت ، لأنني وقفت عند كلمة الحماسة بمعناها الحربى (Bravoure) أى الشجاعة والبأس والضرب والطعان . وأنشأت كتابي على الحماسة الحربية عند العرب في مظاهرها التاريخية والفنية منذ صدر الإسلام إلى أيام أبي فراس الحمداني . وأحببت في ذلك أن أعالج ضرباً من البحث ما عولج قبلي في ميسمه الفنى أو التاريخي ، متوصلاً بذلك إلى ذكر حقائق ونصوص صحيحة ودقائق تاريخية وفنية ، تلقى نوراً جديداً على الحروب العربية البيزنطية طوال القرنين التاسع والعاشر للميلاد . وقد كان لى في ذلك شرف البحث والسبق إليه في لغة العرب مستعيناً بالوثائق البيزنطية التى وضعت في العصرين العاشر والحادى عشر بأيدي المؤرخين البيزنطيين وفيهم سيد رينوس وليون الشماس ونقلها إلى العالم الحديث علماء التاريخ البيزنطى أمثال الأستاذين العظيمين « شلمبرجه » و « فاسيليف » ، وهذا ما يتطلبه مثل هذا الكتاب من ابتكار في الموضوع واستجلاء للنصوص والحقائق التى لم يسبق كشفها ونشرها ، وبذلك عرفت بما عند البيزنطيين عن العرب مما خلا منه تاريخنا .

أما المؤلفون المحدثون فلم أجد من عالج فيهم موضوعي . وقد وجدت الأستاذ الموصفى من أدباء النهضة الفاتنة بمصر قد صنف الحماسة الطائية تصنيفاً خاصاً وشرحها ، وأتم رواية أبياتها في كتابه « أسرار الحماسة » . وكان من حظ الأدب المعاصر أن يضع فيه الأستاذ

أحمد الشايب كتابه عن تاريخ الشعر السياسي في الأدب العربي إلى منتصف القرن الثاني للهجرة . فقد أخذ يجذور البحث حتى مضى إلى ثماره ، عارضاً كتابه كله في معرض السياسة ، مستدلاً بالشعر على الميول الحزبية والنزعات السياسية في عصور الأدب العربي ، رابطاً الشعر السياسي بأطوار الزمن وعوامل الحضارة . وقد أفدت من دراسته الجديدة وقدرت له إضاءة الطريق أمام الباحثين ، وكنت أود لو عالجت الشعر الحماسي فصنف فيه كما صنف في الشعر السياسي ، إذ ليس كل شعر سياسي شعراً حماسياً .

وكانت غايتي من هذا الموضوع حين رميت فيه إلى دراسة جامعية جديدة ، أن أدخل به زاوية « شاغرة » من زوايا أدبنا العربي . فإن تكن لي أمنية في هذا الجهد فلا أكثر من أن أسعد بها في بحث يحىء جديداً ، وفي هذا راحة الجاهد وغبطة الباحث ، ولقد قال أبو العباس النامي في « أبي الطيب » :

« كان بقي من الشعر زاوية دخلها أبو الطيب » . فهل لي أن أقول ، وقد اتسعت في عصرنا آفاق الثقافة وآماد البحث : ما أكثر الزوايا الشاغرة في أدبنا المعاصر تلقاء الدراسة الجامعية الحديثة . وذلك مما يحفزني لإعداد دراسات جديدة في الأدب الحماسي أرجو أن يكون هذا الكتاب سبيلاً إليها ، وما توفيقى إلا بالله .

زكى المحاسنى

القاهرة

تمهيد

الملاحم والقصص الحربى

(١) الملاحم فى آداب الأمم القديمة والحديثة :

قلت حين انتهيت من قراءة الإلياذة : « إن على حسام آشيل نقش هومير وس آداب أمته ». فكانت الملاحم فرسية وأدباً فى سجل واحد ، الأدب أسلوبها ونسيجها ، والحرب موضوعها ومعانيها . وكأنه بات لازماً على الأمم أن يتيح لها دهرها شاعراً من بينها ، يعرف تاريخها وأنسابها ويحقق قلبه بهواها فينظم من أجلها « أنشودة حربية » تبقى على الزمان ، يتداولها الناس جيلاً بعد جيل ، يحشد فيها كبريات الحوادث التى تعاورت على هذه الأمة ويحشر إليها سيرة حرب جاحمة سفك فيها الأبطال دماءهم ليدرؤوا بها عارهم ويكسبوا فخارهم ، ويكتبوا عدوهم ، ويحفظوا عليهم ديارهم وأموالهم .

ومن عجب أن يخلق الإنسان وحب الحرب غريزة فيه ، منذ كان على الأرض إلى اليوم ، فقد وجد قطرة الدم بلسماً لنزوة الغضب ، وكان من مقدور طباعه ، وقضاء خلقه أن ركبت فيه نوازعه التى تحمله على حب الحياة فكانت الأثرة فى نفسه داعية لظلمه أو تظلمه . فهو إما هاجم على غيره أو مهجوم عليه ، وكان لابد من الدفاع فنشب فى كلا الحالين خصام أو جلاد ، وحرب أو قتال ، فإذا أباد القوى الضعيف أو تصالح الخصمان ، بات الشر مستسراً إلى حين . ثم ثار أو انطوى فى حنايا النفوس .

وما عرف الدهر قوماً سكنوا الدنيا ، ولم يقتتلوا ما بينهم ، أو لم يحاربوا جيرانهم فكان إذن حتماً لازماً أن تنشأ حوادث حربية فى الأمم . لها صلة بماضيها وحاضرها ، تضم فى غصونها فطيع الولايات ودامى الذكريات ، وتلف فى ثناياها روائع المشاهد وخوارق الصور ، لبطولات رجالها ونساءها الذين على صفحات سلاحهم بياض مجدها ، وفى رواية شجاعتهم لهيب عزمها ، وتبرداد سيرتهم نشوة حياتها . وقد أجاب شعراء تلك الأقوام داعى شعورها فكانوا صدى لصيحات مجدهم الغابر ومآثرهم الحاضرة ، فأوحت إليهم أن ينظموا الملحمة ، التى سكبوا فيها نجيع أكبادهم وسطروا فيها كل خصال العظمة التى ورثتها أمتهم . فعمدوا إلى أفدح الخطوب التى أنزلوها بخصومهم وأروع المعارك التى دافعوا بها أعداءهم فى الحصار ، أو

لاحموهم بالحديد والنار ، فجعلوها موضوع الملاحم . ولم يدخر هؤلاء الشعراء وسعاً في تسجيل الحرب ومراحلها ووصف أبطالهم وصولاتهم ، وكيف أداروا غمار الواقعة حتى كتب لهم النصر ، ولأعدائهم الخذلان .

ولم يأل هؤلاء الشعراء جهداً في الإجابة بالحكمة الغالية وبالموعظة الباقية ، يجعلونها ديدناً لأحكام الحوادث وسفراً لإقالة العثرات ؛ ولم يدعوا سبيلاً في أن يمزجوا أخبار الحرب بأفانين الحب ، وخفقات القلوب في الخصاص بخفقاتها في الغرام ، فنسجوا من لواعج الشوق ولهفات البعاد قصصاً للمغرمين والمتدهنين خلدت بخلود الحوادث وكانت ترفيهاً للحسن من التأثير بالأحزان التي تتبعها سيرة الولايات وسبيلاً للإغراء بقراءة الملاحم .

وقد ألهم الفن أولئك الشعراء الأفذاذ الذين نظموا الملاحم أن يجعلوها أناشيد من صحيح الشعر في مختلف ألوان سحره ، فهو إما مقطعات من الشعر مسرودة أو أغان محبوكة آخذ بعضها برقاب بعض ، أو فصول إذا انتهى منها واحد كان ابتداء الآخر حتى يكون الختام . وكان من سرخلودها وأسباب نضرتها أن تصاغ شعراً لتعيش الدهر ، تتخذ منها النساء ترنيماً لتنويم الأطفال ، ويجعل منها الرجال أناشيد العزة والفخار ، ويجد فيها الحاربون مثاراً للحمية ، والأدباء شاحداً للقرائح . ويتنغم بالحنانها الشبان إذ يجدونها هدهدة في جوانحهم للهوى والشباب والأمل المنشود .

فكانت « الإلياذة والأوديسة » أعتق الملاحم المكتوبة . على أن الإلياذة « أم » والأوديسة بنتها . وكان من فضل الإلياذة على الإغريق أن يجعل هوميروس مجدها مكتوباً على الورق كما كتبته على الحجر .

فنظومة هوميروس بضعة عشر ألف بيت من الشعر ، متسلسلة الحوادث ، في موضوع واحد . هو ماجريات الحرب الطروادية . وذلك أن نفراً من اليونان جفت عليهم أخلاف الرزق في أرضهم وكانوا يسكنون « بيلوبونيز » وجزءاً من اليونان الوسطى . فترحوا قبل اثني عشر قرناً من الميلاد عن ديارهم هارين من جور الوطن . فكانت وجهتهم الشمال الشرقي من آسيا الوسطى . فترلوا على شعب قوى الشكيمة ، صعب المراس هو « الدرونيون » أو « الطرواديون »^(١) فحاصروه وراء أسوار مدينته العصماء « طروادة »^(٢) .

(١) كتاب « صفحات مختارة من الأدباء اليونان العظام » بالفرنسية تأليف مورييس كروازي الطبعة السابعة لأرمان كولان بباريس سنة ١٩٢٢ ص ١٠ .
(٢) إيليوس .

وكان ملكه البطل « بريام » ذا حفاظ على مجد قومه ، فآثر الصمود للغزاة الذين أجهدهم البلاء في الليل والنهار دون أن يستطيعوا دكاً للحصن أو فتحاً لأبوابه . وأخجلهم الارتداد بدون مغنم ، وما وراءهم إذا ارتدوا سوى الجوع والدمار .

لقد جعل « هوميروس » موضوع ملحمة هؤلاء الفاتحين ومن نزلوا بساحتهم . وأدار حوادث هذه الحرب بين أبطال أرقام من كلا الجانبين . فكان من الدهاة المناجيد في فريق اليونان : أغاممنون وآشيل وعوليس وديوميدي وأجاكس وهيلين .. وفي أبطال الطرواديين : بريام وولده هيكتور وباريس وهيكتور وأندروماك .

فاستحر الخصام بين الجانبين من رجال أجلاد يتناضحون بالنبال ويصطفقون بالعمد والسيوف ويتطاعنون بالأسنة ، ونساء يؤرثن الفتنه أو يحضضن على حماية الذمار . ووقع الخلاف بين الغزاة أنفسهم فكان من جملة أسبابه فتاة حسناء سباها آشيل فغالبه عليها أغاممنون وابتزها منه . فحرد الفتى آشيل عن الحرب ، وظل قابلاً تحت خيمته ، حتى كاد جيشه يندحر ويكتب على قومه الخيبة والعار . وكان له صديق من خلصائه الأصفاء جعل يسترضيه ليرجعه إلى الحرب فلم يرض ، وأثر حب الفتاة المغصوبة منه ، على حب الظفر لقومه ودرء العار عنهم ، ولما ينس منه صديقه أخذ لأمره قلبها وسلاحه فحمله ، وصاح في وجه الطرواديين فردهم إلى أسوارهم ولكنه قتل . وإذ بلغ مقتله آشيل توقد الحزن عليه في قلبه فأحرق حُبَّ الفتاة المسلوقة وطهر ذلك الغواد . فهب آشيل إلى سلاحه فلبسه وثار في وجه الأعداء ثورة مجنونة فردهم على أعقابهم وغيبهم السور إلا هيكتور ، فقد ظل خارجه وحده فانقض عليه آشيل . وكان بريام أبو هيكتور وأمه ينظران إليه من شرفات الحصن وقلباهما يخفقان من شدة الجزع عليه . فحمل آشيل على ألد خصومه وطعنه في مقتله . فسأله المطعون إن مات أن لا يمثل بجثته ، فأبى واستكبر وربط جثته إلى مركبته الظافرة ودار حول السور أشواطاً والنساء من قومه نوحات عليه من أعلى السور ، والرجال رماة بالنبل لتصمى آشيل الجبار . وكان الملك بريام وزوجه ساعتئذ في غيبوبة كالقضاء .

ها هنا ينشد « هوميروس » بمقتل هيكتور . النشيد الثاني والعشرين ، ويندفع على نهاية الإلياذة فيروي كيف اتخذ اليونان الخديعة وسيلة إلى فتح الحصون بجواد هيسكل هائل من خشب ، فقتلوا بريام واسترقوا زوجته ونهبوا البلد ثم أحرقوها وانكفروا إلى بلادهم ضالين ، تائهين في عرض البحار .

وكل هاتيك الحوادث لا يقوم بها الإنسان وحده وإنما تشركه فيها الآلهة والأعوان من أرباب وربات. وهذه الآلهة تتمثل حيناً بشراً سويّاً تحارب مع المحاربين وحيناً وحياً يدب في القلوب فينفخ فيها القوة أو أشباحاً تلوح بالتشجيع للمحاربين .

ولم يترك « هوميروس » قومه هدرّاً في عرض اليم ، وإنما نظم بعودتهم أناشيد «الأوديسة» فصور « آغاممنون » يؤوب مجروحاً، فيجد زوجته قد غدرت به في غيابته فعشقت صديقه . وعولس ضل السبيل في البحر فعطفت به الرياح وبصحبه على جزيرة وحش ضخم رائع على هيئة إنسان له عين واحدة في جبينه . فكاد يأكله وصحبه لولا خور إيسبرطة التي كانت معهم فأسكروه بها وفروا بمركب قيضه لهم الحظ وضاعوا في اليم سنين حتى عادوا إلى الوطن ، فوجد عولس زوجته مقيمة على العهد حافظة للعفاف ، فشكت إليه رجالاً أحاطوا بها يتربصون ، فقتلهم . ثم مات هو مقتولاً في معركة بيد ابنه الذي كان يجهل أنه أبوه . تلك أناشيد قيل إن « هوميروس » الضرير كان ينشدها قبل مولد المسيح بتسعة قرون^(١) يستجدي بها فيكسب خبز يومه على نحو ما كان يفعل شعراء الإغريق الأقدمون الذين جعلوا الشعر سبيلاً للتكسب . ثم حفظ بعد موته كثير من الشعراء المنشدين أشعاره فأنشدوها مثله . وشاعت في عرض البلاد اليونانية وطولها حتى كان عصر الكتابة فكتبت . وغلافيها اليونان فادعت سبع مدن أن « هوميروس » ولد فيها منها إزمير ورودرس وسلامين وأثينا^(٢) .

واختلف علماء الفرنجة في حقيقة الإلياذة ونسب أناشيدها وأنكر بعضهم وجود « هوميروس » وسفه هذا البعض علماء آخرون^(٣) فأقروا بوجوده وأناشيده . وعمت الإلياذة الآفاق فترجمت إلى كل اللغات الحية ونقلها شعراً إلى لغة الضاد المرحوم سليمان البستاني سنة ١٩٠٤ وكتب لها مقدمة أعدها فاتحة التجديد في أدبنا الحديث . وقال نفر إن هذه الأناشيد أسطورية لما فيها من ذكر الآلهة والأخيلة والهواتف واستحالة الإنسان هباء أو تجسد الخيال إنساناً . وقال آخرون بل هي حقائق نسج عليها الشاعر رداءً من الأساطير . فإن « هيرودوتس » المؤرخ الذي ولد بعد هوميروس بأربعمئة عام كان

(١) الإلياذة ترجمة البستاني ص ١٩ ، حسب التحقيق في قطع من الممر منقوش فيه أنساب يونانية عتيقة محفوظة في مكتبة أكسفورد .

(٢) رسالة عن الإلياذة بترجمة جوركان بالفرنسية طبعة الكلاسيك لهادي بياريس ص ٧ .

(٣) كروازي في كتابه السابق ص ٨ .

يستشهد بأشعاره على حوادث كثيرة من التاريخ وإن يكن هوميروس . « قد اخترع كثيراً من الحوادث الأخرى » فهو بهذا الاعتبار أول المؤرخين في قومه^(١) بشعر الحرب ، وخلدت الإلياذة على ترادف الأحقاب وكرور العصور غير عابئة بالنكبات التي أتت على الإغريق الأقدمين وتعاورت بالبلوى والقضاء على أعقابهم المحدثين . وبقيت منبعاً في ديار الغرب يرتوى به الأدب ومشحذة تنصقل بها العزائم حتى قال أحد قياصرة الفرنج المحدثين . دعوا الأساتذة يكثرُوا من تلقين شعر هوميروس فإن الأمة التي يرسخ في ذهنها وصف صبا الأمم على نحو ما يبسطه « هوميروس » لا يسارع إليها العجز والمهرم . وقال « أرنست رينان » : إذا مر على عهدنا ألف عام انقرضت جميع التأليف التي بين أيدينا ولم يبق إلا كتاب واحد هو ديوان هوميروس^(٢) .

وكيف لا يكتب لها بقاء الذكر وقد حوت إلى حوادث التاريخ روائع في وصف المعارك وخوارق البطولة ، وضمت فلسفة وحكمة وآداباً ومعارف جمّة في الطب والفلك وفن الحرب وفي شؤون السياسة وإدارة الحكومة .

أما الرومان فقد قلّدوا اليونان في ملاحمهم فأنشأ شاعرهم « فرجيل »^٣ ملحمة سماها « الإنيادة » فخرج بها عن طوق « هوميروس » . فهي لم تكن يوماً من الأيام في وجه التاريخ ، إنما نسجها بخياله وأوهامه ، فجعل حوادثها مغامرات البطل « إنياس » وهو الذي سميت باسمه الإنيادة ، وكان أكبر زعيم من حلفاء الطرواديين هب مع صحبه إلى قرطاجنة فملكها ثم جاء « إيتاليا » فتزوج بابنة ملكها ، وملك بعده فكان من صلبه « روموس » و « رومولوس » اللذان تروى الأساطير الإيطالية أنهما كانا يرتضعان من أطباء ذئبة حنت عليهما ثم شبا واختصما على الملك .

ثم إن الأمم الغربية التي ابتليت بالحرب وعرفت الفروسة وكان في طباعها حب الجلال مضت على سنن الإغريق في شعر الحرب فكان لها ملاحم كبرى . . فلدى الأمة الألمانية ملحمة « النيبيلونغانليد » أو قصيدة النيبيلونغين ، وهي منظومة حربية كتبت حوالي سنة ١٢٠٠ للميلاد وتشتمل على قسمين أصليين : سيفغريد وثأر كراميلد . وكلمة فحواها أن الفتي المغوار « سيفغريد » بعد أن ذاع صيته بالبطولة واشتهرت في القوم غزواته تعشق الفتاة

(١) إلياذة البستانى ص ٥٨ من المقدمة .

(٢) المقدمة السابقة ص ٢٤ .

الحسنة كراميلد أخت الملك « غونثير » ملك البورغوند ولما عرف هذا العاهل بهوى البطل أراد أن يجعل صداق أخته عليه قتل ملكة إيرلاندة فقال له : إن أنت أعنتني في حرب هذه الملكة الغاشمة فدككت عرشها أظفرتك بيغيتك وزوجتك أختي .

فجدد « سيفغريد » في حربه وقيض له العزم بعد أن أبلى البلاء الحسن أن يحيى بملكة إيرلاندة صاغرة إلى مولاه فنال هو بغيته واشترى ببطولته وظفهره عروسه الحسنة ، لكن ملكة « إيرلاندة » تأبت على الملك « غونثير » وآثرت أن تكون في سباياها بين عبيده على أن تكون له عروساً . فحازها غصباً حتى تطامنت ثم اطمأنت . وحين طلع جمالها على عرشها تضاعل أمامه جمال كل امرأة في القصر . فكان أسبق المليحات إلى حسدها « كراميلد » زوجة سيفغريد وعيرتها بأنها كانت حظوة زوجها يوم جاء بها أسيرة قبل أن تزف إلى الملك . فغضبت الملكة وسول لها كيد النساء أن تضمر للمنافسة شراً فأرسلت أحد رجالها فقتل من أجلها الفتى البريء « سيفغريد » .

فحلقت زوجته « كراميلد » التي كان مهرها غالباً أن تثار لزوجها القتل المغدور وأن تسلط كيدها هي على عدوتها الظلوم . . . وكان الملك « أتيل » ملك الهون راغباً بها يتمنى لو كانت له زوجاً فأرسلت إليه من دعاه إلى خطبتها فرضيت به . وبعد حين استطاعت بما أوتيت من سحر ودهاء أن تحمل زوجها على أن يدعو إليه الملك « غونثير » وزوجته وحاشيته ليقتلهم جميعاً إبان المأدبة . وحين حلوا بساحتها وجلسوا إلى مائدتها انقض عليهم الجنود من كل صوب فأخذوهم بالسيوف وقتلوهم جميعاً . وقطعت كراميلد بيدها عنق الذي قتل زوجها .

تلك قصة ملحمة دارت حوادثها في القرن السادس الميلادي وهي سيرة ناس كانوا يعيشون على ضفاف الرين ، فباتت من ذلك اليوم ملحمة الأمة الجرمانية في قديمها وحديثها ، وذاع لها بين ظهرانيها صيت عظيم . وقد ترجمت إلى أكثر اللغات الحية ونقلت إلى اللغة الفرنسية مرتين واحدة سنة ١٩٠٩ وثانية سنة ١٩٢٣^(١) .

وذاع بين الفرنسيين منذ سنة ٧٧٨ للميلاد ملحمتهم التي يحذون على مجدها ويحنون إلى عهدها ، وهي أنشودة رولان التي يقول ناظمها : إنه بينما كان الإمبراطور « شارلمان » عائداً من مغزاة في شمال إسبانيا في فتح خائب فأب وعسكره محفوفين بالخسارة فجعل يجتاز

بفلول جنوده جبال « البيرينيه » فهبط على مؤخرة جيشه نزلاء الوادى من سلبه العابرين وكانوا يسمون « رونسوفو » فهبوا قافلته وذبحوا عسكره ذبح النعاج .

فتغنى الفرنسيون منذ ذلك العهد بفروسة هؤلاء المحاربين ، وجعلوا هذه الموقعة شاحذة لقواهم فكانت أناشيدها الأولى وليدة البلاد التى عاش فيها رولان حفيد شارلمان فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد على مقاطعتى « مين » و « أنجو » فسميت هذه الملحمة باسمه ونمت أبياتها وتضاعفت مقطوعاتها حتى ضمت مجد فرنسة فى أوائل العصور فى حربها وقتالها . وبهذه الأنشودة غدا شارلمان ورولان أعظم جبابرة الحرب فى القصص الحربى الفرنسى .

ولم تلبث هذه الأنشودة الحماسية أن عبرت إلى إيطاليا فكان بحارة البندقية يترنمون بألحانها ويرددون بالأنغام مقاطيعها . ولقد كانت موضوعاً ووحياً لكثير من المؤلفين المسرحيين ، فوضعوا روايات تمثيلية جسموا فيها للنظارة بطولة الكارولنجيين ، وعظمتهم الحربية فى عهد البداوة الفرنسية^(١) . . .

وعطفت الأمة الإيطالية على مهزلة « دانتي » التى نظمها عن نفسه بأنه شهد الجنة والنار وكان فرجيل قائده إليهما فى مركب يعوم على نهر الجحيم فأطل منه على شقوة الإنسان الذى يتلظى . وخرج من سياحته الموهومة وقد هاله ما رأى من مظالم الوجود .

وحدثت الأمة الإنكليزية على شاعرها « جون ملتون » فجعلت من قصيدته الكبرى التى سماها الفردوس المفقود ملحمة لها ، تجد فى أبياتها صدى مجدها الأدبى ، منسجماً عليه ثوب دينى لأن « ملتون » كان فى ملحمة يبكى ضيعة الفردوس من يد الإنسان الفانى ، وهبوطه إلى الأرض بعد أن أغواه الشيطان .

والصحيح أن ملتون إنما بكى فردوسه هو المفقود ، فقد أصابه العمى وماتت زوجته الأولى فأخذ ينظم هذه الملحمة من دم قلبه ويبكى حظ الإنسان وحظه معاً على الأرض الفانية ، فأكسبته هذه القصيدة الرائعة بعد موته ذكراً لا يبلى . ولقد أعطى أمته ملحمة الفردوس المفقود ، فأعطته فردوس الخلود .

* * *

(١) الموسوعة الفرنسية الكبرى لبرتلو وجماعته الجزء ٢٨ نقلا عن كتابى غوييه « أنشودة رولان وكتاب

الملاحم الفرنسية » .

وتاريخ الأدب الفرنسى لدوميك طبع بباريس سنة ١٩١١ مكتبة دولا بلان ص ١٣ .

وما كان الشرقيون أقل حفاوة بشعر الحرب من الغربيين ولا دونهم في الفروسية والبطولة وسرد القصص عن الأهوال ، فإن عندهم ملاحم كبرى نظموها مزيجاً من الحقيقة والخيال ومن الوهم والواقع وجعلوا تردد فصولها تذكيراً بالمجد ، وتأريثاً للنار وحفزاً للعزيمة ، فكان لليابان والصين منظومات حربية . وذاعت منظومة « الرامينا » التي وضعها الشاعر الهندي « فالميكي » قبل المسيح بأربعة عصور . وتكاد تكون في عمرها وعتقها تالية للإلياذة . وهي قصة مزيجها الأسطورة تبلغ ثمانية وأربعين ألف بيت من الشعر . نظم معظمها شاعر واحد فجعل بطلها « راما » ابن ملك أوده الذي رباه أبوه بالنعمة وحسن الخلق لكنه حين اشتد ساعده وفاض شبابه تعشق أم أخيه « بهراتا » فغضب عليه أبوه ، ونفاه من البلاد فهام على وجهه أربعة عشر عاماً في غابات « دانداكا » ثم عاد ليتولى الملك . وكان للأمير راما زوجة حسناء اسمها سيتا فأحبها ملك الجن في جزيرة سيلان واسمه « رافانا » فاخطفها فهب « راما » في طلبها مستعيناً بملك القرد حتى قتل ملك الجن واستخلص زوجته وترك على عرش الجن أخا الملك الذي كان له عوناً على قتل أخيه ونصييراً .

كذلك عاد راما وزوجه إلى بلادهما في ظفر ثم عرج راما إلى السماء فغاب فيها . وهذه الملحمة تشير في كثير من مواقفها إلى تاريخ الهند العتيقة . أهم ما تذكره غزوة إرياس لجنوب الهند . وفي هذه الملحمة مشابهة بالإلياذة في أساطيرها ، فكما كانت الآلهة تمد « آغامنون » وجمعه بالأسلحة فكذلك كانت الآلهة تمد بسلاحها الفتى « راما » وإن في حلقه مع الجن والقرد لما يجعلها في أساطيرها وخرافتها مشبهة لبعض حوادث الإلياذة في صدد الجن والمسوخ .

وللهنود ملحمة ثانية هي قصيدة « المهابارته » وتقع في نحو المائة ألف بيت . فحواها تنافس أبناء العم على الملك وانقسامهم شطرين في خصام يؤدي إلى فناء أحدهما ثم يخلف الآخر بعده ويدركه الفناء فيتبعه .

* * *

وللغريانيين ما يشبه الملاحم . لكنها منسوجة بالوهم والحديعة كشأنهم في مقومات حياتهم فيها أعمال الغانية « جوديت » التي جرت رأس « هولوفيرن » الروماني إذ كان محاصراً لبيت المقدس فنسلت بالمكيدة إليه ليلا وسقته خمرًا ومكرًا . فهب جمعه في الصباح ، وقد وجدوه مقتولا ففرقوا ووقع بينهم الخلدان فانصرفوا عن

أسوار المدينة . ونظم شعراء اليهود هذه الحوادث في شعر يردد عندهم بعد التوراة . وقد حوت التوراة جانباً من ملاحمهم ، « كسفر أيوب » الذى يذهب بعض الباحثين إلى أن أصله عربى . وهو يحتوى على ملحمة شعرية عربية في وقائعها وأخبارها ، وأن التوراة نقلت هذه الملحمة إلى العبرية . فإذا ثبت ذلك كان العرب قد سبقوا اليونان والرومان والهند بأعصر إلى وضع الملحمة المثلثى التى تفتقدها اليوم فى أدبنا فلا نجد لها فى قديمه أو حديثه .

ولكن هذا رأى ما يزال مضعوفاً لم تنهض عليه أدلة علمية إلى اليوم . ولم يعد أن يكون ظناً من الظنون أو افتراضاً .

وإن فى مباكى التوراة وتناوحها لكثيراً من أقوال تلك الملاحم . وكفى بالنبي سليمان وأبيه داود أن يضيفا عليها بالشعر « سفر المزامير » و « أنشودة الأناشيد » .

« » »

أما الفرس فأجلد بهم أن يكون من حقهم حمل لواء الملحمة فى الآداب الشرقية ، فقد قيض الزمن لهم فى العصر الرابع للهجرة شاعرهم الأعظم « أبا القاسم الفردوسى » فنظم الشاهنامة التى كانت سفر الأمة الفارسية منذ ذلك العهد ، جمعت تاريخ أكاسرتها فذكرت أسرهم ووصفت فواح الحوادث فى عهودهم ، وكانت بذلك جارية على منهج منفرد عن سائر الملاحم التى سبقتها فهى تروى أحداث ما يقارب أربعة آلاف عام من عمر الفرس ، حكم فيها أربع دول حتى عهد الدولة الساسانية .

وهذه المنظومة هى التى بنت فى التاريخ الفارسى مجد الأمة بعد أن حطمه الإسكندر المقدونى بفتحته لفراس — فأحييت مجد العجم وأقامت الذكرى لشعائر الدين الزاردشتى . وقد أدخل مؤلفها الفردوسى شخصه فى ثناياها — فكان بذلك منفرداً أيضاً — فهو يذكر نفسه فى بعض فصولها عند الفاتحة أو الخاتمة كأن يذكر من روى القصة له أو ينوه بفضله فى الشعر وبراعته فى نظم هذه الحوادث أو يتشكى ضعف الجسم وهجمة الشيخوخة أو يمدح السلطان « محمود بن سبكتكين » الذى صنف من أجله هذه المنظومة ^(١) .

وفى الشاهنامة يظهر الفردوسى بطولات الفارسيين فى الحرب ومكانتهم فى السلم وأعظم الأبطال الذين دارت عليهم حوادث هذه الملحمة « كيخسرو » و « بهرام كور » الملك الساسانى و « بهرام جوبين » القائد و « كيو » و « رستم » و « الإسفنديار » جبار الأبطال .

ولم يستطع الفردوسي أن يبرئ الشاهنامة من النعرة الفارسية التي كانت شعور كل شعبه، معزراً بذلك مذهب الشعوبيين الذين لا يرون من فضل للعرب. وهاج أحقاد الموروثة فتح المسلمين لبلاده فرى العرب بسهم من سهام الشاهنامة فقال بلسان رستم^(١) «وقد بلغ الأمر بالعرب من شرب لبن الإبل وأكل الضباب حتى طمح إلى تاج الكيانيين فأف لك يا فلک السماء» .

وقد عرف العرب الشاهنامة بعد عصر الفردوسي ، فوصفها ابن الأثير بأنها شعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو عندهم قرآنهم . وقد ترجمها إلى العربية فحاد بها عن الشعر « قوام الدين البندارى » زمن الملك العادل أبي بكر بن أيوب في أوائل القرن السابع الهجرى وقد تصرف في ترجمتها فزاد بها ونقص منها واقتنى بمؤلفها في أثره شخصه فأدخل نفسه هو في ذكرها . وكان عنده الملك العادل أجدر بأن يذكر من السلطان محمود الذى نظمت من أجله ، فامتدحه بقصيدة مطولة ذكرها في متن الملحمة ، ثم عاد إلى إتمام فصولها .

٢ - الشعر الحربى والشعر القصصى :

لم يفرق نقاد الأدب العربى بين الملاحم والشعر القصصى ، بل مزجوا بينهما في باب واحد وحسبوا كلا منهما مثل الآخر . على أن الملحمة كما عرفها نقاد الغرب^(٢) : قصة شعرية لأعمال بطولة خارقة .

وقد تضم الشعر القصصى ، ولكن ليس كل شعر قصصى ملحمة . ففى أدبنا وآداب الأمم شعر قصصى كثير يكون فيه رواية حب ، أو سيرة زورة ، كما فعل امرؤ القيس فى كثير من شعره . وكما جرى فى سرد أخبار النساء عمر بن أبى ربيعة . وليس شعرها هذا من لحمة الملاحم ولا يمت إليها بأى سبب فإذا جاز أن نسمى كل ملحمة شعراً قصصياً فلا يجوز أن نسمى كل شعر قصصى ملحمة .

والشعر الحربى قديم فى الدهر . فقد كان يسمى الشاعر الحربى فى الأدب الفرنسى فى القرون الوسطى « مغنياً أو منشداً »^(٣) يمضى من مدينة إلى مدينة على غرار ما كان يفعل الشعراء المسمون « التروفير » فى القرون الوسطى فى أوروبا . فكان ينزل هذا الشاعر

(١) المصدر السابق .

(٢) كتاب الأدب الفرنسى تأليف جول بيديه طبعة لاروس ص ٢٨٥ .

(٣) Aède ou chanteur

ضيفاً على الكبراء والأمراء فيكون زينة مجالسهم وموائدهم ، كذلك فعل الشاعر اليوناني القديم «ديمودوكوس» عند «عولس» ملك جزر «إيتاكة» . كان صاحب الإلياذة هوميروس نفسه من هؤلاء الشعراء المرتزقين ينشد مقاطع قصائده وحده على مشهد من عامة الناس ليعجود عليه السامعون . ولما مات خلف شعره بين أيدي الشعراء المكتسبين من أمثاله فجعلوه مورداً لرزقهم وطفقوا ينشدونه الناس على غرار صاحبه ، ويذهبون به في البلاد فيكونون به زينة الخافل ، فسماهم الناس الشعراء الهوميريين . وظل حبل هؤلاء الشعراء موصولاً إلى عصر أفلاطون . وكان لهم لباس خاص بألوان مختلفات يرتدونه عند الإنشاد وعلى رؤوسهم أكاليل من الذهب . وإلى جانب الشعر الحربي نشأ في أدب الإنسان القصص الحربي وهو روايات وقصص أكثرها النثر وأقلها الشعر .

٣ - الملحة في الأدب العربي :

حين نقل العرب فلسفة يونان كانوا في فتنة من عقولهم وخصوصة من جدالهم ففترغوا لمنطق أرسطو وقياس أفلاطون ونقد فيثاغور . وغلوا في أحكام مزجوا فيها الإلحاد بالدين والسياسة بالتعصب ، حتى نزلت المحنة من جراء ذلك بعلماء أعلام فجلسوا على النطع وأصلت على أعناقهم السيوف بعد أن تربعوا للمناظرة على بسط الحرير وبأيديهم الأقلام لا تفر عن الكتابة . وكان المأمون يؤرث حومة جدالهم فيخلع عمامته ويضعها جانباً . . ثم يقبل على معشره من الفقهاء ويقول :

— إنما بعثت إليكم للمناظرة . . .

فأفاد الإسلام من فلسفة الإغريق حتى غدت له فلسفة ، لها أعلامها وأساطينها ، كابن سينا وابن رشد والفارابي ، ممن كانت قضاياهم العقلية مبنية على قواعد الحكمة اليونانية وكان لها من الفضل أن شاركت في بعث الفلسفة الحديثة بأوروبا .

ورأى المسلمون الفلاسفة فاشتغل بها العرب والعجم وطال فيما بينهم المناهدة بالاستقراء والأدلة حتى غدت شغلهم الشاغل في كل حفل أو كتاب وطغى على بعضهم فساد العقائد فزوروا بهارجها بزخارف أقوالهم ، ونشأ فيهم «إخوان الصفاء» فشغلت مجالسهم الخاصة أبواب القوم وأحاط الإخوان علمهم بنطاق من الأسرار فكان الحس والمحسوس والعقل والمعقول ديدن تفكيرهم ونقاشهم . وقد ظلت هذه المذاهب الفلسفية والآراء المنطقية تتضاعف بين المسلمين بعضها ببعض كأعداد الحساب حتى غدت لا تعرف من هول خطرها وغموضها ،

وقد أحصى أبو منصور البغدادي في كتابه « الفرق بين الفرق » والشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » وابن حزم في « الفصل في الملل والأهواء » ما لم يكن لأمة على الأرض مثله من المذاهب في الفكر والاعتقاد .

فداع في الثقافة العربية منذ استهلال العصر العباسي أسماء أولئك الفلاسفة اليونان الأقدمين . وظل اسم هوميروس بينهم مستسراً إلا عند نفر من حذاق اليونانية أو ممن عرف بآدابها أو ذكر فنونها . وبلاستدلال بأقوال ابن أنى أصبيغة وابن خلدون^(١) يعلم بأن هوميروس وإلياذته كانا معروفين لدى العرب بعد نهضة الترجمة في المئة الثانية للهجرة . وقد قال الشهرستاني صاحب « الملل والنحل »^(٢) : « أوميروس » الشاعر وهو من القدماء الكبار ، الذي يجريه أفلاطون وأرسطاطيس في أعلى المراتب ويستدل بشعره لما كان يجمع فيه من إتقان المعرفة ومتانة الحكمة وجودة الرأي وجزالة اللفظ ثم ترجم له مقطعات من أشعاره بجمل مقودة الكلم على المواعظ والحكم مثل قوله :

« إن الأدب للإنسان دخر لا يسلب . إن كنت ميتاً فلا تحقر عداوة من لا يموت . إن الكلام في غير وقته يفسد العمر كله » . وقال الشهرستاني في آخر هذه الجمل وهي كثيرة وفي موضوعات أشتات من الاجتماع والأخلاق والأدب : « وإن وجود الشعر في أمة اليونان كان قبل الفلسفة وإنما أبدعه أوميروس »^(٣) .

وقد ترجم إلياذة إلى السريانية بأيام المهدي أحد المعروفين في عهده ، وهو تيوفيل الرهاوي . غير أن نقل إلياذة إلى العربية لم يكن لدى المسلمين يومئذ أمراً هيناً ، لما فيها من ذكر الأوثان التي جاء الإسلام بتحطيمها . كما تجههم الزميتون للنقش والتصوير . وكان جل الأدب اليوناني ممزوجاً بالوثنية فحرمت العربية يومئذ من درة الأدب الإغريقي القديم وديوان أخباره ، فلم يكن فيها قبس من هذا الشعر الغزير في وصف الحروب وما إليها من أخبار الأبطال ، كما خلا أدبنا القديم من القصص التمثيلي ، وكان شائعاً عند اليونان على يد « سوفوكل » ومثاله ، وكان شأنه في الوثنية شأن الإلياذة .

(١) المقدمة طبع بيروت ص ٥٢١ . . . وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة الطبعة الأولى الذهبية

سنة ١٨٨٢ ج ١ ص ١٨٤ .

(٢) الملل والنحل بهامش كتاب الفصل في الملل والأهواء لابن حزم الطبعة الأدبية بمصر سنة ١٣٢٠ هـ

الجزء الثالث ص ١٩ .

(٣) وذكر القفطي في كتابه « تاريخ الحكماء » و « أخبار الحكماء » أن حنين بن إسحق كان

ينشد أشعاراً بالرومية لأوميروس رئيس شعراء الروم . أخبار الحكماء طبع السعادة بمصر ص ١١٩ . تاريخ

الحكماء طبع أوربا ص ٦٧ .

ولو نقل العرب هاتيك الأعلاق إلى آدابهم وعنوا بها عنايتهم بالفلسفة لكان في أدبهم من ثمار القرائح ما أغناهم عن التشهى إلى أمثالها عند غيرهم . على أنى لأرى أدبهم خالياً من الملاحم ، ولا ينبغي أن نعتهم ، فنطلب إليهم أن يكون لديهم ملحمة كالملاحمة اليونانية في أناشيدها وموضوعها وحديثها . إذ ليس شرطاً في كل ملحمة أن تحتذى الإلياذة أو سواها من ملاحم الأمم العتيقة أو الحديثة .

وعندى أن كل شعر طال أو قصر ، وقد وصفت فيه المعارك ، وسردت فيه أخبار البطولة ورويت فيه ملاحمات الجلال ، هو من شعر الملاحم .

غير أن الذين يجعلون القصص الشعرى ملحمة ، يجدون في الأدب العربى ما لا ينقضى جماله من هذا القصص الكثير . ولكن علام لم يعتمد العرب الأوائل واللاحقون إلى نظم ملحمة كبرى تجيء في آلاف الأبيات كالإلياذة والشاهنامة فتجمع تاريخ الأمة العربية وتخلد مجدها الكبير في حروبها وسلمها ، وتكون قدوة الحماسة ومناط العزيمة . على حين نجد تاريخهم مملوءاً بالغير والأهوال ، ويكاد يكتب الكاتب وقائعهم بمداد من الدم ، فلقد عرفوا القتال والنزال من سحيق الجاهلية حتى عصورهم الأخيرة .

فمثل هذا التاريخ الحافل ينادى شاعر الأمة العربية لمنظومتها الكبرى ، ويحمل الأدباء على تسجيله وتصويره ليكون للمعاصرين ولمن يأتى بعدهم كتاب فخر ، وسفر مجد ، يتلوه الأبناء بعد الآباء .

أما العرب في جاهليتهم فلم يحاربوا قوماً خارجاً عنهم ، فما عرف التاريخ أنهم جهزوا جيشاً لمحاربة فارس والروم خارج الجزيرة إلا بعد الإسلام . وإن يكن في حروب المناذرة والغساسنة ما لا يشفع لهم بالتقصير في نظم الملاحم الفنية ، وإنما كانت حروب الجاهلية بين قبائلها فحسب ، ولو كان أمر الملاحم الفنية لديهم مألوفاً ؛ لورثنا عنهم كثيراً منها . ولعل حبهم للقافية الواحدة يجرى عليها روى القصيدة ، زهدهم في الملحمة إذ كانت تقتضى آلاف الأبيات ، ومن لم يروى واحد يجرى به الكلام ألفاً في لغة العرب أو في أية لغة في الأرض ، على أن الشعراء الجاهليين لم يحاولوا إلا في القليل زيادة أبيات المطولات على المئة بيت .

وقد استغرب ابن الأثير في خاتمة المثل السائر « أن لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها ، وتشعب فنونها وأغراضها ، منظومة كالشاهنامة ، على أن لغة العجم بالنسبة إليها

كقطرة في بحرهما » وكان ابن الأثير يرى أن « العجم يفضلون العرب في الإسهاب » .

ويبدو لي ذلك أن ميل العرب إلى الإيجاز ، وغلوهم في اختصار الكلم ، والتزامهم مقاطع الجمل الضيقة التي تحمل غزير المعاني ، قد يكون السبب الذي صرفهم عن نظم الملاحم وقصر منظوماتهم - مهما زادت - على تلك المطولات التي ألفوها .

ولاني وإن قلت إن الأدب العربي قد حرم الملحمة المشبهة بملاحم الأمم المشهورة التي أسماها الملحمة المثلى فإنني أعد الشعر الجاهلي الذي قاله أصحابه في أيام العَرَب « ملحمة كبرى » ولكنها مقطعة الأوصال قد اشترك في وضعها نفر لا يحصى عددهم من الشعراء ، وما أجد على من ضير في هذا الرأي فإن ملحمة هوميروس ليست له كلها ، وقد أنكر النقاد « وولف » وجوده ^(١) وزعم غير « وولف » نفر من العلماء النقادين ، أن اسم هوميروس عنوان فحسب للطائفة الشعرية التي جمعت من أفواه الأقدمين دون معرفة قائلها ، وسميت بالإلياذة ^(٢) وإن في المعلقات الجاهلية العشر ، وفي سائر ما نظم الشعراء الجاهليون ، لما يتنخل منه ملحمة عربية كبرى قيلت في الجاهلية . لأن خواطر أصحابها الشعراء متقاربة ، بل تكاد تكون متحاذية ومتشابهة . وقد يضؤل الشبه بين كثير من خواطر الشعراء الجاهليين فتبدو صورهم الفنية متماثلة كل التماثل . فلدى طرفة بن العبد مقطوعات في معان جاء بمثلها امرؤ القيس كما أن لديه أبياتا هي ذاتها عند ضريعه تتغير قوافيها فحسب ، وإن في وحدة معابشهم وطبيعة أرضهم المتشابهة ، وانسباط آفاق الرمل بين أعينهم وتظللهم تحت الخيام ، وعيشهم الراتب على المدر والحجر وفي الوبر ، لما طبعهم جميعاً على غرار واحد ، فألف بين منالات معانيهم وخواطرهم ، وضروب تصورههم مع اختلاف قائل في أساليبهم . على أن البصير في أساليب المعلقات العشر ، واجد فيها شبيهاً في النسج والمعنى ، مما يساعد على الأخذ بهذه النظرية التي أقول فيها باحتمال التأليف للمحمة عربية جاهلية ، تؤخذ من الشعر الجاهلي فتتخبط من مقاطع وقصائد ، لكل شاعر ، تمثل فروسية الجاهلية ، وتذكر حروبها وأيامها بالتسلسل والترتيب ، وتسجل ذكر أبطالها وبطولاتهم الفائقة التي ما كان الأدب اليوناني القديم ليزهم فيها عند ذكر أبطاله وتصوير غاراتهم وخوارق بطولاتهم وسداد آرائهم في الحرب وطرائق خدعتهم في الهجمات والمبارزة والحصار والمناجزة ، فالعرب في جاهليتهم وإسلامهم مواقف قل مثيلها عند الأمم المحاربة القديمة ، وفي تشمير الجاهليين للحرب ليل

(١) نخبة من إلياذة هوميروس ترجمة جوركان ص ٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٤ .

نهار ، وغاراتهم الماهجة التي ما حفلوا معها الموت ، ما لا يقل عن مثيله عند غيرهم من الأمم التي عاصرتهم ، أو تقدمتهم في الزمن .

وإذا كانت ملحمة اليونان تقوم على عقل عولس ، ودهاء آغاممنون وبطولة آشيل ، فإن للعرب الأقدمين عنرة الفوارس بن شداد العبسي الذي ملأ دنيا الحروب الجاهلية ، وشغل الناس إلى اليوم بقصة أهواله وضروب شجاعته . وعند العرب جساس بن مرة وكنيب ابن ربيعة والحارث بن ظالم ، وفي آل عبس وذبيان وبكر بن وائل وتغلب وغيرهم من بطون العرب وقبيلها لما يكاثرون به الأمم .

ولن يكون للعرب ملحمة واحدة مقصورة على الحروب الجاهلية ، فإن تاريخهم الحربي الذي نبه إليهم الأمم المجاورة وأخافها منهم وبسط سلطانهم على القلوب ، قد بدأ منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان للعرب قصة حرب تبدأ من غزوات الرسول ، ثم تنحدر إلى حروب الفتوح في ديار فارس ، وأرض الروم وسائر الأقطار التي بلغ إليها العرب بسيفهم حتى تبلغ شتات شملهم وتوزع سلطانهم في أواخر العصور .

ولو أننا توخينا القصد في هذا الرأي واتمهل في شموله لوجدنا بين أيدينا قصائد عربية لا يذهب بها شيء عن أن تكون جزءاً مقطوعاً من ملحمة العرب يماثل مثله من أجزاء الملاحم التي لدى غيرهم ، حوى وصف المعارك ، وتزجية العسكر وفورة العدو ، واستجاشة العدة ، تلمع أسنة فرسانه على صهوات جياده . ويتألب عليه العدو وجمعه ، ويدمر عليه بالشدة والبأس ، فيكون الالتحام ويكون الكر والفر ، والإقبال والإدبار ، والرمي بالنبل والحجر والطعن بالسيف والرمح والخطب بالأعمدة . ثم ينكشف القتال عن قهر أو ظفر ويندفع الغالبون فائزين بالغنيمة والفخر ، وينطوى الخاسرون على تضميد الجراح وإعداد النار .

ولا بد للأدب العربي من يوم ينهض فيه أقوامه إلى جمع ما تشتت من قصائد الشعراء ، في وصف الحروب العربية والمعارك ، وما لا بس ذلك من وشائج الحياة والموت في السلم والحرب فتؤلف الملحمة الكبرى بعون ذلك الشعر ، أو يصف شاعرها الموعود في ملحمة بطولة العرب في الجاهلية وجهادهم في الإسلام وما خالج حياتهم من شؤون وشجون وحب وبغضاء وكيد وأخبار وسير ودولات وغيرها تبين فيها نخوات الجاهلية وعبقريّة الحماسة التي خنفت بها قلوب العرب والسماحة الإسلامية ، ونشدان العدل ورحمة الفاتح ، وكيف مشى سلطان

العرب إلى آفاق المشرق وآماد المغرب ، حتى لاحت على الصين أعلامهم وصفقت صفاة الأندلس سنابك خيولهم ، وعبروا إلى فرنسة فركزوا رماحهم في پواتيه ، وقد انحدروا نحو الجنوب بجيوشهم حيث تلالأت سمرة وجوهم تحت الشمس الإفريقية .

ولا بأس على ناظم ملحمتهم بعد ذلك بالبكاء شفاء للغليل ، فلقد علم امرؤ القيس الشعراء البكاء في مثل هذا الشقاء . وكيف لا يبكي على مجد للعرب قد دثر ، وعهود لهم بادت وضاعت بين سماع الزمان وبصره . وانقضوا وكأنهم ما كانوا ثم أصار الدهر أخلافهم في أعقاب الأمم فحملوا عبء المظلمة ودهمهم الفاتحون .

وقد استيقظوا في يومهم هذا وفي أيديهم حفنات من تراب ، هي بقية الصرح الممرد الذي بناه على الأرض الجدد ، وبناه لهم الله ، حين سمك السماء ليكون أعز وأطول .

ولكى يكون بهذا البكاء وقد لعزمهم الحامد ، وتأريث لنارهم الخابية فيستعيدوا مجدهم الآفل .، ويكشفوا عن بنائهم الدارس ، فيقيموه حديثاً ويلحقوا قافلة المجد في الأمم التي تسير اليوم قدماً ، باذلة في سبيله العقل والروح ، والسلاح والنشب ، والعلوم والفنون .

وكان الأمل أن ينظم الملحمة العربية شعراء الأندلس ، الذين أظلمت آفاق تمزجهم بالفرنجة فيكون منهم شاعر ينظم الملحمة الأندلسية ، لتاريخ خطوه بدمهم وبلاد فتحوها . البحر من ورائهم والعدو من أمامهم . وقد خلفوا في المشرق أجساد أهليهم الأمويين صريعة مجزوة الرؤوس . أدبرت عليها صنوف المثلة . فكانوا أشجع في كل ذلك من اليونان الذين حاصروا طروادة وأحسن عقبي .

ولكن أديبهم الأخباري أحمد بن عبد ربه قد نهض ببعض هذا الشرف ، وكان يود أن يكون سهمه فيه أبعد وأسد ، فنظر إلى أعظم ملوكهم ، أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد أول من تسمى بالخليفة ، وتطلع إلى غزواته فوجد أنه ^(١) « لم يكن مثل هذه الغزاة للملك من الملوك في الجاهلية والإسلام » فنظم أرجوزة في أربعمئة وخمسين بيتاً ذكر فيها حروبه مع الإسبان وفتوحه وأيامه ووقائع مع بني قومه حسب السنين من سنة إحدى وثلاثمئة حين اختلفوا ودب بينهم الشقاق على الولاية ، وعصى منهم بعض الأعوان وشق عصا الطاعة بعض العمال .

وإني لأعدها ملحمة صغرى على الرغم من سهولة أسلوبها ولين شعرها وفهاة بحرهما

ولو أن أديب الأندلس ابن عبد ربه أطال نفس شعره فبدأ قصيدته منذ عبد الرحمن الداخل الفاتح الثاني للأندلس بلجأت ملحمة الصغيرة أوفى بالغرض .

٤ - العرب أمة حرب :

لم تخل أمة من حرب ، وهى إما أن تكون لها مع الجار أو مع من فى الدار . ولقد ابتلى الدهر الشعوب وفق شرعته التى سنّها الطبيعة ، فكتب عليهم أن يقتتلوا ما بينهم حتى إذا كانت الغلبة لفريق على فريق ، هب من ملك الزمام فخرج بالحرب إلى ما كان فى جواره .

كذلك ضرب لنا التاريخ الأمثال فلم نجد أمة أصبحت غالبية أو مغلوبة إلا كانت الحرب شغلها الشاغل ، فلقد كان الإسبارطيون فى سجال حرب مع الأثينيين ، فى أيامهم وأعوامهم وهم أبناء جلدة واحدة ولغة واحدة .

وقامت الحرب الأمريكية بين أهل الشمال وأهل الجنوب حيناً من الدهر . شاب لهولها الأطفال ، وشغلت الأمة الفرنسية حروبها الأهلية فكانت ثورتها الكبرى أفدح مذابح الإنسان لأخيه الإنسان ، فى دار واحدة وحرم واحد . وكذلك احتدمت الحرب الأهلية فى رحاب الصين وبلاد الإسبان .

وكان لليونان قتال مع جيرانها والبعداء عنها وكان مثل ذلك للأمريكيين والفرنسيين وأضرابهم من الأمم مما يعيا بذكره المؤرخون .

فلا تريب إذن على العرب القدامى أن يقتتلوا ما بينهم أحر قتال . وأن تكون الحرب فى دارهم سجالاتهم الأمة الوحيدة التى عاشت زمناً مديداً مشغلة بنفسها غنية عن جيرانها . وكانت فى بهرة الحلقة من أعم متحضرة .

فى مترامى شمالها بلاد الفرس وديار الروم وفى شرقها الهند وعلى غربها أرض النيل . وكان مالها الأنعام تسومها المرعى فى واد غير ذى زرع ، وسهل يخالط السراب فيه الكلاً . فإذا جف ضرع الأرض وأتى أهلها وقطعانهم على الماء الذى خلفته الأمطار والأعشاب التى أنبتتها الدمن ، ارتحلوا عنه يضربون فى مجاهل الصحراء ، حتى يرى رائدهم نجعة ينجعونها ، فإذا بلغوها وقد بلغ منهم الجهد ، عرفوا قيمة الماء وفداحة العطش وأدركوا أن بالكلاً حياة الماشية ، فهالهم أن يدمر عليهم جار غاصب فيشركهم فى ماء سبقوه إليه أو كلاً أحرزوه دونه فيدفعونه . فإذا أبى قاتلوه وسقط فى الموقعة القتل أو الجريح ، فيكون ذلك

مولد الثأر وتكون بعده العدة للانتقام .

وكان طبيعياً بعد انحسار المقاتلين أو انكسار العادين أن ينصرف كل فريق إلى أحلافه من قبائل العرب وبطونهم . أو أن يكون للقتيل أو الجريح أشياع وأتباع في القبيل والبطون فينهض كل فريق لنجدة فريقه وتكون حرب جديدة ، ويوم آخر مشهود .

وكان يحملهم على هذا الفناء غير النعم والمال ، فلقد نشأت حروبهم من جراء الحفاظ على الشرف فإذا سبي عاشق معشوقته هال أهلها العار ، فهبوا لدفعه وغسله ونشب من ذلك القتال بين أهل الفريقين وتوالدت منه وقائع وثرات .

وكانت إجارة المستجير تكفى للمحاربة في سبيل إيوائه أو الخفر بدمته . وكان يتفق أن يستجير القاتل بأبي المقتول وهما لا يتعارفان فإذا بلغ الأب الخبر هدر دم ابنه لذمة عنده لا تخفر وشرف لا يهان . وكانوا يوقدون نار الحرب في سبيل حق مهضوم أو خدعة بُيِّتت .

ولم يكونوا زاهدين في الشهرة والزعامة وحب التسلط ، فإن كثيراً من ساداتهم وغطاريهم شنوا الحرب من جراء الإمارة . وكانوا كغيرهم من الأمم يتغلب فيهم القوى على الضعيف ولا يُحمى لديهم الذمار إلا بحد السيوف .

وكانوا لا يدفنون غضباً ولا يغسلون دمماً إذا وجدوا على أنفسهم بذلك غضاضة . ولم تكن الديات عندهم سوى كفكفة دموع . وإرضاء للضعاف ، وإنما كان الثأر لديهم شعاراً للحروب .

فإذا قتل رباح بن الأسل الغنوي شاس بن زهير بن حذيفة العبسي ، ثارت قيس فكان « يوم الردهة » وذاقت فيه قيس قهراً وويلًا . فهب خالد بن جعفر ومعه رهطه بنو عامر ابن صعبعة ، وصخر بن الشريد فارس الهرات ، ومعاًوية الأخيل جد الشاعرة ليلى فقاتلوا عبساً في « يوم الثقراوات » . ولم يهدأ جأش خالد بن جعفر حتى قتل رباحاً الغنوي ، قاتل شاس العبسي فتسلل بعد هذا اليوم الحارث بن ظالم داهية السياسة الجاهلية ، فتزل ضيفاً على الأسود بن المنذر أخى النعمان بن المنذر ، فوجد معه في الضيفان خالداً قاتل زهير سيد قومه ، فقتله غدرًا وهو نائم ومضى هارباً تنبو به البلاد حتى لجأ إلى معبد بن زرارة ، فأجاره فقال بنو تميم لمعبد كيف آويت هذا المشؤوم وأغربت بنا ابن المنذر ورهط خالد ابن جعفر ؟ فأبى أن يحميهم إلى خنر الذمة وبقي على حفاظ العهد حتى أورده مالك بن خالد ومعه بنو عامر حرب « يوم الرحرهان » فأسروه وأماتوه هزلاً وكسروا قومه بني تميم .

وقد نتجت هذه الواقعة يوماً عبوساً سماه المؤرخون « يوم شعب جبلة » لعامر على ذبيان وتميم ، دبرت فيه وحيكمت للغلبة فيه الخطط ، مما أعده على غثاثة البداوة من روائع الأحاييل بين أشباهها التي يبتسها المحاربون إلى اليوم .

يقول أبو عبيدة معمر بن المثنى : « يوم جبلة أعظم أيام العرب ^(١) » . ولعل أبا عبيدة يقصد واقعة ذلك اليوم وما كاد فيها جانب من الحصمين وما لقي فيها من الهول الجانب الآخر لأن من أيام العرب ما دام سنين متطاولة ، وكان أروع من هذا اليوم بأساً وأفدح خطباً ، لكن ما اتخذ في هذا اليوم من الحنكة والحكمة ، وسداد الرأي والحيلة وحسن التنفيذ ، كان لا نظير له على قرب مأخذه بين سائر الأيام الجاهلية ، وكان حدوثه قبل أربعين عاماً من الإسلام سنة ولد الرسول صلى الله عليه وسلم .

وذلك أن « وقعة رحرحان » جرت على « لقيط بن زرارة » حيفاً ومذلة ، فتناوله الشعراء بالتعيير بها ، لأنه فرط في فدية أخيه سيد مضر ، إذ كان أسيراً في بني عامر فلم يفده بدية الملوك وقال لا أزيد فدية أخى على مئة بغير عملاً بوصاة أبينا . فهال الأسير الأمر وانثنى على نفسه محزوناً لا يذوق طعاماً ولا شرباً حتى مات هزلاً . فهب أخوه لقيط من بعده وكان الألم خامره مما فرط في جنب أخيه . فانطلق يؤلب العرب على بني عامر وعبس ، فأطمع النعمان بن المنذر بالغنائم والجنون الكلبي ملك هجر بالسبي والمال ، وجمع أحلافه ، وكان في جمعه بنو ذبيان لعداوتهم لبني عبس بسبب حرب داحس والغبراء وغطفان . وعليهم سنان من أبي حارثة المري والد هرم الجواد ، وبنو أسد حلفاء غطفان . وبنو تميم ومعاوية وعمر وولدا ملك هجر ومعهما جمعهما ، وحسان بن وبرة الكلبي أخو النعمان لأمه ومعهم جيش من النعمان وقد علمت بنو عامر وعبس فداحة هذا الهول وكثرة هذا العدد . فاستشارت قيس بن زهير وكان شديد الرأي فقال يخاطب الأحوص بن جعفر وكان رحا هوازن ^(٢) « الرأي أن نرتحل بالعيال والأموال حتى ندخل " شعب جبلة " ^(٣) فنقاتل القوم دونها من وجه واحد ، فإنهم داخلون عليك الشعب ، وإن لقيطاً رجل فيه بطش فيقتحم عليك الجبل . فأرى أن تأمر بالإبل فلا ترعى ولا تسقى وتعقل ، ثم تجعل الذراري وراء ظهورها وتأمر

(١) العقد الفريد ط ١٣٥٣ ، ج ٣ ص ٣١٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٣١٥ .

(٣) بمعجم ما استعجم للحافظ البكري ج ١ ص ٢٣٩ . « قال الأصمعي هي هضبة حمراء طويلة لها شعب عظيم واسع وبها كان اليوم المنسوب إليها » وفي المعجم المحيط شعب جبلة موضع بنجد .

الرجال فتأخذ أذنانها بأيديهم فإنها تنحدر عليهم وهي تحن إلى مرعاها ووردها ولا يرد وجوهها شيء وتخرج الفرسان في أثر الرجال الذين خلف الإبل فإنها تحطم ما لقيت وتقبل عليهم الخيل وقد حطموا من عل .

وكان في رهط قيس بن زهير وبنو عامر وبنو عبس أحلاف عامر ، وبنو كلاب وأحلافهم بنو صعب وأبناء صعصة ورهط المعقر البارقى ، وأحلافه بنو نمير وأقيال بجيلة دون قيس .

وعطش العامريون وأحلافهم إبلهم ثلاثة أخماس أى اثنتى عشرة ليلة ولم يطعموها شيئاً . فلما دخل لقيط عليهم الشعب يجتمع ، كما توقع الحصيف قيس بن زهير حل العامريون عقل إبلهم فأقبلت تهوى . فدقت كل ما لقيت من جمع العدو فاهزموا لا يلوون على شيء . وقد قتل لقيط بن زرارة وأسر أخوه حاجب وقتل ناس كثير من صحبه ورهطه . وانطلق المعقر البارقى وكان قد شهد الواقعة يصف بشعره هذا اليوم المشهود ، ويذكر من كان فيه من الرجال الذين دفعتهم الملوك ، وكانوا كالجراد عدداً ، وكيف كان العامريون لا يأبهون للأمر وقد أعدوا له عدته . فجعلوا يطربون بالظفر الذى سيكون لهم حتى صبحت أعداءهم ، كئائب تضرب الهامات ، وتطيح ببيضها تحت عجاجة يهوى فيها الفارس بسلاحه على خصمه ، كأنه باز كاسر قد انقض على قنيصة فقال^(١) :

آمن آل شعثاءَ الحمولُ البواكرُ	مع الصبح أم زالت - قُبَيْلُ - الأباغرُ
وحلت سليمان في هضاب وأيكسة	فليس عليها يوم ذلك قادر
فألقت عصاها واستقرت بها النوى	كما قر عينا بالإياب المسافر
معاوية بن الجون ذبيان حوله	وحسان في جمع الرباب مكائر
وقد رجعت دودان تبغى لثأرها	وجاشت تميم كالبحول تخاطر
وقد جمعوا جمعاً كأن زهاء	جراد هفا في هفوة متطائر
فروا بأطناب البيوت فردهم	رجال بأطراف الرماح مساعر
كأن نعام الدو باض عليهم	وأعينهم تحت الحبيك خوازر
من الضاريين الهام يمشون مقدما	إذا غص بالريق الله والخناجر
ضربنا جميل البيض في غمر لجة	فلم ينج في الناجين منهم مفاخر
هوى (زهدم) تحت العجاج (لعامر)	كما انقض بانٍ أقم الريش كاسر

يفرج عنا كل ثغر نخافه مشيح كسرحان القصيمة ضامر
وكل طموح في العنان كأنها إذا اغتمست في الماء فتخاء طائر

كذلك خلد ذكر هذا اليوم المعقر البارقي بقصيدته هذه ، وهي لا بالطويلة المملة ولا بالقصيرة المخلّة ، فاستوفى فيها ذكر الواقعة من أولها إلى آخرها .

فقصيدة البارقي هذه ذات ألوان حربية سريعة مختصرة السرد لكنها واعية شاملة وكفاها أن يكون فيها بيت واحد تتغنى به الركبان ، وهي تستريح من وعثاء الطريق فتقول :

فألقت عصاها واستقرت بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

وكان للقيط بن زرارة الذي تولى تبعة هذه الهزيمة وقتل ، بنت هي « دختنوس » زوج عمرو بن عدى التميمي أشارت عليه قبل أن يقدم بالألا يفعل فنهروا . ثم بان سداد رأيها حين دارت عليه الدائرة فحن إليها ، وهو يحود بنفسه فقالت ترثيه وتذكر هذه الواقعة ^(١) :

ألا يا لها الوليات ويلة من بكى لضرب بني عبس لقيطاً وقد قضى
لقد ضربوا وجهاً عليه مهابة ولا تحفل الصم الجنادل من ثوى
فإن تعقب الأيام من فارس تكن عليكم حريقاً لا يرام إذا سما
لنجزيكم بالقتل قتلاً مضعفا وما في دماء الخمس يا مال (من بوا) ^(٢)

فنفست دختنوس من كربها . ونظقت بروح الحرب الكامنة في نفسها للنقمة والثأر وعز عليها أن يقتل أبوها أسيراً فيميتة أسراه مالك بن خالد بن جعفر وأخوه ، بعد أن حبسا عنه الماء ، وأن يحرم في بطولته ميتة الأقرام الغطاريف بالأسنة والقتا .

ولم تكن دختنوس وحيدة في نساء العرب القائلات شعر الحرب وإنما ثمة كثير مثلها هن شعر في يوم مشهود من أيام الجاهلية أو بعض أيام الإسلام .

وظلت هذه الوقعة في تاريخ العرب القدامى مثاراً للمفاخرة بين الظافرين وعاراً موروثاً بين المنحدرين ، وتناول ذكرها شعراء كثيرون فيهم النابغة الجعدي .

وكان جرير وأصحابه المهاجرون في صدر الإسلام ينبشون أخبار هذه الحروب ، ليجعلوها وسيلة للتعبير أو المفاخرة كما سيأتى في الكلام على شعر الحرب في عصر بني أمية من هذا الكتاب .

(١) الأغاني السابق ص ٣٨ .

(٢) الخمس عدد رجال قتلوا ، ومال : مالك الفزاي حليف قومها ، والبوا الكفو .

* * *

وكفى بحرب (داحس والغبراء) أن تكون ملحمة كبيرة ، إذ دامت أربعين عاماً بين بطون عبس وذبيان ، وكان منشؤها إفساد السبق بين داحس جواد (قيس بن زهير) ، وبين الغبراء فرس (حمل بن بدر) وقد تواضعا الرهان ، وقدرا منتهى الغاية التي يسعى إليها الفرسان ثم قادوهما إلى رأس الميدان بعد أن أضمرهما أربعين ليلة .

فأكن حمل بن بدر فتیاناً في شعاب يمر عليها الفرسان ، وأمرهم إن ورد داحس سابقاً أن يفزعوه ويردوا وجهه عن غايته . فلما شارف داحس الغاية وأقبل على الفتية أهاجوه ونفروه فارتد عن قصده وسبقته الغبراء .

فثارت الحرب بين القبيلتين وأحلافهما من جراء الغدر بالسبق . ولم يكن حمل بن بدر ليعباً بما تنتج الحرب بعد أن ملأ عظميه من فوز كاذب . ولكم كان يحز في نفسه لو عثرت الغبراء وفاته الفخر بالخليل ، والمكاثرة بأصائلها العرب فغلبه على الرهان قيس بن زهير . وقد قيل في هذه الحرب شعر كثير ، وقتل في سبيلها ناس أكثر ، كان يرثيهم شعراؤهم وفيهم عنرة .

ومن شعراء هذه الحرب الطويلة عنرة العبسي وقيس بن زهير صاحب الجواد . والربيع ابن زياد العبسي ، وعقيل بن غلفة المري ، والربيع بن قعب ، وعمر بن الأسلع وغيرهم ، إذ كان منتوج حرب داحس حروباً كثيرة وأياماً مجددة . وكان لكل يوم شعراؤه وشهوده ، وقتلاه وجرحاه ، يبعثون في أهليهم وأعقابهم تجديد الوتر ، وأخذ الثأر ، حتى كان اليوم الأخير (يوم الغدير) فأصلح بين البطين عبس وذبيان سيدان من غطافة العرب هما « هرم بن سنان » و « عوف بن مرة » فتحملا ديات القتلى نجوماً لفداحتها وكثرتها ، وحقناً لدماء سكبت أربعين عاماً كان تعاقد على إهراقها مغاوير ، قد وثقوا حلفهم في ماء معطر كانت تصنعه امرأة اسمها « منشم » جرياً على عادتهم في أحلاف الجاهلية عند حلف المستميتين . ففي ذلك يقول زهير بن أبي سلمى وهو يخاطب الرجلين المصالحين :

تداركنا عبساً وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

تلك حرب نشبت طويلة مستحرة بين أحياء العرب ، تكسرت فيها النصال على النصال ، ووقع في ساحها قتلى لا يحصى عديدهم . وكانت من جراء الخيل وعددها والرهان عليها . وكانت المكاثرة والمفاخرة من أسباب هاتيك الحروب .

وكذلك نشبت الحروب بين العرب من جراء العرض والدفاع عن كرامة المرأة أو بسبب المال . وقد يكون المال ستاراً تنفذ منه أحقاد الصدور ، كما كان من « حرب البسوس » بنت منقذ بن تميم وقد اضطرعت فيها قبائل بكر وتغلب وهم إخوان وأبناء عمومة ، وبقيت ذكراها إلى أواخر العصر الأموي .

كل ذلك بسبب ناقة مشؤومة للبسوس بنت منقذ . وكانت خالة جساس بن مرة المشهور نازلة في جواره وحماه . فشردت ناقة لها اختلطت بإبل كليب بن وائل ، وكان باغياً غيوراً وجباراً ظالماً لقومه . فاخترم الناقة بسهمه فعادت إلى صاحبها ، فهبت البسوس إذ رأت دم الناقة خالط لبنها فزقت خمارها وصاحت في العرب . واذلاه ، وواجراه !!

وكانت إذ تصيح بهذا الصوت تزعم أن حمى ابن أختها جساس قد أبيح ، وأن جساساً كتب عليها وعلى نفسه الويل والذل . فأثارت جساساً الذي ذهب إلى كليب فقطعنه وقصم صلبه فوق كليب على الأرض يفحص برجله فقال ، لقاتله جساس ، أغثنى بشربة ماء . وقد وصف ذلك أحد شعراء هذه الحرب وهو عمرو بن الأهتم فقال :

وإن كليباً كان يظلم قومه فأدركه مثل الذي تريان
فلما حشاه الرمح كف ابن عمه تذكر ظلم الأهل أى أوان
وقال لجساس أغثنى بشربة وإلا فخير من رأيت مكاني

فهب الشاعر المهلهل أخو كليب . فهلهل من يوم ذلك قصائده في رثاء أخيه وأخذ يحض العرب على الأخذ بثأره ، لا يهدأ قراره ولا يحمد غضبه ، حالفاً جهده أن يأخذ بالثأر مهما تفدح الحرب ويعم بلاؤها ، ويكثر قتلها حتى تنال بجاحمها الأجنة في بطون الأمهات فقال :

كيف أهذا ولا يزال قتيل من بني وائل ينسى قتيلا
قتلوا ربهم كليباً سفهاً ثم قالوا ما إن نخاف عويلا
كذبوا والحرام والحل حتى تسلب الحدر بيضه والحجولا
ويموت الجنين في عاطف الرحم - ونزوى رماحنا والخيولا

وكرر على الحيين يوم البسوس أياماً شداداً ، قتل فيها أبطال ، وشتت نساء ورجال ، وقيل فيها شعر كثير ، لو ألف بينه لجاء ملحمة أية ملحمة .

ثم كانت « أيام الفجار » وقد شهد محمد صلى الله عليه وسلم آخرها قبيل مبعثه بست وعشرين سنة وكان ابن أربع عشرة سنة مع أعمامه ، وقد شارك في هذه الحرب فكان يتناول أهله النبل . وإنه ليذكر ذلك لأصحابه رضوان الله عليهم فيقول ^(١) :

« كنت أنبل على أعمامى يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة » .

وكانت أيام الحجاج للعرب أشهراً حراماً ، يأمن بعضهم فيها من بعض ، فلما وقعت فيها الحروب سموها حروب الفجار . وهذه كذلك جرت وقائع وأياماً ، كثر فيها قول الشعراء فوصفوا مناجزة القتال . وحر الطعان وهجمة الخيل وخطب الهامات وضرب النحور .

وطول مشاهدة العرب للمعارك أكسب شعراءهم دقة وصفها وحسن تصويرها ، وهل كانت المعارك في حياة العرب إلا مناط عزم ومدار فخرهم ، يردونها ولا وجه أمامهم سوى الموت . لقد رخص كل شيء لديهم من حطام الدنيا ، ولم يكن من حطامها بين أيديهم سوى قليل . وغلا لديهم كل ما رافق المروءة والشهامة فكانت شجاعتهم أدعى لهم إلى الحرب . على أنهم لم يطرحوا سداد الرأي وإنما كانوا في حروبهم يقلبون أوجهه ، ليصلوا إلى أيها الأسد ولم يكن وصف شعرائهم للمعارك وصفاً مطولاً يأخذ بالكلام من أوائله حتى ينتهى إلى أواخره كما تدعو الحوادث . فليس لديهم قصائد تمسك بأوائله حتى تبلغ نهايتها فتريك صورة معركة منذ بداءة الوقعة إلى ختامها ، وإنما هي فترات شعر في لحات وصف مقتضبة مجتزأة يتبين فيها الروح العربي البياني الذي انطوى منذ كان على الاختصار في سرد الصور ، أو الزهد في التقصى ، ونحن إذا وجدنا منها مطولات في موضوع الحرب ووصف المعارك ، فإننا لا نجد فيها وحدة متناسقة في الموصوفات المتشابهة . ولقد يتاح لنا بعد عصر الجاهلية أن نلم بقصائد كاملة يصف شعراؤها المعارك التي شاهدها أو قيلت لهم ، ولكنها قليلة ، وسبب ذلك حب الانطلاق من قيد المعاني والانفلات من استقصائها ، لضيق القافية الراتبة واتساع المعاني المتوالدة إذ كان يؤثر الشاعر العربي الخروج من موضوع إلى آخر ، ومن صورة لم يكمل وصفها إلى غيرها من الصور .

على ذلك كان عيش العرب في جاهليتهم وصدر إسلامهم . مفتورين على القتال ، مطبوعين على الحرب فبذوا سائر الأمم بفرط شجاعتهم وفيض حماسهم . وكانت البطولة

(١) في رواية الطبقات لابن سعد ج ١ ص ١١٠ طبعة لجنة النشر الثقافية الإسلامية بمصر سنة ١٣٥٨ - أن الرسول قال « حضرته مع عموى ورميت فيه بأسهم وما أحب أنى لم أكن فعلت » .

موزعة عليهم بين كبير وصغير وشيوخ ونساء حتى تكاد القبيلة — كما تقدم الإسهاب فيه — لم تعرف في بيوتها واحداً لم يجرح أو لم يكن ذا صلة قريبة أو بعيدة بيوم من الأيام أو وقعة من الوقائع لقد كانوا جميعاً ينهضون بعبء القتال . وقد فهموه أنه جزء من حياتهم الطبيعية ولذلك بات عاراً عندهم أن يموت المرء على فراشه وكان من كوارث الزمن أن يجود بطل بنفسه وهو في بيته فيموت كميته البعير ، فكان خالد بن الوليد يقول عند موته : « لقد لقيت الزحوف وما في جسمي موضع شبر إلا فيه ضربة أو طعنة أو رمية ثم هأنذا أموت حتف أنفي ، كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء » (١) .

فإذا عرفنا لهم ذلك لم نعجب للسموئل بن عاديا الغساني حين قال :

وما مات مناسيد حتف أنفه ولا ظل منا حيث كان قتيل .
تسيل على حد الظباء نفوسنا وليست على غير الظباء تسيل

ولم تكن ممارسة الحرب مقصورة في العرب على أمراءهم وأغنيائهم وخطاريفهم ، وإنما كانت كذلك من حظ نفر غير هؤلاء السادة . لقد كانت شغل (الصعاليك) ومرام الأغربة السود من العدائين ، ودأب اللصوص السارين وشراد الليل . فصعاليك العرب كانوا يساون بفروسياتهم وخوارق بطولاتهم شجاعة السراة المغاوير .

وكأنني أنظر إلى زعيم الصعاليك (عروة بن الورد) فأعجب وأطرب لروحه الشماء السمحة إنه ليغزو الأغنياء ، فيسلب ما لهم ليفرقه على جمعه الصعاليك المساكين .

كان يزدرى الصعاليك الذين من دأبهم شواغل البطون وارتياذ مذابح الغنم ، ومعاونة النساء في الحى . فكان يفاخر بصعلكته الحربية فيصف تلالؤ وجهه بنور المحامد وهو في بهرة أعدائه ينالونه بالزجر من كل جانب ، ويخشون بأسه في قربه وابتعاده ، حتى إذا نزلت به المنية تلقاها راضياً .

كذلك يقول صعلوك الحروب الذي كان عبد الملك بن مروان يفضلته بالسباحة على حاتم الطائي :

لحى الله صعلوكاً إذا جن ليله مصافى المشاش آلفاً كل مجزر
يعد الغنى من نفسه كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر

ينام عشاء ثم يصبح ناعساً يحث الحصا عن جنبه المتعفر
يعين نساء الحى ما يستعنه ويمسى طليحاً كالبعير المحسر
ولكن صعلوكاً صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس المنثور
مطلا على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر
فذلك إن يلق المنية يلقها حميداً وإن يستغن يوماً فأجدر

ولم تكن المرأة العربية إذا قامت القبيلة بالحرب ، أو شنت عليها الغارة ، أقل من الرجل حمية وحماسة ، وإن تكن دونه بالبأس ، فلقد كانت تشارك الرجال في الحرب في أيام الجاهلية فتمضى مع الغزاة في المؤخرة ، تصفق بالدف وتنشد أهازيج تحث بها على النضال ، كما كانت إذا التحم القوم بالقوم ، تسقى العطاش وتضمد الجراح مما يعد لدى العرب سابقة من سوابقهم في الحرب وقد مشى على غرارهم بعض أمم الغرب في عصرنا هذا في حروبهم الحديثة .

وكان من أولئك النسوة شاعرات ، يصفن المعارك ويحسن تصوير الأبطال ، فكن يشاركن الرجال في الشعور الحماسى تلقاء الحرب ونكباتها ، وما كن في ذلك أقل إجادة من الشعراء الرجال ، في براعة الوصف للخيال والقتال . فهن غير دختنوس ، هند بنت عتبة ، وقتيلة بنت النضر ، وأروى بنت الحباب ، وبنت بدر بن هفان التى تقول :

لا يبعدن قوى الذين هم سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك والطيبون معاقد الأزر
قوماً إذا ركبوا سمعت لهم لغطاً من التأبيه والزجر
والهيفاء القضاية التى تقول :

الخيـل تعلم يوم الزوع إن هزمت أن ابن عمرو لدى الهيجاء يحمىها

وكفى شواعر العرب فخراً وقد أسهمن في شعر الحرب أن تكون فيهن الحنساء التى ذهبت من بينهن بعمود الشعر في رثائه وفخره ، وحماسته وحربه .

وكان المرأة كانت ضرورة لشعر الحرب عند الجاهليين ، وقد ظل هذا الأثر إلى العصور الإسلامية الأولى .

ولهذا نجد كثيراً من شعراء الحرب عند العرب يخاطبون نساءهم ويذكرون كيف يستترهم للحرب والمآثر كقول أبي مخزوم النهشلي بقصيدته المشهورة :

إنا محيوك يا سلمى فحيينا وإن سقيت كرام الناس فاسقينا
وإن دعوت إلى جلى ومكرمة يوماً سراة كرام الناس فادعيننا

ودرج الشعراء الفرسان على مخاطبة نساءهم فى كثير مما يقولون فى وصف الحرب .
فأزهر بن هلال التميمى حين انتهى من حربه قص على زوجه أمره ، فقال لها وكأنه كان يطلب منها الصفح أو الإعذار :

أعاتك ما وليت حتى تبددت رجالى وحتى لم أجد متقدماً
أعاتك أفنانى السلاح ومن يطل مقارعة الأبطال يرجع مكلماً

ومن أذكر من تلك النسوة اللواتى كن مشاعل الحرب ؟ فإن منهن تحت قلمى من يتدافع ذكرهن بما يملأن به القلوب بالحمية والبطولة .

كن مع الزخوف يهجن مكامن الحماسة ، ويثرن دفائن الأحقاد فى صدور الرجال ، حتى إذا هتفت تلك الموسيقى البدوية على قرع الدفوف وغناء النساء ، توقد دم الثأر فى القلوب ، فهب الرجال وبأيديهم السلاح هبة واحدة على الأعداء ، ينادون نساءهم بالبشرى .

أفأذكر ذلك الفارس المغوار الذى كسر الصف وفل الجمع ، ثم هبوا به فاستوقفوه بعد المعركة وقالوا له :

— احسر اللثام عن وجهك أيها الفاتك المكين . . .

فأطاع البطل قائده خالد بن الوليد ، وأغمد سيفه ثم حسر عن وجهه . فإذا وجه امرأة يشع بهأوه ويسبى جماله ، فأنسى الأبطال حمحمات الخيول وجلجلات السلاح . فقال لها خالد من تكونين أيتها المرأة ؟ فقالت : « أنا خولة الكندية أخت ضرار بن الأزور من بقايا الملوك ، أتيت مع نسوة من قوى ، لنشد عضدك فى حرب الروم ، ثم أنشدت بين يديه :

نحن بنات تبع وحمير وضربنا فى القوم ليس ينكر
لأننا فى الحرب نار تسعر اليوم يسقون العذاب الأكبر

وإن في التحدث عن الخنساء وقد استشهد أولادها الأربعة في وقعة القادسية لهزة كبرياء لكل عربي في حمية نساء العرب وبطولتهن في معاناة الحرب . وإن في ذكر أسماء بنت أبي بكر ووصيتها لابنها عبد الله بن الزبير يوم نهايته وفي إكبابها وهي ضريبة لوداعه ولس يدها الدرع عليه لموقف تمثيل تعجز عنه ملاعب الروايات . وإن في تمزيق هند بنت عتبة أم معاوية لكبد الشهيد حمزة بن عبد المطلب ولو كها إياها ثم لفظها والحرب مصطلية ؛ لخوارق أهوال في حوادث الأمم ، ولم يكن لنساء يونان أروع منها في حروب طروادة . فلئن ازدهت الشعوب بمثل هذه البطولات من نساءها ، فإن في تاريخ العرب مواطن لأعز فخر ، وأبعد ذكر لما أثر المرأة وفضلها .

لأنهن نساء ما أتيح لهن بعد من يجمع أخبارهن المشتتة . فينتج منها سيرة تضارع قصة (جان دارك) التي نسجت عليها أقلام الكتاب الفرنسيين هذه الصورة الحماسية الرائعة ، وعززوها بفنونهم ، حتى غدت عزاً للمرأة الغربية . وغير أولئك كثير من نساء العرب امتلأ بهن مجد الأمة العربية كانت بطولتهن أشد من بطولة نساء الغرب في حرب الأملس .

ولم يكن اشتغال الأمة العربية بالحرب ومغازيها الطويلة ، ليصدها عن المعروف والإحسان .

وإني لأعجب لهاتيك القلوب الصلاد التي كانت مفاخر أصحابها في سفك الدم - حفظاً على الحق أو إبقاء على البأس - كيف كانت قلوباً ملؤها الرحمة وشغافها الحنان ، حتى ضمت النقائص :

وقد كان أصحاب هذه القلوب يصلون الرحم ويرعون الذمام ، ويضنون بالعرض ، لهم شؤون وشجون في الهوى سارت بأحاديثها الركبان . وكان تفانيهم في الجود وإغاثة اللهياف والمستجير أمراً أفردهم بشرفه تحت الشمس . لقد عمرت قلوب العرب بأرق الأحاسيس وضمت أشد الأحقاد والمواجد ، فما منعها رقتها لأصحابها أن تكون صلاباً على أعدائها ، وأن تستشري في الحرب والجهاد . وقد امتاز شاعر الحروب العربية من شعراء الأمم الذين نظموا الملاحم ، أنه كابد الحروب وعاناه ، وكان وقودها ولظاها ، ولم يقل الشعر وهو عنها بعيد ، أو يسجل وقائعها وليس له بها عهد ، كما فعل هوميروس والفردوسي وغيرهما ممن نظم الملاحم ، وكان أكثر الفرسان العرب شعراء مجيدين ، وكان الشعر من أدوات حربهم يستثيرون به الهمم في قلب المعارك ، فينشده أصحابه أو المتمثلون به عند المبارزات وشن الغارات ، كما

سيأتى وصف ذلك فى شعر الحرب عصر بنى أمية وما بعده .

حتى إذا ختم الزمن على أبطال الجاهلية سفر حروبهم ، هدأت سيوفهم فى أغمادها ، واستراح أبطالهم فناموا إلى الأبد ، بأعين ملؤها برؤية الحرب والخيل والسلاح ، وسكنت فى صدورهم قلوب طال ما خفقت بالعزة والكبرياء .

خلا زمنهم وبقي يطن فى سمع الزمان جرس السلاح الذى تكمى فيه فرسانهم ، وبات المرء إذ يقرأ فى أعقاب القرون ، كيومنا هذا ، أحاديثهم ، ويتمثل روائع معاركهم وخوارق فروستهم يحسبهم أبطال الأساطير فتغلبه فيهم الدهشة ، وتملكه منهم الروعة ، وتبقى مدوية فى مسالك سمعه أسماء الفرسان المقاحيم :

« عنتره الفوارس ، وعتيبة بن الحرث بن شهاب ، وأبوبراء عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، وزيد الخيل ، وبسطام بن قيس ، والأحيمر السعدى ، وعامر بن الطفيل ، وعمر بن عبدود وعمر بن معد يكرب الزبيدى » ، وغيرهم كثير .

لقد كانوا يضطرون ما بينهم هم وأعوانهم فى حروب غير مجدية ، حتى بعث الله الرسول محمداً فحارب ببعضهم بعضاً حتى صفاهم ، ثم دعاهم النبى إلى حرب الكافرين والظالمين ، فهبوا من بعده بدعوة القوة والدين . فإذا كبارهم من بقايا الجاهلية مساعرا حرب وصغارهم أشبال أسود ينهضون بالقتال سجالات بعد سجالات .

تلك ملاحم العرب فى الجاهلية . كانوا يسمونها أياماً ووقائع . فلما جاء الرسول سمي حروبه « الغزوات » فكانت مغازيه أروع ما شهد العرب فى نظام العسكر ، وبأس البطولة ، وحكمة القادة ، وطاعة المقاتلين ودهاء التدبير .

٥ - لغة الحرب وعدتها :

عرف العرب من أدوات الحرب فى عتيق عهدهم مثلما عرفت الأمم من هذه الأدوات فى قديمها .

ولئن كان لكل أمة عتيقة طراز من السلاح ، قد لا يشبه جميعه ما عند غيرها من الأمم ، فإن العرب وقد تمرسوا بالحرب أعدوا لها عدتها من آلة الحديد ومطايا النزال . ولقد أحاطوا بأوصاف السلاح وعدة الحرب بما لم تحط به أمة من أمم الحرب . فحذقوا الكلام عليها وأجالوا البيان فى وصف آلاتها وأكثروا من العناية بتصورها وتصويرها ، حتى ألوا بدقائقها وأشكالها ، وكان هذا الشعر الواصف للعدة والسلاح شغل شعرائهم الشاغل ، وأدبهم فى استنباط التشايبه وتوليد أفانينها واستقصاء روائعها ، حتى صار ما قالوه فى أوصاف السلاح

وعدة القتال تراثاً أدبياً في شعرنا العربي نكاثر فيه آداب الشعوب .

وحق للعرب وهم في باديتهم محصورون أيام الجاهلية أن يحتفوا بأوصاف سلاحهم وذكر حروبهم وعدتها ، لأنها كانت تملأ حياتهم في ليلهم ونهارهم . ولو أحصينا ما قال العرب في جاهليتهم في الطعام والشراب والمسكن وسائر مرافق الحياة أو ما قالوه في وصف الطبيعة وما أفاضوا فيه من التمدح بالمكارم وما بذلوه بين أيدي النساء من الشعر الغزلي لوجدنا أن شعرهم في الحرب ووصف آلاتها يشغل شطراً كبيراً من شعرهم قبل الإسلام وبعده .

وإننا إذا تتبعنا ألفاظ لغة العرب ونقصينا جملها وتراكيبها ، واستقرأنا تعابيرها في المجاز والاستعارة ، وسائر فنون البلاغة — كما عُرِفَت على رسلها في الجاهلية قبل أن تستولى عليها الكلفة في تتابع العصور الإسلامية — وجدنا أن لغة العرب لغة حرب وضرب ، وطعان ونزال في أروع بيانها وأبرع تشابيحها .

حتى إذا خلت الحرب وشيع الواصفون والقائلون من ذكر القتال والوقعة وآلة الحرب واندفعوا إلى السلم الموقوت لم يتركوا أوصاف الحرب ولا ذكر أدواتها، حتى في اللهو والطرب . عاش السيف في أيديهم يذكرون بلاءه في حز الرقاب وقصم الظهور وقطع الدروع ، فإذا صاروا إلى السلم جعلوا السيف نظرات الغيد الأماليد وجروحاً في قلوب العشاق المعاميد أو شبهوا به تلالؤ الصباح أو ساقوا فنون الكلام فقالوا أمضى من السيف . إلى آخر ما يستطيع المتتبع أن يجده في كلام العرب . وهو غزير فياض .

وعاش الرمح في أيدي الفرسان طعاناً في البراز يلتمع سنانته ، فهو أزرق كأنياب الغول يخترق الصدور ، ويدعى النحور . فإذا أصبحوا في السلم جعلوه قوام الحسان ، وإذا حان البيان قالوا متين العود كأنه رمح قائم وأكثروا في شبه ذلك وأفاضوا .

وكانت النبال للقتال فقرنوها بلحظ العيون القواتن وجعلوا من جعب السهام أجفان الغواني الرعابيب . . . وانطلقت الخيل في الحرب فكانت رسالة كالريح فعبرت بهم على جث العدى ، أو أنجتهم من المهالك ، حتى إذا هدأت الحرب عن ظهورها جعلوها تقطع المفاوز لبناء المكارم وحذبوا عليها بكل ما فيهم من مودة وعاشوا معها في كل آونة يصلون كلامهم بشياتها الرغاب^(١) .

(١) كتب ابن قتيبة وابن عبد ربه وغيرهما عن الخيل وأخبارها عند العرب، وصفاتها، وعن حفاوة العرب بها وحض الإسلام عليها . وقد بزم جميعاً الشيخ على بن عبد الرحمن المشهور بابن هذيل الأندلسي في كتابه =

ذلك خير ما شاع في لغتهم في الجاهلية ، فلماذا جاء الإسلام ولم يغير من حياتهم الصحيحة شيئاً — تلك الحياة التي كانت لهم مع السلاح والخيـل — زادوا في الحفاوة بآلة الحرب ومطايهاها ، وذهبوا في الكلام عليها المذاهب وافتنوا القنـون . فانساب في لغتهم — في عهود الإسلام — كلام الجاهلية في الحرب وفنونها ، وعدتها وآلاتها وتشابيه القول فيها واستعارة الأوصاف منها . وعم ذلك وشاع . حتى إذا قرأنا شعر العصر العباسي وجدنا شعراءه لا يزالون يتمثلون بتشابيه البداية في القتال والنزال على عهد الجاهلية وأقوال حريهم وتعابير سلمهم ، فلم يستطيعوا أن يهملوا هذا التراث الذي لا يفنى في ألفاظه ، وتراكيبه ومعانيه ، والذي ظل بعضه تقليدياً رمزياً كالوقوف على الأطلال ومناجاة دارات الحبايب على الطريقة الجاهلية التي كانت عند الجاهليين حقيقة منتزعة من أرضهم وحياتهم .

وإذا رأى الشعراء التابعون رغاء الماء وهديره ، شبهوه برغاء البعير وجرجرة هديره وإذا شاموا البرق قالوا إنه لمعان السيوف . وإذا وصفوا العزائم قرنها بمضى الجياد ونفاذ النبال . وحين تغزلوا لم ينفكوا عن سهام العين وقد كالرمح كما قال الأولون .

ومد هذا البيان سحره في شعر العرب حتى بلغ عصرنا فكان شعراؤنا حتى اليوم ، المحيّدون ومن دونهم ، يتأثرون أقوال الأوائل في اصطناع عدة السلاح وأداة الحرب وذكر الخيل في شعرهم عند التشبيه والتمثيل ، ولا يجدون محيصاً عن ذلك لأن تعابير الأقدمين قد بلغت إليهم بالميراث في مسيرة العصور . فلم يستطيعوا أن يتمردوا عليها أو يعدلوا عنها ، أو « يتحرروا » منها ، لأنها من تراث لغتهم ، ومجد أمّتهم .

وإني لأسأل نفسي هل تستطيع لغتنا في أى عهد من عهودها أن تبرأ من تلك التعابير الحربية التي شاعت فيها منذ كانت إلى اليوم ؟

== « حلية الفرسان وشعار الشجعان » ألفه للمستعين بالله محمد بن أبي الحجاج يوسف بن نصر من خلفاء الأندلس ، وجمله مشتملاً — كما يقول — على : جلاد وكفاح وخيل وسلاح ، وما يختار من صفات الخيل ويكره . يذم من شياتها ، وجميع ما يختص بأحوال المركوب .

وقد نشر هذا الكتاب الجليل « لويس مرسيه » القنصل الفرنسي في الجزائر عن نسخة الأسكوريال الأصلية أصدرها بالفرنوغراف . وخطها مغربي يشبه الكتابة السريانية كتبت في العام العاشر بعد المئة والألف . وقدم مرسيه لهذا الكتاب وفهرسه وصحح خطأه الإملائي وتصحيحه في ١٧ صفحة بالمقابلات على النسخ الأخرى التي عثر عليها منه حقق فيه سنة ١٩١٩ وأخرجه في الطبعة الشرقية بباريس لبول جونتير سنة ١٩٢٢ ، وعين عصر المؤلف في القرن الرابع عشر الميلادي فيما يوافق القرن الثامن الهجري .

فأرى أن وفرة تمازجنا بالثقافات الأجنبية المعاصرة ستحمل يوماً على تنقية لغتنا من هذا التراث لبعده العهد به ، ولأن أذواق الناس قد تبدلت فأصبحت تمجّه ولا تستسيغه وإني لأجد الخطر في مثل هذا التطور . فويل للغتنا من يوم تفقد فيها تراثها هذا العزيز الذي يذكرنا بفروسة أجدادنا الأقدمين ، ويحملنا على أن نحيا حماة مثلهم للذمار ، أباة للضميم على غرارهم ، فلا نبتي برطانة المولدين ، وركاكة المضعوفين في اللغة والبيان ، فنخسر الخير الجديد ، ولا نبقي على العز القديم .

الباب الأول

شعر الحرب في العصر الأموي

شعر الحرب فى العصر الأموى

تمهيد

(١) الحياة الأموية الجديدة وشعر الحرب :

وجد الأمويون أنفسهم فى حياة غير التى عرفها العرب قبل الإسلام ، فحياة الأمويين فى تحضر ، وشعرهم فى تطور ، وسياستهم فى تعقد ، وفتوحهم فى تأزم ، وكانت معاشهم وضروب مرافقهم الخاصة والعامة فى انقلاب جديد ككل انقلاب يعترى الأمم حين تخرج من دنيا قديمة ألفتها ، إلى دنيا حديثة لا عهد لها بها من قبل .

وقد كانت كل ناحية من نواحي هذا التحضر تظهر الظهور العربى الجديد . وكان الشعر أحد الأمور التى ظهر خطرهما فى هجمة العصر الأموى . وقد أعد نفسه لمهمة كبرى ، وكأنه كان يستشعر بها قبل أن ينهض بأعبائها الجسام ، فى منظومات الحماسة ووصف الحرب . إذ كان العصر الأموى وما فيه من حروب وفتن وازدحام سياسات ، قد حتم على الشعر هذه التسخيرة الضرورية ، وتلك الخدمة المقررة ، فخضع شعر العصر الأموى لسلطان الحرب والسياسة ، وقد رفده ميراث ضخيم صار إليه من الجاهلية . وأى شعر فى الحماسة والحرب أشد وقيداً وأبعد أثراً من الحماسة الجاهلية وشعر الحرب فيها ؟

وقد هيأت القرائح الفذة فى العصر الأموى أصحابها الموهوبين لخدمة هذا الضرب من الشعر الضرورى المحتوم ، فنبغ الشعراء الفحول الذين ملؤوا حياتهم بشعر المهجاء والفخر والحماسة ودعايات السياسة وذكر الحروب .

(٢) الحماسة الأموية بين الحرب والسياسة :

١ - تأثير الشعر السياسى فى الشعر الحربى :

لا يكاد يأخذ بإعجابى وصف حرب قاله أحد شعراء العصر الأموى ، فأرى خلاله رهط المقاتلين يتلاحمون بين الحياة والموت ، وألمح لمعات الأسنه والسيوف تقع فى اللبات والنحور ، وأسمع زمازم الجيش تمور فى حومة الوغى ، حتى يعكر على صفاء هذه الصورة

وبراعة هذا الوصف أبيات في أواخر القصيدة أو في أثنائها يحاول بها الشاعر أن يعنى على آثار قوم آخرين في الشجاعة والبأس . وقد لا يتورع عن إيذائهم بالهجاء وسلبهم كل خصال المروءة والحمية التي عرفت فيهم . فهو أبدأ يسعى إلى إعلاء قومه فيخلع عليهم صفات المكارم والفضائل وينزعها عن سواهم حتى بات كثير من أقوال هذه الطائفة من الشعراء منوطاً علاؤه بخفض غيرهم . وكلما زاد تهجين الشاعر لأعدائه وذمه إياهم ، انطلق جناحاه في أجواء الثناء على نفسه وعلى قومه .

وقد تأثرت الشعر العربي من فواتحه إلى خواتيمه في شعر الفخر ، فوجدته يمحى على هذا الغرار في عصر بني أمية . فإذا كان الشعر في وصف الحرب تناول قائلوه هذه الطريقة فقدموا شجاعة غيرهم ومدحوا أنفسهم وبطولتهم . وقد لا يظل هذا المدح والهجاء في قصيدة الشاعر الواحد ، وإنما يتجاوزانه إلى أكثر من شاعر فينبى من يقول قصيدة أو أبياتاً في ذم خصومه في الحرب وحمد قومه فيتصدى له شاعر آخر يرد عليه بذمه ومدح نفسه وقومه ثم يدخل آخرون في الحلقة بمثل ديدن السابقين ، فتصبح معالم الوصف الصادق مشوهة على من جاء يستقصى ، فيحار متلمساً أى قوم أشجع وأفتك ، وأشد بأساً في وقعة ، وأى معشر فيهم سجايا الفروسية ، ولأى كتب النصر؟

وقد يكون دافع الدم أو حافز المديح دسيساً من خليفة أو أمير ، أو نزعة من حزب أو مذهب أو تحيزاً من عصبية أو قبيلة . والشواهد على ذلك كثيرة .

فإن المختار أبا إسحق بن عبيد الثقفي لما نادى : يا لثارات الحسين ! وأخذ يقدم الناس للقتل بغير رافة ولا تحقيق ، انتقاماً لسبط الرسول ، وجعل ينقض على المناوئين للزبيرية فيرمى بهم في السجن أو يتركهم يشردون هروباً من بطشه ، أمسك فيمن أمسك بهم بسراقة ابن مرداس البارقي الشاعر^(١) فطرحه في السجن فتكلف هذا الشاعر مدح المختار ووصف شجاعة جمعه تخلصاً من الضيم وفكاً كلاً لنفسه من السجن .

وزاد في تزوير رأيه واصطناع المدح والثناء للمختار أن قال له أيها الأمير إني رأيت الملائكة تقاتل على الحيوال البلق بين السماء والأرض . ويريد أنها كانت تقاتل مع المختار ، فأمره المختار أن يصعد المنبر ، فيخبر المسلمين بهذا ، فلما فعل أدناه وقال له : إني أعرف أنك لم تر الملائكة وإنما فعلت هذا كيلا أقتلك ! فاخرج لوجهك ولا تفسد على أصحابي ..

(١) تاريخ الطبري الطبعة الحسينية ج ١٧ ص ١٢١ . والعقد ط ١٣٥٣ ج ٣ ص ١٥٦ .

فلما خلا السبيل لهذا الشاعر خرج من الكوفة فقلب ظهر الحجن وأفسد بشعره ذكر شجاعة المختار وبأسه .

وقد تدفع العصبية القبلية الشاعر إلى أن يقول في شعر الحرب أبياتاً يفضل بها قبيلته وقومه على أعدائهم ومناوئهم ، ومن يذهب غير مذهبهم في السياسة وقضية البيعة ، كالذي كان من أمر زفر بن الحارث بعد وقعة «مرج راهط» ، وذلك بعد أن التقى مروان بن الحكم بالضحاك بن قيس الفهري وعامة أصحابه فاقتتلوا بمرج راهط ^(١) قتالا شديداً تكشف عن مقتل الضحاك وجانب من صحبه وانهمزام بقيتهم ، فكان زفر بن الحارث الشاعر الكلابي في المنطلقين ، فأوت قيس إلى إمرته وكان من السراة الأغنياء تنزل به الأجناد فيزودها بالعتاد والطعام ، وكان له غلمان وحشم وهو موضع مشورة ونصح للمحاربين ، فذكر حرب مرج راهط وتحفزه للثأر وجعل يتوعد عداته المروانيين فقال :

أرى الحرب لا تزدد إلا تماديا	أرئني سلاحى لا أبالك إننى
أتانى عن مروان بالغيب أنه	مقيد دمي أو قاطع من لسانيا
ففى العيس منجاة وفى الأرض مهرب	إذا نحن رفّعنا لهن المئائيا
فلا تحسبوني إن تغيت غافلا	ولا تفرحوا إن جئتم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى	وتبقى حزازات النفوس كما هيا
أنذهب كلب لم تنلها رماحنا	وتترك قتلى راهط هى ما هيا
فلا صلح حتى تشحط الحيل بالقنا	وتثار من نسوان كلب نسايا

قال هذا الشعر وفى نفسه نقمة دفينه على من حاربه فى وقعة المرج . وقد صدق فى كلمته عن حزازات النفوس بأنها مهما تدفن فإنها تبقى كما هى ، فكان بيته هذا حافزاً من حوافر بطش الهاشميين بالأمويين آخر حكمهم وانكسار شوكتهم فذكروا به قتلهم وموتاهم من آل البيت .

وما ذاع شعر زفر هذا حتى نهض للرد عليه جواس بن قعطل بشعر من وزنه ورويه بمدح شجعان قومه وبتهكم بشجاعة زفر فيقول :

لعمري لقد أبقت وقعة راهط على زفر داء من الداء باقيا

(١) الطبرى ج ٧ ص ٤١ . . والأغانى ط التقدم ج ١٧ ص ١١٢ . والمقد ط ١٣٥٣ ج ٣/ ١٥٢ .

دعا بسلاح ثم أحجم إذ رأى سيوف جناب والطوال المذاكيا
عليها كأسد الغاب فتیان نجدة إذا شرعوا نحو الطعان العواليا

وشد مع جواس عمرو بن المخلاة الكلبي على زفر بقوله^(١) :

بكى زفر القيسى من هلك قومه بعبرة عين ما تخف سَجْـومُها
يبكى على قتلى أصيبت براهط تجاوبه هام القفار وبومها
أبجنا حمى للحى قيس براهط ولت شلالا واستبيح حريمها
فت كمداً أو عش ذليلاً مهضماً بحسرة نفس لا تنام هـومها
إذا خطرت حولى قضاة بالقنا تخبط فعل المصعبات قرومها
خبطت بها من كادنى من قبيلة فن ذا إذا عز الخطوب يرومها

فكان شامتاً بقيس واندحارها في حرب المرج وانقطاعها وتشتت شملها رجالاً ونساء .
ومفاخراً بقومه قضاة قد شد بها عزمه واقتعد بها بالمرصاد لمن يكيد له من الأعداء . وظل
زفر يقول الشعر ملاحياً للأمويين والأمويون يحييون بدم قيس عيلان بمثل هذا البيت
الجارح :

فباه بقيس في الرخاء ولا تكن أخاها إذا ما المشرفة سلت

فإذا قرأت هذا الشعر في وصف حرب المرج أضاع على وجه الحقيقة في شجاعة
المروانيين أو الزبيريين ، لأن هذا الشعر ما قيل لوجه الحرب فحسب وإنما قيل مع ذلك
لوجه السياسة ، فأفسدت هذه باحتضانها العصبية ودفعها النزعات صورة الشعر الحربى
المجرد الذى يصبو إليه الأدب الصرف ، ذلك الشعر الذى يهب الشاعر نفسه له خالصة من
شوائب الإحزن ، فيصف براعة الأبطال حيال الفرسان ، والتحام الجمع ، ساكباً على كل
ذلك تعابير العربية في أروع قوالها .

ولا أستطيع أن أغلو فأدعى أن شعر الحرب في أدب العرب لا يخلو من ربة السياسة .
فإن ثمة شعراً كثيراً قد تكون السياسة دافعة إلى قوله ، لكنه هو في حد نفسه شعر قيل لوجه
الحرب وحدها فلم يتصد إلى تكدير شجاعة الأعداء ورميهم بالجن والعار . وهذا نجده

كثيراً في أشعار الجاهلية إذ كان من أمانة شعرائهم الحريين أن يعترفوا لخصومهم بالسطو والبأس والنجدة والمروءة، وأن ينصفوهم وهم يمدحون أنفسهم، فلا يذموهم ولا يجردوهم من صفات الفروسة الحقّة التي يعترفون لهم بها. وكان بذلك شعرهم الجاهلي أصدق وصفاً للحرب من شعر الحرب الذي بعد الجاهلية، إذ داخلته السياسة فصار لونه من ألوان أصحابها. وأحسب أن ذلك ليس بضائره، لأن حياة العرب وحالة دول الإسلام كانتا تستدعيان مثل تلك الألوان في شعر الحرب. لكثرة ما تجاذب الشعراء من أهواء ومنازع بعضها ديني وبعضها سياسي، وسواء أكان هذا هو السبب الذي بعث عليها أم ذاك. فإن منها قصائد في شعر الحرب يعتز بها الأدب العربي لما فيها من دقة التصوير وبراعة الوصف ومتانة الديباجة.

ب - تهاثر الهجائين وتقصيرهم في شعر الفروسية :

حين وقع للفرزدق شعر رقيق لحرير أنشده وردده، واستخفه الطرب، وهو الذي قال في جرير: « قاتله الله ما أخف ناجيته وأشد قافيته، والله لو تركوه لأبكي العجوز على شبابه والشابة على أحبابها، ولكنهم هروه فوجدوه عند المهراش نابجاً وعند الجراء قارحاً » (١).

والذي أريده من قول الفرزدق قوله: (لو تركوه) فأقول لو تركوا الفرزدق وصاحبيه، فلم يقعوهم في التهاجي، لقالوا شعراً قد يكون فيه من وصف الحروب وأيام العرب التي شهدوها أو كانت في زمانهم ما يغني أدبنا على ترادف الزمان، ولو كان ذلك نخلصوا من السياسة قليلاً، فتفرغوا لشعر يخلدون فيه فروسية الأبطال الذين أطلعهم عصر بني أمية، كأنهم من نسيج الأساطير، لما روى عن خوارق بطولاتهم وروائع شجاعتهم وإقدامهم في الحرب والجلود بأنفسهم فيها.

لكن هؤلاء الشعراء، وكانوا عصبة كبرى، تألب بعضهم على بعض من جراء العصبية التي ما زالت في أعراقهم من ميراث الجاهلية، فتراشقوا أكثر من أربعين عاماً بالمثالب والمقاذع ينضح بأشعارها بعضهم بعضاً، بهجاء ما عرف أدب العرب فورة مثل فورته في جاهلية أو عباسية. ولست بمعرض القول للاستفاضة بتعليل أسبابه، ويكفي أن أقول إنه عمل في تكوينه ثلاثة عوامل.

الأول: الأثرة الشعرية وغيره الشاعر على شعره وهو عنده أعز من ولده.

الثاني: العامل السياسي.

الثالث: العصبية القبلية.

أفلا يكفي للتدليل على الأول ما قاله مالك بن الأخطل لأبيه بعد أن انحدر إلى العراق

يستطلع طلع جرير والفرزدق في تهاجيها^(١) . إذ وصف الشاعرين بقوله : وجدت جريراً يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر . فقال : الأخطل الذي يغرف من بحر أشعرهما وقضى في تفضيل جرير على الفرزدق بقوله :

إني قضيت قضاء غير ذي جنف لما سمعت ولما جاءني الخبر
إن الفرزدق قد شالت نعامته وعضه حية من قومه ذكر

فلم يرض بذلك جرير وكان سبب الهجاء بينهما^(٢) . وإني لأعجب لجرير إذ لم يقبل حكومة الأخطل فقال : إنه نشوان لا تجوز حكومته ، كما قضى بشر بن مروان ، على حين إن الأخطل قد فضله على الفرزدق ، وأحسب أن صاحب الأغاني قد أخطأ ومعه الرواة الأقدمون ، فإن تتابع الحوادث بين جرير والأخطل والفرزدق يقضى أن يكون جرير قال بيته المشهور :

يا ذا الغباوة إن بشراً قد قضى ألا تجوز حكومة النشوان

بعد أن انحدر الأخطل إلى الكوفة بعد ابنه فاعترضه شيخ من شعراء الدارميين بمال وكسوة ومطية وخر لثلا يعين على الفرزدق وليهجو جريراً ويفضل الفرزدق عليه . فلعب برأيه هوى المال وحسد الصنعة فانقلب مفضلاً للفرزدق ومسقطاً للجرير ، فهاج جرير وقال فيه بيته الذي ينكر فيه حكومته لأنه نشوان ، فهو في كل ساعة يقول حكماً ويبدله في ساعة أخرى ، وهذا هو المعقول في وضع هذا البيت بعد انقلاب الأخطل لا فور عودة ابنه من العراق وشهادته تلك بحق الشاعر .

وكيف كان أمر هذه الحكومة الشعرية فإن الذي أعنى به منها أن الغيرة والتحاسد على إمارة الشعر أشعل نار الهجاء بين هؤلاء الشعراء .

وكفى بدليل العامل الثاني ما كان يبذله خلفاء بني أمية وأمراؤها في سبيل إهلاك القيسية وكبت روحها وشد شكيمتها والفت في عزيمتها أين كانت وفي أي امرئ ظهرت ، فراح شاعرهم الأخطل كلما مدح عبد الملك بن مروان هجاً قيساً بمثل قوله :

فلا لع الله قيساً في ضلالتها ولا لع لبني ذكوان إذ عثروا

(١) الأغاني ط دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٨ ج ١٢ ص ٦١ .

(٢) الأغاني ط التقديم ج ٧ ص ١٧٦ .

وقد يهجو من أجلهم كلياً ومضر كلها بمثل قوله :

أما كليب بن يربوع فليس لها عند التفارط إيراد ولا صدر
قوم تناهت إليهم كل مخزية وكل فاحشة سبت بها مضر

فيكون من جراء هذا الهجاء أن يرد جرير على الأخطل بقصيدة مثلها من وزنها ورويها ، وأن يكون بينهما المناقضات التي سار بذكرها ركبان الأدب القديم وشغلت الرواة القدامى والمؤلفين المعاصرين :

ودليل العامل الثالث تلك النزعات القبلية التي كانت متأصلة في الجاهلية وقد أورثها الأمويون لقرب العهد بينهم وبين أهلها الغابرين ، فكان مجال التغالب بين هؤلاء الشعراء المتهاجين هو الفتك والتجريح بالأنساب والتعير بمثالب فرطت من الآباء والحدود . فإذا فخر الفرزدق على جرير بأن آباءه كانوا سادة وأمراء ، وآباء جرير كانوا رعاة فقال :

تاج الملوك وفخرهم في دارم أيام يربوع مع الرعيان

أجاب جرير بنقيضة مثلها فترع من الأخطل ادعاء الحكومة في السياسة والشعر ، وغيره بمقتل كليب بن ربيعة من أجل ناقة البسوس ، فقال للأخطل ولقومه :

فدعوا الحكومة لستم من أهلها إن الحكومة في بني شيان
قتلوا كليبكمو بلقحة جارهم يا خزر تغلب لستم بهيجان

ولعل الأخطل دخل حرب الهجاء بعد مراحل منها كانت ناشبة السوالف بين الفرزدق وجرير من جراء العصبية القبلية والتحاسد على الشعر ، حتى ملأ العراق بشعرهما يتسابان به ويتنازبان بالألقاب إلى أن بلغ خبرهما الشام فأهاج الأخطل ، ولعله خشي منهما على منزلة شعره فأرسل ابنه — كما قدمت — يعرفه عن كتب يخبرهما الصحيح .

وهبت حرب هجاء بين هؤلاء الثلاثة شغلت الناس في أقطار العرب كلها ، وكان الشعر في إبان عظمته الأموية والتفات القوم إليه ، وفيه ضروب الدعوات السياسية .

فالأخطل مفرط في الدعوة للمروانيين بشعر شديد الصفع لأعدائهم حتى بات يخشى بأسه كل قاص ودان ممن يبطن بغضاً للخليفة ودولته ، وعرف القوم أن لشعره في نفس

عبد الملك بن مروان فعل السحر والخمر ، فرهب جانبه وخيف شعره . فما هي إلا قصيدة يقولها فيمحق بها القبيلة محقاً ويذرى أخبار السوء فيها ، حتى كأنها صحيفة سياسية تصدر عن بلاط عبد الملك كالصحف السياسية التي تصدر في عهدنا عن حزب من الأحزاب أو بلد من البلدان .

والفرزدق « متق » مضمحلح الشيعة ، فكان يتمدح بخصال من يريد من الأمويين ، هيباً أن يجرح من شعور الشيعة حتى وقعت الواقعة بينه وبين هشام بن عبد الملك فنفض عن شعره « تقيته » وجر عليه إظهار تشيعه أن حبس بين المدينة وبين التي إليها تهوى قلوب الناس . وهجا هشاماً وغيره بالحول ، فلم يكن من هشام إلا أن أطلقه بعد أن مدحه ، قطعاً لهجائه .

وراح جرير يترامى على عتبات الخليفة المرواني متوسلاً بالحجاج حتى أكل من فئات الموائد الأموية بعد شبع الأخطل وريه .

فقلت في أعقاب الزمن وأنا أنظر في تراث زاخر من شعر هؤلاء الثلاثة : كيف فرطوا في شعر الحرب فتحلقوا على الهجاء والتراشق بنبال الكلام وكان لكل شاعر منهم حجب ينضحون بالهجاء دونه ، فكان ذلك شعراً ملؤه الشتم والمثلبة وهجر القول وفحشه ، فهتكوا بالقصيد الأعراض والحرمات ، وأهاجوا أسرار الأسر من مضمحلح أستاذها . وقد أشبهتهم بالمتشائمين في الدروب من الأوشاب يقرعون السبة باللعة ويتجادلون باللسان الحاد .

ولقد شغل أولئك الشعراء زمنهم وشغلوا أنفسهم حتى لم يهدأ لأحد منهم جفن ، فكم ليلة أرق الفرزدق عينه فيها وهو يعب من زقاق الخمر ليسفر عنه الصباح وقد نظم ثمانين بيتاً في هجاء جرير ، وكم كان مثل هذا الحيف وشبهه لجرير والأخطل . حتى هدأت أجسادهم في الثرى . ولم يشف الغليل ، فلقد مر جرير بقبر الفرزدق فتمنى لو عاش طويلاً فيزيد في هجائه فقال :

مات الفرزدق بعدما جددته ليت الفرزدق كان عاش قليلا

وأحسب أن هؤلاء الشعراء الأفذاذ ، وقد وهبتنا إياهم العربية في فورة عظمتها وبأس سلطانتها وقيام دولتها العرباء قبل أن يتدخل في بنيتها عجمة ، لو أنهم سكبوا خيالاتهم الرائعة ، وقرائحهم الثائرة الصيبة على حروب العرب فوصفوها من أول وقعائها إلى عهدهم ، ولم يكتفوا بأبيات يحشرونها بين شعر المدح والفخر والهجاء لمناسبات تدعو إليها إحن السياسة

ونوازع القلوب لآ تونا الدرة التى نفقدها ونلوب إلى اليوم عليها فلا نجدها .

وإنا وإن عتبنا عليهم ذلك فلم يكن الذنب ذنبهم وحدهم ، وإنما كان جرم المجتمع الذى احتواهم وساقهم فى تياره الجارف فى عهد كثرت فيه النأ مات وتوالدت فيه الفتن ، وأعمت أهل النحل بنحلهم ، فسدت الطريق الواضحة إلى الشعر الحربى المنشود . وأصابنا هؤلاء الشعراء المتهاجين كوارث خاصة شغلتهم حتى عن أنفسهم ، وكان أوفرهم نصيباً من هذه الكوارث الفرزدق . أفلم تشرذ نومه نوار قبل أن يطلقها ، وبعد أن فركت فخرجت فراراً منه إلى ابن الزبير وكان يملك على الحجاز والعراق ؛ ثم ألم يقض مستقره زياد بن أبى سفيان حتى هرب على وجهه فى البلاد . فكان شأنه شأن النابغة الذبياني حين نقم عليه ابن المنذر فراح فى دارات غسان يتقلب على الغضا ، وكأن حية من الرقش تساوره فى فراشه . فقال الفرزدق مثل مقالته فى اعتذارياته^(١) وسار فى سبيله حيث يقول :

أتأتى وعبد من زياد فلم أنم وسيل اللوى دونى فهضب التهام
فبت كأتى مشعر خيبرية سرت فى عظامى أو سمام الأراقم

وآوى بعد لآى إلى سعيد بن العاص فى المدينة فأجاره على زياد فلما هدأ فى ظل
سعيد قال^(٢) :

ألا من مبالغ عنى زياداً مغلغلة نجب بها البريد
بأنى قد فررت إلى سعيد ولا يسطاع ما يحمى سعيد

ولكن لم تهدأ عنه فى منتآه نبال الهجاء ، فظلت تصل إليه من الشام والعراق فى قول
جرير :

إذا دخل المدينة فارجمهـوه ولا تدنوه من جدث الرسول

وظل ينتقل بين مكة والمدينة حتى مات زياد . فلم يكد يستريح من حرب زياد حتى
هجا الحجاج فأهاجه ووقع معه فى حرب أشد إخافة له وأكثر مرارة عليه .
لست أجور على هؤلاء كل الجور ، فإنهم لم يألوا جهداً فى ذكر الحروب التى قد

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٤٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٩ .

يكون بعضهم شهداء أو وقعت في زمنه أو رويت له أخبارها — كما سيأتى في فصل الكلام على شعر الحرب عندهم — ولكنهم لم يلموا بوصف معاركها ولم يبذلوا من أنفسهم تصوير وقائعها والتحام جيوشها واستجاشة عدتها ، وما كان من مفاتيحها وخواتيمها . وإنما كان ينزو بهم شيطان الشعر نزوات بين القصائد والأبيات فيكتفى الفرزدق في معارض هجائه أن يسوق الفخر ومعه طرف من ذكر الحرب وأيامها القديمة عند قومه وجيشهم اللجب . فيقول في آخر قصيدته التى يهجو بها يزيد بن مسعود وخولة الدحداحية ، وكانت رجزت بهجوه ، ثم هربت منه إلى بيتها ، فكان من حربياته هذه أن قال (١) :

وكم من رئيس غادرته رماحنا يعج نجيعاً من دم الجوف أحمرنا
ونحن صحننا الحى يوم قراقر ونحن منعنا يوم عينين منقرا
ونحن حدرنا طيناً عن جبالها ونحن حدرنا من ذرى الغور جعفرنا
بأرعن جرار تضىء له الصوى إذا ما اغتدى من منزل أو تهجرا
له كوكب إذ دارت الشمس واضح ترى فيه منا دارعين وحسرا

ولا يقع في خلدك أنه الفارس المعلم الذى شهد كل هذا ، وإنما هم أهله وجدوده وآخرهم أبوه الذى يقول فيه بعد ذلك :

أبى يوم جاءت فارس يجنودها على « حمضى » رد الرئيس المسورا (٢)
غدا ومساحى الخيل تفرع دونها ولم يك فى يوم الحفاظ مقصرا

فأذكرنى وهو يفاخر بحرب أبيه وفروسيته ، شعراً لفيكتور هوجو ، فاخر فيه بفروسية أبيه وبطولته في حروب المغرب فقال في أوله :

— أبى ذاك المغوار ذو الابتسامة الحلوة .

ولم يكن هوجو حربياً ولم يحسن إلا شعر الغزل والوصف ، وكان هجاء كالفرزدق وذا صناعة وديباجة مثله .

ولم يك الفرزدق شجاعاً حتى نطالبه بشعر الحرب . فقد كان يفر منها جهده — وفى

(١) ديوان الفرزدق إملاء ابن الأعرابى طبع بوشيه بباريس سنة ١٨٧٠ ج ١ ص ٣٥ .

(٢) يوم حمضى ، عرض فيه بنو تميم لقافلة فارسية محملة بالهدايا لكسرى برويز كان يقودها حوزة بن على

من بنى حنيفة (هامش بوشيه ص ٨٢ ج ١ من الترجمة الفرنسية لديوان الفرزدق) .

مهر به من زیاد، وكان معه دليل اسمه مقاعس^(١)، تعرض لهما سبع في الليل ، فريح الفرزدق وشهد يجنبه مملى ديوانه ابن الأعرابي .

وخلاصة القول أن شعر الهجاء في عصر بني أمية شغل فحول الشعراء عن شعر الحرب كوحدة موضوع . وهم وإن شغلتهم الشتائم خلال قصائد المديح والهجاء ، لكنهم كانوا يصفون الحرب وأيام العرب في سوانح تلك القصائد ، لا في قصيدة خاصة موقوفة على ذكر الحرب .

ح - الشعر الحربي في العصر الأموي ومن هم شعراؤه :

لقد امتلأ عصر بني أمية بكبريات الخطوب ، ما خلت منه فترة يرف عليها جناح السلم ، حتى نجمت فترة يسيطر عليها شبح الحرب ، وقد تناوت رقعة البلاد العربية الأصيلة والأقاليم الإسلامية المفتوحة ثورات لوافح وفتن جواحم ، كانت تستشري فتأخذ كالنار باليابس والأخضر وتهلك الحرث والنسل . ونذر أن ضرب التاريخ مثلاً بشدة الحروب وانصباب الدم الذكي كالذي ضرب في عصر الأمويين وما قبله ، في فسحة من الزمن تبلغ مائة عام من قتل عثمان بن عفان إلى هلك مروان بن محمد .

فهذا عثمان مجلل بيرديه ، مخرج بالدماء ، مقتول في بيته في المدينة بعد حصار خمسين ليلة في ظمأ وبلاء وجهد وشجار . ولا يهدأ عثمان في لحده حتى تنهض عائشة بنت أبي بكر صائحة في الأباطح تدعو أعوانها إلى الثأر له ، ومعاوية مبرص ينتظر ، وهذا عليّ متجلبب بتقاه يدرأ عنه تهمة هذا الدم المسفوك بالحجة ، حتى إذا ينس دفع عن نفسه بحد السيف ، فهرع إلى بيعته المسلمون ، واستمسك معاوية في الشام ، ودعا إلى نفسه فبوع بالخلافة ، فإذا على أرض العرب ومهد الإسلام خليفتان يصطرعان ، كل منهما يدرع بحجة من السياسة والثأر يقف التاريخ أمامها حتى اليوم مكتوف اليدين ، مكبوم الفم ، غمت عليه أوجه الحق . وقد حل في أنفس الأئمة غرض الدنيا قبل ثواب الآخرة . فتحذر القدامى والمسلمون المحدثون إلى يوم الحمل عند البصرة . فإذا هم في زحام حرب تحدوهم فيها عائشة على جمل ، هودجه الذي هي فيه كالقنفذ من شدة نضح النبال . واعترك المهاجرون والأنصار وأهل الكوفة والبصرة في حومة لاهية ، وانكشف القتال عن فوز عليّ وصحبه وانكسار عائشة وجمعها

وقد هدأ على الأرض أول رأس كريم هو رأس الزبير ، فطرحه قاتله ابن جرموز^(١) بين يدي على . فأسف لتزوة صاحبه . وراحت زوجته تعول بمثل قولها :

ثكلتك أمك إن قتلت لمسلماً حلت عليك عقوبة المتعمد

وظل يوم الحمل يحمل ذكرى تهول الرجال وتشيب الشباب في قول من يقول :
شهدت الحروب وشيئني فلم تر عيني كيوم الحمل

وبات في طي الزمان رجز إسلامي عتيق يهدر مجلجلا في سمع الأبطال الجفأة الذين
استساغوا الثأر الدامي يقول :

نحن بنو ضبة أصحاب الحمل
الموت أحلى عندنا من العسل
ننعي ابن عفان بأطراف الأسل

هدأت وقعة الحمل فهب معاوية كإعصار عاصف ، فلأ السهل والجبل بدعوى الثأر لعثمان ولقتلى يوم الحمل الأبرياء ، فأيقظ ما كمن من المواجد على الثأر والقتل فأنكر على « بيعته » وأهاجت تلك الأيام الحرب بشنى البواعث ، فأطل الشيعة من خصاص الفتنة وركبوا متن الحرب ، وهجم على المسلمين يوم عصيب هو يوم « صيفين » ، فإذا حرب مستعرة ، ولقاء مبيد عند الرصافة تكسرت فيه القنا على القنا واحمر وجه الموت ومال ميزان الظفر فشالت كفة معاوية ، فلجأ إلى المكر والمراوغة ، فخادع عليا برفع المصاحف والاحتكام إليها . فأبى عليه التحكيم ناس من صحبه حصيفون وأبطال مغاوير خلعوا طاعته وخرجوا عن حكمه فسيماهم التاريخ (الخوارج) ، وسموا أنفسهم بذلك فكانوا عصابة ثالثة تعارب علياً ومعاوية .

وانحسر يوم صفين عن عليّ وقد خدعه معاوية وظفر، فنصب عليّ نفسه غرضاً مع معاوية لسهام الخوارج الذين رأوا تكفيرهما وأباحوا دمهما ون سار على غرارهما من المسلمين .

وكان أول أمرهم أشد عنفاً على عليّ لأنه كان أقرب إليهم حرباً ، ولأنهم كانوا من

(١) قتل غدراً بعد انتهاء المعركة الفاصلة وقد أرسل الأحنف بن قيس بن جرموز عليه فطمعه من ظهره وهو يصلى وأخذ خاتمه وسلاحه (الطبرى ط أوربا ج ٦ ص ٣٢١٨ في حوادث سنة ٣٦ للهجرة) .

جمعه ، فقد عدوه ناشراً عن طاعتهم ومخالفاً مشورتهم في أمر التحكيم ، فكفروه ودعوه إلى التوبة ثم قاتلوه ، ففتك بهم في وقعة « النهروان » وأطار جماجمهم كثير الهشيم .
وانفض أصحاب عليّ من حوله فوجدنا أسفه وأحزانه على وحدته هذه كأنغام شاجية في خطب نهج البلاغة ، تطل أبد الدهر معولة ، مسفوحة بدموع شيعته .

ونشأت الدولة الأموية بخيلها ورجلها وحروبها ووقائعها فإذا نامة الزبيريين : عبد الله في الحجاز وأخوه في العراق ، وإذا الشيعة منبذون يضطهدهم الأمويون والزبيريون والخواارج ، وإذا الخوارج - أغوال الدولة ومردة جحيمها - أهدروا دم الزبيرية والشيعة والأموية وكل مسلم غيرهم تحت السماء . وحين استتب الأمر للأمويين ومن بعدهم للمروانيين حكموا السيوف في مقاتل الخوارج . فلما انهزم الزبيريون جمع الأمويون عديدهم وعدتهم حتى استأصلوا شأفة الخوارج أو كادوا . وما كاد الأمويون يتنسمون الراحة حتى انقسموا على أنفسهم وحارب بعضهم بعضاً ، فهبت الهاشمية المغدورة من مكانها . فأتت عليهم . فكان ذلك ختام عهدهم الدامي .

ففي وقائع هذا العصر الأموي وفي مقدمته قال شعراء كثير شعراً في الحرب لكل منهم نزعة خاصة من حزب أو فريق ، ولكل من هؤلاء الشعراء دعوة في شعره الحربي لهذا الحزب أو ذاك الفريق ، أو دفع ومحاماة . وبات المؤرخ الأدبي الذي ينظر إلى هذه القصائد لا بد له من الأخذ بالسياسة لتوضيح الأدب واكتناه جوهر الشعر الذي يتعلق بالحرب ليصني الشعر الحماسي الذي قاله العرب . وذلك ما أُعنى به في هذه الرسالة ، إذ يكون هذا الشعر الحربي الذي قيل في المواقع والحروب الأموية غايته في حماسته وفروسيته ، وأسلوبه ولغته ، ومعانيه وغاياته ، ولسهولة دراسته قسمته إلى :

- | | |
|--------------------------------|-----------------------------------|
| (١) شعر الخوارج في الحرب . | (٢) شعر الشيعة . |
| (٣) شعر الزبيرية . | (٤) شعر الأمويين والمروانيين . |
| (٥) شعر المهجائين في الحرب . | (٦) شعر الحرب وراء خراسان . |
| (٧) الشعر في حروب الروم . | (٨) الرجز وأوزان الشعر الحربي . |

وليست بغيتي أولاً سوى الشعر وحده ضمن نطاق الفروسية والحماسة ، والوصف والبيان في المعاني والمباني . ولا ضير على الأدب في أن يستعين بحوادث التاريخ لماماً ، وبتيارات السياسة حول الكلام على هذا الشعر تسليداً لبحثه وموضوعه لعلّي أتقرب من الغاية المنشودة مستطاع جهدي .

شعر الحرب عند الخوارج

لو بعث الخوارج في هذا الزمن ، فشاهدوا حرب الإنجليز والألمان وجلاد الروس والأمريكيين واليابان ، لما شابت نواصيهم ولا فغرت أفواههم من هول ما يشاهدون ، ولكن لهم رأى في عرّادات الحديد ولا فظات النار من المدافع القاصفة والدبابات العاصفة والطيارات الراجفة .

وأحسب أن كل هذا الهول الذي نعاصره لن يخلب ألبابهم فيخالوا أنه سحر من الجن ولن يبعث في نفوسهم الزرابة بسلاحهم وهو الرمح والسيف والدرع والخنجر . ولن يميلوا عن مواكب مطاياهم السلاهب الجياد ، وسيكون لهم رأى واحد معروف عنهم منذ ملحمة صفين حتى أيام الحجاج والمهلب ومن خلف من أعدائهم .

ذلك الرأى هو « الفناء في الحرب » وأحسبهم لو عابنوا جيوش عصرنا وعتادها لزادهم تهكماً واستصغاراً . ولتمنوا يوم ذلك على خالقهم لو كانت لهم أجنحة يطفرون بها في السماء فيرتفعون عن هذه الأرض العاشمة التي لم تقدرهم قدرهم من الشجاعة الباهرة والفروسية الأسطورية . ولعلمهم يتنادرون طويلاً حين يبلغهم أن جيوشاً عن بكرة أبيها كانت تلقى السلاح هاربة من الموت إلى الحياة مؤثرة للعافية على القتل ، يرفع جنودها أيديهم إلى ربهم علامة الانخزال ، ويلوحون بأعلام بيض إشارة التسليم ، تجللهم بسواد الذل في أعمارهم الباقية .

ولو أن الخوارج بعثوا وردّوا إلى أبا من لا آثروا العودة إلى التراب الذي تروى بدمائهم فيظلمون في أطباقه مطشّنين ، مطبقين أعينهم القريرة على ميتة العز والإباء ، فإنهم هم الذين قاتلوا ملء الجوارح والجوانح وعشقوا الحرب عشق المتيمن الهائم للغواني ، وما رفعوا أيديهم إلى ربهم صغاراً وما لوحوا بالأعلام البيض تخاذلاً وتسليماً .

حتى إذا هاج أخبارهم في الحرب وأنشد أشعارهم في الضرب والطعان ففى مثلى في أعقاب الزمان هشت رمامهم في ثراها ، فودت لو جمعت عظاماً وكسيت لحماً ودبت فيها الروح فتهب من مطاوى العفاء ، تمتشق الحسام وتهدر كالفحول ، وبأيديها الرماح ، وأفواهها تصيح ملء الفضاء :

— لا حكم إلا لله .

فإذا خامر تلك النفوس روعة أورهة وهى فى زحام الأبطال وحومة النضال، صاح بها أصحابها زاجرين بقول قطريّ بن الفُجاءة شاعرهم العظيم :

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لن تطاعى
فصبراً فى مجال الموت صبرا فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز فيطوى عن أخى الخنع البراع
سبيل الموت غايصة كل حى فداعيه لأهل الموت داع
ومن لا يغتبط يسأم ويهرم وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير فى حياة إذا ماعد من سقط المتاع

تلك موعظة قطريّ بن الفُجاءة المازنى . وكان رأس الخوارج وسيد فرسانهم وشعراهم، وقد قامت الحرب فى هذه الأبيات بينه وبين نفسه التى ملّت فرار الكتائب وترجبة الصفوف وحومة الوغى، ففزعت وولت، فوقف فى بهرة الحلقة بيوم حرب يحاورها بشعر الحرب ويقنعها بدليل من الإيمان وحساب الأعمار .

ولم يك قطريّ خطيب الحرب بينه وبين نفسه فعسب ، وإنما كان خطيبها الأكبر على رءوس الأجناد . ولو أن تاريخه وأخبار صحبه قد كتبها ناس متجردون من نوازع النفوس والهوى لخاصنا نبؤه الصحيح . ولكن ليس فى أيدينا مما سلم من تاريخه سوى حفنة صغيرة من أشعاره ، مبعثرة فى كتب التاريخ والأدب القديم . فكأن التأليف عصر بنى العباس اصطلاح على اضطهاد الخوارج ، وطغى على المؤلفين فوصفوهم بأنهم لصوص وشذاذ آفاق . ولكنهم لم يستطيعوا أن يطمسوا حقائق فروسيّتهم التى ينبغى أن تكتب فى تاريخ الشعر الحماسى بأعز صفحة من صفحات عصوره .

فإذا توزعت البغضاء أخبارهم ، وافتقد كل مؤلف سهولة جمعها وترتيبها وعز على المفكر الحر أن يلعنهم ، فلا أقل من أن يجمع شعرهم وقد قيل أكثره فى الحرب ، وهو على قلته التى وصلت إلينا يكفى أن يعطينا صورة صحيحة عن فروسيّتهم وكفاحهم ، وروعة أوصافهم للوقائع والمعارك .

لقد كانوا غلاة فى الاعتقاد الدينى عقّدوا آراءهم فى التوحيد ، والوعد والوعيد ، والإمامة

وكانوا كذلك غلاة في حربهم ، قست قلوبهم في سفك الدم والتخريب ، وغلظت أكبادهم في أحكام الحرب ، حتى استباحوا قتل الأطفال ، وعللوا ذلك بإبادة أعراق الظالمين لئلا يخلف من بعدهم خلف يضيعون مثل آبائهم كتاب الله وسنة الرسول (١) .

وكانوا يفرعون إذا هدأت ثوراتهم ، إلى ذكريات قتلاهم فيثيرون أحقادهم . وكان قتلى « النهران » سبيلا دائما إلى إيقاظهم كلما استجمعوا أو هددوا بعد الحرب . ولم يعثروا في عيشهم بلبوس أو طعام ، وإنما كانوا كما وصفهم عبد الله بن عباس لما أرسله على إليهم ليحاجهم فلم تجد عندهم حججه الدوامغ ، ولا نفعه التحاور معهم ولا الجدال فرجع إلى على يصفهم فقال (٢) : إنه رأى لهم (جباها قريحة لطول السجود ، وأيديا كثفنت الإبل عليهم قمص مرخصة وهم مشمرون) .

ولقد شردوا في الجبال والسهول معتصمين بإيمانهم وقد نذروا أرواحهم للإسلام ، وكأنهم كانوا يريدون أن يخلصوا بأنفسهم من أضرار البدع والضلال القائمة بشخص الأئمة الحاكمة . نفروا من أول يومهم نفرتهم الكبرى بعد أن دعاهم إليها أحد زعمائهم الأوائل عبد الله ابن وهب الراسبي حين قال لهم (٣) « اخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة » .

ولكم عجبت كيف جمعوا فضائل الشجاعة والورع والتفاني في الدفاع عن حوزة الإسلام ، وكيف كانوا يبتغون في الدين المثل الأعلى والغاية السامية . مجردة عن باطل الحياة ورغبات الخليفة ومنالة الدنيا . وبت مفكرا في أمرهم الغريب ، إذ باعوا الله أنفسهم واشتروا بتقواهم جنات النعيم فسماهم الناس « الشراة » . ولقد كانوا عرباً أقحاحاً نمتهم الأعراق العربية الأصيلة .

كانوا من أعماق السجون يحنون إلى الحرب ولا يخشون من سلطان السجان ، ففي عهد المغيرة سجن هماذ بن جون بن حصين وكان من شعرائهم فأرسل إليهم من محبسه يقول (٤) :

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ شرى نفسه في الله أن يترحلا
فشدوا على القوم العداة فما أرى إقامتكم للذبح رأيا مضللا

(١) ذلك رأى نافع بن الأزرق شيخ الأزارقة من الخوارج في دفع هذه المثلبة (الأغاني ط دار الكتب

المصرية ج ٦ ص ١٤٢) .

(٢) الكامل ج ٢ ص ١٣٤

(٣) الطبرى ج ٦ ص ٤٢ .

(٤) الطبرى ج ٦ ص ١٠٧ .

فيا ليتنى فيكم على ظهر سايح شديد القصيرى دراعاً غير أعزلا
مشيحا بنصل السيف في حَمَس الوغى يرى الصبر في بعض المواطن أمثلا
ولو أننى فيكم وقد قصدوا لكم أثرت إذأ بين الفريقين قسطلا
فيارب جمع قد فلتت وغارة شهدت وقرن قد تركت مجندلا

وكان ينبغي لمن ضم هذه الفضائل الدينية المطلقة ، وتلك الشجاعة الفائقة أن يتسامى عن الإسفاف وسفك الدماء بغير حق . فقد كانوا في مراحل تمردهم يعترضون عابرة السبيل ، فيستوقفون من يجدون من المارة يسألونهم أسئلة في معتقدات الخوارج ، فإذا لم يجيبوا إليها قتلوهم شر قتلة .

وهم في كل ذلك ما حادوا عن تحييف الغلاة الذين ذكروا في تاريخ الأمم مقرونة أعمالهم بفظاعات تقشعر لها الأبدان . ولقد سجل تاريخ عصرنا نكبات أتاها المحاربون في معسكر الاعتقال من تعذيب الأحياء وخنقهم بالغاز ، أو إحراقهم ألوفاً وهم أحياء وأموات . ولولا الجموح والطغيان الذى يصيب المحاربين ، لما تلمست سبيلا إلى النظرة في مثالب الخوارج ، بترويعهم الآمنين ، وافتراءهم على الأبرياء .

وكيف دار أمرهم ، فقد نصبوا أنفسهم باختيارهم غرضاً للرماة ، فنضجهم المسلمون من كل جانب بالنبل . فكان أول من أعمل فيهم القتل على بن أبى طالب وشيعته ، ثم تلقاهم من بعده المغيرة والزبير . ثم المهلب والحجاج . وآل بهم الأمر إلى أن يكونوا هدفاً في أكثر الحروب الداخلية التى نشبت زمن بنى أمية ، وأن تظل فلولهم موضع النعمة والعذاب ، حيناً من دهر بنى العباس .

إني لأندفع بين أشعارهم الحماسية ووقائعهم في « النهروان والنخيلة » وحروراء ، ويوم دولاب ، ويوم سولاف « فأراهم حيناً متجمعين وحيناً مشتتين ، تلحقهم الحروب من كل جانب حتى أجلاهم المسلمون عن أرض العرب فعبروا الفرات إلى تخوم فارس ، ثم تجاوزوها فهم بأرجان ثم في أصبهان وسابور ، واعتصموا بإصطخر . وكانوا يفتكون بكل بلد نزلوه خشية غدر أهله ، حتى إن « قطريا » هدم لإصطخر على أهلها ، لأنهم كاتبوا بأمره المهلب سرّاً ، ثم صار أمرزعيمهم هذا إلى الاعتصام بطبرستان .

وكانوا أعرف بفنون الحرب من سائر المسلمين ، يحسنون توقى البيات ، ويتقنون ضرب الحصار والتفلة منه ، واصطياد الغفلة من الخصم . وكان من أطرف ما عرفت لخصومهم

أنهم كانوا يستعملون أساليب الإذاعة والدعاية في ساحات القتال عند وقوف الحرب أو الاستجمام، على نحو ما عمل الفرنسيون أوائل الحرب العالمية الثانية . فقد كانوا ينصبون أبواباً على أبراج حصون « ماجينو » يدعون بها الألمان إلى إلقاء السلاح ، أو يتندرون بهم ، فيجيبهم الألمان برصاص البنادق والرشاشات . فقد روى صاحب الكامل والطبرى^(١) أن الخوارج في أيام حصارهم كانوا يتواقفون ويحمل بعض الطرفين على بعض ، وربما كانت موافقة بغير حرب ، أو ربما اشتدت الحرب بينهم . وكان رجل من أصحاب « عتاب » يقال له « شريح » ويكنى « أبا هريرة » إذا تحاجز القوم مع النساء نادى بالخوارج وبرئيسهم الزبير بن على :

يا ابن أبي الماحوز والأشرار كيف ترون يا كلاب النار
شد أبي هريرة الهرار يهركم بالليل والنهار
ألم تروا « جيساً » على المضمار تسمى من الرحمن في جوار^(٢)

غاض الخوارج ذلك ، فكمن له عبيدة بن هلال فضربه ، واحتمله أصحابه خصوم الخوارج . فظنت الخوارج أنه قد قتل فكانوا إذا تواقفوا نادوهم : ما فعل الهرار ؟ فيقولون ما به بأس ، حتى أبل من علة ، وخرج إليهم فصاح : يا أعداء الله أترون بني بأساً ؟ فصاحوا به : قد كنا نرى أنك لحقت بأملك الهاوية ، في النار الحامية .

آن بعد الإلام بشجاعة الخوارج ، واستشرائهم في الحرب ، وضراوتهم ، أن أبداً بأشعارهم . لقد كان أشعرهم قطري بن الفجاءة ، له في شتيت الكتب مقطوعات أربع وأبيات مبعثرة منفلة من قصائد لم تصل إلينا . وقد كان أبو تمام ضنياً برواية الشعر الخارجى ، مع حفاوته بالشعر الحماسى القديم ، فلم يرو في حماسه لقطري بن الفجاءة سوى مقطوعتين قصيرتين وبيتين اثنتين^(٣) . وأحسب أن أبا تمام حين حبسه الثلج في همدان فجمع ديوان الحماسة من مكتبة صاحبه الذى نزل عنده ، لم تفعل في برد جسمه نار قطري ذى الشجاعة المتوقدة ، فلم يختر له سوى تلك الأبيات القلائل ، وأحسبها أقل شعره .

أما المبرد فقد عنى به في « الكامل » ، فروى له قصيدة ميمية في (أم حكيم) وحرب

(١) الكامل ج ٢ ص ٢٠٨ والطبرى ج ٧ ص ١١٦ .

(٢) جى مدينة كانوا محاصرين في أسوارها .

(٣) شرح ديوان الحماسة الطبعة الأولى لفرايتنغ ص ٤٤ ، ٦٠ ، ٣٣١ .

دولاب . واحتفى به مؤدب مصر في مستهل نهضتها المعاصرة السيد على المرنسي في كتابه « رغبة الآمل من كتاب الكامل » . وفي أسرار الحماسة في شرح حماسة الطائي . وروى لقطري أصحاب التاريخ كالمسعودي والطبري مقطوعات من هذه الفوائد ، وشعراً آخر قاله رسالة إلى ابن جعد نديم الحجاج .

كان شعره هذا لهيباً من البطولة ، تموج فيه المروءة والنخوة والإقدام . فهذه حرب دولاب^(١) ولم يكن فيها « قطري » رأس الخوارج ، وإنما كان من أعيانهم ومداويدهم . فقد تقدمه في قيادة أمرهم نافع بن الأزرق ، وكان قطري من أبطال هذه الحرب المستعرة التي جهز إليها ابن الزبير أمير البصرة جيشاً لجباً ، عليه مسلم بن عبيس الذي وصف الخوارج بقوله : « إني لأحارب قوماً إن ظفرت بهم فما وراءهم إلا سيوفهم ورماحهم » . ودامت معركة دولاب عشرين يوماً ، وكان الخوارج أقوى عدة بالدروع والجواشن وكراديس الخيل . وذلك سنة خمس وستين للهجرة في جمادى الآخرة^(٢) . ويقول الطبري عن الخوارج في هذه الواقعة وما بعدها^(٣) : « جاءوا وهم أحسن عدة وأكثر خيولاً وأكثر سلاحاً من أهل البصرة . وذلك لأنهم غفروا الأرض وجردوها وأكادوا بين كروان إلى الأهواز فجاءوا عليهم مغافير تضرب إلى صدورهم وعليهم دروع يسحبونها ، وسوق من زرد يشدون بها بكلايب من الحديد إلى مناطقهم » .

وراح الخوارج جزاين يرحون في فرحة النصر ويحمدون الله على انحسار الغمة . وكأني بهم في أمسية من أماسيهم على أرض ميثاء من ضواحي الأهواز بعيداً عن أعدائهم المهزومين الذين عبروا النهر وانصرفوا نحو البصرة ، جلسوا تحت تلك الأمسية يضمدون جراحاتهم ، ويعدون قتلاهم ويترحمون عليهم ، ويقرنون أسماءهم بشهداء النهروان ، ومن مضى على آثارهم من المفتدين المبتهلين . وكان قطري في جمعهم تلك العشية يستوحى شعره ، فهاج الظفر بلابله فتذكر زوجته (أم حكيم) ولم يكن سيدُ فرسان الخوارج ليصبو إلى أم حكيم بعد (حرب دولاب) لو لم تكن أم حكيم في البطولة مثله ، زان جمالها البسالة . فلقد كانت من أجمل النساء ، في شجاعة الرجال ، متمسكة بدينها وكانت من القانتين . وتزاحم على صباها وهواها قلوب الخوارج ، فخطبها أفذاذهم فردتهم متآية عليهم ،

(١) الطبري ج ٧ ص ٨٥ مكان من أرض الأهواز .

(٢) المصدر السابق .

(٣) تاريخه ج ٧ ص ٨٨ .

فقد آها الخوارج وعدّوها مثالية، حتى قال عنها ميمون بن هارون: « ما رأيت قبلها ولا بعدها مثلها^(١) ». ولعلها كانت، إذ ردت عنها خطابها، لا تصبو نفسها إلا إلى بطل واحد مثلها كريم الأعراق زكى القلب، كقطرى، وكيف بغيره ترضى، وهى إلى ما جمعت من ملاحاة النساء كانت صعبة المراس تحمل مع الخوارج على أعدائهم. لقد كانت وهى تحمل على الفرسان فى الحرب تتمنى لو أتيح لها فارس أشد منها بأساً وأصوب ضرباً فيطيح برأسها ويريحها من حملة ومن القيام بواجبات الأنوثة نحوه من تغسيل وتدهين وتمشيط وتزيين، فتقول فى رجزها وهى تقاتل:

أحمل رأساً قد مللت حملة

وقد مللت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عني ثقله

فيود ذلك الفتى (قطرى) لو كان رأسه هو المنادى عليه.

ولعله ذكر فى ذلك المساء بعد هدأة من العشاء (أم حكيم) فطاف فى عينيه حلمها المعسول. وطيفها الجميل فأحس بحبه للحياة بعد أن زهد فيها، وتذكر بياض (أم حكيم) وشفاءها لعلة المحزون السقيم، وأحسبه — كما يعترف — كان إذا شجر بينه وبينها خصام رفع كفه فلطم بها وجهها الصبوح. لقد لمع فى خاطره ما تقدم من ذنبه فى ضربها، ولطم وجهها، فغالبته الندامة. وتمنى لو كانت تشهد فتكه فى يوم دولاب.. وانسرح خياله فراح يصف لأم حكيم حرب دولاب وما لقيت بكر بن وائل حين غرقت هى والأزد فى ماء «دُجَيْل» وطفقت على وجهه لحنى الغرقى من شيوخ الأزد^(٢)، وجرت الخيول محممة على تميم، ثم عاجت على عبد القيس شفرات السيوف، وعلى أحلافها قبيلة يحصب وقبيلة سليم، ثم يزر جر قطريا على خيال الهوى والظفر دم مسفوك وجراح وصرعى من قومه امتلأت بهم الساحة، فتفيض أحزانه ومواجهه على مقتول كريم نجيب، لعله كان له أخاً أو حميماً، أو كان أباً لأم حكيم أو شقيقاً أو لعله كان نافع بن الأزرق نفسه لأنه قتل فى هذه الواقعة. فترعه حسناء تضرب خدها معولة وتبكي عليه، وقد تكون هذه الحسناء أم حكيم نفسها، فقد سقط ذلك البطل صريعاً فى دولاب، غريباً عن موطنه، فجمع قساوة القتل إلى

(١) الأغاني ط دار الكتب المصرية ج ٦ ص ١٥٠.

(٢) كما كان يقول الشاعر من الأزارقة يوم ذاك:

يرى من جاء ينظر فى دجيل شيوخ الأزد طافية لحاها

مرارة الاغتراب . ثم يعاوده خيال (أم حكيم) في زحام هذا الهول فيتمنى لو كانت تشهده وقومه وهم يستببحون حمى الكفار فترى أولئك الخوارج الفتيان الذين باعوا الإله نفوسهم ، لينالوا يوم القيامة جنات عدن ، وحظوة فردوسه الأعلى .

كذلك كان (قطرى) بعد حرب دولاب يقول^(١) بشعره :

لعمرك إني في الحياة لزاهد	وفي العيش ما لم ألقَ أم حكيم
من الخفريات البيض لم يُر مثلهما	شفاء لذى بث ولا لسقيم
لعمرك إني يوم ألطم وجهها	على نائبات الدهر جد لثيم
واو شهدتني يوم دولاب أبصرت	طعان فتى في الحرب غير ذميم
غداة طفت في الماء بكر بن وائل	وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول حدنا	وأحلافها من يحصب وسليم
فلم أر يوماً كان أكثر مقعصاً	يمج دماً من فائظ وكليم
وضاربة خدّاً كريماً على فتى	أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطناً	له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتها يوم ذاك وخيلنا	تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم	بجنات عدن عنده ونعيم

* * *

وكان قطرى بن الفجاءة يؤثر في شعره هذا أن تكون (أم حكيم) تشهده وهو يصارع الأبطال . وهذا شعور غلب على أكثر شعرائنا الأبطال — على نحو ما أشرت إلى ذلك في التمهيد من أن أحب الشعراء الشجعان للتحديث عن محبوباتهم في شعرهم الحربى مهدد لبطولتهم — وقد عرف العرب الجاهليون والإسلاميون ذلك من شعرائهم . فقد كان هؤلاء الشعراء الحماسيون يتمنون لو شهدتهم نساؤهم في العراك والطعان ، ليملكوا قلوبهن بشجاعتهن إذا لم يملكوهن ، بجمال الجسوم ووسامة الوجوه وملاحة السمات .

وقد كلف من الغربيين بتصوير أمثال هذا التعاطف الروائيان كورنيه وراسين من شعراء الأدب الكلاسيكى في فرنسة ، فبنيا كثيراً من رواياتهم التمثيلية عليه فكانت نساء الرواية تكلف بشجاعة الأبطال أكثر من كلفها بجمالهم . وكان الأبطال يبذلون من مظاهر

فروسيتهم كثيرا من المواقف ليمتلكوا بذلك قلوب النساء كما في رواية « السيد » لبيير كورنيه ، فإن الحسناء « شيمين » بنت « الكونت كوماز » صفحت عن معشوقها قاتل أبيها إعجابا بفروسيته ، وانتصاره في الحرب على قبائل المغاربة في حروب الأندلس .

وكيف جاء وصف قطرى لحرب دولاب ، فإننا لا نستطيع أن نطالبه بأكثر مما وصل إلينا من شعره . ومن يدرى ؟ فلعل قصيدة « أم حكيم » كانت أطول من ذلك نفسا ، وأحكم في أبياتها ، وكفى بما بلغنا منها ، أن يصور هول تلك الحرب التي هلك فيها قرم من أقوام الخوارج هو نافع بن الأزرق ، فأبقى لنا منها صورة مختصرة ، ولكنها واضحة وضوحا يمكن الخيال من تمثيلها على وجهها الأكمل .

لقد استهلها بالغزل والحنين إلى الحبيب الغائب ، ثم سلك إلى دولاب سبيل الوصف ، وختمها بالناموس الديني عند الخوارج منذ غداة التحكيم ، وهو استباحة دم كل من ليس خارجياً مثلهم ، وبيعهم أنفسهم لله في الدنيا لينالوا من لدنه نعيم الفردوس جزاءً وثاباً . فلذا عد قطرى محاربيه خارجين على الدين ، فوصفهم بالكافرين ولم يعد فيما أثر له من شعر قليل هذه التزعة التي يمزج فيها كل (خارجي) فروسيته بدينه .

لقد كان شعر قطرى صورة لحقيقة قلبه وعقله ، وكان صدى لكل خارجي مجاهد متعب . إن قلبه قد امتلأ بحب الحرب ، واستولى على عقله جدل التدين وفقه العقيدة . وكان يهوله أن يند من أصحابه رجل كابن جعد ، فيكون سميماً للحجاج ونديمه ^(١) . وأن يقعد عن مشاركتهم في حرب الحجاج وأصحابه ، فأرسل إليه شعراً يعاتبه فيه . وصف بهذا الشعر مجاهدته للفرسان وصبره على السيوف في حرب المهلب بن صفرة ، والقرام ابن جعدة لباس الخنز عند أمير لا يأمر بتمتوى الله . وختم رسالته الشعرية هذه بناموس الخوارج وشعارهم الديني في ثواب الآخرة (كما تقدم) وهو الغاية القصوى بعد جهادهم للكفار فكتب إليه :

لشتان ما بين ابن جعد وبيننا	إذا نحن رحنا في الحديد المظاهر
نجاهد فرسان المهلب ، كلنا	صبور على وقع السيوف البواتر
وراح يحز الخنز عند أميره	أمير بتقوى زبه غير أمر
فسر نحونا تلق الجهاد غنيمة	نفسك ابتياعاً راجحاً غير خاسر

وإني لأجد بين شعره هذا وبين قصيدته بأم حكيم ما أجد من الفرق بين شعر يخلع

عليه خيال المرأة بهجة السبك وحلاوة القول ، وتزيده فحولة الفروسية رصانة التعبير وجزالة اللفظ وشعر يقوله قائله بوازع من التزمت فتسوده روح الفقه والموعظة وتطغى على ما فيه من وصف البطولة .

على أن أبا جعد قد عمل فيه هذا الوازع فهجر الحجاج والتحق بالخوارج فقاتل معهم وخالط بروحه أرواحهم . فكان في النهار يهيج مع الخوارج هياج الليوث ، وفي الليل يتعبد ربه باكياً كالنساء المعولات . لقد ترك الحجاج هارباً إلى عصابة الخوارج ، تاركاً للحجاج رقعة فيها شعر منه هذه الأبيات :

فأقبلت نحو الله بالله واثقاً وما كرتني غير الإله بفارج
إلى عصابة ، أما النهار فلأنهم هم الأسد أسد الغيل عند التهايج
وأما إذا ما الليل جن فلأنهم قيام بأنواح النساء التواشج
فلم يعد في أبياته وصف الخوارج بكلمتين لا ثلاثة لهما وهما :
« الفروسية والدين » .

أما بقية شعر قطري في الحرب فمثل ما تقدم منه ، فيه هذه الروح التي تزجر المتخاذلين ، وتنضح بالقتال ، لأن الحياة زائلة ، وشرف الموت على حد السيوف أعز وأبقى . فهو في أبياته القليلة الماثورة يصور شجاعته وبأسه ويقول :

لا يركن أحد إلى الإحجام يوم الوغى متخوفاً لحمام
فلقد أراني للرماح دريئة من عن يميني مرة وأمأى
متعرضاً للموت أضرب مُعلماً شهم الحروب مشتهراً بالأعلام
أدعو الكماة إلى التزال ولا أرى نحر الكريم على القنا بحرام
حتى خضبت بما تحدر من دمي أطراف سرجي أو عنان بلحاي
ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب جذع البصيرة قارح الإقدام

وأين أستقصي قطريا في شعر حربه . فإن كان هذا كل ما قاله - وهو ما لا أذهب إليه - فلقد حال اندفاعه إلى الحرب وحوماتها ، عن القول في صفاتها ، أن الخطوب حملته ومعشره على غواربها فكان آخر نصر لهم في يوم سولاف^(١) بعد شهر من قراع المهلب ،

(١) مكان بناحية الأهواز .

وقد ابتلوا منه بويل وصلابة ، ولما صار الأمر فيهم إلى قطرى خانة أصحابه فخلعوا بيعته بعد أن بايعوه بالخلافة ودعوه بأمر المؤمنين^(١) . ثم تابعت عليه الهزائم والانكسار في يوم (سلى وسليرى^(٢)) فلجأ صعبه للشعر يروحون به عن أنفسهم كقول واحد منهم :

وكائن تركنا يوم سولاف منهم أسارى وقتلى فى الجحيم مصيرها

وحين شردت قطريا جنود المهلب انفض عنه المحاربون لإفئدة من الرجال وبضع عشرة امرأة فعثر حتى سقط على منحدر . فابتدر إليه قاتلوه ، وخالجه عطش فساوموه على سلاحه بشربة ماء ، فأبى ! فابتدروه عاثراً فقتلوه ، وادعى كل فارس أنه صاحب رأسه . لكنه مات ميتة بطل ، وزاد على البطولة أنه كان الشاعر الخارجى الأول ، الذى وقف شعره على الحرب .

وشعره فى ميزان الأدب — كما أجده — متفاوت القيمة . فقصيدته فى أم حكيم فى ذروة الشعر الحربى ، بل فى عداد الجياد مما قال شعراء العرب من شعر رفيع الصوغ ، محكم البيان والمعانى ، لم تنفر كلماته ، ولا ندت أبياته فكأنه صورة رائعة الشعاع واللون ، إنه جمع بين لين الكلمات الغزلة ، وفجاعة الحزن ، وصلابة الحماسة . أما أشعاره الباقية فتفاوتة بين الجزالة والرقّة ، ولكنها جميعها لا تنهض إلى جو شعره فى أم حكيم ، فإن تلك الميمية التى قالها فى حرب دولاب نعمة إنسانية مصبوغة بالدم ، ميادة بالهوى ، فوارة بالحماسة .

* * *

قرنت عمران بن حِطّان بقطرى ، فوجدت عمران أصلب من قطرى ديناً وأشد غلوّاً فى فكرة الخوارج وانصرافاً إليها ، لكنه دونه فى الشجاعة والبأس ، فإن قطرياً أحكم الخوارج شجاعة وبأساً ، وهو على قلة شعره الحربى الذى سكب فيه خلاصة فنه ، قد أمسك بعنان شعر الحرب ونزعة الخوارج ، فسار بهما فى شوط واحد . أما عمران فقد انحط ملياً فى شعر الحرب ، وفى حلة الفروسية وسورتها . وبلغ من طغيان مذهبه الدينى على شجاعته

(١) ذكر أبو زكريا التبريزى فى شرحه لميمية قطرى فى حماسة الطائى أن القوم سلموا على قطرى بالخلافة

ثلاث عشرة سنة (نسخة فرايتغ ص ٦١) .

(٢) منزل من منازل الأهواز .

وحربه أن اعتزل القتال فكان من القَعَمَدَةِ حين ضعف عن الحرب وحضورها^(١) ، فاقصر على الدعوة بلسانه ، على أنه كان حديث عهد بنزعة الشراة ، فقد روى عنه أنه كان مشغوقاً بطلب العلم والحديث قبل أن يفتن بهم .

وكان هروبا فلم يصمد للحجاج ، فشرد بين القبائل مستخفيا ، منتسبا نسباً كاذبا ، ليضل الأعين عن سبيله ، ويغرر العارفين به . ولم يخلص إلى أيدينا شيء كثير من شعره الحربى حين كانت له مشاركة فى الحروب . ويروى القيروانى فى « زهر الآداب » أن الحجاج أمسك به ثم أطلقه ، فدعاه الشراة إلى معاودة الحرب وقالوا له لم ينجك إلا الله ، فارجع إلى حربته معنا ، فقال لهم هيهات ، وأنشد شعراً فى طوعه وانصياحه للحجاج . لكنه ترك أبياتا من شعر الحرب صبيغة بالدم راجفة بالذكرى المرة ، أظهر فيها الشهامة بمقتل على بن أبى طالب ، وأثنى على قاتله عبد الرحمن بن ملجم المرادى فقال فيها :

يا ضربة من تقي ما أراد بها	إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إني لأفكر فيه ثم أحسبه	أوفى البرية عند الله ميزانا
لله در المرادى الذى سفكت	كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
أسمى عشية غشاه بضربته	ما جناه من الآثام عريانا

ولا أشك فى أن شعر عمران فى الحرب قد فقد أكثره ولم يصل إلينا سوى نزر ضئيل منه ، ما قاله فى رَوْح بن زبياع الجذامى : بعد الخلوص منه والحرب لوجهه . فقد تهكم فى هذا الشعر على الحجاج بن يوسف لما اعتصم خائفاً بالحصن من غزاة الحرورية ، وأسميها « جان دارك » الخوارج ، التى دخلت عليه الكوفة وزوجها شبيب الخارجى ، ولم ينج الحجاج سوى عبد الملك إذ أرسل إليه من يعينه على حرب شبيب ويفرج عنه غمرته فى حصنه ففرح عمران بانخزال الحجاج فقال فيه :

أسد على وفى الحروب نعامة	ربداء تجفل من صغير الصافر
هلا برزت إلى (غزاة) فى الوغى	بل كان قلبك فى جناحى طائر
صدعت (غزاة) قابله بفوارس	تركت مسدابه كأمس الدابر

وفاض فى حروب الخوارج ذكر غزاة هذه وقيل إنها كانت بطلة شاعرة ولها ما أثر

في الحرب . ولما طالت الحرب بين غزاة وأهل العراق وهم لا يغزّن شيئاً قال الشاعر :
(أيمن بن مُخرّم) :

رأيت غزاة إذا طرحت بمكة هودجها والغبيطا
ألا يستحي الله أهل العراق أن قلدوا الغانيات السموطا
ونخيل « غزاة » تسبي النساء وتحوي النهاب وتحوي النبيطا
(الأغاني ٢١ - ٨)

فأين شعر غزاة الخارجية في الحرب ؟ وما خبر تلك الفروسية في قصيدها وكانت شاعرة
كما يقولون ؟ . وقد كانت غزاة عنيفة قاسية كزوجها ، فقد هجم على مسجد الكوفة
وجعل وصحبه يقتل المصلين فيه^(١) .

كانوا في طغيانهم هذا هم والخوارج كسيل هائج يأخذ ما يلقاه في دربه ولم يكن همه
النهاب والسلاّب لوجه المال ، وإنما كانوا أبداً هائمين على وجه مذهبهم وغائية دينهم ، قد
اتخذوا شبا السيوف سبيلاً إلى نشر فكرتهم ، وإهلاك أعدائهم الذين يرون كفرهم ، حتى
طغى مذهبهم بالعنف والطوع على كثير ، وجر إليهم محاربين كالطرواح بن حكيم وكان
فارساً ظهرت في شعره فروسيته ، إذ يقول :

فلبست للحرب العوان ثيابها وشببت نار الحرب فهي توقّد

وكان هذا الشاعر من أصحاب المروانيين فدح يزيد بن المهلب الأزدي ثم رثاه ،
ولإعجابه بالمهلب وأولاده مدح الأزدي كلها ، لكن الخوارج وجدوا السبيل إلى قلبه فجروه
إلى مذهبهم فهام به وهب نحوهم ، وحن إليهم ، حتى قال فيهم^(٢) :

لله در الشراة إنهمو إذا الكرى مال بالطلّى أرقوا
يرجعون الحنين آونة وإن علا بهم ساعة شهقوا

على أنه مع حبه للخوارج ، وأنه كان يرى رأيهم^(٣) فليس في ديوانه شعر يصف فيه

(١) الطبري ج ٧ ص ٢٣٣ .

(٢) ملحق ديوانه نشر كرنكو طبع لندن سنة ١٩٢٧ القصيدة رقم ٣٧ .

(٣) الأغاني ط دار الطباعة بمصر سنة ١٢٨٥ ج ١٠ ص ١٥٦ .

حروبهم ويصور معاركهم التي كانت أكثر معارك الحروب الداخلية وأروعها في عهد بني أمية .

* * *

وثمة شعراء خوارج أثر لبعضهم شعر طويل ، كعمرو بن الحصين قاله « يوم قديد » وهو مكان بالقرب من المدينة خرج فيه الحجازيون لقتال الخوارج^(١) « وهم لا علم لهم بالحرب فخرجوا في المصبغات والثياب الناعمة واللهم لا يظنون أن الخوارج شوكة » وتوافقوا حيناً ثم بدأ القرشيون فرموا سهماً قتلوا به رجلاً من الخوارج ، فصاح أبو حمزة الخارجي شيخ هذه الواقعة^(٢) « شأنكم الآن فقد حل قتالهم » فنشبت المعركة وكأنها سعي فقتل فيها نحو من سبعة^(٣) .

وقد شهد عمرو بن الحصين شاعر الخوارج هذه الحرب فقال قصيدة في وصف معركتها وصفاً دقيقاً ، وصور الخوارج في تقاهم وشجاعتهم بقوله :

متأوهين كأن في أجوافهم	ناراً تسعرها أكف حواطب
تلقاهم فتراهم من رакع	أو ساجد متضرع أو ناحب
ومبرئين من المعاييب أحرزوا	خصل المكارم أتقياء أطايب
متسربلي حلق الحديد كأنهم	أسد على لحق البطون سلاهب
حتى وردن حياض مكة قطناً	يحكيين واردة البمام القارب
سائل بيوم (قديد) عن وقعاتها	تخبرك عن وقعاتها بعجائب

وإني أرى لدن تحليل هذه الأبيات من القصيدة الخارجية الحربية ، أنها لم تخل من ثلاثة أوصاف شاملة ، يوصف بها جانب كبير من شعر الحرب عند الخوارج وهي :

- (١) وصف الفروسية ، والبسالة ، والفتك والتفاني في الحرب .
- (٢) وصف التقوى والتفاني في العبادة .
- (٣) وصف أخلاق الخوارج بسمو النفوس وخصال المكارم .

* * *

(١) المصدر السابق ج ٢٠ ص ١٠٠ ، ١٠١ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الطبرى ج ٩ ص ٢٠٩ .

ولم يعدم الخوارج على كثرة عددهم شعراء كثيرين ، لولا ضيعة أخبارهم وأشعارهم لأتانا عنهم نبأ خطير .

كان من شعرائهم يزيد بن حبناء الضبي ، وكانت له مهاجاة مع زياد الأعجم الذي كان يعيره بخارجيته ومتابعة مرقا العراق .

وثمة شعراء من الخوارج لم يؤثر لهم سوى البيتين أو الأربعة . ولم يعدم الشعر الحربى عندهم ناطقاً به ، حتى زعماءهم فإنهم كانوا شعراء وكانوا يفرجون بالشعر عن خواطر نفوسهم الحماسية ، كأمثال حيان بن ظبيان الذي يقول في شوقه إلى الحرب :

خليلى ما بى من عزاء ولا صبر ولا إربة بعد المصابين بالنهر
سوى نهضات فى كتاب جمعة إلى الله ما تدعو وفى الله ما تفرى

ويتبين من هذا الشعر كله الذى قالته الخوارج أنه نم على الفحولة والجزالة وجاء بالقول المحكم . لكن حظه من تاريخ الأدب كان قليلا . بل لم يكن له حظ من ذلك قط ، فاصطلح عليه رواة الأدب بزيادة على أهليه وإهمال لروايته . واو أتيح لهؤلاء الشعراء الخوارج أن يكون مؤلف الأدب فى تلك الأعصر التى جمعت فيها الأخبار أديباً خارجياً أو أنه يتزعززع نزعتهم لجاءنا من أشعارهم الكثير ، لأن فيض قرائعهم فى هجمة الوغى كان غزيراً . فكان ارتجال الشعر عليهم هيناً ، فكيف بالتأنى فى نظمه ، والتطويل فى أنفاسه . على أن فناءهم فى الحرب لم يعف على أشعارهم ، فإن موت القراء والمحدثين فى كثير من وقعات هذا العصر لم يمح آثارها ، ولم يمسه إلا بقليل من الضياع مع ندرة التدوين فى تلك الأيام .

أما أولئك الشعراء الذين أتاح لهم الحظ حسن الذكر وجمع الشعر كالكميت والفرزدق وكثير - فذلك من حسن حظوظهم لدى التاريخ ، ومؤلفى الأدب القديم ، الذين كانوا فى أكثرهم شيعة ، فلم يتركوا لدويهم شاردة إلا قيدوها . والعباسيون غلوا فى البغضاء لخصومهم فى عصر التأليف ، وكانت العصبية القبلية غالبة عليهم . وأما الفرزدق وأتباعه ممن صنعوا الشعر الغزير ، فإن قعودهم عن الحرب ، وتفرغهم للشعر ، أعانهم على تلك الغزارة . ولأن رواة هذا الشعر أدركوا العصر العباسى بأعمارهم ، وكانوا يحبون هذا الشعر ويقدرّون قائله فأملوه على جامعيه . ومن للخوارج - وهم المنبوذون بالكفر ، المضطهدون فى كل صقع - بمثل ذلك وقد أفناهم القتال فزقهم من كل جانب ؟ فلا أفادوا ظفراً باقياً ، ولا شعراً مروياً

كثيراً . وخير دليل أورده على إهمال أمرهم أن قطرباً زعيمهم وكبير شعرائهم ، كان حظه من أبي الفرج الأصبهاني ، في ثلاث صفحات .

* * *

وفصل الخطاب في شعر الحرب عند الخوارج ، أنه صورة ثورة غالية العناد ، جامحة القياد ، تستبيح دم من لا يؤمن بها ، وكانت تتخذ السلاح سبيلاً إلى نشرها كثورات الأقوام وفتنها العارمة . وقد امتازت ثورة الخوارج من سائر الفتن بأنها كانت ذات مثل عليا لوجه الدين وحده ، ولم يصبغها صابغ بأمر الدنيا كحروب الهاشمين والأمويين وثورات الشيعة .

وقد رقد هذه الثورة الدينية شجاعة خارقة « وبطولات جبارة نادرة^(١) » كان حاديا أشعارهم الحربية وكأنهم كتبوها على شفار السيوف التي كانوا يكسرون جفانها ، ثم يصممون بها في هجمات الحروب ، وشعارهم أبداً :
— لا حكم إلا لله .

(١) جاء في معلمة الإسلام بالفرنسية (ج٢) في مادة Kharijite ص 958 (أن فروسية الخوارج كانت في أهوالها كضرب من ضروب الأساطير) .

شعر الحرب في أدب الشيعة

أدب الشيعة مقرون بالشجون ، مسكوب عليه الدموع ، حزناً على مقتل علي بن أبي طالب وولده الحسين وآل البيت .

لقد كان الأمويون يهجونهم فلا يخادعونهم ، وكان لسب عليّ على المنابر أكبر الأثر في إهاجة ثوراتهم حتى إن المغيرة بن شعبة ، وهو أفضل عمال معاوية على الأمصار ، كان لا يدع ذم عليّ والوقوع فيه ، والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم ، حتى سبب هذا الاستفزاز مقتل بطل عزيز من أبطال الشيعة هو « حجير بن عدى » . فلقد رد على المغيرة في المسجد وهو يلعن عليّاً فقال له :

— بل إياكم ، فذم الله ولعن^(١) .

وجر هذا أن خلع حجير بن عدى طاعة الأمويين ، وتألب حوله جمع من الشيعة ، كانوا أوائل النامة الثائرة في عهد بنى أمية . وآل الأمر إلى أن هب حجير برجال مستشرين فقاتلوا الأمويين في الكوفة وخارجها ، فأقلقوا عليهم أمصار العراق ، وكان شعارهم هذه الأبيات :

يا قوم حجير دافعوا وصاولوا	وعن أخيكم ساعة فقاتلوا
لا يلفين منكم لحجير خاذل	أليس فيكم رامح ونابل
وفارس مستلّم وراجل	وضارب بالسيف لا يزايل

فدعا «زياد» بطون العرب من همدان وتميم وهوازن وأبناء مذحج وأسد وخطفان ، ليأتوا جبانة كندة ، حيث كان يسكن حجير بن عدى الكندى ، فيحملوا له حجرا . فلما صار حجير عنده أسره وكبله بالحديد ، وأرسله إلى معاوية فقتله . فقام من بعده أصحابه أشد ثورة وضراوة حتى توالدت مفاتن الشيعة .

وكان شعراؤهم في هذه الفتن والحروب الداخلية ، يسجلون صورا من المعارك ،

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٤٢ .

ويتناولون وصف الحرب بشعرهم فيعززون بتلك الأشعار مذهبهم ومطلبهم وينوحون خلال ذلك على شهدائهم وأئمتهم الأبرار .

والشيعة الذين كتبوا ثورتهم في حنايا ضلوعهم منذ مات عليّ كانوا يصوبون النظر الشزر إلى خلافة بني أمية . فلما مات معاوية هبت أحقادهم من مكانها ، كجمر سفت الريح عن وجهه الرماد .

و شاء تاريخ الفتن الداخلية في عهد بني أمية أن تكون الكوفة وكر الثورة ، والبصرة مبعث الفتنة ، فكانت تولد منها شرارات الحروب ، ويصدر عنها الوحي في خلع عصا الطاعة .

وكذلك كان ، فقد أرسل أهل الكوفة من أشياع عليّ إلى ولده الحسين ، أن يقدم إليهم ليبايعوه على الخلافة ، ففعل غير سامع لنصح عبد الله بن مطيع الذي وقاه عثار الكوفة فقال^(١) له : « إن الكوفة بلدة مشؤومة بها قتل أبوك ، ونخل أخوك ، واغتيل بطعنة كادت تأتي على نفسه » .

فلم يصغ الحسين لناصحه ، وإنما ركب رأيه ، وأحسبه كان يخاف أن يتلقاه الناس بما تلقوا به أخاه الحسن بالقادسية وهو عائد إلى المدينة ، بعد أن دخل وجماعته في طاعة معاوية ، فناده :
— يا مذل العرب^(٢) .

* * *

فلما جرد بنو أمية عبيد الله بن زياد على الشيعة ، نهض الشيعة نهضة رجل واحد لنصرة الحسين ، حتى كان الرجل يترك ماله ويهب ومعه زوجته للدفاع عن سبط الرسول ، كالذي فعل عبد الله بن عمر الكلبي . فقد هجم عليه في إحدى الوقائع في الدفاع عن الحسين فارس من جند الأمويين ، فاتفقه الكلبي بيده اليسرى فأطار أصابع كفه ، فمال عليه الكلبي فضر به حتى قتله وهو ينشد قوله :

إن تنكروني فأنا ابن كلب
حسبي بيتي في عليم حسبي

(١) الطبري ج ٦ ص ١٩٦ .

(٢) الطبري ، النسخة الأوروبية . (٧.١١ ص ٩) .

إني امرؤ ذو مرة وعصب
ولست بالحوار عند النكب
إني زعيم لك أم وهب
بالطعن فيهم مقدماً والضرب
ضرب غلام مؤمن بالرب

وثارت أم وهب امرأته ، فسارت وراءه وبيدها عمود تصيح به وتقول :

— فذاك أبي وأمي ، قاتل دون الطيبين من ذرية محمد . . .

فأقبل إليها يردها ويزجرها ، لتعود نحو النساء ، فأخذت تجاذب ثوبه ثم قالت له :
— لن أدعك دون أن أموت معك .

ولم تنصرف عن زوجها حتى زجرها الحسين .

وكان عمرو بن قرظة الأنصاري يقاتل دون الحسين ، ويتبرأ من الخوارج وهو يقول :

قد علمت كتيبة الأنصار أني سأحمي حوزة الذمار
ضرب غلام غير نكس شاري دون حسين مهجتي وداري

وكان البطل من الشيعة يجود بنفسه في الحرب والموت يخرج في صدره ، وهو مجتدل وعينه عالقة بالحسين ، فلما صرع مسلم بن عوسجة أول أصحاب الحسين أكب عليه الحسين وبه رمق ، فقال يرحمك الله ربك . فدنا منه حبيب بن مظاهر وقال له ، عز على مصرعك ولولا أني لاحق بك الساعة لأردتك أن توصي ، فقال مسلم وهو يلفظ نفسه الأخير :

« أوصيك بهذا رحمك الله » . وهوى بيده إلى الحسين وهو يُقْبَسُض .

وكان في الحاملين على الحسين وصحبه شمر بن ذى الجوشن في ميسرة الجيش الأموي فتلاقى الجمعان حتى عقرت الخيول وصاروا رجالاً كلهم . وغلت الحماسة في نفس حبيب ابن مظاهر فهجم على بطل من أبطال ابن زياد ، فضرب وجه فرسه بالسيف فشب ووقع عنه ، فأنقذه الأمويون أصحابه ، فقال حبيب^(١) :

أنا حبيب وأبي مظاهرُ فارس هيجاء وحرب تسعر
أنتم أعد عدة وأكثر ونحن أوفى منكم وأصبر

ونحن أعلى حجة وأظهر حقاً وأتقى منكم وأعذر
فلما سقط هذا البطل هد موته حسيناً ، فقال إني أحتسب نفسي وحماة أصحابي ،
فأخذ الحر بن يزيد يقول :

آليت لا أقتلُ حتى أقتلا ولن أصاب اليوم إلا مقبلا
أضربهم بالسيف ضرباً مقصلاً لا ناكلاً عنهم ولا مهللاً

* * *

أضرب في أعرافهم بالسيف عن خير من حل مني والخيف
وتسابق أبطال الشيعة يزودون عن الحسين ، وسهام أعدائه تهوى على جانبيه فكلما
صرع دونه واحد حل مكانه آخر ، يدفع عنه بصدرة ، ويجود من أجله بروحه ، حتى
كانت نوبة زهير بن القين ، فقال بين يديه وهو يصد هجمات المناوشين :

أنا زهير وأنا ابن القين أذودهم بالسيف عن حسين
أقدم هُديتَ هادياً مهدياً
فاليوم تلقى جدك النبيا
وحسناً والمرضى عليا
وذا الجناحين الفتى الكميا
وأسد الله الشهيد الحيا

فلما استعر القتل ، وتعاور على الحسين الجمع من كل جانب ، وكان الحسين مغوراً
يصد عن نفسه ذات البين وذات الشمال ، خف إليه صاحبه يزيد بن المهاجر الكندي ،
فجثا على ركبته بين يديه ، وأخذ يرمى بالنبال عن يمين وشمال ويقول :

أنا يزيد وأبي مهاجر أشجع من ليث بغيل خادر
يا رب إني للحسين ناصر ولابن سعد تارك وهاجر^(١)

وما زال ينضح دونه بالنبل حتى قتل .

فتقدم على بن الحسين يدفع دون أبيه ، فصرع وهو يقول :

أنا على بن حسين بن على

(١) يشير إلى عمر بن سعد ، وكان لهم من ألد الخصوم .

نحن ورب البيت أولى بالنبي تالله لا يحكم فينا ابن الدعي

فهبت لمقتله أخته زينب ابنة فاطمة بنت الرسول ، وأكبت عليه تبكيه . ولم يزل الحسين يفقد صاحباً بعد صاحب من حماته ، والباذلين المهج في سبيله ، حتى بقى ثلاثة رهط أو أربعة .

وقد روى رواية مصرعه أحد أعدائه - عبد الله بن عمار - الذي قدم ليطعنه بالرمح فلما حكم مقاتله ، زجرته نفسه عنه ، فانكفأ بعيداً يشهد آخر ساعات سيد الشهداء وسبط الرسول ، مغترباً في أرض العراق ، وقد قتل صحبه الأخيار وانقض عنه دعائه ، فجعل يشهده وهو يكر على أعدائه يمنة ويسرة ، فقال عنه : « فوالله ما رأيت مكسوراً قط قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً ولا أمضى جناناً منه ولا أجراً مقدماً ، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله إن كانت الرجالة لتتكشف من عن يمينه وشماله انكشاف المعزى إذا شد فيها الذئب »^(١) .

حتى شد عليه الأمويون شدة واحدة وكانوا يحاذرون قتله ، قلوبهم الغلاظ كانت تطلبه وأيديهم كانت تخشى أن تعلق بدمه . حملوا عليه من كل جانب ، فضربت كفه اليسرى وضرب عاتقه ، فناء وكبا ، وحمل عليه « سنان بن أنس بن عمرو النخعي » فطعنه بالرمح ، ثم أراد آخر أن يحتر رأسه فضعف وأرعد فتزل سنان بن أنس فذبجه وأخذ رأسه ، بعد أن ضرب جسده بالسيف .

وأكب هؤلاء المحاربون على ثيابه وثقله ومتاعه فنهوها ، فصبغوا بطولتهم الآثمة بالجريمة ، واوثوا فروسياتهم الغاشمة وصلادة حروبهم باللؤم والعار . حتى لأنهم لم يتعففوا عن نساء الحسين^(٢) « فإن كانت المرأة لتتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها » . ولقد كان أبطال الحسين أشرف نفوساً ، وأعز كرامة وأوفى ذماماً ، ولقد كان في أصحابه سويد بن عمرو بن أبي المطاع مصروعاً من ضربة نزت دمه ، فوقع بين القتلى مشخناً ، ثم وجد إفاقة ، فسمع القوم يقولون : قتل الحسين ، فإذا معه سكين بعد أن أخذ الأعداء سيفه ، فهب مجنوناً ، ونهض من حشجة الموت فقاتلهم بسكينه حتى قتل .

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٥٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٠ .

وبلغت النعمة واستشراء الحقد في نفوسهم أن داسوا بأفراسهم جسد الحسين ، حتى رضوا ظهره وصدره ، وجمع « الشمر بن ذى الجوشن » اثنين وسبعين رأساً من رؤوس الشيعة ، فأرسلها إلى عبيد الله بن زياد فوضع رأس الحسين بين يديه ، وجعل ينكت بين ثنية فمه ، فأهاج هذا المنظر زياد بن أرقم - وكان شيخاً - (فانفجر باكياً) وهو يقول لعبيد الله بن زياد : « اعل بهذا القضييب عن هاتين الثنيتين ، فالذى لا إله غيره لقد رأيت شفقتي رسول الله صلى الله عليه وسلم على هاتين الشفتين يقبلهما » . وكاد يهم عبيد الله بقتله . ثم أهدى الرأس المجزوز إلى يزيد بن معاوية ، وأدخلت عليه نساء الحسين مجملات بالسواد .

* * *

قصصت هذا الفصل المروع من مصرع الحسين لأستعين به على بسط الشعور في تقدير شعراء الشيعة في هذه الواقعة وما بعدها من وقعات الانتقام ، ولكي أرى أية روح حماسية متدفقة بالشجو والألم كانت تدب خلال شعرهم الحربى حزناً على مصرع الحسين . وأجندني بعد هذا الفصل من مصرع الحسين ، متكلماً على الشعر الذى قيل في حربه ، وما قصدت إلا إليه بلمحة التاريخ الذى رافقه .

إن شعر الحرب لدى الشيعة المحاربين كان قابلاً وقصيراً على هذا النحو الذى أوردت . ويجمع بين البيتين أو الثلاثة من الرجز السهل الذى كان أبطال العرب قد تعودوه في كثير من حروبهم ، يقذفون به ، وهم بين أيدي القتال ، وفي مواجهة الأعداء .

وقد وجدت هذا الشعر الحربى يقسم معانيه قسمين :

(١) شعر يصف بطولة أصحابه (فابن كلب) يعرف المحاربين بنفسه وحسبه ، ويذكر بطولاته لزوجته اعتزازاً بالفروسية - على نحو ما أشرت إليه في التمهيد وعند الكلام على شعر قطرى (فهو فارس لوجه الحرب) .

(٢) شعر يجمع بين نزعة الشيعة إلى الحرب ، وفكرة السياسة التى دعهم إلى الحرب ، ويذكر اعتقادهم الدينى الشيعى .

فعمر بن قزفة الأنصارى يعلن في شعره أنه ليس (من الخوارج الشراة) وأنه يحارب فداءً للحسين ، (فهو فارس لوجه الحسين) .

أما حبيب بن مظاهر فإنه بعد أن يذكر بطولته وبلاءه ينوه بأن الشيعة على حجة

صحيحة ظاهرة ، وأن الأمويين على حجة كاذبة خفية ، وهو يؤمى بذلك إلى قضية الخلافة وما عليها من الجدل والحجج ، فى أمر التحكيم ، ولكن فى نوبة يزيد بن القين تظهر النزعة الشيعية ، صاحبة بارزة ، ويبدو اعتقادهم الدينى الخاص بأن جعفر بن أبى طالب الذى قتل فى غزوة مؤتة بعد أن قطعت يده طار بمناحين إلى الجنة ، وسيعود فى آخر الدهر ليلاً الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وبغياً .

ثم يذكر (أسد الله الشهيد الحى) ، وهو عند الشيعة المهدي المنتظر « محمد بن الحنفية » يقيم بجبل رضوى عنده غسل وماء .
ولما صار الارتجاز فى وقعة الحسين إلى ابنه على عالن (برأيه السياسى) (فى نظام الحكم) فقال :

نحن ورب البيت أولى بالنبي
تالله لا يحكم فينا ابن الدعي

وأراد بذلك ، أن الخلافة بعد النبي هم وارثوها ، لأنهم أولى بالنبي من غيرهم ، بعد أن كان هو الولي . وحلف جاهدا ألا يترك يزيد يحكم فى الأمة لأنه ابن رجل يدعى الخلافة (وهو معاوية) .

فكان الشيعة فى شعر حربهم هذا أقل فروسية من الخوارج ، وأكثر دعوى منهم . وقد مزجوا السياسة بالدين بينما كان الخوارج بعداء عن نزعات السياسة الجاحمة ولم تكن السياسة الجاحمة فى يوم من الأيام مطلباً لهم ، وإنما كانوا يبتغون رفع كلمة الله ، لقد كانوا أبداً يحاربون من يتخذ الدين وسيلة إلى الدنيا ، ولذا حاربوا كل الفرق والنحل (فكانوا خصوصاً للشيعة والزبيريين والأمويين^(١)) على السواء ، لأن هؤلاء — فى رأيهم — قد اصطلحوا على المفاسد وأقاموا على الضلال وصولاً إلى الحكم ، واستبداداً بالإمارة والخلافة . أما الشيعة فكانوا ذوى رأى سياسى عنيف إلى جانب رأيهم الدينى . ولم يكونوا يحاربون وراء فكرة عليا كالخوارج ، وإنما كانت فكرتهم دنيوية خالصة لوجه الحكم ، فهم يريدون أن ينصبوا آل البيت فى سدة الخلافة ليكونوا أمراء على الناس ، فلذا كان بنو أمية أشد

(١) السيادة العربية والشيعة فى عهد بنى أمية تأليف فان فلوتن — الترجمة العربية طبعة السعادة بمصر سنة ١٩٣٤ ص ٦٩ . ومعلمة الإسلام بالفرنسية (II. p. 959) بحث (مقولات الخوارج فى السياسة والدين كته Dellavida) .

عليهم حروباً وأصلب قلوباً مما كانوا مع الخوارج ، لأن الخوارج كانوا أهل ثورة وليسوا أهل طلب . أما الشيعة فكانوا أهل ثورة وطلب في وقت واحد .

* * *

ولنشدر الآن إلى شعرائهم ، في عهد بنى أمية ، الذين كانت أشعارهم صدى لحروب الشيعة مع الأمويين ، ولبسماً لجراحاتهم العميقة ، وسكناً لنفوسهم في خلجات أحزانهم التي لا تبلى . فلماذا تحسنا طوابع شعر الحرب في تلك الأهوال تلقانا في أول أمرنا (الكميث) ابن زيد الأسدي^(١) إذ ليس من حق شاعر شيعي سواه أن يتقدم عليه أول الأمر . فلقد كانت منه البداءة والبادرة في أن يظهر كشاعر كبير يعالني بشيعيته في الزحمة الأموية وفي بهرة الحلقة من العهد الذي كان فورة لاضطهاد الأمويين للشيعة . ولست إذن من رأى المعلمة الإسلامية المكتوبة بالفرنسية التي تدعى أنه أول من قام بالتقية . وأخذ عنها هذا الرأي من كتب عن الكميث بعدها ، لأن المعالنة في إبان السلطان الأموي لا يتفق وهذا الرأي في شيء .

على أن التعصب للعدنانية قد غلا في قلبه فهجا البمانية حياً حياً بقصيدة مذهبة سائرة ، فنصب نفسه غرضاً لسهام الهاجين ، فرد عليه شعراء في حياته ، ولم يسلم في مماته من ردود الهاجين ، ومعارضاتهم لمذهبه ، كما فعل به دعبيل الخزاعي وابن أبي عيينة .

لقد شغل الكميث نفسه ردى من عمره ، تفرغ فيه لمدح الهاشميين ووقف عليهم قسماً عظيماً من شعره . لعل قليله الذي وصل إلينا ووجدناه كثيراً . كان جزءاً من ذلك ، فقد قيل^(٢) إنه لما مات أحصى شعره فوجد خمسة آلاف ومئتين وتسعة وثمانين بيتاً . ونحن لا يعنينا من كل هذا الشعر نزعة الشيعة ولا دعوته للإمامية ولا مبادرته الأمويين بالتمدح بأعدائهم الألداء ، وإنما الذي يشغلنا هو شعره الحربي . فهل كان له شعر حرب في أدب الشيعة وما قيمة هذا الشعر ؟

في القصائد الهاشميات قصيدتان رائعتان من أحسن شعره في الحرب وأجزله ، أولاهما يصف فيها شجاعة أئمة الشيعة وفي مستهلها يصف أبطال شيعته بقوله :

(١) في معلمة الإسلام الفرنسية في مادة Kumait ج II ص ١٨١ أن الكميث أول من قام بالتقية .

ولد سنة ٦٠ ومات سنة ١٢٠ للهجرة بالكوفة .

(٢) الهاشميات ط شركة التمدن بمصر سنة ١٩١٢ ص ١٩ .

فهمو الأسد في الوغى لا اللواتي بين خيس العرين والآجام
أسد حرب غيوث جذب بها ليل مقاويل غير ما أفدام
سادة ذادة عن الحرد البيض إذا اليوم صار كالأيام
لا كعبد المليك أو كويلد أو سليمان بعد أو كهشام

ثم يتناول بالشطر الثاني من هذه القصيدة الهاشمية التمدح بخصال علي بن أبي طالب
إمامه الأعظم ، فيذكر تجريده السيف لحرب الخوارج والأمويين فيقول :

جرد السيف تارتين من الدهر على حين درة من صرام
في مريدين مخطئين هدى الله - ومستقسمين بالأزلام

ثم حن حنين كل شيعي إلى الحسين والها متفجعاً ، وغاص إلى أعماق قلبه ينضح من
آلام الشيعة التي لا تهدأ ولا تنفّر على مقتل الحسين ، فوصف مقتله في لحظة خاطفة
فقال :

وقتل بالطف غودر منه بين غوغاء أمة وطغام
قتل الأدعياء إذ قتلوه أكرم الشاربيين صوب الغمام

ثم أعلن الملاء بتشيعه وميله إلى هؤلاء الأئمة المغدورين ، واشتياق نفسه إلى لقاءهم ،
حيث كانوا مشردين فقال :

فهمو شيعتي وقسمي من الأمة - حسبي من سائر الأقسام
ليت شعري هل ثم هل آتينهم أم يحولن دون ذاك حمامي

قلت لنفسي وأنا أخلص من الكلام على هذه القصيدة ما أشجع الكميّ لكأنه لقب
بالأسدي لصفة الأسود فيه . فقد هجم بشعره هذا الذي يصف فيه حرب أئمة الشيعة وبأسهم
وصلابة غاراتهم في وجه الأمويين ، في حين كان غيره من الشيعة شعراء أو أهل نحلة أو
ذوى عترة مشردين متخذين التقية حماية لأرواحهم ودرينته ، وأحسب أن من قالوا بتقيته
لم يَتَنَسَّبُوهَا إلى هذه القصيدة .

ولم يكتف الكميّ بالوجهة الوصفية في فنه ، وإنما زاد عليها دقة الصنعة في بعض
أبياتها والجرس الكلامي والتزاوج في سياق الحروف . فن فنه مع سهولة التعبير إيراد كلمتي

(الحماة الكماة) ، وتكرار رنة السجع ، في البيت الواحد للتحويل . فأتبع سجعاً موسيقياً في بعض أبياته وكان سابق الطائي للسجع في الشعر – فقال (أسد حرب ليوث جذب) فطابق في فنه البلاغي مطابقة تامة بقوله (بها ليل مقاويل) ، وراقته هذه الديباجة فراح بعد بيت يقول مغاوير ، مساعير ، معازيل ، تنابيل) .

قلت لنفسى : أفلا أفرد الكميث ، وهو في هذه المنزلة من التشيع الصادق والشعر الرائع قصيدة خاصة بمقتل الحسين تكون سيرة البطل الشهيد ؟ ولم أك لأقنع منه ، بقصيدته اللامية في مقتل الحسين ، لأنها – على طولها – لم تكن مخصوصة بمقتله . وكان في طوقه – وهو الطويل أنفاس القصائد – أن يترك في أدب الشيعة ، بل في الأدب العربي كله أخلص قصيدة في مصرع الحسين ، يجعلها الشيعة مآثمهم . وهم الذين ما راعهم من القصيد إلا ما وصف لهم مقتل الحسين وأحزان أحبابهم آل البيت . وكم كان أحسن الكميث لوجعلها (ملحمة) تبدأ من يوم خروج الحسين من الحجاز بدعوة أهل العراق، إلى يوم مصرعه ، إن قنع بذلك ولم يجعلها منذ ظهر على بن أبي طالب صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم وأقرب رجاله الأبطال إليه .

أما وقد فاته هذا ، فلا ضير عليه بعد ، فيما ترك لنا بلاميته الشاجية ، وهي في صميم الحرب الشيعية وفيها يقول عن قتلة الحسين^(١) :

ومن عجب لم أقضه أن خيلهم	لأجوافها تحت العجاجة ^(٢) أزمّل
هماهم بالمستلثمين عوايس	كحدآن يوم الدجن تعلو وتسفل ^(٣)
يحلثن عن ماء الفرات وظله	حسيناً ولم يشهر عليهن منصل
كأن حسيناً والبهاليل حوله	لأسيافهم ما يختلى المتبقل ^(٤)
فلم أر مخذولاً أجل مصيبة	وأوجب منه نصرة حين يخذل
يصيب به الرامون عن قوس غيرهم	فيا آخرأ أسدى له الغي أول ^(٥)

(١) الهاشميات الطبعة السابقة ص ٧٠ .

(٢) أى لأجوافها تحت تراب الوقعة صوت .

(٣) المستلثمون لابسو اللأمامات وهي الدروع والحدآن طيور كواسر .

(٤) يشبه دم الحسين المسفوح بأسيافهم هدرأ بالبقل الذى يتقبله قاطفه كما يشاء وقد اختلى به .

(٥) هذا البيت إشارة سياسية إلى أن قاتلي الحسين مؤثرون مدفوعون وكذلك ظهر حين تنازعوا في شرف

قتله وجز رأسه .

ثم يصور الشاعر نهبه أشياءه ومتاعه بعد موته ، ويعوج لهيفاً على وصف رأسه المحزوز
واوعة الشيعة عليه ويختم قصيدته في مقتله بتوعد للأمويين ليوم ثأرموعد .

فيا رحمة للكميت ! ما كان أروع شعره في الحرب ، وما ألصق بالجزالة حماسة
قصائده ! وهو مع كل ذلك لم يكن فارساً بجسمه ، وإنما كان فارساً مغواراً بروحه يهجم
بها في المخاطر والمهالك على الموت . فأين اندفاعه في ساحة الوغى من هجمته على الأمويين
بالتحقير والذم والشتم ؟ حتى كاد له خالد بن عبد الله القسرى عامل هشام بن عبد الملك
على العراق وجاء به إلى هشام الذي أهدر دمه وأراد الفتك به .

ثم ما هي إلا الأعيب السياسة التي كشرت مثل أفعى عن أنيابها وكأنها تضحك
فأفسدت بسحرها ودهائها على الكميث (تشيعه) .

والذي أجده أن هشاماً كان يستطيع قتل الكميث وهو غير هياب . إذ ليس للكميت
من يخشى بنو أمية دفعهم عنه أو الانتقام له . ولكن حصافة هشام مكنت بشاعر الشيعة
فحولته من شاعر هجاء للأمويين إلى شاعر مداح لهم . وكان ذلك أنجع عند هشام وصحبه
من قتل الشاعر هدرأ ، فكسبوه بإحيائه وأغدقوا عليه العطاء حتى ترك تشيعه ، وانطرح بين
أيدي الأمويين يفديهم ويقول لهم :

فالآن صرت إلى أمية والأمور إلى المصائر

وقد خدر المال أعصاب التشيع عند الكميث وعند أبيه معه . فلما قيل لأبيه في ذلك
قال « لا أرد مكرمة فعلها ابني » ^(١) .

ولكنه مع هذا الانقلاب في التشيع إلى محبة بني أمية لقي الغدر من الأمويين فكان
قتله على أيديهم ضرباً بالسيوف .

* * *

وقد تلمست غيره شاعراً شيعياً يكون شبهه حماسياً في شعره وصافاً لحروب الشيعة ،
فوقعت على أعشى همدان ، وقد كان صنع قصيدة بائثة مطولة في حرب (عين الوردة)
كاتمها الناس فكانت « إحدى المكتّمات كن يُكتمن في ذلك الزمان » ^(٢) .
فن وصفه لهذه الحروب وما لقي الشيعة من الهول يقول :

(١) الأغاني ط التقدم ج ١٥ / ١٢٢ .

(٢) الطبري ج ٧ / ٢٨ .

فلاقوا بعين الوردة الجيش فاصلا
 يمانية تنذرى الأكف وتارة
 فجاءهمو جمع من الشام بعده
 فما برحوا حتى أبيدت سراتهم
 وغودر أهل الصبر صرعى فأصبحوا
 وأضحى (الخزاعي) الرئيس مجدلاً
 وعمرو بن بشر والوليد وخالد
 ومن كل قوم قد أصيب زعيمهم
 أبوا غير ضرب يفلق الهام وقعه
 فيا خير جيش للعراق وأهله
 فإن يقتلوا فالقتل أكرم ميتة

إليهم فحسوهم ببيض قواضب
 بخيل عتاق مقربات سلاهب
 جموع كهوج البحر من كل جانب
 فلم ينج منهم ثم غير عصائب
 تعاورهم ريح الصبا والجنائب
 كأن لم يقاتل مرة ويحارب^(١)
 وزيد بن بكر والحليس بن غالب
 وذو حسب في ذروة المجد ثاقب
 وطعن بأطراف الأسنه صائب
 سقيتم روايا كل أسحم ساكب
 وكل فتى يوماً لإحدى الشواعب

وحين بلغ عبد الملك بن مروان مهلك الشيعة في هذه المعركة صعد المنبر فجعل يحمد الله ويثني عليه أن أهلك من أهل العراق كل (ملقح فتنة ورأس ضلال ، وأنه لم يبق بعد هؤلاء أحد عنده دفاع أو امتناع) .

ولم أجد أعشى همدان على محزون رثائه وروعة أدائه إلا دون الكميته في شعر الحرب .
 وليست قصيدته هذه (مع أنها من المكّمات كما كانوا يقولون) إلا مرثاة عادية . إذ لم يصور الأعشى حرب عين الوردة ولا السبب الذي من أجله قامت (ثورة الشيعة) في الكوفة فندبوا أنفسهم إلى مقارعة المروانيين ولا وصف التقاء الجيشين ، وكانا أكثر عدداً من كل (يوم) للشيعة وأعدائهم قبله . ولعل تشييعه سد عليه وجه أوصاف الحرب فاشتغل بالبكاء والرثاء ، شأن الشيعة في أكثر أدهم المسودّ الحزين ، تشغلهم الدمعة المهرقة على على والحسين وآل البيت عن مطالب الفن في إبداع الوصف ودقة التصوير .

وتتبع شعراء الشيعة سوى الكميته من الذين عاشوا في عصر بني أمية ، فوجدت أكثرهم كان يخشى بطش الأمويين ، فاستسروا في ظلال «التقية» فجاملوا بني أمية كما فعل (أيمن بن خريم) فقد عاش شاعراً شيعياً مسالماً^(٢) ، أو شغلهم الخجاء فلم يعطوا (التشيع) كل

(١) هو سليمان بن صرد الخزاعي قاتلهم في هذه الحرب .

(٢) الأغاني الطبعة الأوربية ج ٢١ ص ١٣ .

هواهم ، كما فعل الفرزدق ، أو عبدوا الجمال وآثروا الاكتفاء به ، والعزاء في عبادتهم كما فعل كثير عزة^(١) . فلقد كان « غالباً في التشيع يذهب مذهب الكيسانية ويقول بالرجعة والتناسخ » . وأحسب أن آل مروان لم يخشوا شره إذ كانوا « يعلمون مذهبه فلا يغيروهم ذلك له لجلالته بأعينهم ولطف محله في أنفسهم^(٢) » .

وهو على الرغم من أنه أشاع في أدب (الشيعة الغالية) مذهبهم الديني الخاص إذ أدخل عليه (الفكرة الكيسانية) في التناسخ ورجعة المهدي الذي يقول عنه :

تغيب لا يرى فيهم زمانا برضوى عنده غسل وماء

وبالرغم من إفراطه في هذا الزعم الشيعي ، فقد شغله الحب وشغف قلبه هوى عزة فوقف عليها أكثر شعره . فأين منه شعر الحرب وزحمات الفرسان وحومات الوغى التي دارت دوائرها على الشيعة في زمنه ، من قوله باكياً على هجر عزة وقطيعتها واقفاً في رسومها ينشد تائيته الرقيقة المشهورة :

خليلى هذا ربع عزة فاعقلا قَلْوصيكما ثم ابكيا حيث حلتِ

وراحت عزة تعبت به وتصليه بنار القطيعة ، فحرمتم قومه الشيعة في زمن بنى أمية غرر أشعار ما كان أجدرها لو خلدت حزن الشيعة الدفين ، وظمأ سيوفهم إلى ثارات الحسين

(١) الأغاني طبع دار الطباعة ج ٨ ص ٣٧ .

(٢) المصدر نفسه والصفحة .

شعر الحرب في أدب الزبيريين

جمعهم المؤرخون القول فلم يفصحوا ، وكان في أفواههم الماء . إنهم زعموا جميعا أن عائشة أم المؤمنين دعت لحرب عليّ ثأراً لدم عثمان ، حتى كان يوم الحمل ومعها الزبير ابن العوام فلماذا تهب عائشة لحرب عليّ وقد كان يحبه الرسول ويؤثره ، لو لم يكن أشار عليّ على الرسول صلى الله عليه وسلم بتسريح عائشة بعد حديث الإفك ، إشارة تلميح . وحاول عليّ قبل معركة الحمل أن يفصل الزبير بن العوام عن أزر عائشة فلم يفلح ، لأن ابنه عبد الله كان ممسكاً باختياره فقال عليّ^(١) : « ما زال الزبير رجلاً منا حتى أدركه ابنه عبد الله فلفته » .

وليس ببعيد عندي ، بعد هذا ، أن تكون عائشة رضى الله عنها ، وهى امرأة مرهفة من النساء ، قد بقى في نفسها ألم دفين وحفيظة مكبوتة على عليّ حين أشار بطلاقها بعد حديث الإفك .

ولم تكن عائشة إلا امرأة من النساء حوت في نفسها ما يخالج كل أنثى من حفاظ ، فيها الغيرة ، وفيها الكيد . ولقد كان الرسول يبلو منها غيرة كلما أراد الذهاب إلى بقية نسائه .

وأرى أن انهزامها في وقعة الحمل تسلل إلى نفس أختها أسماء أم عبد الله بن الزبير فلم تستطع أسماء أن تحارب بنى أمية بنفسها إذ كانت مكفوفة وكان في قلبها من الحماسة والبطش والقروسة وحب الانتقام ما لو وزع على جيش من الأبطال لزاد عنه . فسكبت حرارة قلبها ونقمة نفسها وموجدتها اللاهبة في ابنها عبد الله بن الزبير . وكان عبد الله ذا هوى في الخلافة وتطلع إلى التفرد بالإمرة في ديار الإسلام كلها ، ثم نفخت فيه (روح الانتحار) وهو مشرف عليه . وكانت تعلم مصيره المحتوم من القتل والمثلة ولعمري إنها لأروع

(١) المصدر السابق ص ٩٩ .

من مسرحية إذ تجود امرأة مسنة بابنها الغالى ، فتدفع به إلى الحرب وقد حوصر وانقض عنه جمعه . لكأنى أتمثله داخلا عليها بعد أن حاصره الحجاج خمسين ليلة بمكة ثم راسله بالأمانة ، فقال لأمد فى الساعة الأخيرة يستشيرها^(١) :

— « يا أماء ، خذلى الناس حتى ولدى وأهلى ، ولم يبق معى إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة . والقوم يعطونى ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟ فتجيبه^(٢) :

— « أى بُنىّ ، لا تقبل خطة تخاف على نفسك منها مخافة القتل ، مت كريما » فقال :

— يا أمه ، إنى أخاف أن يمثلى بى بعد القتل ، فأجابته :

— وهل تتألم الشاة من السلخ بعد الذبح ؟ » .

وكانت تنصحه أن يلبس ثيابه مشمرة وأن يخرج إلى القتال بغير درع . وكانت تعلم حتماً أنه إنما يخرج للانتحار وأن رأسه سيرفع على الرماح ، كما رفع رأس أخيه مصعب من قبله ، وأنه سيصلب . ولكن غليان الثورة فى نفسها كان جامحا فلم تقبل المسالمة والإبقاء على عبد الله — وقد وكد له الأمويون أن يبقوه معززا أميراً — . فدفعته بيدها إلى الموت ، وكانت كمن وقف على شفاهاوية فدفع فيها لإنسانا ليتردى .

وما أحسبها أطفأت بموته غلتها من مقاتلين هجموا على ابنها عبد الله ، وهم يتعاورون قتله ويصيحون به متهكمين :

— يا ابن ذات النطاقين !

ومن يدري ؟ فربما كانت الفروسية فى نفسها تدعوها إلى الحرب منذ أغاثت الرسول وصاحبه أباه ليلة الهجرة .

ولعل مقتل طلحة بن عبيد الله فى وقعة الجمل . وكان طلحة عضداً لأختها عائشة ، أبى فى نفسها نقمة على قاتله مروان بن الحكم — على ما فى أنفوس العرب من كمن المواجد والثأر — فشجعت ابنها عبد الله ومصعبا على محاربة عبد الملك بن مروان . فكانت الضغينة الدفينة من أسباب صلابتها فى متابعة القتال حتى الساعة الأخيرة .

(١) الطبرى ج ٧ ص ٢٠٣ وبلاغات النساء لأبى الفضل طبفور طبعة الألى بمصر سنة ١٩٠٨ م ص ١٣٠ .

(٢) إن إصرارها على المضى فى الحرب وقد ظهر انكسار ابنها فيها ، لدليل آخر على زجها به فى الموت دون

روية وتمقل .

وإني أتصور كيف جاءها الخبر في مقتل المصعب أخى عبد الله . فقد كان بطلا من المناجيد فلما هت حربته وخانه صحبه ، قتله عبد الله بن ظبيان واحتز رأسه^(١) ، وجاء بالرأس إلى عبد الملك بن مروان وهو يقول :

نطيع ملوك الأرض ما أقسطوا لنا وليس علينا قتلهم بمحرم

وأستعين بالخيال على تمثل الخبر في مقتل عبد الله بن الزبير الذى كانت أسماء تسمع خبره ويروى لها . . .

لقد كان عبد الله بن الزبير مكين القلب ، ثابت الضربة . ضرب رجلا به أدمه فقطعه — حين حارب حرب موته — وهو يقول : هذا من قتلة عثمان ورب الكعبة . وأحاط به الناس فتكاثروا عليه ينوشونه من كل جهة ، فلم يزل يدفعهم بالسيف حتى أخرجهم من المسجد ورجع إلى البيت العتيق وهو يقول :

أبى لابن سلمى أنه غير خالد ملاقى المنايا ، أى صرف تيمما
فلست بمبتاع الحياة بسبة ولا مرتق من خشية الموت سلما

واقترح جماعة مقبلين عليه وهو يقول :

قد سن أصحابك ضرب الأعناق وقامت الحرب بنا على ساق

ثم حمل على نفر قادمين حتى بلغ بهم (الحجون) فرماه محارب من الخارج بأجرة ، ولعلها سقطت عليه من المنجنيق ، فوقعت على وجهه وأدمته . وكأني أبصر بيده يمسح بها وجهه ويمررها على لحيته وهى مخضلة بالدم فيقول :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ثم عاد إلى صحبه وقال لهم :

— « ألقوا أغماد السيوف ، وليصن كل منكم سيفه كما يصون وجهه ، لا ينكسر السيف بيد أحدكم فيقعده كالمرأة ، . ثم قال :

يا رب إن جنود السلب قد كثروا وهتكوا من حجاب البيت أستارا
يا رب إني ضعيف الركن مضطهد فابعث إلى جنودا منك أنصارا

ثم شدخه محاربوه بالحجارة فانصرع .

فسجد الحجاج لله شكراً .

أما حال أسماء أم الصريع فلم يغيرها نزول الموت بابنها . لقد شهدته مصلوباً كما أمر الحجاج فقالت فيه كلمتها المشهورة بعد أن طال صلبه :

« أما آن لهذا الفارس أن يترجل » ؟!

وأرادت بذلك التهكم والتندر بالحجاج ، والإبقاء على فروسية ابنها حتى بعد موته . لأنه لم يشف الحجاج أن يسفح جنده دم الزبيريين ، وإنما قام يتشقى بنفسه ، فأكب على عبد الله بن الزبير ساعة مصرعه « فجز رأسه داخل مسجد الكعبة »^(١) . ثم أرسل برأسه وبرأس عبد الله بن صفوان ورأس عمارة بن عمرو بن حزم إلى المدينة فنصبت فيها — لإخافة للقوم — ثم حملت إلى عبد الملك بن مروان^(٢) .

* * *

وجاءت نوبة الشعراء الزبيريين فبصرت بهم فلم أجد أصون بينهم للعهد من (عبيد الله ابن قيس الرقيات) ، فقد كان (زبيرى الهوى)^(٣) مدح عبد الله بن الزبير بغرر قصائده^٢ في سلمه وفي حربه . وكان يعادى معه عبد الملك فلما قتل عبد الله هرب . وهو إذ لم يقو على رثائه خشية بنى أمية فإن في شعره لمجالاً لوصف البطولة التي عرفها التاريخ للزبيريين ، وكانت قرشيته تحمله على حد السيف ، فيتمنى لو أن قومه لم تفتك بهم الفتن . فيكون من قريش خير ملوك الناس .

قال يفخر بقرشيته ويتمدح بالزبير ويصف فروسية مصعب في العراق ثم حصار الشاميين للبيت وتحريقه ، ثم يملك دهشه ويل هذه الحرب الفاجرة ، فيتمنى لو أتلقت الشام وفيها بنو أمية غارة طياشة ، تذهل المرء عن بنيه والصاحب عن ذويه . وصارح بنى أمية العداوة ، ثم عطف قلبه على الحسين فإن مقتله يعطف كل القلوب . وعبيد الله ابن قيس الرقيات كان شاعر قريش في الإسلام . فإينبغي له أن يقصر في أمر قريش التي ملأت السهل والجبل .

(١) المقدط سنة ١٣٥٣ ج ٣ ص ١٦٥ .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٢٠٥ والكامل في التاريخ لابن الأثير ط أوربا ج ٤ ص ٢٩٠ .

(٣) الأغاني ط التقدم ج ٤ ص ١٥٠ .

إنه يذكر في هذه القصيدة القرشية ابن الزبير وأخاه مصعباً ، ومقتل المختار الثقفي الذي ادعى النبوة آخر أمره فيقول^(١) :

والزبير الذي أجاب رسول الله في الكرب والبلاء بلاء
والذي نغص ابن دومة ما تو حى الشياطين والسيوف ظماء
فأباح العراق يضرب بالمتصل صلصلتا وفي الضراب غلاء
إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه جبروت ولا به كبرياء

ثم يصف حريق البيت في معركة مكة ، ودعوته إلى تقويض الدولة الأموية في عقر دارها بقوله :

ليس لله حرمة مثل بيت نحن حجاب به عليه الملاء
حرقته رجال لحم وعك وجدام وحمير وصداء
كيف نوى على الفراش ولا تشمل الشام غارة شعواء
أنا عنكم بنى أمية مزور - وأنتم في نفسي الأعداء
إن قتلى بالطف قد أوجعتني كان منكم لئن قتلتهم شفاء

ولترك مصعباً مطلول الدم في العراق ، وعبد الله بن الزبير فياض الروح الحرم
يصرخ عليها الصدى في حنادس الليل . ولنتأثر ابن قيس الرقيات فنجدته قد اتخذ الليل
جملاً وفر والأمويون يجدون في طلبه ، فإذا هو بعد حين في فلسطين ينزل ضيفاً على أهل
له من بنى كنانة ، فيجد في أكنافهم أمته وراحته . ويخامره الحنين إلى داره البعيدة
فيذكر شروده . ولعله كان يحن إلى الزبيريين في قصيدة تفيض بالحماسة ووصف الحرب .
وما أحسبه (كان جباناً) كما اتهمه راوي ديوانه^(٢) أبو جعفر بن حبيب حسبما أورده
الدكتور Rhodokanakis ناشر ديوانه . ولأدل على بطلان هذه التهمة من شجاعته قبيل
أن يشخص عبد الملك إلى حرب مصعب حين حملته مصعب مناطق ملأى بالمال وقال له
خذها فهي لك وانطلق حيث شئت فأني مقتول . فقال له الشاعر : لا والله لا أريم ، وظل

(١) ديوان عبد الله بن قيس الرقيات ط فينا القصيدة رقم ٣٩ .

(٢) الطبعة السابقة ص ١٩٣ .

معه حتى قتل ، فانطلق وحده عائداً إلى الحجاز^(١) .

وإن شعر ابن قيس الرقيات - إلى ذلك - فياض بالحماسة ومعاناة الفروسية . ولا أدل على ذلك أيضاً من قصيدته الشامية التي قالها في فلسطين بعد أن استقرت فيها نواه ، وكانت معه زوجته فناجاها باستهالة غزل ثم قال^(٢) :

هزئت أن رأيت بي الشيب عرسى لا تلوى ذوائبي أن تشيبا
إن يشب مفرقي فإن قريشاً جعلت بينها الحروب حروبا
فاظعنى فالحقى بقوى إني لا أرى أن أقيم فيكم غربيا^(٣)
فانزلى في بني كنانة تلقى فيهم العز إن دعوت قريبا
فأرى الدهر قد تغير بالناس وقد كانت الشعوب شعوبا
ثم أثار النسب عزته بقومه ففخر بفروسيته فقال :

حلق من بني كنانة حولي بفلسطين يسرعون الركوبا
من رجال تفنى الرجال وخيل رُجُمُ بالقنا تسد الغيوبا
لا يبالون من أقام إذا ما كشفوا بالسيوف يوما عصيبا
ذاك خير من البليخ ومن صوب ذئاب على يدعون ذيبا^(٤)
إن قوم الفتي هو الكثر في دنياه - والحال يسرع الثقليبا

وهو في هذه القصيدة وإن جمجم حديث الفروسية عن نفسه ، لكنه أفصح به عن قومه .

أما وصفه فروسيته هو وغاراته وحضوره القتال ، وذكره آماله وأمانيه فلم يعدم منه شعره صورة حماسية حبة مزيجها حين مغترب إلى محبوبته الحجازية التي أتت دونها المفاوز وعيون الأعداء . إنه يقول في هذه القصيدة^(٥) :

(١) الأغاني ط التقدم ج ١٥٦/٤ .

(٢) ديوانه قصيدة رقم ٤٤ .

(٣) وردت في ديوانه (بقومك) وأعدّه تصحيحاً صوابه (فانزلى بقوى) لأن القوم كانوا أهلهم في فلسطين وكان هو في الحجاز نازلاً في قوبها فرأى نفسه بعد مقتل الزبير غريباً لمصانمة أهل الحجاز بني أمية بعد مقتل عبد الله بن الزبير - ويظهر من القصيدة الآتية أن زوجته (الثريا) لم تترك دارها في مكة فكان يحن إليها وهو في متآه بشعر عذب حزين .

(٤) البليخ تصغير البليخ وعنى به العراق . وصوب الذئاب عني من حل بالحجاز من المروانيين بعد مقتل صاحبه ابن الزبير فهو يزهد زوجته بالعراق والحجاز .

(٥) ديوانه ص ٢٠٧ .

حبذا الحج والثريا ومن بالسـخيف من أجلها وملق الرحال
 قطنت مكة الحرام فشطت وعدتني نواب الأـشغال
 إن ترينى تغير اللون منى وعلا الشيب مفرق وقذالى
 فظلال السيوف شين رأسى وطعانى فى الحرب صهب السبال
 واغترابى عن عامر بن لؤى ببلاد كثيرة الأقتال
 وملوك فارقهم أفردونى وصروف الأيام بى والليالى

ثم يصف أفراسه مع قومه وقد ركبها :

فعدونا بهن فى غبش الليل رفاقاً كأنهن المغالى
 أدرك الذحل فية من بنى عم رو بصبر النفوس بين العوالى
 لو رأتنى ابنة النويم (لىلى) إذ تـلف الأبطال بالأبطال
 حين نفدى أخاك بالأسل السم ر وشعث كأنهن السعالى
 لشفى نفسك انتقام بنى عمك حين الدماء كالجريال
 طل من طل فى الحروب ولم يط ملل على ولا دماء الموالى
 وبني مالك بن حسل ثأرنا غير فخر بنا وغير انتحال
 وأصبنا بعد الرجال رجالا وحوينا الأموال بالأموال

* * *

ذلك ابن قيس الرقيات ، إنه لم يأل جهداً فى وصف قتال الزبيريين وإقدامهم وحملهم
 أنفسهم على متون السيوف وثباتهم لجيش الأمويين اللجب فى العراق والحجاز . ولم يك
 مقصراً فى وصف نفسه وشركته لهذه الفروسية وذاك البأس فى القتال والحروب .

كان كغيره من الشعراء السابقين والمعاصرين ، قصير النفس فى الموضوع الواحد طويـله
 فى أشنات الفكر . فأين فى شعره وصف حصار الحجاج لمكة خمسين ليلة ، وأين تصوير
 المعركة الفاجرة فى الحرم ، وكان الجاهليون سموا حرب الفجار باسمها لأن المقاتلين استباحوا
 الحرم ومكة فقاتلوا فيها كالذى صنع الحجاج والحصين بن نمير صاحب المنجنيق الذى
 كان يقذف الحجارة على البيت . ولم نر أثراً لذكر الحجاج فى مكة حتى كان ابن قيس
 الرقيات كان يخشى أن يثلب جبار العراق الحجاج بن يوسف .

وكيف دار عليه الأمر فإن أشعاره الحماسية كثيرة وجيدة ، صورت لنا جوانب من

حياة الحجاز المضطربة على كف الحروب ، كما صور قلق نفسه وشروده وشركته في الحرب والقتال .

وسرى « في الكلام على شعر الحرب عند بني أمية » حال هذا الشاعر وحال غيره من الشعراء الذين لم يستطيعوا إبقاء على أنفسهم إلا أن يلبسوا الإهاب الجديد لبني أمية وهو « المصانعة » طاوين بين الجوانح ألماً على الشهداء الفانين في ساح الوغى . تعفّق قلوبهم بالأحزان على مقاتلهم الفاجعة ، وتنطق ألسنتهم بمدح أعدائهم الأمويين ، أصحاب السلطان ، إبقاء على أنفسهم ورجاء للنوال ، بعد أن أعوز السؤال . فكانوا كالأرض الجذبة المحترقة تمنى الرى حتى من آسن الماء .

* * *

وويح الحجاز أفلم يطلع في وهاده وعلى أنجاده غير ابن قيس الرقيات في زحام المعارك وبحران القتال ؟ ثم ألم ينجب الحجاز شاعراً يبكى بعد ابن الزبير على الملك الدائر والعز الزائل والدم المسفوك في أكناف البيت العتيق !

بلى ، إن هنالك عمر بن أبي ربيعة المخزومي . ولكن ما أكثر خجل الشعر الحماسي لدى عمر بن أبي ربيعة . فهل أبقت النساء مكاناً في قلب عمر يخفق بالحمية وينبض بالمرودة في هجمات الحوادث الجارفة بالدم الصبيب ، في أباطح الحجاز ، عند أم القرى وعلى دارات يثرب .

لقد كان ابن أبي ربيعة مشغولاً بالحسان ، موكل العينين بالجمال ، يتبعه حيث يحده ، فيجدّ في إثره إلى سوقه التي تزدهم به في موسم الحج .

قرأت ديوانه قصيدة قصيدة وبيتاً بيتاً ، فلم أجد أثراً لشعر فيه شميم الرجولة . فكان ابن أبي ربيعة لم يكن معاشياً لكبريات الحوادث في بلاده ، بل لعله كان في معزل عنها ، وفي ملهاة بالرعايب يسيل تخنثاً ودلالاً ، وهو تياه بجماله على النساء . بينما كان على كثر منه يسفك دم الغطاريف من رجال العرب فيخضب أرض العروبة المقدسة .

وهو إذ يسجل مرة واحدة حادثة تبعث الشجو وتصرخ بالنقمة من ظالم ، لا ينسى أن يجعلها سيلاً إلى الغزل والدعابة .

فقد عرف أن مصعب بن الزبير بعد أن قتل المختار بن عبيد الله الثقفي ، أحضر زوجته فسأل إحداها - أم ثابت - عما تقول بالمختار . فقالت : أيها الأمير أقول فيه الذى تقول

فأطلقها . وسأل الثانية وكانت - عمرة بنت النعمان بن بشير - فقالت : رحمه الله ، كان عبداً صالحاً . فحبسها وكتب إلى أخيه عبد الله إنها تزعم أن المختار نبي مرسل ، فأمره بقتلها . فوكل مصعب أمرها إلى جندي من عسكره فخرج بها ليلاً بين الحيرة والكوفة يضربها بالسيف وهي تصيح : يا أبتاه ، يا عترتاه ، ثم تشحطت فماتت . . فلم يثر هذا الحادث الفادح من الروعة في نفس ابن أبي ربيعة أكثر من ثلاثة أبيات كان همه فيها الغزل فحسب فقال :

إن من أعظم الكبائر عندي قتل حسناء غادة عطبول
 قتلت باطلاً على غير ذنب إن لله درها من قتيل
 كعب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جسر الذبول

وليت شعري أى قتل وقتال كعب على ابن أبي ربيعة الذى لم يجرد غير سيف المجون يقتل به أخلاق زمنه ، حتى أفسد بشعره ربات الخدور ، وحتى هجاه أبو العباس الأعمى الشاعر وغيره (بنكوله في المهجاء واشتغاله بأقوال الخنا) .

ولعله استغنى عن وصف مواكب الفرسان (بمواكب الحسان) وهو يلحق أسراب النساء بمكة ، وفيهن عائشة بنت طلحة ، وكانت تهرب من لقاءه فرصدها وهي ترمى الجمار فلما رآته قالت : يا فاسق . . فراح يذكر (موكبها) بشعره ، فما أشبه عمر بشعراء التخنث والمراهقة في أيامنا إذ يرسلون الشعر المتهتك في المجتمع . وعدوان الاستعمار يصطنع أشنات الحيل للترفة والتحذير .

تلك مواكب ابن أبي ربيعة في عصر الفتن والقلق ، وحروب الحجاز واحتدام الحماسة . فليت جده (حذيفة) أورثه بعض فروسيته . فلقد كان حذيفة يحارب برحين يوم عكاظ في الجاهلية حتى سمي ذا الرحين ، لكان إذن قد كسب القرشيون في عمر شاعر حروبهم ، ومؤرخ مغازيهم ، إلى جنب ابن قيس الرقيات ، في عصر بني أمية .

الفصل الرابع

شعر الحرب في ظل الأمويين

لقد انقسم الشعراء في ظل الدولة الأموية ، ممن كان هواهم فيها وعصبيتهم لها قسمين :
(١) شعراء محضوا بنى أمية ودهم وأصفوهم هواهم ، فصدقوا في وصف حروبهم وتصوير معاركهم ، ومدحوا بما كانوا يرون بنى أمية أهلاً له من المكارم وجميل الذكر وبسطة السلطان . فجاء شعرهم سليماً من الملق ، وكان أحسن هؤلاء الشعراء قولاً وأصدقهم وصفاً من شهدوا تلك الحروب وكانوا في المقاتلين .

(٢) شعراء اصطنعوا المودة لبنى أمية وادعوا لهم الهوى ، ولكن قلوبهم مع غيرهم من الخوارج أو الشيعة أو آل الزبير أو غيرهم ممن شق عصا الطاعة على بنى أمية ، وكان شعرهم فيهم يفوح منه التصنع ويشيع فيه الملق . وكان بنو أمية إما عارفين بهواه ، فأغمضوا دونه الجفون لبقاء عليه ، وتوخيا للعافية ، أو كانوا مخدوعين فيه .

وقد اشتجرت في بنى أمية الحوادث ، واصطلحت عليهم الكوارث ، ولكنهم ثبتوا لهجمات الخطوب من كل صوب . واستطاع ساستهم والمخلصون من قادتهم أن يسيروا دفعة المركب الأموي في هذا البحر المتلاطم حتى بلغوا به الشاطئ . ولكن شدة ما تنكر لهم الزمن فلم يسعدهم براحة . فإنهم ما بلغوا شاطئ الأمان ، حتى وجدوا عليه الهاشميين والعباسيين متربصين بهم آخر الدوائر .

وكانت مهمة أولئك الشعراء في هذه الحروب والقلاقل ، وفي أشتات تلك الفتن أن يقولوا شعراً مزيجاً مدح الفاتحين والغازين من بنى أمية ، وذم المندحرين والمتمردين من أعدائهم الكثير ، يصف جوانب من تلك الحروب ومشاهد من هذه المعارك دون الاستفاضة في تصوير القتال على النحو المنشود . وقد كان في مجال القول هؤلاء الشعراء سعة ، فإن العراق كان لا يخلو في سنة من السنين أو في شهر من الشهور من حدث كبير أو فتنة صغيرة . وإنى لأشبهه بالبركان المكبوت لا تزال فيه النار ، تجد لها متنفساً من الشقوق ، أو فرجة تنفجر فيها . وأحسب أن الحجاز والعراق ، كانا دارتي المفاتن ، وإقليم فارس وما والاها كان ساحة التوسع في الفتوح الناجحة ، وثغور الروم كانت مbagتات ومحاولات خاسرة

حيناً ، وناجحة حيناً ، تجر من المتاعب أكثر مما تجر من المكاسب .
 وكانت هذه الأمصار في مفاتها وقلقلها يضرب بعضها في بعض ، كما تضرب
 أرقام الحساب ، فيتوالد جم من الكوارث . ولم تكن جيوش الأمويين في ذاتها سليمة
 من عوامل الانقسام والدس والفتن . فما يكاد الجيش يفصل بأمر خليفة إلى حرب الأعداء ،
 حتى تشيع فيه روح التحاسد بين قواده وأجناده ، وحتى يثور بعض رجاله على بعض
 ويخلع ناس طاعة آخرين فيتحاربون ويتفانون ، ثم ترسل رؤوس العصاة هدايا إلى الخليفة .
 كالذي كان في حروب (قتيبة بن مسلم) وهو في خراسان ، حين خلع بيعة سليمان بن
 عبد الملك ، وكونثوب الأمويين على أمراء أجنادهم المهلبيين ، وحبسهم لهم وقتلهم يزيد
 ابن المهلب .

١ - كعب الأشقرى

شاعر الحروب الأموية

من شعراء الفريق الأول ، أى الشعراء المخلصين لبني أمية ، (كعب الأشقرى الأزدى)
 وقد كان شاعراً من الفرسان الذين شاركوا في الفتوح واحتملوا في القتال نصيباً ، فقد شهد
 حروب الأزارقة . وحين أمكنت الحرب المهلب بن أبى صفرة من رقاب الخوارج أرسل
 بكعب إلى الحجاج ، يطلعه طلع النصر ^(١) فجاء الحجاج في داره ، فأنشده في حفل حاشد
 قصيدته الرائية الكبرى ^(٢) . وهى عندى أكبر قصيدة قالها شاعر فارس : في عصر
 بني أمية جعلها مخصوصة لوصف المعارك ومشاهد البطولة ومواقف القتال وسكبتها في موضوع
 حماسى واحد .

وقد بلغت أبياتها أربعاً وثمانين بيتاً ، بدأها - كعهد الشعراء الأوائل - بالغزل ثم
 عطف مسرعاً إلى مدح المهلب بأبيات خلص منها إلى الموضوع ، فوصف كيف بغت
 العدو بالهجمة وارتاعت النساء واضطربت حال الخوارج ، فاعتصموا خلف الجسر ، ثم
 وصف جيوش الأمويين وقد لبست لباس الحرب وعبرت الجسر إلى الخوارج ، ترف عليها
 ألوية المجد فوق أبطال كالليوث ، ظلوا يلحقون بالخوارج إلى سابور الجنود ، فثبتوا لهم

(١) الأغاني ط التقدم ج ١٣ ص ٥٤ .

(٢) الطبرى ج ٧ ص ٢٧٠ .

فيها وكأنهم أبطال من الجن ، واشتبكوا معهم هنالك في معركة أفنت من الفريقين رجالاً حتى ترك الخوارج الحرب وتسللوا بالمكر والخديعة إلى ما وراء تلك الأصقاع . فأتبعهم جيش الأمويين مرحلة بعد مرحلة يقاتلهم ويهزمهم ، حتى كانت (الموقعة الفاصلة) في قاع من الأرض صف فيه الجمعان كطودين ، فشى الأمويون إليهم كمائة متراصين ، كأنهم قطع من الليل ، وكانوا يحفون بقائدهم الأزدي فتضارب القومان بالسلاح في نار مستعرة من الحرب وفي حومة موت ، ما فيها إلا الصوارم والأسنة ، حتى وقع الخوارج صرعى ، فداستهم الخليل ، ثم غادرتهم للطيور نفرى لحومهم كواسرها ، فإن كان هذا آخر وصف كعب الأشقرى الشاعر البطل ، لمعركة المهلب مع الخوارج ، ختم قصيدته بمدح المهلب وزاد الأزديين قومه قسطاً من الفخر والمحامد والشرف والبطولة .

وقد تخيرت من هذه الملحمة الرائعة طائفة من أبياتها قال فيها شاعرها الفارس :

يا حفص إني عداني عنكم السفرُ	وقد أرقّت فآذى عيني السهر
علقت يا كعب، بعد الشيب غانية	والشيب فيه عن الأهواء مزدجر
واشدت الحرب والبلوى وحل بنا	أمر تشمر في أمثاله الأزر
تلبسوا لقراع الحرب بزها	فأصبحوا من وراء الجسر قد عبروا
ساروا بألوية للمجد قد رفعت	وتحتن ليوث في الوغى وقر
قتلى هنالك لا عقل ولا قود	منا ومنهم دماء سفكها هدر
باتت كتائبنا تردى مسومة	حول المهلب حتى نور القمر
عبوا جنودهم بالسفح إذ نزلوا	(بكازرون) فما عزوا ولا ظفروا ...
لاقوا كتائب لا يخلون ثغرم	فيهم على من يقاسى حربهم صعر
صفان بالقاع كالطودين بينهما	كالبرق يلمع حتى يشخص البصر
يمشون في البيض والأبدان إذ وردوا	مشى الزوامل تهدي صفهم زمر
وشيخنا حوله منا ملممة	حتى من الأزد فيما نابهم صبر
ندوسهم بعناجيج مجففة	وبيننا ثم من صم القنا كسر
في (معرك) تحسب القتلى بساحته	أعجاز نخل زفته الريح ينقعر
في كل يوم تلاقى الأزد مفضعة	يشيب في ساعة من هولها الشعر
والأزد قوى خيار القوم قد علموا	إذا قرومهم يوم الوغى خطروا

٢٠ حتى بأسيا فهم ييغون مجدهمو إن المكارم في المكروه تبتدر
٢١ لولا المهلب للجيش الذي وردوا أنهار كروان بعد الله ما صدروا

ونستطيع أن نحلل (من الوجهة الفنية) هذه القصيدة الحربية النادرة في أدب العرب
عصر بني أمية تحليلًا يتناولها بأجمعها على الشكل الآتي :

« ما يتعلق بمبناها » :

١ - سار فيها شاعرها على غرار شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ومعاصريه ، ممن
يبدؤون القصائد بذكر الحبيب ووصفه ، والتشويق إليه - وقد لا يكون هنالك من حبيب .
٢ - مزج فيها مديح معشره وهجاء أعدائه بوصف المعركة . فسار في سبيل أمثاله ،
ممن قالوا شعر الحرب فزجوه بمديح معاشريهم ، وهجاء أعدائهم .
كان أفضل من غيره من شعراء بني أمية الذين وصفوا الحرب والقتال بنطاق ضيق ،
فلقد توسع في الوصف الحربي وتوالت أبياته فيه ، لا يند بينها البيت الشارد إلا قليلا .
٤ - وصف العرب في حروبهم بما هم أهلهم فلم يمار (في تفضيل شجاعة الأمويين
وبطولتهم) وإنما (مدح شجاعة الخوارج أيضا) ووصف بطولتهم وفروسياتهم ، وتفانيهم
في القتال ، على الرغم من هجوه لأعداء الأمويين ، وكان هذا الشاعر أكرم من غيره من
الشعراء الأمويين في إظهار ذلك .

٥ - وصف لبوس جيشه وسلاحه والتحامه بالعدى وصفاً استعان على تجسيمه بالإحاطة
وتتابع الصور . فقد وصف الصفيين فشبههما بالطودين مما يحس بالحس ويحس بالذهن .
وجعل البرق تشبيها للمعان السيوف بينهما . وجعل الحرب نارا . وذكر تكسر السلاح لكل
أداة يحارب بها . وذلك للتدليل على شدة الهول في تجسيم الضنك . ثم ذكر كيف داست
الخيول القتلى وفي هذا إشارة صارخة إلى انحطام العدو وهزيمته ، ووقوع قتلاه تحت
سنايك الخيل مسلمة الجسوم لكواسر الطير .

٦ - ذكر المذرة في القتال من أنه ثار وقصاص ، فقال : إن هذه المعركة (قتلى بقتلى
فهو قصاص) .

« وما يتعلق بمبناها من الوجهة الفنية » .

١ - أن بحرها « البسيط » من أخص الأبحر بشعر الحرب ، لازدواج تفاعيله وتردادها
بما يكسبه رنة موسيقية حماسية .

٢ - جاء رويها على الرأ وهو الروى الذى آثره كثير من الشعراء فى شعر الحرب ووصف المعركة ، كرائية عمرو بن الحصين فى حروب الخوارج ، ورائية أبى تمام فى رثاء بطولة الطوسى .

وإن ألفاظ القوافى « نفروا وعبروا ، وظفروا ، وانتصروا ، ومكروا » كلها ألفاظ حربية تشد أزر الروى فى تطويل نفس القصيدة وحماستها .

٣ - فخامة ألفاظها مع سلامتها من الحوشى والغريب ، وسلاسة أسلوبها . وأخذ بعض أبياتها بمعانى بعض ، يجعلها فى خيار الشعر الحربى بوصف القتال فى الأدب العربى .

٤ - لم يسقط طول النفس فى أبياتها منزلتها عن أروع الشعر الحماسى ، فقد بدأت محلقة فى جو من البلاغة ، وظلت كذلك ثم كانت خاتمها فى مثل هذا المطاف الرفيع .

٥ - لا يجد النقد اللغوى سبيلاً إليها ، فإن كعباً كان شاعراً إسلامياً جيد الشعر ، عربى الصليبية التى لا تعرف ضعف اللسان . وقد شهد له بالتقدم الفرزدق^(١) وكان بعد هذه القصيدة نابغة شعراء الأزدية ، وكفاه أن شهد له الحجاج بالشاعرية فقد قال له بعد إنشاد هذه (الملحمة) وهو معجب : « أشاعر أنت أم خطيب ؟ » .

* * *

وقد طرب الحجاج لهذه القصيدة الكبرى ، وطلب إلى كعب أن يصف له بنى المهلب ، فأفاض بكلام من « النثر الحربى » جزل مرسل . فأجازه الحجاج بمال كثير وأرسله إلى عبد الملك بن مروان ، ليستنشد الرائية الكبرى ويحيزه عليها .

وكان هذا الشاعر الأزدى فخوراً بأزديته التى تمرست بالحروب ، ذاهباً بها حتى فضلها بفروسيها وشجاعتها على قريش ، ومنّ بها على الأمويين فى تغلب الأزد على الخوارج المعتصمين فى ديار فارس ، وقتلهم (عبد رب الكبير) الذى خلع بيعة « قطرى » ودعا إلى البيعة لنفسه وانقسم عن صاحبه^(٢) فحارب الأمويين حتى فنى فى حروبهم ، وكأن سبب هذا الانقسام دسيس دسه المهلب بين الخوارج حين التبس عليه أمرهم وأعبته شوكتهم . ثم استطاع المهلب أن يتفرغ لكليها واحداً بعد واحد . فكانت له الغلبة على الخوارج فى

(١) الأغاني ط التقدم ج ٣ ص ٥٤ - ٥٥ .

(٢) الكامل ج ٢ ص ٢٣٧ .

عهده ، ولم يكن ليستطيع عليهم غالباً ، حتى بايعه على الموت أشجع رجال جيشه .
 ذلك طرف من شعر « كعب الأشقرى » فى حروب بنى أمية للخوارج وقد وصف
 المعارك التى شارك فيها بنفسه وشهدها وأحسن ذكرها ، ووصفها وصفاً دقيقاً رائعاً على نحو
 ما تقدم مثاله . ولا خلاف فى أنه كان كما ذكرت أخلص شعراء بنى أمية إليهم حتى كان
 عبد الملك بن مروان يعير الشعراء به ويتنقص أماديهم ، وهو يعرف أن فيها زوراً وملقاً ،
 فقال لفريق منهم ^(١) « يا معشر الشعراء ، تشبهوننا بالأسد الأبحر والجبل الوعر والملح
 الأجاج ، ألا قلتم كما قال كعب الأشقرى فى المهلب وولده » .

وقد اشتغل كعب الأشقرى بملاحاة الشعراء ومهاجاتهم ، فابتلى دهره بزياد الأعجم
 يناوئه ويكويه . ولو تفرغ كعب وطال عمره لترك فى أدبنا العربى تراثاً رائعاً فى شعر الحرب
 قل أن يكون ضريعه عند غيره من الشعراء الذين عاصروه ، كما كان يملك طول النفس
 ودقة التصوير ورفعة الأسلوب والتقرب من وحدة الموضوع مع القروسية (الشخصية)
 والمشاركة فى الحرب .

الأعشون الثلاثة فى الحماسة

١

لا ضير على الأعاشى فى الحرب إن افتقدوا إليها النظر ، فإن بصائرهم كانت تمتد
 العيون . لقد عرف أعشى بنى تغلب ^(٢) حروب قومه مع بنى شيبان فكان يحث جمعه
 عليها ، ويندب إلى لظاها القاعدين ، فزجر أبا مسمع مالكا حين أورى نار الحرب ثم
 قعد عنها فقال فيه :

جزى الله شيبانا وتياً ملامه	جزاء المسىء سعيها وفعالها
أبا مسمع من تنكر الحق نفسه	وتعجز عن المعروف يعرف ضلالها
أوقدت نار الحرب حتى إذا بدا	لنفسك ما تجنى الحروب فهاها ،
نزعت وقد جردتها ذات منظر	قبيح مهين حيث ألفت حلالها

(١) الأغاني الطبعة السابقة ج ١٣ ص ٦٠ .

(٢) وهو النعمان بن يحيى من تغلب بن وائل .

وكان في شعره أقرب حماسة إلى القبلية منه إلى نزعة أموية . ولعل نزعته الأموية قد أتيح لها من ينحرفها في نفسه نحرًا ، فلم يفض شعره بحماسة أموية . وأعلل ذلك بتجهم وجه لقيه به عمر بن عبد العزيز حين جاءه مادحًا ، فلم يجزه ، وقال له : « ما أرى للشعراء في بيت المال حقًا » . ولولا أن الوليد ابن عبد الملك كان قد أكرمه قبل عمر بن عبد العزيز ، لراح يذم الأمويين .

٢

وتعصب أعشى ربيعة^(١) للمروانيين فكان « مرواني المذهب » يذم الزبيريين ويحرض عليهم الأمويين ، ومع ذلك لم يسلم من الحجاج الجبار حتى اعتذر إليه بشعر حماسي فيه تهديد فقال^(٢) :

أبيت كأني من حذار ابن يوسف طريد دم ضاقت عليه المسالك
ولو غير حجاج أراد ظلامتي حمتني من الضيم السيوف الفواتك
وفتيان صدق من ربيعة نصرة إذا اختلفت يوم اللقاء النيازك
يحامون عن أحسابهم بسيوفهم وأرماحهم واليوم أسود حالك

وكان مفوها أيام الفتن ، فدافع عن الكوفة والبصرة لما اتهمهما الحجاج بإظهار المعصية وشق عصا الطاعة ، فاستل سخيمته بقوله : « أيها الأمير كل من المصريين قد والله اجتهد في قتالك ، فأبى الله إلا نصرك ، وذلك أنهم جزعوا وصبروا ، وكفروا وشكروا . وغفرت إذ قدرت » . فرضى عنه وقال : له تجهز إلى عبد الملك يسمع منك هذا .

٣

أما أعشى همدان^(٣) فقد وفي حق الحماسة عليه ، حين وصف وقعة (عين الوردة)^(٤) وبكى شجاعة قتلاها .

(١) هو عبد الله بن خازجة .

(٢) الأغاني السابقة ج ١٦ ص ١٥٧ .

(٣) هو عبد الرحمن بن الحارث الهمداني .

(٤) تاريخ الطبري ج ٧ ص ٨٢ .

وأحسب بنى أمية لم يكونوا راضين عنه يومذاك ، لأن قتل عین الوردۃ الذین قال فیهم قصیدته « المکتمة » کانوا من أعدائهم الناشزین علیهم . . لكنه كفر عن جريرته فانتجع مروان بن الحکم فی الشام ، فلم ينل عنده حظاً ، فتحول إلى حمص وكان علیها النعمان ابن بشیر فأغناه . ولكن أریحیته أبت علیه إلا الوفاء للأمویین - بعد أن ملأ قلوبهم علیه غیظاً . فی سالفته من التشیع - فنظم قصیده فی مدح الحجاج وبنی أمية وهب لینشدها الحجاج فی حفل أقامه الحجاج لیحاكم فیہ أصحاب ابن الأشعث بعد أن هزم رئیسهم وقتله فی وقعة (دیر الجماجم) سنة اثنتین وثمانین للهجرة ^(١) . وكان أعشى همدان قد نفر مع النافرین وشارك ابن الأشعث فی حرب الحجاج . فعجاء به الحجاج وهو یرسف فی قیوده ، وأحضره مجلس المحاکمة والتنکیل فقال له : « الحمد لله الذی أمکن منك » .

فهنض الشاعر المنکود غیر وجل ولا هیاب من وعید أبی محمد وتهیدیه . فأنشد قصیده يتمدح فیها بفروسة الحجاج : ناکثا عهد ابن الأشعث ، ومصوراً وقعته الأخيرة وانخذاله وما خامر جمعه من الندامة فقال ^(٢) :

أبی الله إلا أن يتم نوره	ویطفئ نار الفاسقین فتحمدنا
وینزل ذلاً بالعراق وأهله	كما نقضوا العهد الوثیق المؤکدا
وما لبث الحجاج أن سل سيفه	علینا فولی جمعنا وتبددا
وما زاحف الحجاج إلا رأیته	حساما ملق للحروب معودا
فکیف رأیت الله فرق جمعهم	ومزقهم عرض البلاد وشردا
بما نکتوا من بیعة بعد بیعة	إذا ضمنوها الیوم خاسوا بها غدا
لیهنئ أمیر المؤمنین ظهوره	على أمة كانت بغاة وحسدا

فما أسرع تقلب أعشى همدان ! فإنه أثنى على بنی أمية ثناء المخلصین ونسى یدیہ فی حربهم ، ظناً منه أنهم سیأخذونه بالرحمة ، وفاته کید الحجاج وصلابة عوده ، وجبروته ، ففضی فی مدیحه لبنی مروان یقول :

وجدنا بنی مروان خیر أئمة	وأعظم هذا الخلق حلماً وسؤدا
إذا ما تدبرنا عواقب أمرنا	وجدنا أمیر المؤمنین المسددا

(١) فی رواية المسعودی أن وقعت ابن الأشعث مع الحجاج بلغت نیفاً وثمانین وقعة (تاریخه ج ٣ ص ٧٣) .

(٢) الأغانی السابقة ج ٥ ص ١٥١ .

ولعله أدرك سوء المصير فأرخت عنان الشعر يتعطف به قلوب بني أمية على المغلوبين ،
ويستحث رحمتهم وإشفاقهم على قوم تنوح نساؤهم عليهم وهن خالطات الدموع بكحل
العيون ، وأين سخيمة الحجاج وقلبه من شعر الشعراء ؟ لقد أفل دهر العرب في الجاهلية إذ كان
فيه شاعر كالنابغة يستل سخائم النعمان فيرضى عنه بعد إهدار دمه ، وأدرك العرب دهر
مثقل بالترات ، مصبوغ بالدماء والنقم ، فلما فرغ الشاعر من إنشاد هذه « القصيدة
التائية » عجب من حضر لأعشى همدان ، وعطفوا عليه قلب الحجاج ، فقال لهم جبار
بني أمية :

- إيه ، هيهات . . . وصاح :
- يا حرسى ، اضرب عنقه . .

الفصل الخامس

الفروسية القبلية

من شعراء (الفروسية القبلية) النابغة الشيباني ^(١) : فقد كان شاعراً بدوياً من شعراء الدولة الأموية ، مدح بني أمية وأجزلوا له العطاء ، لكنه لقي من هشام بن عبد الملك عذاباً فبات في عهده طريدا . أما فخره بحماسة قومه فكان دليلا على نزعة القبلية في الفروسية ، وهي عنده وعند أئداده أفضل من التمدح بفروسة الأمويين وبطولتهم .

أما الشاعر الذي ظهرت في شعره النزعة القبلية بوضوح والتزام وحفاوة ، فهو الشاعر القطامي ^(٢) . وإني لأعده مثالا لشعراء الفروسية القبلية ، وأرى شعره أصبح دليل على شعر الحرب الذي سكب صاحبه على قومه ، فلم يجعل لغيرهم نصيباً في شرفه ، وقد ذهب القطامي بعمود هذا الضرب من الشعر الأموي .

كان شاعراً فارساً كما يدل على ذلك شعره ، شهد حروباً قبلية وسمت شعره بميسم قبلي صرف . وتكشف لي هذا الشاعر عن نزعة عصبية جاهلية ، لم يذهب بها العهد الأموي . ولعل نصرانيته وقته من التنازل عن هذه العصبية الجاهلية التي زهد فيها المسلمون ، دينهم الجديد .

والذي يشغلني من أمر هذا الشاعر شعره الحربي القبلي ، وقد وجدته موفوراً في ديوانه ^(٣) الذي وقف عليه المستشرق الألماني (بارت) وكتب له مقدمة تحليلية ربط فيها القرابة بين القطامي والشاعر الأخطل ، وكان ثابتاً عند بارت أن القطامي كان نصرانياً وأسلم ، مستنداً إلى رواية أبي الفرج الأصبهاني التي يقول فيها ^(٤) « وكان نصرانياً وهو شاعر إسلامي مقل » فكان تفسير الأستاذ بارت يؤول أن القطامي كان نصرانياً ثم أسلم فأنكر عليه ذهابه في هذا التفسير الأب لويس شيخو اليسوعي في كتابه ^(٥) « شعراء النصرانية » ولولا أني أحب أن

(١) هو عبد الله بن الخارق .

(٢) هو عمير بن شبيب بن عمر التغلبي .

(٣) ديوانه ط ليدن سنة ١٩٠٢ لبارت .

(٤) الأغاني ط التقدم ج ٢٠ ص ١١٨ .

(٥) شعراء النصرانية في دولة بني أمية ص ١٩٢ .

أجزم بنصرانيته لأعلل مذهبه في شعر الفروسية القبلى وعدم تأثره بالإخاء الإسلامى ونفى العصبية القبلية بين المسلمين ، لما عرضت لقول بارت والأصبهاني وشيخو . وقد رجح عندى مذهب الأب لويس فى هذه الناحية .

لقد جرت حروب لقوم القطامى مع القيسيين ، فأعطى قومه قسطاً كبيراً من شعره ظهر فى ديوانه ، وكان لا يقر لأحد بالفروسية سوى قومه حتى قال فى المهلب :
وما جعل الله المهلب فارساً ولكن أمثال الهذيل الفوارس

والهذيل من بنى تغلب :

ويظهر هذا الحس الحماسى لإعزاز القبيلة جلياً لديه فى قصيدته العينية (لضباع)
التي يفضل فيها جنسه بالبطولة والشجاعة وثقاف السيوف فيقول فيها (١) :

كأن الناس كلهم لأم ونحن لقلعة علت ارتفاعاً (٢)
فكل قبيلة نظروا إلينا وحلوا بيننا كرهوا الوقاعا
فهم يتبينون سنا سيوف شهرنا هن أياما تباعا

ثم صرح (بالبغضاء والعنصرية) والضغائن التي لا تخمد فى صدور بعض القبائل
على بعض فقال :

وكنا كالحريق أصاب غاباً فيخبو ساعة ويهب ساعا
فلا تبعد دماء بنى نزار ولا تقرر عينوك يا قضاعا

ثم ذكر شركة قبيلته فى الحروب و (الملاحم) والوقائع وما ثرم الحربية حتى التي كانت
فى الجاهلية يوم الكلاب فقال :

ولو تستخير العلماء عنها ومن شهد (الملاحم) والقراعا
بتغلب فى الحروب ألم يكونوا أشد قبائل العرب امتناعا
زمان الجاهلية كل حى أبرنا من فصيلتهم لماعاً (٣)
همو وردوا الكلاب على تميم بموج يبلع الناس ابتلاعا

(١) القصيدة رقم ١٣ .

(٢) أى بنو العلات وهم لأب واحد وأمها تى .

(٣) أبرنا أى أهلكنا فصيلتهم . لماعاً أى شيئاً بعد شئ . كاللماع من اللمع .

لقد كان القطامي من غلاة القبيلة . وكان من مغالاته هذه وإلخاف عصبته يهولُ
 بشعره قيمة العشيرة وخطره فيها وبلاء فروسيته^(١) فيقول وهو يفاخر بشعره الحربي :
 فلو أننى هانت على عشيرتى لسبت عروض واستحلت محارم
 ألم تر للبنيان تبلى بيوته وتبقى من الشعر البيوت الصوارم

وأحسبه عاش جراراً أذبال الفخار، مزهواً بقبيلته مفدياً فرسان قومه الذين مزجوا
 كؤوس مناياهم بالشرف في (يوم العروبة ويوم نهر الثرار) ، مصوراً غاراتهم وبأيديهم
 السيوف مصلطة تنقض كالشهب ، ما تعرف غمداً منذ سلت للحروب ، حتى إذا روى
 وجده بهذا الوصف للسيوف القاطعة ، ونيان الحرب الواقعة والرماح المتشاجرة التي تفرى
 الدروع عاد إلى نحيزة القبيلة فأندر وتوعد . وكل ذلك قاله لزفر العبسي ، غير هياج
 ولا وجل ، على حين كان أسيراً عند زفر فنّ عليه صاحب قريقساء وسيد العرب فأطلقه .
 وما ذلك إلا لتأصل الروح القبلية في نفسه ، ولصدق بلائه في فروسيته ، حتى راح هو
 في دوره يمن على زفر أيضاً فيقول^(٢) .

من مبلغ زفر العبسي مدحته	من القطامي قولاً غير أنفاد
إني وإن كان قومي ليس بينهم	وبين قومك إلا ضربة الهادي
مثنٍ عليك بما استبقيت معرفتي	وقد تعرض مني مقتل بادي
لولا كتابك من عمرو وصول بها	أرديت يا خير من يندو له النادى
إذ لا ترى العين الأكل سلهية	وسابح مثل سيد الردهة العادي
إذا الفوارس من قيس بشكهم	حولى شهود وما قومي بشهادى

ثم يكون تهديده وتفضيل قومه بقوله :

أبلغ ربيعة أعلاها وأسفلها	أنا وقيساً تواعدنا لميعاد
ولو تبينت قومي ماراً بتهموه	في طالعين من (الثرار) نداد

ويدل شعر الحرب عند القطامي أنه سلخ جزءاً كبيراً من حياته مشغولاً بالحرب العوان
 بين قومه بنى تغلب وبين قيس عيلان^(٣) فإن قصائده في غير الغزل لا تخلو من ذكر

(١) القصيدة رقم ١٤ .

(٢) القصيدة رقم ١١ .

(٣) الشعر والشعراء ابن قتيبة طبعة أوربا ص ٤٥٣ .

الحرب والسلاح والاعتزاز بشجاعة القبيلة . ويدل شعره إلى ذلك على أنه بلا الحرب وعانى أهوالها ولولا ذلك لما وقع أسيرا بيد زُفر بن الحارث الكلابي حين ظفر زفر على التغلبين في حربه وكيده وشعر القطامي وإن جرى في الحرب ولم تفسده السياسة ، فإن الأخطل داهية السياسة وهو خال القطامي كان كفيلا في أن يستغل نزعته القبلية وثورته العصبية المتوقدة ، ويمضى بها في سبيل السياسة ، فيحارب به القيسيين مع تغلب . وقد كان التغلبيون يناصرون عبد الملك بن مروان ، بخلاف القيسيين الذين حاربوا مع عبد الله بن الزبير .

الفصل السادس

شعر الحرب عند الهجائين

١ - حماسة الأخطل

لعل الأخطل أعظم فروسية ومعاناة للحرب من صاحبيه الفرزدق وجريير ، إذ كان أكثر تصويراً للحرب وحفاوة بها للصوفة ببني مروان ومنافحته عن دعواهم ، وبث سياستهم ، ولذا نرى وصف الحرب وذكر القتال أكثر في شعره من صاحبيه .

وقد ابتلاه دهره بالغزوة ، فتوسط الحرب ، وكابد الطعن والضرب ، فذكر (يوم الثرثار) في شعره كثيراً . وكان الثرثار يوماً مغسولاً بالدم بين بني تغلب قوم الأخطل وبين قبائل القيسية . فقد تحاشد التغليبيون فيه إلى الثرثار ^(١) ، قتل فيه عمير بن الحباب السلمي رأس القيسية ، وقد بلغ المتقاتلون ألوفاً ، فاشتدت الواقعة وأرخص الجمعان الموت ، وبلغ من بطولة الشجعان فيها أن قاتلوا وهم جرحى ، فكان شعيب بن مليل وهو من رؤوس التغليبيين يقاتل بعد أن قطعت رجله وهو يقول ^(٢) :

قد علمت قيس ونحن نعلمُ أن الفتى يقتل وهو أجذمُ

فلما قتل شعيب نزل أصحابه فعقروا دوابهم ثم قاتلوا حتى قتلوا .

ودامت وقعة الثرثار يومين حتى انتقضت تعبئة القيسية وغلبوا على أمرهم فغلبتهم تغلب وأسرتهم ، ومثلثت بأحلافهم بني سليم ^(٣) .

فحق للأخطل أن يملأ شعره بذكر يوم الثرثار وأن يكثر به ويفاخر ، وقد ظهرت في شعره روح القبيلة فأجاد في وصف الحرب وبطولة قومه ، إذ جاء شعره صادقاً في بطولتهم

(١) واد عظيم في الجزيرة يحده الماء في الشتاء وهو بين سنجار وتكريت كان قديماً منازل لبكر بن وائل واختص بأكثره بنو تغلب ، يصب في دجلة من فضلات نهر نصيبين (ياقوت) .

(٢) الأغاني الطبعة السابقة ١١ ٦٠ ، وتكملة شعر الأخطل وقوف الأب صالحاني طبع بيروت عن

نسخة طهران الخطية سنة ١٩٣٨ ص ٢٢ .

(٣) تاريخ الكامل لابن الأثير الطبعة الأزهرية ج ٤ ص ١٥٢ .

ومآثر التغلبين فراح يفت بشعره في عضد المغلوبين وفيهم تميم ، ويذكر يوم الثرثار وبلاء
قومه فيه ومقتل عمير بن الحباب واحتزاز رأسه ، ويحذر قومه من الصلح فيقول ^(١) :

فقد أحياسفاهُ بنى تميم دفين الشر والدِّمن البواق
ملأنا جانب (الثرثار) منهم وجهزنا أمية لانطلاق
ولاقى ابن الحباب لنا حميًّا كفته كل حازية وراق ^(٢)
فأضحى رأسه ببلادك وسائر خلقه بجبا براق ^(٣)
فلا تسترسلوا لدجاء صلح فإن الحرب شامزة النطاق ^(٤)

وذكر بقاء جثة عمير صاحبة في الفلاة ، وفي ذلك إشباع لروح النعمة في نفسه ،
ولإعراب عن العداوة القبلية التي كانت ما تزال متأصلة في نفوس العرب لعدهه بقوله :

أمعشر قيس لم يمتنع أخوكو عمير بأكفان ولا بطهور
تدل عليه الضبع ريح تضوعت بلا نفح كافور ولا بعير

* * *

وكان بعد (الثرثار) يوم البشر وهو يوم الجحاف بن حكيم ومعه القيسية على بنى
تغلب وكان المتحرش الأخطل إذ أساء إلى الجحاف في مجلس عبد الملك ^(٥) وغمز جانبه ،
ونخرج الجحاف إلى صحبه من القيسية فجمع منهم ألف فارس ، وآلى أن لا يغسل رأسه
حتى يوقع ببني تغلب الذين منهم الأخطل ، حتى جاء ماء لبني جشم بن بكر رهط
الأخطل ، فصادف عليه قومًا عديدًا فأنشب فيهم سلاحه ، وقتل منهم مقتلة عظيمة
« وأخذ الأخطل فيمن أخذ ، وعليه عباءة وسخة فظنوه عبداً » . فلما أطلقوه خشي أن
يعرف فرمى نفسه في جب فلم يزل فيه مختبئًا حتى انصرف القيسيون فنجا ، وقد قتل أبوه
(غوث) في هذه الواقعة وكانت تسمى وقعة (يوم البشر) ^(٦) .

(١) ديوان الأخطل رواية اليزيدي عن ابن الأعرابي وقوف الأب صالحاني ط بيروت سنة ١٨٩١ ص ٣١ .

(٢) الحميا هنا شدة الحرب وسورتها ، والجازية الكاهنة ، وفي البيت تهكم .

(٣) حيا براق اسم موضع .

(٤) الشامزة المشمرة .

(٥) تكملة شعر الأخطل ص ١٧ .

(٦) البشر جبل من عرض الفرات من جهة البادية (ياقوت) .

ففر الجحاف إلى بلاد الروم بعد أن طلبه عبد الملك بقتلى هذا اليوم ولم يزل فيها حتى حملة عبد الملك ديات القتلى، وكان الجحاف شاعراً فوصف هذا اليوم يخاطب الأخطل بقوله :

أبا مالك هل لمتني إذ حضضتني على القتل أم هل لامني بك لأني
ألم أفنكم قتلاً وأجدع أنوفكم بفتيان قيس والسيوف الصوارم
بكل فتى ينعي (عميراً) بسيفه إذا قبضت أيمانهم بالقوام
يكر عليهم ساجداً ذا علالة بأبيض طلاع ثنايا المخارم^(١)

وقد وصف ابن الصنفار المحاربي ويل هذه الحرب ومناحة تغلب بعدها وتحريق تغلب لموتها خشية العار من أن يعرف الناس القتلى، فتكون كثرتهم سبة عليهم أبد الدهر فقال :

وهل يرجع الموتى حنين مآتم يبيكين قتلى تغلب وانتحابها
وكيف وقد أوقدتم النار فوقهم فحرقهم تسعارها والتأهبها

وكان طبيعياً أن يسدل الأخطل ثوب ستر على انهزام قومه في هذا اليوم، فتحاشى الخوض فيه كثيراً في شعره وتناول هذه الواقعة جرير يعيره بها ويعيبه وكان لمثلها بالمرصاد^(٢). وكان بعد الثرثار يوم (الشرعية) وفيه انتصر قوم الأخطل. وكان يوماً سياسياً وليس لوجه القبيلة. فقد دفع فيه بنى تغلب إلى حرب قيس مالك بن مسمع وكان زبيرى النزعة ومن أصحاب مصعب بن الزبير وملازميه « وجعل الأخطل يحضهم في هذا اليوم بمصرع مجاشع المقتول في أول يوم من حربهم »^(٣).

وكان النصارى قوم الأخطل في أمن وحرية، بحيث يشهرون صلبانهم على الرايات، يعتصمون بذكر قديسيهم، فقال الأخطل في حضه قومه يذكر ذلك :

ويهاً بنى تغلب ضرباً نافعا وانعوا بأطراف القنا مجاشعا
لما رأونا والصليب طالعا ومار سرجيس وسمنا ناقعا
والبيض (في أيماننا) القواطعا والحيل لا تحمل إلا دارعا
خلوا لنا (راذان) والمزارعا وحنطة طيسا وكرما يانعا

(١) العلالة بقية جرى الفرس .

(٢) الأغاني طبعة التقدم ج ١١ ص ٥٦ .

(٣) تكملة شعر الأخطل ص ٣٢ .

فلما وقعت هذه الواقعة بعد الثرثار ، وكان الظفر فيها لتغلب أيضاً ، وقعت أخبارها للأخطل ألد من وقوع الحمر في حلقه فقال :

وسرن من الثرثار خمساً إليكمو يخبرن أخباراً ألد من الحمر

وفي ذكر هذا اليوم ويوم (إراب) جعل الأخطل يتصالف على جرير ويعيره لأنه يربوعى ، وكان بنو ربوع أحلافاً للقيسية التي حاربت قوم الأخطل فأحمى الأخطل مياسه ، وكوى بها جريرا ووصف جيش الهذيل وأحلافه ، وفرسانهم وخيولهم ، وكرهم في الحرب فقال :

ولقد سما لكم الهذيل فنالكم بإراب حيث يقسم الأنفالا (١)
في فيلق يدعو الأراقم لم تكن فرسانه عزلا ولا أكفالا
بالخيل ساهمة الوجوه كأنما خالطن من عمل الوجيف سلالا
فسقين من عادين كأساً مرة وأزلن حد بني الحباب فزالا
فانفق بضأنك يا جرير فإنما منتك نفسك في الحلاء ضلالا

ولم يكتف بغمز جرير هذه الغمزة المتهكمة ، وإنما أراد أن يجرى على عادة صحبه الشعراء المقذعين ، فصب الإقذاع على جرير بعد هذا البيت واتهم بالفاحشة أمه .
كذلك أضاع الأخطل قدرته على وصف المعارك وتصوير الحرب بشعر الهجاء ، فزج أماديجه بنزوات من شعر الحرب ، كان يضع خلالها أبياتاً في هجاء أعدائه القبليين ، وأعداء الأمويين متمدحاً فيما بين ذلك بالأمويين أو مفتخراً بنفسه ، تغالبه في جميع ذلك وسأوس السياسة التي احترفها ، وكان من أقطابها في بلاط عبد الملك بن مروان . وقد بلغ من حذقه في فنونها أن كان يتلاعب بقلب الخليفة فيستل منه الرضا عن رجالات العرب وأقوامهم ويملؤه سخائم على آخرين . كما فعل حين أوغر صدر عبد الملك على الجحاف ابن حكيم (كما تقدم) وكان يصلى عواقب سياسته ، كالذى جرى له في حرب الجحاف لقومه التغلبيين وتقتيلهم وفيهم أبوه غياث .

وحمل عبد الملك على أن يرفس زفر بن الحارث على صدره وأن يرميه من مجلس بجانبه إلى الأرض ، ثم انطلق يعزز حملته هذه السياسية بقصيدته الكبرى :

(١) هو الهذيل بن هيرة التتلى .

خف القطين فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوى في ظرفها غير
وفيها يقول :

بنى أمية إني ناصح لكم فلا يبين فيكم آمناً زفر
واتخذوه عدواً إن شاهده وما تغيب من أخلاقه دعر

ثم فتك بهجائه في هذه القصيدة بقيس عيلان جميعاً .

تلك كانت شواغل الأخطل ، حرب هجاء مع جرير الذي كان يسميه بابن المراغة
أى ابن الأتان ومع أعوانه من الشعراء . ومعالجة دسائس سياسية فيما بين ذلك ، وشعر مدح
ليس فيه نزعة حزبية أصيلة كالتى نراها عند شعراء الخوارج أو الشيعة أو دعاة الزبيريين .
كل ذلك حال بينه وبين التفرغ لشعر حرب مطول ، يؤرخ الحروب التى جرت في
زمنه — وكان مقامه يقتضيه ذلك كشاعر للخليفة مختص به أثير عنده — فترك لنا شعراً
تعج قصائده الطوال بالهجاء والفخر والمديح .

٢ — فروسية الفرزدق

يقول محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي إن الفرزدق « كان أجبن من الصافر ^(١) »
وتروى كتب الأخبار ^(٢) وشعر الفرزدق أنه هرب من زياد بعد أن هجا بنى فُتَيْم فاستعدوا
عليه زياداً فلجأ إلى المدينة وعليها سعيد بن العاص فأمنه وأجاره .

ودعاه زياد للعطاء واكتساب الصفح فأبى واستعصم بخوفه واتخذ البيد سبيلاً .

وكان اسم زياد يخيفه ويقبض عليه نفسه ، وقد أقر بذلك حين قال :

إذا ذكرت نفسى زياداً تكمشت من الخوف أحشائى وشابت مفارقى ^(٣)

وكان يخاف الحجاج جبار بنى أمية ، ويراه كالليث ، تخشى بواذر ثورته ومضارب
سيوفه فى الأعناق فيقول :

أخاف من الحجاج ثورة مخدر ضوارب بالأعناق منه خوادره

(١) ديوان الفرزدق لبوشيه ط باريس القسم الأول ص ٢٠ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٦ ص ١٣٨ .

(٣) ديوانه القسم الرابع ص ٢٣٧ .

وتحطمت على القدّ شجاعة نفسه ، فقد أضر برجليه الحديد في محبس خالد بن عبد الله القسرى حتى أطلقه أسد أخو خالد ، بعد أن مدحه الفرزدق بقصيدة أولها :
عسى أسد أن يطلق الله لى به شبا حلق مستحکم فوق أسوقى

وإن شاعراً كسر قلبه خوف السلطان ، وهربه في البلاد من بطش زياد ، متعرضاً في لياليه لليث والذئب . وقد تحمل حبس هشام وحبس القسرى بيد صاحب شرطته الظالم مالك بن المنذر بن الجارود ^(١) ورسف في القيود ...

وإن شاعراً شغلت قلبه النساء ، فيهن نوار بنت أيمن ، وثانية مجاشعية ، وثالثة من البرابيع كانت تقول له نوار : « تزوجتها دقيقة الساقين » ورابعة اسمها سودة ، وخامسة هي حدراء بنت زريق القيسية . وذهبت نوار بأكثر قلبه حتى نتفت لحيته فقال :

بكرت على نوار تنتف لحيتى نتف الجعيدة لحيه الخشخاش ^(٢)

كل ذلك البلاء قد اصطاح على الفرزدق ، وزاد عليه احتسابه أولاده من نوار وبكاؤه معها عليهم ، وكبته لتشيعه ، إلا نزوات كان يسرى عن نفسه بها بين حين وحين . .
ليكفيه واحد من هذه الخطوب أن يهشم نفسه . مهما يكن قوى الفؤاد مكين التحمل .
فلنعذر إذن أبا فراس ، فإن أهله وصحبه كنوه باسم الأسد تيمنا بشجاعته ، وهو إن فاتته شجاعة الفعال فلم يحارب ، ولم يخض المعارك و « نبت يده عندما ضرب بالسيف » حتى هُجى بذلك ^(٣) ، فإنه لم يقصر في القول فقد نصب لنفسه عمود فخر يشق عنان السماء ، وراح في طوال قصائده وقصارها يفاخر ببطولة قومه ، وفتك قبيلته ، وبأس أبيه غالب ، وصعصعة جده ، وكان ذا قلب نبيل ، مرتاحا للمعروف . وكان مصاباً بالفسوق ، يعرف من نفسه ذلك وشاع بهذا أمره ، وكان خلقه سلاحا بيد جرير عليه .

كل ذلك يدل على انطلاق نفسه وانعتاقها . وقد ظهرت هذه (النزعة الانطلاقية) في حياته السياسية ، إذ لم يمارس الأمويين ولم يمازجهم كغيره من الشعراء الذين على رأسهم الأخطل ولذا تراه ظل مبعداً عن البلاط الأموى حتى كان عهد سليمان بن عبد الملك ، فأتاه ينشده قصيدة منها قوله في هذا الدليل :

(١) طبقات الشعراء للجمحي ط أوربا ص ٨٧ .

(٢) ديوانه القسم الرابع ص ٢٢٦ .

(٣) طبقات الشعراء السابقة ص ٩٣ .

فما كنت عن نفسي لأرحل طائعا إلى الشام حتى كنت أنت المؤمرا
فجبك أغشاني بلاداً بغیضة إلى وروميا بعمان أقشرا

وهو يقصد بالرومي العماني القشيري المهلب بن أبي صفرة الأزدي العماني ، فقد عاش الفرزدق بهجوه وبهجو زوجته (خيرة القشيرية) معتمضا ببشر بن مروان ، وكان بشر يحميه من الغوائل فكسب أماديجه فيه ، حتى كانت أماديح الفرزدق في بشر أكثر من شعره في سائر المروانيين ومنهم عبد الملك .

والذي أبتغى الوصول إليه مما تقدم عن الفرزدق أن نفسه انخذلت (انخذالا بسيكولوجيا) حتى بات يمدح الرجل ويذمه في برهة واحدة . كما فعل مع عمر بن هبيرة الفزاري ، فإن في ديوانه قصيدة مطولة بمدح ابن هبيرة بعدها قصيدة مطولة في هجائه . وهو الذي عير هشام بن عبد الملك بالحول ، وجعله من الموالى فكان الحول أشد عليه وقعا ، بقوله :

يقلب وجهها لم يكن وجه سيد وعيناً له حواء باد عيوها

فحبسه هشام ، وإذا بالشاعر حين صالحه هشام يمدحه ، ويخص بالمديح عينيه فيصف جمالهما بقوله :

قد اقتسمت عيناك يوم لقيتنا حشاشة نفس ما يحل اقتسامها
فكيف بمن عيناه في مقلتيهما شفاء لنفس منهما وسقامها
وأنت لهذا الناس بعد نبهم سماء يرجي للمحول غمامها

* * *

فإذا عذرنا الفرزدق بعد تحليل نفسه من هذه الوجهات كلها استطعنا أن لا نعبأ كثيراً بشعر الحرب عنده ، فهو إذا هجا ابن الأشعث ووصف انهزمه ، فلنما يمدح الحجاج ويتملق جانبه . ولو أنه أطل نفسه في شعر الحرب لترك أبياتاً متلاحمة تصلح أن تكون له شعراً حماسياً رفيعاً . ولكنه بدلا من أن يسترسل في وصف الهزيمة لجيش ابن الأشعث فإنه عير ابن الأشعث بحياكة الأبراد البمانية ، ووصف هزيمته وصفاً مسرعا لا خير فيه فقال :

وأقلت حواءك البمانين بعدما رأى الخيل تردى من كيتٍ وأشقر

ثم تناول ابن الأشعث بهجاء قاصم لاذع ، كله مقذعة ذميمة ، لا تدخل في باب الشعر الذى تحسن روايته ، لكثرة ذكر العورات فيه . وبحسبه في هذه القصيدة أن يحسن قليلا وصف (معركة دير الجماجم) فيقول :

فلما رأى أهل العراق سلاحهم	وسياهم كانوا نعاما منفرا
كأن صفيح الهند فوق رؤوسهم	مصايح ليل لا يبالين مغفرا
بأيدي رجال يمنع الله دينهم	بأصدق من أهل العراق وأصبرا
كأن على دير الجماجم منهم	حسايد أو أعجاز نخل تعفرا

ثم تناول الحجاج بكيل المديح وقرن فروسيته ويسالته بأهل (بدر) ثم (أنزل الملائكة) على جيش الحجاج تقاتل معه اكتسابا لنصره على الأشاعنة فقال :

لقيم مع الحجاج قوما أعزة	غلاظا على من كان في الدين أجورا
بهم يوم بدر أيد الله نصره	وسوى من القتلى الركى المعورا (١)
جنوداً دعا الحجاج حين أعانه	بهم إذ دعا رب العباد لينصرا

ولكن الفرزدق القلق إذا اضطرب استطاع أن ينشدنا أبياتا خلال فخره ، يصف فيها جيشا علت رماحه وهو يسير ، له هزيم في النهار ووثيد في الليل ، ثم لم يلبث أن أعياه الصبر فانفلت من هذا الوصف الرائع للجيش إلى الفخر ذاكرا أعمامه وأهليه ، فقال وهو يعنى الجيش :

ومنتجع دار العدو كأنه	نشاص الثريا يستظل العواليا (٢)
كثير وغى الأصوات تسمع وسطه	وثيدا إذا جن الظلام وحاديا
وإن حان منه منزل الليل خلته	حراجا ترى ما بينه متدانيا (٣)
وإن شد منه الألف لم يفتقد له	ولو سار في دار العدو لباليا
وأخبرت أعمامى بنو الفزر أصبحوا	يودون لو أزعجوا إلى الأفاعيا
فإن تلتمنى في تميم تلاقى	برابية علياء تعلو الروابيا

(١) الضمير في قوله (نصره) يعود على الله أى أيد الله بهذه الجنود نصر نفسه والركى الضعيف .

(٢) النشاص الريح المشرقة .

(٣) الحراج الشجر الكثير .

ثم يترك شعر الحرب فجأة في هذه القصيدة ، إلى تعداد آياته وذكر نسبه .
 فإذا لم يطمعنا الفرزدق بشعره الحربى ، وحاول إقناعنا (بفروسية لسانه) قنعنا منه أن
 يكون من أبطال (حرب الكلام) وهى التى يسميها ساسة عصرنا « حرب الأعصاب »
 فالفرزدق ينافح عن أهله باللسان ويعادى خصومه بالهجاء دون السنن ، وهو الذى يقول :
 أنا الشاعر الحامى حقيقة قومه ومثل كفى الشر الذى هو حاربه
 وكنت إذا عاديت قوما حملتهم على الجمر حتى يحسم الداء حاسمه

٣ - بطولة جرير

تالله لست أرى أبدع موقفاً ولا أصدق شهادة على براعة جرير فى شعر الحرب من
 حادثة لم يرو نظيرها فى حروب الأقوام - على ما عرفت - منذ كان الخصام .
 كان فى جيوش العرب المتحاربين أدباء . وكانوا كثيراً ما يتذاكرون الأدب وعليهم
 المضاضات والسلاح ، وهمهمات الخليل تملأ مسامعهم . إنه لم يكن يشغلهم عن الشعر وأخبار
 الشعراء وذكر الأدب شئ ، حتى الموت ، ولا كانت العداوات تحول بينهم وبين تذاكر
 هذا الفن .

يروى الأصمهبانى فى أغانيه ، وابن سلام فى طبقاته^(١) أن رجلين كانا فى عسكر
 المهلب بن أبى صفرة ، تنازعا فى جرير والفرزدق أيهما أشعر ، وكان ثمة نهر حاجز بين
 جيشهما وعسكر الخوارج ، وفيهم قطرى بن الفجاءة وعبدة بن هلال اليشكرى ، فقال
 لهما المهلب حين سألاه رأيه فيهما « لا أقول فيهما شيئاً ، ولكن أدلكما على من يهون عليه
 سخطهما ، عبدة بن هلال اليشكرى فعليكم بالأزارقة فإنهم قوم عرب يبصرون الشعر
 ويقولون فيه بالحق »^(٢) .

وكان أحد الرجلين عمرو بن شبة ولم تكن نفسه تهون عليه ، فخاف مسألة الخوارج فى
 الأدب والحرب قائمة . فخرج ورفيقه ودعا للبراز عبدة بن هلال فخرج إليه عبدة فقال
 المهلبى ، وصاحبه بحيث يسمع :

— « أسألك عن شئ تحاكنا إليك فيه » ، فقال :

(١) ط التقدم ج ٧ ص ٣٧ . وطبقات الشعراء ط أوربا ص ٨٨ .

(٢) الأغاني السابق ج ٧ ص ٥٢ .

— « وما هو ، عليكما لعنة الله — قال : فأى الرجلين عندك أشعر أجريبر أم الفرزدق ؟ فقال :

— لعنكما الله ولعن جريراً والفرزدق أمثلي يُسأل عن هذين الكليين؟
قالا : لا بد من حكمك . فقال : إني سألتكم قبل ذلك عن ثلاثة قالوا : سل . قال :
ما تقولون في إمامكم إذا فجر ؟ فجعللا يراوغان بالجواب ويعبثان به ويهيجانه . فذهب
لينصرف فقالا له : إن الوفاء يلزمك . وقد سألتنا فأخبرناك ولم تخبرنا . فرجع فقال من
الذى يقول ؟ :

إنا لنذعر يا قصير عدونا	بالخيل لاحقة الأياطل قودا
وتحوط حوزتنا وتحمي سرحنا	جرد ترى لمغارها أخذودا
أجرى قلائدها وقدد لحمها	أن لا يذقن مع الشكائم عودا
وطوى القياد مع الطراد متونها	طى التجار بحضرموت برودا

فقالا : جرير . قال : فهو ذاك .

وهذه الحادثة على سذاجتها تبين إقامة الخوارج على رأيهم ، فكان أول ما اشترط
الخارجي الأديب على المهابيين أن يجيبا في إمام المسلمين إذا ارتكب الفاجرة . وكان جديا
ولم يكونا مثله ، وإنما طفقا يجيبانه إجابات يستثيران بها غضبه ، ولكنه لم يغضب وإنما
أجابهما إلى سؤالهما فروى لجرير أبياتاً في شعر الحرب ، تفيض فروسية في وصف هجمة
الخيل متلاحقة على العدو . واعتصام الفرسان بغاراتها ، وضمورها طول الطراد . فكان
جرير بأبياته هذه القلائل مصوراً للأفراس المعدة للحرب (في أربع صور متتابعة) وهي :
(١) عادية (٢) جرداء (٣) مقددة اللحم (٤) مطوية المتون .

وإن في ثبات جرير لحرب هجاء عوان دامت أربعين عاماً ، كان يشنها عليه من
كل صوب وحذب فحلان حملاً لواء الشعر في كل بني أمية وهما الأخطل والفرزدق ،
ومعهما ثمانون شاعراً فيهم السليطي والبعيث والأشيب بن رميلة ، لدليلاً على صلابته
عوده وقوة نفسه وشجاعته ، فلا غرابة إذا قال من شعره في الحرب وأثرت له أبيات كثيرة
في الحماسة .

إنه كان يفخر بلسانه وكان يفخر بسيفه فيقول :

جرى الجنان لا أهاب من الردى إذا ما جعلت السيف قبض بنانيا

وليس لسينى فى العظام بقية وللسيف أشوى وقعه من لسانيا

ومن ها هنا علمت جرير أبا تمام والمتنبى كيف يفضلان السيف على القلم إذ كان جرير يقول (إن السيف أنجع من اللسان) .

وكان جرير يشهد الغزوة ويكون فى العسكر^(١) وكانت نفسه تعلو به إلى مشارف الفرسان والأبطال ، وكأنه كان يحس فى نفسه (الحس الحربى المكبوت) وقد ظهر فيه هذا الشعور حين قال الحجاج للفرزدق وجرير وهو فى قصره بالبصرة « اثنيانى فى لباس آباءكما فى الجاهلية » فلبس الفرزدق الديباج والخز وقعد فى قبة . وشاور جرير دهاة بنى يربوع فقالوا له : ما لباس آباءنا إلا الحديد ، فلبس جرير درعاً وتقلد سيفاً وأخذ رمحاً وركب فرساً لعباد بن الحصين ، وأقبل فى أربعين فارساً من بنى يربوع ، وجاء الفرزدق فى هيئته تلك ، فقال جرير فى هذه الحادثة^(٢) :

لبست سلاحى والفرزدق لعبة عليه وشاحاً كرجٍ وخلخله^(٣)
أعدوا مع الخز الملاء ، فلنما جرير لكم بعل وأنتم حلاله

وكانت كوامن بطولته تظهر فى ثنايا قصائده فهو حين يمدح عبد العزيز بن الوليد والحجاج وأولاد عبد الملك كان يفاخر بفروسية قومه وركوبهم للحرب فيقول :

لقد علم الحى المصبّح أننا متى ما يُقل يا للفوارس نركب

وكان يذكر مواضى قومه فى أيام العرب . وكل ذلك (مشحذة لبطلته التى كنت فيه) كقوله :

ويوم بنى ربيعة قد لحقنا وزدنا يوم ذى نجب كلابا
ويوم الحوفزان وأبن تيم فتدعى يوم ذلك أو تجابا

ولا يفتر خلال شعره كله عن ترديد فروسية قومه ومآثرهم السالفة كقوله :

أليس فوارس الحضببات منا إذا ما الحرب هاج لها عكوب^(٤)

(١) الأغاني ٧/ ٧٠ .

(٢) الأغاني ج ٧ ص ٦٧ .

(٣) الشاح الكرجى الشاح الخنث (المحيط) .

(٤) المكوب الفبار .

وسار في شعره على غرار أصحابه أهل الهجاء يمزج المدح بالفخر ، والهجاء بوصف الحرب وذكر السلاح والأيام . ويظل أبداً كما عرفته مولعاً بأوصاف الخيل وتصوير الفروسية يحب تشبيه موصوفاته بها ، وقد تثيره حروب قومه وهم حلفاء القيسيين ووقعاتهم مع التغلبيين ، قوم عدوه الأخطل ومنافسه على صولجان الشعر فيقول (١) :

ونعرف حق النازلين ولم يزل	فوارسنا يحمون قاصية السرب
على مقربات هن معقل من جنى	وسمُ العدى والمنجيات من الكرب
ألا رب جبار وطئن جبينه	صريعاً ونهب قد حوين إلى نهب
وقد أوردت قيس عليك وخندفُ	فوارس هدمن الحياض التي تجبي
ستعلم ما يغنى الصليب إذا غدت	كتائب قيس كالمهناة الحرب (٢)

واستعمل جرير في أكثر هجائه تعيير عداته ، بخبياتهم في الحروب والمعارك ، إذ كانت هزائمهم عنده أكبر سبة يستطيع إلصاقها بهم ، فقد قال للأخطل معيراً وهاجياً وهو يصف مواضع الحروب التي دارت عليه وعلى قومه :

فما لك في قيس حصاة تعدها	وما لك في غورى تهامة أبطح
وفاضت حجون الورد بالمرج منكم	دماء وأفواه الخنازير كلح
لقيتم بأيدي عامر مشرفية	تعض بهام الدارعين وتجرح
بمعترك تهوى لوقع ظباها	خذاريف هام أو معاصم تطرح
سما لكم الجحاف بالخيل عنوة	وأنت بشط الزابتين تنوح

وهو في أماديحه لا يفتر عن ذكر الخيل فيمدح عبد الملك بقوله :

وقوم قد سوت لهم فدانوا بدهم في ململة رداح
ويمدح هشاماً ابنه فيقول :

عادات خيلك أن تبيت عوابسا بالدارعين ولا تراها رودا

(١) ديوانه الطبعة الأولى العلمية بمصر سنة ١٣١٣ ص ٢٧ .

(٢) أرى في عجزه تصحيحاً ينبغي أن يكون أصله (كتائب قيس للمهناة الحرب) أى إذا غدت كتائب قيس - التي هي أحلاف يربوع قوم جرير - لقتال المهناة الحرب التي هي كتائب الأخطل . إلا إذا صح أن تكون المهناة الحرب مدحاً لكتائب قيس كناية عن هزائها من شدة الحرب .

وفى شعر جرير ، أبيات كثيرة تشير إلى حوادث سياسية ، ووقائع حرب ، وفن كان يتخذها وسيلة لغاية الهجاء وتعبير القبائل — ولم تكن عنده هي الغاية .
ومهما نقرأ الباحث في شعر الحرب عند جرير فإنه واجده على النحو الذى وجدته عند رفيقيه ، مزوجاً أبداً بالهجاء ولم يكن غاية . فهو يصف معركة (يوم البشر) التى لقي فيها الأخطل الهوان ، وأصابه جحيم الجحاف وعرف حزسيوفه فى رقاب قومه التغلبين . وجرير فى وصفه لهذه المعركة يدير الكلام نحو هجاء خصمه ، لا ليعلم بطولة الجحاف وفروسية قيس ، فيقول عن الأخطل (١) :

بكى دويل لا يرقأ الله دمعـه	ألا إنما يبكى من الذل دويل
فإنك والجحاف يوم تحضه	أردت بذاك المكث والورد أعجل
سرى نحوكم ليلاً كأن نجومه	قناديل فيهن الذبال المقتل
فما اشتف ضوء الصبح حتى تعرفوا	كراديس يهديهن ورد محجل
وقد قتل الجحاف أولاد نسوة	يسوق ابن حلاس بهن وغرهل (٢)
عقاب المنايا تستدير عليهم	وشعث النواصي لجمهن تصلصل
بدجلة إن كروا فقيس وراءهم	صفوفا وإن راموا المخاضة أو حلوا
وما زالت القتلى تمور دماؤها	بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

ثم يختم هذه القطعة الحربية مفتخراً وهاجياً فيقول :
لنا الفضل فى الدنيا وأنفك راغم ونحن لكم يوم القيامة أفضل

ولم يكن ليترك حادثة سياسية كبرى إلا سجلها فى شعره . كما فعل عند مقتل آل المهلب فهنا بهم يزيد بن عبد الملك . كما كانت له قصائد كثيرة ألقت (المناقضات) بينه وبين الفرزدق والأخطل . وخير مثال من هذه النقائض قصيدته التى يناقض فيها ميمية الفرزدق (٣) عندما مدح سليمان بن عبد الملك وذكر مقتل قتبية بن مسلم بسيف وكيع ، فريد عليه جرير ناقضاً فيها أقواله إذ يرد مديحه لنفسه هجاء ، ويقلب فخره مثلبة وانتقاصاً .

(١) ديوان جرير السابق ج ٢ ص ٦١، ٦٠ . وطبقات الشعراء ط أوربا ص ١٢١

(٢) ابن حلاص وغرهل محاربان .

(٣) ديوان جرير ج ٢ ص ١٣١ . وردت فيه قصيدة الفرزدق الميمية ونقيضتها بعدها من جرير .

٤ - خصائص شعر الحرب عند المهجائين

أُلخِص خصائص الشعر الحربي لدى شعراء الهجاء الثلاثة بما يلي :

(١) كان الكلام على الحرب من لوازم شعر العصر الأموي ، لما كان فيه من الحروب والفتن .

(٢) لم يتفرغ شعراء الهجاء لنظم (ملاحم) ولا شبهها . وإنما اكتفوا بأبيات يصفون فيها الحرب ويعرضون أثناءها تصوير لمحات مخطوفة من المعارك .

(٣) لم يكن شعر الحرب غاية عندهم ، وإنما كان وسيلة إلى مدح الظافرين ، أو هجاء المخدولين ولذلك قصروا في القيام بقصائده التي كان ينبغي أن يفردوها له ، وأن يقولوها في سبيله .

(٤) طغيان التهاثر عليهم ، والتساب ما بينهم ، شغلهم عن التفرغ لنظم شعر حربي مثالي .

(٥) قلة اشتباههم بالشجاعة وحمل السلاح جعلهم في شعر الحرب دون الشعراء الفرسان الذين كانوا في الجاهلية وفي الإسلام أو عاصروهم .

(٦) فخامة شعرهم وقوة جرسه وصلابة عباراته وبخاصة شعر الفرزدق ، كان خير قصيد لإظهار أشعار الحرب في حللها القشبية . ولو هم بذلوا من أنفسهم في هذا السبيل شعراً طويلاً في موضوع واحد ينظمونه في الحرب وما إليها من مقدمات ومنتوج ، لأعطونا الملحمة العربية المنشودة .

(٧) شعر الفرزدق طنانة قوافيه . وهي الصالحة لشعر الحماسة ، فقد أشاع الفرزدق في الشعر العربي من الوجهة الفنية ، الهاءات المردفة بعد الروى وما يسميه العروضيون بالخروج والوصل كقوله :

مناهله رواحله ، دائره مشافره ، دعائمه حاسمه ، عواقبه كاتبه ، رسوفا فصيلها . . .
وصلح هذا الضرب من القوافي عند الفرزدق لشعر فخره كله . وكان لدى صاحبيه الأخطل وجريز قوافي طنانة تشبه قوافيه وتصلح لما صلحت له .

(٨) شيوع ألفاظ الحرب والتشبيه بآلاتها كان سياق لغة الجاهلية في شعر الحرب ، وخاصة لدى المهجائين . فالخيول والسيوف والرماح مستفيضة الذكر في كل أبياتهم .

٩) كان شعر الهجائين شعراً جاهلي الأسلوب ، ازداد من تعبير القرآن الكريم ، وكلام الحديث تعابير إسلامية . لكنها على حداتها وانصقالها ، لم تغير من النزعة الجاهلية في لغة الشعر .

١٠) النزعة القبلية والدعوى العصبية ومناظرات الأنساب التي شاعت في شعر الهجائين ، جعلت شعر الحرب لديهم مصبوغاً بتلك النزعات والدعوات والمناظرات ، فردتهم وهم في إبان العهد الأموي إلى جاهلية لم يؤثر فيها حض الرسول صلى الله عليه وسلم على اطراح العصبية الجاهلية .

١١) كان شعر الحرب لدى الهجائين كالأنباء الحربية والسياسية المقتضبة في زماننا، وكان هؤلاء الشعراء صحفاً بشرية حية ، متعادية على نحو صحفنا التي نألفها في عصرنا ، تروج أخبار أحزابها وتسفه آراء الخصوم . وكانت أموال الخلفاء والأمراء التي تسكب بآلاف الدنانير لمقالة هذا الشعر وإذاعته ؟ كالأموال التي تصب على صحف الدعاية في عصرنا وكان لا يكاد أحد الشعراء من هؤلاء الفحول يقول قصيدة حتى « يرددها الناس ويتناقلوها في سوق المربد وفي البيوت » (١) .

الفصل السابع

شعر الحرب الخارجية زمن بني أمية

١ - شعر الحرب وراء خراسان

بلغ الفتح العربي على عهد الدولة الأموية إلى مملكة الصين . وحارب أبطال العرب في فتوح هاتيك البلاد بمعارك لم تكن حوماتها أقل جحماً من حومات الوغى في قلب فارس وأباطح العراق . ولم تكن جيوش العرب في تلك البقعة متفرغة للفتح وحده . ولو تفرغت له وحده لعمت بسطان الإسلام أقطار الأرض . ولكن تلك الجيوش كانت مشغولة عن غز السير للفتح بالإحز بين القواد والأجناد ، وخلع الخلفاء والثوب على الأمراء .

وكان جيش العرب في تلك الأصقاع أكبر جيش محشود . فإن جيش يزيد بن المهلب بلغ مئة ألف مقاتل سوى الموالى والمماليك و (المطوعين) . وقد قاد يزيد بن المهلب هذا الجيش ومعه أولاده حتى تفتحت أمامه حصون دهستان بعد أن قتل من أهلها أربعة عشر ألفاً ، ثم اندفع على جرجان . ومات يزيد وهو في طفرة هذه الفتوح لا مئة بطل فاتح بين عساكره الذين يحتفون به ويبكون عليه ، وإنما قتل قتلاً ، وأنكر بنو مروان حسن بلائه وسطوة حربه .

وأمعن العرب غزواً حتى بلغوا سمرقند والصغد فسقط من أبطالهم في هذه الوقعات كثير ، منهم المسيب بن بشر وكان (ثابت قطنه) الشاعر الفارسي على ميسرة الجيش وكان قد بايع المسيب بن بشر على الموت . وقد قطعت في إحدى هذه المعارك يد بطل اسمه البختری^(١) « فأخذ السيف بشماله فقطعت فجعل يذب بيديه ” المقطوعتين “ حتى استشهد . » وكان هؤلاء المقاتلون وراء خراسان يحسبون أن القيامة قد قامت في معاركهم من « هاهم القوم ووقع الحديد وصهيل الخيل » . فقال الشاعر ثابت قطنه — وقد ضرب عظيماً من عظماء الترك يصف في إحدى هذه الحروب استثناء المحاربين حتى كادت نساؤهم تخالط المشركين محاربات .

(١) الطبری ج ٨ ص ١٦٣ .

فدت نفسى فوارس من تميم غداة الروع فى ضنك المقام
فلولا الله ليس له شريك وضربى قونس الملك الهمام
إذا لسعت نساء بنى دثار أمام الترك بادية الخِدام^(١)

وحين توجه سعيد بن عمرو الحرثى إلى بلاد الصغد وفرغانة قاد جيوش المسلمين وخطبهم فقال: «لنا نقاتل عدو الإسلام بكثرة ولا بعدة ، ولكن بنصر الله وعز الإسلام ، وأنشأ يصف بطولته بشعره ، ويشد عضده بفخر الأهل والقبيلة فيقول^(٢) :

فلست لعامر إن لم ترونى أمام الخيل أطعن بالعوالى
وأضرب هامة الجبار منهم بعضب الحد حودث بالصقال
فا أنا فى الحروب بمستكين ولا أخشى مصاولة الرجال

ودوخ سعيد الحرثى ما وراء خراسان حتى بات العسكر يتناشدون فيه مثل هذا الرجز :

إذا سعيد سار فى الأخماس
فى رهج يأخذ بالأنفاس
دارت على الترك أمراً الكاس
وطارت الترك على الأحلاس
ولوا فراراً عطّل القياس

وكان النصر قد يميل عن المسلمين فلا يفزعهم القتل ولا يشنهم فوز العدو عن الإمعان فى الفتح والجهاد فى سبيل الله . وكم كان بين أولئك الجنود العرب من معاميد تركوا الهوى من أجل الحرب . بينهم الشرعبي الطائى الذى كان يذكر فتاته هنداً ، وهو منقطع فى بلاد نائية فيصف لها ما يلاقى ومعهشره فى ربوع الصغد والشاس ، عند خاقان ونيلان وجنودهما الجلاد ، أسفاً على قتال العرب فى الدار البعيدة وقد طمع بهم ملوك الترك وأثخنوا فيهم الجراح :

(١) بادية الخِدام أى مقطعة الآذان وفى الحديث : كأنكم بالترك وقد جامتكم على براذين مخدمة الآذان أى مقطعتها .

(٢) الطبرى ج ٨ ص ١٦٩ .

تذكرت هنداً في بلاد غريبة فيالك شوقاً هل لشمالك مجمع
تذكرتها والشاس بيني وبينها وشعب عصام والمنايا تطلع
بلاد بها (خاقان) جم زحوفه و(نيلان) في سبعين ألفاً مقنع
إذا دب خاقان وسارت جنوده أتتنا المنايا عند ذلك شرّع^(١)

وانخذل المسلمون في وقعة الشعب التي دارت بين قائدهم الجنيد ، وبين خاقان انخذالة مرة ، أنظقت شعراؤهم بوصف القهر وتصوير الخذلان الذي لحقهم . فكان من هؤلاء الشعراء المحاريين ابن عرس العبدى ، فقال دالية مطولة يذكر فيها انكسار صحبه العرب تلقاء الترك في ما وراء خراسان غير كاذب ولا موارب ، كاتباً على معشره الخذلان ، صادقاً في شعر الحرب فقال :

أين حماة الحرب من معشر كانوا جمال المنسر الحارد
بادوا بأجال توافوا لها والعائر المهمل كالبائد^(٢)
كنا قديماً يتقى بأسنا وندرأ الصادر بالوارد
حتى منينا بالذى شابنا من بعد عز ناصر آئد^(٣)

ثم يخاطب الجنيد قائد هذه الوقعة وكان بعدها يلوذ بالبكاء :

تبكى لها أن كشفت ساقها جدعاً وعقرًا لك من قائد
تركنتنا أجزاء معبوضة يقسمها الجازر للناهد
أضحت سمرقند وأشياعها أحدوثه الغايب والشاهد

ثم يذكر الأبطال الذين سقطوا في هذه الوقعة فيقول :

فكم ثوى في الشعب من حازم جلد القوى ذى ميرة ماجد
يستجد الخطب ويغشى الوغى لا هايب غُسس ولا ناكد^(٤)

(١) ورد هذا العجز في الطبرى (ج ٨ ص ٩٥) على هذه الصورة وحق الإعراب نصب القافية للحالية ولعله تصحيف صوابه (أتتنا منايا عند ذلك تشرع ، أو أتتنا منايا عند ذلك شرع فتكون شرع صفة لمنايا) .

(٢) العائر المنفلت .

(٣) بضرب الشطر الأول كان تصحيف وهو شامنا بالميم ولا صواب له .

(٤) النفس الضعيف .

وراح ابن عرس في أواخر هذه القصيدة يقرع القائد الجنيد ويمجر عليه سوء المغبة ،
في قتل الألوف من المسلمين بمخطل قيادته ، إذ يقول :

لا تحسبن الحرب يوم الفصحى كشربك المزاء بالبارد
جنيد ما عيصك منسوبة نبعا ولا جدك بالصاعد
خسون ألفا قتلوا ضيعة وأنت منهم دعوة الناشد

وقد جعل الشاعر هذه القصيدة رسالة الخذلان والقهر إلى خالد بن عبد الله القسري
فقال في آخر بيت منها :

قصيدة حبرها شاعر تسعى بها البرد إلى خالد

ولأنه ليبين في نظرة النقد أن أكثر هذا الشعر الذي قاله الشعراء في الحرب وراء خراسان ،
أو ما وراء النهر ، وفي فتوح تلك الأصقاع قرابة الصين كان شعراً سهلاً لا يعلو به فنه
إلى أدنى منزلة من منازل شعر الفحول ، في عصر بني أمية ، فكثير من قوافيه قلقة ، وفي
معانيه ابتذال وفي تراكيبه شيء من الركاكة ، ولعل لأصحابه معذرة في أنهم لم يصقلوه وهم
على حرب ، على أن منهم من عرف بالشعر المحكم كثابت قطنة ، ومن تهب في أبياته
الفحولة ، كابن عرس ، فإذا أغمض الفن عينه عن هذا الشعر شفع له صدقه وسذاجته ،
فكان من الشعر الذي قيل للحرب فحسب ، وعدّ نفيساً لصديق حماسته ، وأصاله بواعثه ،
ووحدة موضوعه .

٢ - الشعر في حرب الروم

تهتز نفسي وتأخذني العزة بالحماسة حين أتحدث عن نهوض (أبي أيوب الأنصاري)
إلى حرب الروم وهو شيخ هدمته الحروب والسنون ، وإنه لمريض ؛ لقد كان في جيش يزيد
حين سيره معاوية ومعه أبو العباس لحرب الروم . ونهض لهذه الغزاة كل مجاهد فلم يتخلف
أحد . فلما صار جيش العرب على خليج في دربهم ، ثقل أبو أيوب فأتاه يزيد عائداً
فقال (١) :

(١) العقد الفريد ط سنة ١٣٥٣ ج ٣ ص ١٣٢/١٣٣ وتاريخ الطبري ج ٦ ص ١٣٠ وصلة تاريخ
الطبري ص ١٥ (الطبعة الحسينية بمصر) .

— ما حاجتك أبا أيوب ؟ فقال : أما دنياكم فلا حاجة لى فيها ، ولكن قدمنى ما استطعت فى بلاد العدو فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
(يدفن عند سور القسطنطينية رجل صالح) أرجو أن أكون هو .

ولكن المنية أدركت الشيخ البطل أبا أيوب دون مناه وما زال جيش المسلمين يغذ سيرا فى أرض الروم دون أسوار القسطنطينية ، فقام يزيد بتكريم الرجل الصالح الذى ذكره الرسول وأمر بتكفينه وحمله على سرير ، ومضت الكتائب تحمله على عواتقها حتى جاور الأسوار الموعودة ، فأشرف قيصر وجعل يرى سريراً يحمل والناس يقتتلون ، فسأل يزيد : بعد أن هدأت المعركة ونزل قيصر عند المهادنة :

« ما هذا الذى كنت أرى ؟ فقال يزيد : هذا صاحب نبينا ، وقد سألنا أن نقدمه فى بلادك ونحن منفذون وصيته ، أو تلحق أرواحنا بالله . »
فقال قيصر :

« أبوك كان أعلم بك ، فوحي المسيح لأحفظنه بيدي . »

ويقول صاحب العقد الفريد : إن قبر أبي أيوب كان معروفاً فى القسطنطينية إلى يومه ، بنى عليه قيصر قبة يسرج فيها . وما زال إلى اليوم حى (أيوب) باستانبول حفيداً بقبر البطل العربى . كذلك كرم قيصر بطل العرب الشيخ الذى كان يرجو أن يموت على أسوار بلاده . .
إنى لأذكر هذه البطولة العربية التى حض عليها الإسلام وأرث نازها الإيمان وباركها الرسول . أذكرها ، وألوب على الشعر العربى الذى قاله الشعراء فى حروب الروم (عصر بنى أمية) ، فلا أقع منه على ما ينقع الغلة من مثل شعر الحرب فى معارك الفتن فى العراق والحجاز والشام وفى فتوح المشرق .

وكان العرب فى عهد بنى أمية يغزون ثغور الروم . وكانت جيوشهم التى يغزون بها الروم تسمى « الصوائف » فهى تجهز فى أوان الصيف لسد الثغور وحرب الكفار (١) .
وقد عللت قلة الشعر الذى يصف حروب العرب مع الروم فى هذا العهد بما ذكره ابن خلدون حيث يقول : « وكانت الصوائف تعطلت من الشام منذ وفاة معاوية وحدث الفتن ، واشتدت الفتن أيام عبد الملك واجتمعت الروم ، واستجاشوا على أهل الشام ، فصالح عبد الملك صاحب القسطنطينية على أن يؤدى إليه كل يوم جمعة ألف دينار ،

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٣ باب أخبار الصوائف وحصار القسطنطينية ص ٧٠ .

خشية منه على المسلمين وذلك سنة سبعين للهجرة » .

وفى سنة ٩٨ للهجرة جهز سليمان بن عبد الملك جيشا إلى القسطنطينية بقيادة مسلمة أخيه فبلغها في مئة ألف وعشرين ألفاً ، وعبر الخليج وشدد الحصار على المدينة ثم صالح أهلها ، فنقل إليهم الطعام والمؤن التي كانت معه فارتدوا عليه محاربين وأغلقوا أسوارهم « فلقى جنده ما لم يلقه جيش آخر ، حتى كان الرجل يخاف أن يخرج من المعسكر وحده من البلغاريين الذين استجاشهم لاون البطريق ^(١) » .

وقد كفى ابن خلدون مؤونة التقصى وراء شعر العرب في حرب الروم في العصر الأول للهجرة إذ وجدت أن العرب لم تكن حربهم حرب جد مع الروم في عهد بنى أمية ، فإن اشتغالهم بالفتن واستقصاء المشرق كان عبئاً على سيوفهم قد يزيده أمر الروم ثقلاً وحملًا . ولعل الشعراء فيهم لم يشهدوا حروب الروم شهودهم غيرها ، مما أجادوا وصفه وذكر وقائعه .

وكان عبد الملك - كما يذكر ابن خلدون - قد خفض الجناح لصاحب القسطنطينية ، فكان يؤدي إليه مالا خشية منه على المسلمين في بلاده . وكان قبله معاوية يتبع المسالمة مع الروم « فإذا أتاه عن بطريق من بطارقة الروم كيد للإسلام احتال له ، فأهدى إليه وكاتبه ^(٢) » .

ولست أذهب إلى أن العرب كانوا خانعين في محاربتهم للروم ، فإن الشواهد كثيرة على مناجزتهم لهم الحرب منذ أيام الوليد بن عبد الملك ، وأن الحرب كانت سجلاً بينهم . وكما كان الروم أيام عبد الملك يؤمنون المسلمين في بلادهم فقد كان من بعد ذلك عمر بن عبد العزيز يؤمن الروم في الشام . إذ يذكر البطريق أفثيشيوس المعروف بسعيد بن البطريق ^(٣) « أن عمر بن عبد العزيز كتب للنصارى سجلاً أنهم آمنون على كنائسهم التي بدمشق ، والديار التي خارج دمشق في الغوطة ، لا تخرب ولا تسكن ، وليس لأحد من المسلمين عليها سلطان وأشهد لهم بذلك » .

وظل العرب يغيرون في عصر بنى أمية على بقاع الروم ، مما يلي أنطاكية حتى حدود

(١) تاريخ مختصر الدول لغريغوريوس بن هرون الطيب الملقب المعروف بابن العبري ط بيروت سنة ١٨٩٠ وقوف الأب صالحاني .

(٢) رغبة الآمل من كتاب الكامل للمرصني ط النهضة بمصر ج ٥ ص ٣٩ .

(٣) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق للبطريق أفثيشيوس ط الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٩٠٥

القسطنطينية ، وكانوا يشتون بها ثم ينصرفون عنها إلى موسم موعود^(١) .

فإذا عرفنا ذلك فليكن كله سبباً لثلا يتفرغ شعراء العرب لوصف حرب الأمويين مع الروم كما تفرغوا لوصف حروب العرب للروم زمن بني العباس .

غير أن قليلا من الشعراء الأمويين كانوا يشيرون إلى هذه الحروب الرومية ، والظاهر أنها كانت تشغل شعراء الفتح الإسلامي في أيام الخلفاء الراشدين أكثر مما شغلت شعراء العصر الأموي . وقد وجدت مثالا لذلك (عبد الله بن سبرة الحرشي) وكانت قد قطعت يده في بعض غزوات العرب للروم فرثاها ووصف وقعة يوم فلتاس فصور كيف بارزه «أرطبون» الروم وضربه بالسيف على يده فجز أصابعه وترك أصل كفه . وكان أجمل من وصفه لبطولته ومبارزته ، وصفه لشعر الأرطبون وقد تهدل فكأنه هدا ب نخله أسود لم يخالطه بياض حول رأس أصلع . وهي قطعة تصويرية لحرب العرب مع الروم تكاد تقوم بالعدر عن غيرها من الشعر يقول فيها^(٢) :

لم أستطع (يوم فلتاس) لها تبعا	بمضى يدى عدت منى مفارقة
هلا اجتنب عدو الله إذ صرعا	وقائل غاب عن شأني وقائلة
نحوى وأعجز عنه بعد ما وقعا	وكيف أتركه يسعى بمنصله
واو تقارب منى الموت فاكتنعا ^(٣)	ما كان ذلك يوم الروع من خلقى
حامي وقد ضيعوا الأحساب فارتجعا	ويل امه فارساً أجلت عشيرته
حتى إذا أمكننا سيفيهما امتصعا ^(٤)	يمشى إلى مستميت مثله بطل
جلى الصياقل عن دريه الطبع ^(٥)	كل ينوء بماضى الحد ذى شطب
فما استكان لما لاقى ولا جزعا	حاسيته الموت حتى اشتف آخره
أحم أزرق لم يشمط وقد صلعا	كأن لمته هدا ب نخله

(١) فتوح البلدان للبلاذرى طبعة الشركة العربية بمصر سنة ١٩٠١ ص ١٧٢ .

(٢) أمالي القائل الطبعة الثانية لدار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦ ج ١ ص ٤٧ وعيون الأخبار ط

دار الكتب المجلد الأول الجزء الثاني ص ١٩٣ . والطبرى طبع أوروبا ص ٢٠١٦ .

(٣) اكتنعا - دنا .

(٤) امتصعا - بعدا .

(٥) الشطب طرائق السيف ودرية من الدر والطبع الوسخ الشديد .

فإن يكن (أرطوبون) الروم قطعها فإن فيها بحمد الله منتفعا^(١)
 وإن يكن (أرطوبون) الروم قطعها فقد تركت بها أوصاله قطعاً
 بنانتين وجدموراً أقيم بها صدر القناة إذا ما آنسوا فزعاً^(٢)

* * *

ولم يقصر بعض الشعراء الذين كان عليهم لزماً أن يتمدحوا ببنى أمية وفيهم النابغة الشيباني أن يقولوا شيئاً من الشعر في حرب الروم ، فكان أن مدح نابغة شيبان الوليد بن عبد الملك وذكر أخاه مسلمة فوصف حصار العرب لمدينة رومية وضر بهم لأهلها بقوله^(٣) :

أخزى (طرندة) منه وإبل برد^(٤) وعسكر لم تقده العزل الجوف^(٥)
 ما زال (مسلمة) الميمون يحصرها وركنها بثقال الصخر مقذوف
 وقد أحاطت بها أبطال ذى لجب كما أحاط برأس النخلة الليف
 حتى علوا سورها من كل ناحية وحان من كان فيها فهو ملهوف
 فأهلها بين مقتول ومستلب ومنهم موثق في القيد مكتوف

ولم يبخل الأخطل على حرب الروم فذكرها في شعره لماماً ، وقد اتخذها سبيلاً إلى مدح الوليد بن عبد الملك فأفاض في وصف الخيل التي ذهبت به إلى تلك الديار مجتازة بالصحراء ويقصد بذلك صحراء تدمر في طريقه مجتازاً أحياء العرب حتى بلغ ديار الروم ، فهو يقول للوليد :

وفي كل عام منك للروم غزوة بعيدة آثار السنايك والسرب
 وإن لها يومين يوم إقامة ويوماً تشكى القرض من حذر الدرب^(٥)
 ولا ينسى في آخرها نحيزة الهجاء ، ونعرة التشنى من جرير ، فيقول له :

(١) الأرطوبون والأطربون - رئيس الروم .

(٢) الجدموور الأصل .

(٣) ديوانه ط دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٢ ص ٥١ .

(٤) طرندة بلدة في بلاد الروم .

(٥) يقصد بالدرب الطريق إلى ديار الروم وهو الدرب الذي رآه صاحب امرئ القيس وبكى عنده .

يقولون ذنب يا جرير وراءها وليس جرير بالحامي ولا الصلب

ويذكر الأخطل حرب الروم في سياق هجائه لقيس عيلان ويمدح الوليد بقصيدة ثانية فيقول :

بكفيه الأعنة لا سؤوم قتال الأعجمين ولا ضجور
قتلت الروم حتى شذ منها عصائب ، ما تحرزها القصور

وثالث الأخطل مفاخرأ بغزوات الوليد للروم ، وفتح بلادهم بشجعانه وجيوشه ، فقال :

وإن أتعرض للوليد فإنه نمته إلى خير الفروع مضاربه
وما بلغت خيل امرئ كان قلبه بحيث انتهت آثاره ومحاربه
وتضحى جبال الروم غبراً فجاجها بما أشعلت غاراته ومقانبه

ولم يكن المؤرخون يحتفون بما قيل من الشعر في حرب الروم فإنى لم أجد واحداً منهم ذكر شيئاً من الشعر في عصر بنى أمية قيل في حروب الروم ، حتى إن ابن خلدون أرخ هذه الحرب لزمن بنى أمية في فصل واحد ولم يذكر فيه بيتاً واحداً من شعرهم في تلك الحروب . وقد بت أعجب لوقعة أرمينية التي كان على جيوشها « عثمان بن الوليد » في أربعة آلاف من المسلمين فلقه الروم في ستين ألفاً . فهزمهم وأخذ فيهم القتل والأسر ، ولست أناقش هذا الخبر لقله عدد العرب وكثرة عدد الروم . وإنما الذى يعينى جهة الأدب فيه ، إذ لم يبلغنا أن الشعراء قالوا في هذه الواقعة ما يحتفل بروايته . ولست أزعم أن مثل هذه الواقعة تخلو من الشعراء وأحسب أنه قد كان من فرسانها فيهم كثير .

إن الرقعة التي تقع بين القسطنطينية وأنطاكية كانت مسرحاً لحرب العرب مع الروم زمن بنى أمية ، ولقد فتح العرب منذ أيام خالد بن الوليد إلى أيام مروان بن محمد بلاداً كان فيها الصقالبة والألان والفرنجة ، ومن هذه البلاد أماسية ، وخرشنة ، وعمورية ، وسلاقية ، وقيسارية والمصيصة ، وفيها حصون فتحها العرب كحصن بولق ، والأخرم ، وبولس ،

وقمقيم ، وحصن المرأة^(١) . وفي كل ذلك شاحذ للشاعر الأموي ليعبر عن وقائع العرب ، ولعل شعراء منهم في تلك الحروب قد وصفوها هاتيك الأصقاع زمن الأمويين ، ولكن لم يبلغنا من شعرهم إلا القليل نتنسم فيه نفحات البطولة العربية في ديار الروم ، ونسمع في هذه الأبيات القليلة ، جلجلات سلاحهم في محاربة الصقالبة ، ومقارعة الأرطبون .

فن الشعر الحربي

راج عند العرب في حومة الحرب أن يرتجز بطلهم بيتاً أو أكثر ، ولا يزيد مثل هذا الرجز على خمسة أبيات أو ستة ، ولعل الرجز - وهو كما يقول رواة الأدب القديم - كان أول ما ابتدع العرب من أوزان الشعر أخذوه من مشية الناقة ، وفي لغتهم الناقة الرجزاء هي التي تمشى الرجز .

فهو إذن سهل على ألسنتهم . ولذا تناولوه في الحروب حين المبارزة والمناجزة . فكان على شبا السيوف وأطراف الأسنة ، ولم تشغلهم عنه فجائع القتال ، ولا مواجهة الهلاك ، فكانوا إذا هجموا على العدو ارتجزوا والخيال تهوى بهم نحوه ، وكانوا يهددون جراحاتهم بلحوه ، ففي فتنة حجر بن عدى الكندي ضرب رجل من جذام ، كان في شرطة زياد ، عبد الله بن خليفة الطائي بعمود فصرعه فقال هذا البطل رجزه وهو يهوى إلى مصرعه :

قد علمت يوم الهياج خلتي أني إذا ما فتني تولت
وكثرت عداتها وقلت أني قتال غداة ثلت
إن يكسروا نابي وعظم ساعدي
فإن في سورة المناجد
وبعض شغب البطل المبالد

وظاهر أنهم كانوا في معترك الحرب يتفاخرون ببطولتهم وفروسياتهم وقديم أيامهم التي شهدوها .

(١) حدد أحمد بن جعفر اليعقوبي في تاريخه (ط أوربا سنة ١٨٨٣ ص ١٧٧) « أن ملكة العرب لديار الروم - في عصر بني أمية - كانت من حد الفرات إلى حد الإسكندرية .

يذكرون ذلك في خطابهم للمرأة ، شأنهم فيما أشرت إليه في سوابق الكلام ، إذ كانوا يحسون زهواً بين أيدي النساء إذا علمن منهم أخبار تلك البطولة ، وحوادث هذه الفروسية ، فلقد حدثوا عن المسيب بن نخبه ، أنه كان في يوم « عين الردة » فاتكاً شديداً ، ما ظن أن رجلاً واحداً يقدر أن يبلى مثلما أبلى ، ولا ينكأ من عدوه مثلما نكأ . لقد قتل رجالاً وسمع يقول رجلاً قبل أن يُقتل ، فيذكر فيه المرأة التي كان يهواها وهي ميالة الذوائب ، بيضاء صفحة الصدر ، ويعلمها آثار بأسه ، وفعل شجاعته ، وأنه أشجع من الأسد فيقول مرتجزاً :

قد علمت ميالة الذوائب
واضححة اللبات والثرائب
أنى غداة الروع والتغالب
أشجع من ذى كبد موائب
قطاع أقران مخوف الجانب

وكان بطل من الشيعة يصيح يا لثارات الحسين ! فرمى بنفسه في المعركة وارتجز حتى قتل. وهو يقول :

أنا ابن شداد على دين عليّ لست لعثمان بن أروى بولى

ولم يكن الشعراء الأمويون الذين كانوا بعيدين عن بعض الحروب بأقل رجلاً ممن شهدوها أو كابدوها ، فقد ارتجز « القطامي » مدحة ليزيد بن المهلب فتمنى أن يراه قائداً للجحفل اللجب تمد الأرض من تحته ، يجثو أمامه ذوو التيجان ، ويكون له كل يوم عيد بانتصاره على أعدائه فقال :

لعل عيني أن ترى يزيداً	يقود جيشاً جحفاً شديداً
تسمع للأرض به وثيداً	لا برماً هيداً ولا حسوداً
ولا جباناً في الوغى رعيداً	ترى ذوى التاج له سجوداً
مكفرين خاشعين قوداً	وآخرين رحبوا وقوداً
لا ينقض العهد ولا المعهوداً	من نفر كانوا هجاناً صيداً
ترى لهم في كل يوم عيداً	من الأعادي جزراً مقصوداً

وقد قصّد هؤلاء الشعراء الأمويون قصائد الرجز فطولوها وهلهلوهوا ، كما فعل العجاج وابنه رؤبة وأصحاب (الفرقة الراجزة) وخرجوا فيها عما ألف شعراء الجاهلية . وكان أغلب هذا الرجز شعراً حماسياً ، وكأنه أناشيد حربية ، وما كان ينبغي أن نعد أصحابه قد ركبوا به السهولة . وأحسب أن مضعوف الشعر هو الرجز المنفرد كرجز النحاة وأصحاب العلوم الفقهية . ولست بسبيل الدفاع عن الرجز ، كفاً منه أنه كان صدى حريباً لحرس النفوس التي كانت تقواه وهي في زحام الطعان ، ومدارج الردى ، فكان كنغمة موسيقية تحدو نبراتها الطنانة قائلها في ركب الحروب . ولو أحصى ما قال المتبارزون والمتقاتلون ، في طويل حروب العرب وأيامهم ، من هذا الشعر ، لجا جمماً فياضاً تضيق عنه الدواوين ، ويتعايا على الراوين .

وهو في جملته شعر حربي ، دفاق بذكر الدماء ، فوار بصلصلة السلاح ، يكاد يكون لازماً لكل فارس جلد ، وبطل صنيدي .

أما بقية الأوزان في شعر الحرب ، زمن بني أمية ، فكانت في الأغلب الأوزان الطوال آثر عند الشعراء من الأوزان القصار ، لاستيعاب أبياتها جملة المعاني . فإن الشعر القصير في أوزانه ، ضيق الصدر بمعانيه ، ولذا نجد أن الكثرة الغالبة في شعراء هذا العصر تفيض قرائحهم على البحر الطويل ، ثم يتبعه في البحور ما كان رباعى التفعيل ، ثم يأتي ثلاثيه . وقد قل نظمهم شعر الحماسة على المجزوء ، ولعل تعليل ذلك لقرب العرب في هذا العهد من جاهليتهم . فكان شعراؤهم يمشون في أبحر الشعر على غرار الأوائل . حتى إذا عنّ لهم أن يقولوا شعر الحرب في العصر العباسي أقبل شعراؤهم بلبين مبانيهم وحلاوة معانيهم ، فزادوا على الأولين بعد طوال البحور صغارها ، وافتنوا فيها الأفانين فكان شعر الحرب في أدهم أعم معنى وأسهل مبنى ، وأرق جرساً . فيه القصص الحربي ، وفيه وحدة الموضوع .

الخصائص العامة

لشعر الحرب في عصر الأمويين

أنتم الكلام على شعر الحرب في العصر الأموي بذكر خصائصه العامة التي ألخصها فيما يلي :

ما يتعلق بالأسلوب :

(١) مشابهة الشعر الحربي في عصر بني أمية لحماسة الجاهلية ، ففي كليهما جزالة لفظ ، وروعة ديباجة ، حتى لا يكاد النقاد يستطيع التفريق بين الأسلوبين إذا خفي عليه صاحبهما ، وإذا خلا شعر الحماسة الأموية مما يشعر بالتغير والتطور الفني كألفاظ الدين وتعايير الإسلام .

(٢) قد ينحط أسلوب الشعر الحربي في عصر بني أمية عن أسلوبه في الجاهلية عند بعض الشعراء الأمويين غير الفحول .

(٣) اتسام الشعر الحربي في هذا العهد بألفاظ جديدة دينية ، وتعايير إسلامية ، وذكر آيات من القرآن الكريم ، وكلمات لها مصادر من الحديث الشريف .

(٤) إطالة الأنفاس في القصائد ، مما لم يعرفه الجاهليون في موضوع واحد كالحماسة ، فإن في الشعر الحربي الأموي قصائد طويلاً في مدار الحماسة ، وإن لم يكن الشعر عامة قد تحرر في هذا العهد من تشعب الموضوع وازدحام القول في غير غرض واحد . وقد كان للشعراء الفحول من أهل المهجاء الفضل البعيد في إطالة هذه الأنفاس ، في الشعر الذي يجري على روى واحد .

(٥) فرض الشعر الحربي ميسمه على فصاحة الشعراء . فكان من ضرورة فنه ؛ وهو للحماسة والبأس والفخر والعزة ؛ أن تجيء أشعارهم فيه قوية رصينة ، ذات جرس وجزالة ، لتكون كلمها ظروفاً لقعقة السلاح ، وحميمات الخيل ، وصراع الأبطال ، واحتدام المعارك .

فيما يتعلق بالموضوع :

(١) اتساع الآفاق الاجتماعية والسياسية في العصر الأموي أغنى الشعر الحربي بالمعاني ، فكثرت فيه الأخيلة وقلت فيه السذاجة الجاهلية .

(٢) كثرت فيه معاني المبالغة في السطوة والبأس لدواعيها الزمنية ، فإن الحروب الأموية والفتن كانت تحمل على استنباط المعاني الجديدة في تصوير الحماسة والشجاعة والمقاتل .

(٣) وجود المعاني الإسلامية كالجنة والنار والثواب والعقاب والشهادة ، وما يقتضي هذه المعاني من تصوير فني لميعة الشهداء ، وعالم الآخرة في نعيمه المقيم .

(٤) تسلط السياسة على الشعر الحربي ، وتصریفها إياه في أغراضها الخاصة والعامة .

(٥) شيوع الهجاء خلال الحماسة ، وشيوع الفخر خلال الشعر الحربي للعلاقة الوثيقة بين هذه المعاني .

(٦) ذكر العصبية من يمانية وعدنانية وقيسية وتغلبية حتى صار أكثر القصائد الحماسية من هذين الضربين ، وبخاصة ما قاله الفحول المهاجرون في حروب قيس وتغلب ، ووقعات الجحاف ، وزفر بن الحارث وقوم الأخطل وجريز ، ومطاوله الفرزدق في أصوله وجدوده .

(٧) اقتران كثير من الشعر الحربي بتلاوين الغزل شأن شعراء الحماسة الجاهلية من ذكرهم للمرأة في أثناء الفخر بالشجاعة ، وتشارك العرب في ذلك آداب الأمم الحماسية ، فقد كانت المرأة رفيقة الشعر الحماسي ، منذ هوميروس اليوناني إلى سيرانو دوبرجراك الفرنسي . وقد ظل هذا الوفاق بين المرأة والحماسة في الشعر العباسي ، كما أذكر ذلك عند الكلام على شعر الحرب في العصر العباسي ، في الباب الثاني من هذا الكتاب .

(٨) صفات الملاحم فيه ، فإن في شعر الحرب زمن الأمويين كثيراً من المعاني الحماسية التي تقتضيها الملاحم الكبرى ، وهذا يفتح باب التأمل في تكوين الملحمة العربية الكبرى على غرار هذا الشعر بعد أن تكون روحه من حماسة العصر الجاهلي .

(٩) سلطان التاريخ عليه أكثر من سلطان الفن ، بخلاف الشعر العباسي الذي كان لفنيته الأثر الأول فيه .

(١٠) كل ما ذكرته في الخصائص الفنية لشعراء الحرب عند المهجائين في هذا العصر ، يمكن أن يوصف به شعر الحرب عامة في العصر الأموي .

الباب الثاني

شعر الحرب في العصر العباسي الأول

شعر الحرب في العصر العباسي الأول

الفصل الأول

تطور الشعر في العصر العباسي الأول

١ - حضارة الدولة

أبان أبو العباس السفاح في خطبته على منبر الكوفة (سياسة العباسيين) بعد أن بويع بالخلافة، وكأنه قال (خطبة الدولة) على نحو ما نعبّر عنه في مصطلح زماننا ، لقد خطب قبل موقعة الزاب ، وكانت الزاب هي المعركة الفاصلة بين الدولتين الأموية والعباسية .
لقد قال للمسلمين في هذه الخطبة الأولى^(١) :

أدركتم زماننا ، وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس .
وكان الخليفة العباسي الأول مندفعاً في حماسة لا تتناهى ، فقرر في آخر خطبته ، أن هذا الأمر سيظل في بني العباس حتى يسلموه إلى عيسى بن مريم .
والذي أبهت له في هذه الخطبة التاريخية أن الدولة الهاشمية الموعودة قد رأت حلمها يتحقق ، وزرعها يزهر ثم يثمر ، فأسعدت الناس كما قال خطيبها السفاح المستبد . وهي وإن أسعدت من كان يهواها أو يرضاهها ، وأشقت من شق لها الطاعة ، وأوقد عليها الفتن ، فإن العصر العباسي الأول وما تبعه من تلك العصور كان أسعد حالاً للناس من أعوام الأمويين ، فإن أرواح الفتن كانت تفح كالأفاعى زمن بني أمية ، فهجعت قليلاً هذه الأرواح الخيفة زمن العباسيين ، واستطاع هؤلاء في زمان هجودها القليل أن يتنسّموا الحياة الجديدة التي جاءت بها الحضارة ، فاشتد تمازجهم بالأمم التي فتح أمصارها العرب قبلهم ، وكثر زواجهم ببنات هذه الأمم ، فأنسأهم حسن هذه الجوارى ، جمال هاتيك الأعراب ، وسكنوا في القصور ، وأجروا في القصور المياه ، وابتنى ملوكهم وأمراؤهم الصروح المردة كالجعفرى والقنص ، وتابع الخلفاء والأمراء من دونهم من الرؤساء والقواد والعمال ، حتى

(١) تاريخ البداية والنهاية لعلماد الدين أبي الفداء الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ . طبعة السعادة بمصر

ج ١٠ ص ٤٢ . وتاريخ الطبرى ج ٩ ص ١٢٦ الطبعة الحسينية .

سرت روح هذه الحضارة في الشعب . وكان الشعب عامة في سواده أوقلته ، وفي أمصاره العراقية كلها ، يعيش متبجحاً وكانت تعتريه موجات من الضيق حين تشتد الثورات الداخلية ثم تنفرج . وبدلنا بذخ الخلفاء العباسيين في أكثر عصورهم على وفرة المال الذي كانت تنوء بغرائره الإبل ، وقوافلها تقبل من كل صوب ، وثيدا في عرض الصحارى لتنسكب في بغداد .

وتنعم العباسيون في زمن لم تنعم في فسحته القصيرة أمة مثلهم ، ففي أقل من خمسين عاماً تغير العباسيون في عهدهم الأول فانقلبوا من شظف الحياة الأموية إلى نعمى لا عهد لهم بها ، وكانوا على الرغم من الحروب في الشرق والغرب ، يعرفون كيف يجدون السبيل إلى السرور والنعمة والحضارة . حتى كان عهد الرشيد وهو العصر الذهبي للعباسيين ، ثم تبعه عهد المأمون والمعتمد والمتوكل . وقد كان القوم حقاً في تلك العهود كلها أسعد الناس كما قال أبو العباس السفاح في خطبته الأولى . بل أترفتهم النعمة الجليلة بما طراً على حياتهم في الطعام والشراب والملبس والمأوى . وكان لامتزاجهم بالفرس أثر عميق في لهُوهم ومباهجهم فاستتموا مطالب التطور والتجدد حتى أفسدهم التغير ، وقديماً كانت تجلب المدنية المفسد ، مثل شر لا بد منه للخير .

ولإنها لكلمة في استفهامها الجواب وفصل الخطاب : فأين من البيد، عهد الرشيد ؟

٢ - تطور الشعر وتجديده

وكما تطورت الدولة العباسية ، فقد تطور الأدب العربي . بما دخل عليه من جديد والأمر كما قلت في هذا الكتاب : إن مذهب التطور الطبيعي الذي يتناول قضايا العلم يشمل الآداب والفنون .

لم يكن الشعر الأموي صالحاً لزمن العباسيين ، فديباجته القاسية الجزلة ، ومعانيه البدوية المورثة عن الصحراء أصبحت غريبة . أو كادت تصبح مكروهة في العصر العباسي . ولذا نجد أبا نواس يضيق بتلك الميامم القديمة في الوقوف على الأطلال ، ومناجاة النوى والحجارة ، فيثور ثورته المعروفة على مطالع القصائد ، وتبلغ به هذه الثورة إلى شتم العرب لما نسجوه في استهلال القصائد من الغزل بالمرأة ووصف الدار وآثارها العافيات . وهو بعد أن

يدعو إلى تطور الشعر في مفاثحه واستهلاله ، يحدد فيه فيرسم لمن عاصره ومن يأتي بعده ، كيف يكون استهلال القصيد ، فيجعله في ذكر الخمر والدنان ، والكؤوس والندامى . ولم يقتصر الشعر في العصر العباسى الأول وما بعده على التطور والتجدد ، بل لحقته فنون حديثة لم يكن يعرفها الشعراء الأوائل ولا مارسوها ، منها ما يتعلق بمقاييس الشعر واشتقاق بحوره ومنها ما يناط بمعانيه ، كفن الزهد والتصوف ، والشعر التعليمى . وكثر الغناء بالشعر وتغاوى أهل اللحون في اجتلاب الطرب . وشاع الرقص ، وكان للفرس الخطر الأقوى في طبع العرب بهذه الطوابع . وأكبر الظن أن الأمراء الفارسيين الذين استعملهم العرب هم أول من أدخل (الرقص العام) وضروب اللهو والمقاصف على العصر العباسى ، وأجد هذا سبيلا إلى شعر المحبون وظهور الشعراء الخلاء . وتفتحت بسبب كل ذلك آفاق جديدة أمام الشعراء ما عرفها أسلافهم ، فراحوا ينظمون القصائد والمقطوعات بفنون طريفة وعلى أنماط جديدة ، فيها تصوير وإغراق ، وقد زخرفوا اللفظ كما زخرفوا المعنى .

٣ - هل طرأ على الحماسة التغيير ؟

كان من الطبيعى أن يصيب فنّ الحماسة نصيب مما أصاب سائر فنون الشعر في هذا العصر . ولكن لو عرضنا على التمييز تلك الفنون لوجدنا بعضها قد اضمحل أو تقاعس . كفن الهجاء ، فقد أصبح تبعاً للفخر ، ولم يكن بين الشعراء العباسيين الفحول هجاء كالذى كان بين جرير والأخطل والفرزدق ، ولا يعدل هؤلاء بشيء ما كان بين بشار ابن برد ومنافسيه من التهاجى ، ولا ما كان بين البجترى وابن الرومى من قذيع السباب . وصار الهجاء ضرباً من ضروب الشعر لا يحتفل به وحده ، كما كان زمن الأمويين . أما الغزل فمخرج من حصانته الأموية إلى التبدل والتهتك والمجون حتى صار في الغلمان ، وصار المديح سوقاً للمتاجرة يقف أصحابه أياماً بأبواب الخلفاء ليؤذن لهم بالإشاد .

وكان شعر الحرب وسط هذه الفنون العباسية الكثيرة ، يخضع للتطور ، فإن قرع المزارق ، وصوله الأبطال ، قد تغيرت عما كانت عليه في العصر الأموى . كان الأمراء والعمال في عهد بنى أمية عرباً أقحاحاً ، وكذلك سواد العرب ، لقد كانوا أبناء الحرب

وأحلاس الخيل ، كأنهم خلقوا من ضلوعها يمشون في حلق الحديد مشى الجمال البزل ، والموت هزأة في أفواههم ، وكان أكثر محاريبهم يلقون أنفسهم على السلاح ، لرفع كلمة الله . وقد تغير أكثر ذلك في العصور العباسية . فضاعت النزعة العربية أو ضعفت ، وتعاورت على شعر الحماسة في العصر العباسي الأول أزمات اجتماعية وأسباب سياسية ، ورافقت ذلك عوامل أدبية بحتة تتعلق باللغة والبيان ، فانحط شعر الحرب عن الدرجة التي رقى إليها في عصر بني أمية .

ومجمل الأسباب التي دعت إلى ذلك وقوف الفتوح حيناً ، وفتور البطولة حيناً آخر ، والقواد الأعاجم ، والشعراء الأعاجم . ولا أنكر أن هذه الأسباب التي أدت إلى انحطاط شعر الحرب كان إلى جانبها أمور أدت إلى تألق معانيه . وتفنن قائله بنظمه وألوانه .

٤ - وقوف الفتوح حيناً ، وفتور البطولة حيناً آخر

كان عهد الراشدين والعصر الأموي مليئاً بفتوح الشرق والغرب ، وكان الفتح مسعر الحماسة في شعر كل أمة ، فهو الذي يقدح خواطر الشعراء ، فتتقد ويجود أصحابها بشعر الحرب الباقي على الزمن ، يخلدون به مجد الأمم ، ويسجلون ذكر الفتوح بشعر لا يبلى . فلما هدأت الفتوح في العصر العباسي الأول هداً معها شعر الحرب وفترت أسباب الحماسة ، وقامت فنن داخلية ملأت على العباسيين جو السياسة بالقتام ، فكان شعراؤهم يستجيشون عدة الحماسة من موضوعات هذه الفنن ، كما فعل البحترى وأبو تمام في فتنه بابل الخرمي ، فأنهما أعطيا هذه الفتنة الداخلية من شعرهما شطراً كبيراً ، قوى الحماسة ، بعيد الأثر في تاريخ الشعر في العصر العباسي . ولكنهما كغيرهما من الشعراء الفحول كانا منصرفين إلى المدح ، والغزل . والمطارحات ، فلم يكن شعر الحماسة هدفهما الأول في هذا الشعر . ولو نزعنا من شعر أبي تمام مراثيه للأبطال الطوسيين ، وخاصة مراثيه لمحمد بن حميد الطوسي وأشعاره في أبي سعيد الثغري وفتح عمورية ، لما بقى عنده في سائر شعره الكثير أثر للحماسة الحقة وشعر الحرب ، وقد كان أبو تمام أجود من غيره في شعر الحماسة وأحسبه كان خيراً فيها إذ أحبها وأحب المختار من شعرها فألف فيه ، وإنى لأعذره فهو

شاعر قد صب في قوالب عصره ، ولو اتقدت الفتوح في زمنه لوجدنا صداها في شعره صريحاً ، كما وجدنا فتح عمورية وحروب الروم بما لم يعهد عند شاعر من قبله . وكيف كان الأمر فإن وقوف الفتوح أو انقطاعها ، كان من الأسباب التي قعدت بشعر الحرب في هذه الفترة .

٥ - القواد الأعاجم

لم يُبج التاريخ بكل الحوادث . وقد باح الشعر بما كتبه التاريخ . لقد مدح أبو تمام (الأفشين) بعد أن قهر (بابك) وجاء به مقيداً إلى المعتصم ، فأدخل المعتصم الشعراء على الأفشين ، وحملهم على مدحه ، وكان أبو تمام فيهم ، فقال أبو تمام فيه شعراً تافه الحماسة كعود جف مأؤه . فقلت لنفسى: لو كان الأفشين عريباً هاشمياً ، لكان لشعر أبي تمام شأن غير هذا الشأن في الحماسة ووصف الحرب ، ولذا نرى أكثر شعره في هذه الفتنة منصرفاً إلى مدح المعتصم ، إذ كان المعتصم هو « القائد الأعلى للجيش » . وإذا كان فحلا الشعر في العصر العباسي الأول هما أبا تمام والبحترى من ذوى العروبة الخالصة فلا تريب عليهما أن يفتّر شعرهما الحماسي في مدح القواد العجم ، فما كان لهما ولا لشاعر عربي سواهما أن يهجم على مدح الأعاجم . لأن النزعة العربية كانت لا تزال مستحكمة في الأعراق والأصول ، وقد ضعف الحافز ، فضعف المحفوز .

٦ - الشعراء الأعاجم

كان لضعف الشعر الحماسي في العصر العباسي الأول سبب آخر يتعلق بالشعراء أنفسهم (فاعلين لا منفعلين) إن صح في العربية مثل هذا التعبير ، فإن من الشعراء من كان فارسياً في أصله من جهة أبيه أو أمه ، كبشار وأبي نواس . فلم يكن شعورهم ليرتاح للفتح العربي ، وذكر البطولة العربية ، ولذلك نجد أبا نواس قد احتال على شعوره الحماسي في البطولة والفروسية ، فصرفه إلى جهة الطرديات ووصف القنائص .

أما بشار بن برد فإن شفع له شعر حرب أو مقال في حماسة ، فذلك في قصيدته

البائية التي وصف فيها حرب « عمر بن هبيرة » للجيش الكثيف ، فقد مدح فيها هذا الأمير ووصف الجيش وصفاً رائعاً فذّاً ، لكنه لم يخف شعوره في تهديد العرب وهو في زحام الحماسة ، فقال بيته المشهور وكأنه كان يصرخ فيه بوجه الخليفة المهدي :

إذا الملك الجبار صعر خده مشينا إليه بالسيوف فنضاربه
وهو لم يلبث أن هجا بعد حين عمر بن هبيرة أشد الهجاء فأين من قلب بشار الشعور
بالحماسة التي تتطلب من الشاعر الخلوص في توقيير البطولة ، وإكبار أهل الشجاعة ؟
وكان الشعراء الأعاجم في جميع العصور العباسية لا يفرقون في شعورهم بالبطولة العربية
عن الشعارين السابقين . وكان الأثر عند أولئك كالأثر عند هذين ، ولذلك لا تجد فحولة
الشعر الحربي ، والصدق في حماسه إلا عند الشعراء العرب الأقحاح ، في مدى العصور
العباسية .

٧- تأثير الفارسية في الخيال العربي وأثر ذلك في شعر الحرب

لو أتيج للعرب في الجاهلية أن يختلطوا بغيرهم من الأمم خلطهم في عصور الإسلام ،
لوصل إلينا تراثهم الجاهلي على غير ما هو عليه ، من صفات عربية ، وطوايع بدوية
صرفة ، ولكان في طريقة تعبيرهم ، وأسلوب تفكيرهم ، ومدى خيالهم شكل آخر غير
ما كان في الجاهلية .

لو أنهم مازجوا بلاد فارس طويلاً ، وعاشروا الروم عشرة تلاحم ، لوصل إلى أيدينا
منهم أدب لا يفترق كثيراً عن أدب تلك الأمم في خياله وتصويره ، وطريقة أدائه
وموضوعاته .

وقد ضرب العرب الأمثال للأمم ، بأنهم ليسوا مؤثرين للجمود ، وإنما هم قوم يحبون
التطور ، ويستطيعون الاندماج في غيرهم ، إن كانوا يجدون في هذا الاندماج حياة وبقاء
ومنزلة وقدرًا . وقد دلت على مثل هذا التمازج بعض الجاهليين الذين زاروا بلاد فارس ،
فإن الأعشى ميمون عاد من عند كسرى وفي لغته بعض كلام الفرس حتى قال في بعض
شعره (وبربطنا دائم معمل) والربط آلة موسيقية فارسية كالعود ، ما أحسب العرب عرفوها
أو ذكروها في لغتهم قبل الأعشى . ولم تخل لغة العرب في الجاهلية من كلمات فارسية

أو رومية، لكنها وإن تكن قليلة فقد دل التقصى على أن أصلها فارسي أو رومي عملت على دخولها في لغة العرب أسباب اقتصادية كالتيجارة ، وسياسية كامتزاج العرب في الشمال شرقاً بفارس وغرباً بالروم ، وحين جاء القرآن الكريم ورد في بعض ألفاظه ما يعود به النسب إلى تلك الأصول .

وحين تمازج العرب بالفرس بعد الفتوح الإسلامية لم تستطع لغة فارس ولا عادات أهلها ولا أساليب عقولهم وتلاوين خيالهم أن تتسرب إلى العرب . وكأن العرب أقاموا دون ذلك سوراً صفيقاً فلم تستطع فارس أن تجتازه إليهم . وكان الأمر على التقيض - لضرورة الدين الجديد ونشر تعاليمه - أن دخلت الفارسية في غمار العربية ، فأقبل أهلها المسلمون على لغة العرب يفهمون كتابها المنزل ، ودعاهم الدين في دواعيه هذه ليفهموا بعد أموره وأحكامه شعر العرب ونثرهم ، وأن يكون منهم خلف يحدقون لغة العرب ، ويجرون في بيانها أقلامهم ، أو يطلقون في فصاحتها ألسنتهم ، فإذا منهم شعراء ومرسلون ، ومنهم خطباء وأهل مذاهب في الفن وأئمة في النحو .

كان العصر الأموي للفرس مرحلة تعلم للعربية ، وثقف بآدابها ، وكان العرب في هذا العصر لا ينظرون لفارس على أنها مصدر ثقافة وحضارة ، وإنما كانت لهم داراً مفتوحة بسيوفهم لنشر الدين الخفيف في أرجائها وما وراء أصقاعها . ولو أن الفتن سكنت نأμάτων للأمويين والمروانيين ، لفكروا باكتناه هاتيك الحضارة ، وهذه الثقافة ، التي كانت لأهل البلاد المفتوحة . ولكن شغلهم الفن في فارس وخراسان وما وراء النهر ، وفي حومة بلادهم في الشام وفي العراق والحجاز وعلى ثغور الروم . وكان ترامى سلطانهم إلى مصر وشمال أفريقيا وقيام دولة عربية في الأندلس شاغلا لهم - إلى ذلك - عن ثقافة فارس ومحاولة التعرف إلى آدابها وفنون حضارتها .

ولم يتعرف العرب حقيقة ما بين أيديهم من فن فارس إلا في العصر العباسي ، وخاصة حين كان لاهل فارس شأن لديهم أى شأن . وقد بدأ اهتمامهم الأدبي بها بعد اهتمامهم السياسي، منذ غدر الساسة بأبي مسلم . وقد جاءهم مسالماً ووراءه خراسان براياتها وجيشها . وكان أبو جعفر المنصور من الدهاء ونقض العهد والمسارة إلى الغدر بعد التأمين ، في حمأة سياسية أحاطها بالخوف والبطش والغيلة . فلم يتمكن عهده من أدب فارس ، ولم يظهر أثر الحضارة الفارسية في الآداب العربية ، وكانت مواليد العرب من الفرس لم يظهر خطرهما

بعد ، فبقيت تلك الآثار الفنية كامنة مكبوتة خلال الدم لم تجر بها الأقلام ، ولم تفرجها الألسنة .

وجاءت في أيام المأمون فتنة خلق القرآن فصدت نتاج التمازج الثقافي بين الفرس والعرب ، حتى أتيح لهذه الفتنة ركود من دهرها فانفتح ذلك الباب مصراعاً بعد مصراع ، ثم أقبلت منه وفود الثقافة الفارسية فتدفقت على اللسان العربي ، وسبق أن أسهم فيها ناس من الفرس فيهم عبد الله بن المقفع وفيهم سواه من أهل النقل والترجمة . ولكن تلك الترجمات لم تكن من الفارسية وإنما كانت من فلسفة الروم .

وكيف جرى الأمر فإن أزهير التمازج الثقافي بين فارس والعرب لم تطلع بعد ، وإن تكن أغصانها نبتت ، وأوراقها قد زانت تلك الأغصان في مغارس العصر العباسي ، بعد زمن المأمون .

ولا أستطيع أن أجد الدليل مجسماً ، فإن دلائل هذا التطور تخفى على التنقيب ، ولا يحيط بها إلا من يدرس لغة العرب في ذلك العصر العباسي ولغة فارس فيه ، ويرى ما تسلك بين اللغتين من التعابير والتشابه والكلمات .

وبحسبي أن أقتطف تلك الأزاهير من بستان الشعراء الذين تنسبهم أصول فارسية ، فإن العرق دساس ، والدماء نزاعة ، وكلاهما ذو أثر بين في تطور الأدب لدى كل أمة وفي كل جيل .

فبشار أصله فارسي من جهة أبيه ، وأبو نواس فارسي من جهة أمه . وجدير بهذين الشاعرين أن تبدو على شعرهما آثار الفكر الآري والخيال الفارسي ، كما نجد آثار التفكير العربي ، وبداوة الخيال عند أبي تمام والبحرئ وأبي الطيب ، مصقولة بالتطور الزمني والتمازج الثقافي ، الذي يغير من نوازع الدم وطوابع الأنساب ، ولكنه لا يستطيع أن ينتزع من الأعراق نوازعها الأولى .

وليس خيال الشاعر وطريق تصوره بوليد نفسه ، وإنما هو أمر عملت فيه نفوس متغلغلة في غمار الأجداد الذين سبقوا . إن الخيال والتصور يشبه السحنة والهيئات التي على وجوه كل منا ، وإن هذه السحن والهيئات ليست وليدة أبويننا وحدهما وإنما هي وليدة أجيال كثيرة لا يعلمها إلا خالقها ، كذلك أساليب تفكيرنا وقوة تخيلنا أو ضعفه ولون هذا الخيال وتصاويره ، كل هذا يعمل فيه من أورثنا الحياة الجسمية والحياة العقلية .

ولكن كيف أستطيع من خلال كلمة أو لفظ ، ومن سياق تعبير أو جملة أن أستشف في الكلام العربي الخيال الفارسي أو الصورة الآرية ؟

فلئن كان للكلمات حياة مثل حياة أصحابها ، فإن ذلك ليدو على شيء من السهولة .
افتح أى معجم شئت في العربية أو غيرها تبين لعينيك كلمات ننطق بها نحن ، ونفكر فيما تضم في أعماقها من حياة أناس لا يحصى لهم عدد كانوا يعيشون وكانوا يتكلمون ، إن كلمة واحدة من هذه الكلمات تحتوى تاريخ أقوام ، وفي خفقات ألفاظها وتداولها على الألسنة حوادث لا يأتى عليها حصر ، ولقد لعب الحرف روايات في حياة الإنسان لا تحصى ، كعدد الأيام والشهور والسنين !

ذلك هو الخيال الذى تثيره كلمة واحدة أو لفظ ، وجملة واحدة أو تعبير . فإذا عرفنا هذا أمكننى الفرصة من توجيه هذا البحث في صدد غايتى وهى : (ما هو أثر الخيال الفارسي في شعر الحرب عند العرب ؟) .

* * *

إن بشار بن برد فارسي الدم ، صرف الصليبة في العجم . كان أبوه (يرجوخ) من طخارستان من سبي المهلب بن أبى صفرة . وأجداده من (ازد كر إلى يستاسب) كانوا عجماء ، فيصح أن يكون بشار مثالا للقياس في هذا البحث لأن في خياله منازع فارسية ولغته عربية .
ولكن قبل كل شيء ما هو الخيال الفارسي والخيال العربي ؟

عرفنا الخيال العربي في شعر الجاهلية والإسلام إنه صورة منضوحة من صميم الحياة العربية . فالمااء المندور في الجاهلية ، والشمس المحرقة ، وظلال النخيل ، والأفراس والإبل والخيام والصحراء المنبسطة والمرأة الجميلة ، كل ذلك أمور ملموسة في المادة تهيج في ذهن المتكلم أخيلة كثيرة يضرب بعضها في بعض فتجىء عالماً من الصور لا تحصى . وكل هاتيك الصور التى كانت تهيجها في الذهن تلك المشاهد الملموسة ، كانت تجىء على ألسن العرب وتقوم في أذهانهم خيالات صادقة كل الصدق وفق حياتهم الساذجة المحدودة .
إنى أضع هنا صورتين إحداهما جاهلية ، صنعها امرؤ القيس في ذهنه بخيال بدوى ساذج ، حين اشتاق إلى الحبيب النأى . وكانت (أذُرِ ع) له داراً فلم يعنه خياله المكتوف في حدود البادية على التجرد الذى قد يكون لشاعر عرف الحضارة ، أو مرت أسبابها في حياة أهليه ، فقال عن تلك المرأة :

تنورتها من أذرعات وأهلها يثرب أدنى دارها نظر عال

ومعنى هذا البيت — كما أرى — أنه حين مر بأذرعات عنتت على باله محبوبته ، فرمى بخياله نحو يثرب فتتور نارها منها ، فكان نظره العالى هو الذى أدنى إليه دارها . وإنه لخيال قوى مجنح ، يكاد يكون خارجاً عن طوق الجاهلية . ولكنى آثرت ذكره لأدل على براعة خيال من أخيلة الجاهلية ، فأقارنه بخيال آخر من أخيلة الشعر فى العصر العباسى ، حين بدا الخيال الفارسى الآرى فى أذهان من صوره فى لغة العرب .

فهذا بشار بن برد تعن على باله صورة معشوقة ، فيتمنى لو كان عندها فى إناء الفاكهة تفاحة فتأكلها ، أو كان فى زهريتها ريحانة من الرياحين تشمها ، فتهدى على الأولى بالعض وعلى الثانية بالشم فيذوق مبسمها وشمها . ثم لا يشفيه هذا الخيال المُنْغْرِب فى أن ينتفع منها بعض أو بشم ، وإنما يريد أن تخرج به الروح من تلك التفاحة . أو ذلك الريحان فيكون لدى المحبوبة وفى خلوتها إنساناً سويّاً فيقول :

يا ليتنى كنت تفاحاً به فلجٌ أو كنت فى قصب الريحان ريحانا
حتى إذا وجدت ريحى فأعجبها ونحن فى خلوة مثلت إنسانا

فأين خيال امرئ القيس على ما فى جانبيه من جناح طائر ؟ من خيال بشار وكأنه أنطلق على جناح « طيارة » ! إن بينهما لبوناً مثله مسافة العصر بين الشعارين ، وكروور السنين . ولا أذهب إلى أن هذا الخيال عند بشار خيال شاعر مكفوف ، يتصور أغرب الصور ويعينه عليها العمى ، ذهاباً مع من يقول إن المكفوفين أصحاب أخيلة جامحة لا يستطيع عليها المبصرون .

لقد حمل بشار الفارسى لغة العرب فى بيتيه هذين خيالاً رائعاً ، فارسياً آرياً . وأكبر دليل على آريته (فكرة التجرد الفلسفية الموجودة فيه) وهى خروج الإنسان من ريحانة أو تفاحة . ودليل آخر على فارسيته أنه منتزع من فكرة دينية مجوسية وهى (التقمص) فروح الإنسان الموجودة فى الريحان والتفاح يمكن أن يعين عليها الوجود فتتمثل بشراً سويّاً . وكان بذلك بشار أبعد أملاً من النحات القبرسى « بيغماليون » الذى ابتهل إلى الربة « فينوس » لتسكب الروح فى تمثال « غالاتيا » الذى أبدعه لغاية خياله !

فإذا صح هذا المذهب ، تطرقت إلى الكلام على شعر الحرب فى أدب العصر العباسى فاستقرأته وتقصيت وجود الخيال الفارسى فيه .

* * *

لم يكن الفرس أبعد شجاعة من العرب — على ما كان لهم من حضارة ضمن ثغورهم

المرامية التي كان يحميا جيشهم المنظم - وإنما كانوا أحكم نظاماً في الحروب وأكثر فنوناً ، فإنهم حاربوا جيوش اليونان وعليها الإسكندر المقدوني وذاقوا ذل الانكسار ، ولكنهم إلى ذلك كانوا أمة ذات صولة وعسكر . فلما كسرتهم الحرب العربية وثل عرشهم الإسلام ومزقت جيوش المؤمنين جيوشهم من يوم القادسية ، عرف التاريخ أن السيوف العربية المنحنية الدقاق ، إنما كانت الأيدي التي ضربت بها أطول في العزيمة ، والقلوب التي أفرغت فيها تلك الشجاعة كانت أوعى وأقوى . ولا شك أن الخيال الفارسي كان يظهر أثره جلياً في كثير من شعر الحرب في العصر العباسي ، سواء أكان هذا الشعر في مدح أم هجاء أم حماسة ، وفي وصف أم غزل ، لأن حياة العرب في هذه الحقبة قد تغيرت ، وكان لهدوء الفن الكبرى أثر أعان العلماء والأدباء على التفرغ للعلم والبحث . فبدت طلائع من الأخيلة الفارسية في شعر بعض الشعراء كبشار وأبي نواس . أما بقية الشعراء ذوي الأصول العربية ، فكان مثل تلك الأخيلة المغربية قليلاً في شعرهم على ما أخذوا به أنفسهم من دقة الشعور وحسن التصوير ، كأبي تمام والبحتري والمتنبي .

كان الشعراء في العصر العباسي يجدون في لغتهم ما يريدون من تعابير الحماسة والفروسية ولم يكونوا يشعرون ضيقاً في أداء ما يجول في أنفسهم من معاني الشجاعة والبطولة . ولكن هل كانوا في الحقيقة أغنياء بتعابير الحماسة ؟ أو كان في تعابيرهم فاقة ، وكانوا بحاجة إلى أن تتسع آفاق خيالهم في وصف الحرب بعد دواعي الحضارة العباسية وتمازج العرب بفارس والروم ؟ سنرى بواذر هذا الاتساع الخيالي في شعر أبي تمام والبحتري وأبي الطيب في وصف الحرب ، ولكن الخيال الفارسي إذا تسلل إلى الشعر العربي فإنه لن يبدو معالناً عن نفسه ، وإنما كان لوناً جديداً في جملة الألوان التي اصطفي بها الشعر العربي . وهو يجيء في قول الشاعر بلا تكلف ومن غير أن يعتمد على استدناؤه أو يحس أنه خيال فارسي أو عربي ، وإنما المعاني والأخيلة أمور ذهنية تطلقها الأفكار ، يمكن للدارس أن يتبين أعراقها في طويل الاستقصاء .

أخص هذه الأخيلة الفارسية ما كان بعيداً عن صدق البداوة أو محال التصديق ، كالتشبيهات الغالية التي نراها في شعر العصر العباسي وفيها التهويل والتجسيم في الاستعارات ، وكالإحاطة بالموصوف من أكثر جهاته ، مما لم يكن العرب يعرفونه في الجاهلية وصدر الإسلام ، إذ كانت تغلب عليهم « الواقعية » وتنوع الموضوع في الغرض الواحد . وكانت بواذر التجديد في المعاني معرضة في العصر العباسي لنقد علماء الأدب ، فقد

نقد الأدباء الأقدمون بشاراً حين قال بيته الحماسي الرائع :

كأن مُثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
فروى أبو الفرج في أغانيه أن محمد بن عمر الجرجاني وأبا يعقوب الحريري كانا يرويان
عن بشار أنه قال :
« لم أزل منذ سمعت قول امرئ القيس في تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد حيث
يقول :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى
أعمل نفسى في تشبيه شيئين بشيئين في بيت حتى قلت : (كأن مثار النقع فوق
رؤوسنا) .

فالحيال الجديد يظهر في شعر بشار ، وهذا البيت وحده أصدق دليل عليه . فأين من
خيال البداوة هذه الكواكب التي تهاوى ؟ فتشبه بها الأسياف وهي تنصدم في الحرب ؟
ولم يكن شعر أبي نواس — بعد بشار — مقصراً في روحه الفارسية ، فقد ظهر الخيال
المجنّح في خمرياته بأروع مما ظهر في شعر بشار . فإذا تناولنا المعاني الحميرية في الجاهلية
عند الأعشى ثم عند الأخطل في معان واحدة أو متشابهة ، رأينا أبا نواس يتناولها بتصور
رائع ما كان لشاعر قبله أن يتصورها فيه .

ثلاثة أبيات هي دليلي ، تواقع الشعراء على معنى في روح واحد ، في وصف لمعة الحمرة
وتلألؤها ، أو طيها وحلاوتها . قال الأعشى في الحمرة :

يبابل لم تعصر فسالت سلافة تخالط قنديداً ومسكاً مختتماً
وقال الأخطل :

فجاء بها قد خيلت في إنائه بها كركب المريخ تصفو وتزبد
وقال النواصي :

إذ عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا
فبان الخيال البدوي الساذج عند شاعر الجاهلية الذي وصف رائحة الحمرة بالمسك
وطعمها بالسكر وهو القنديد . وهذا أقرب إلى مدارك البداوة التي عرفها الأعشى فلم يرتفع

خياله إلى السماء ، وإنما ظل على أرض البادية ، وهو خيال ساذج ملموس ، شأن الكثير من الأخيالة الجاهلية .

وظهر عند الأخطل الخيال الحضري الذي يصرح به صاحبه بأنه (خيال وليس بحقيقة) تبدو فيه الحمرة لامعة متماوجة مشعشة كأنها عند صفائها وزبدها كوكب المريخ في تألقه . فرفع شاعر بني أمية النشوان رأسه إلى السماء ، وطار إليها بخياله ، فكان خيال الكوكب مما تستدعيه دنيا الحضرة بعد خيال القنديد والمسك الذي دعت إليه دنيا الوبر ، حتى إذا جاء النواصي العرييد ، فعرف أسرار الحمرة ، وناجى أرواحها ، وتفرد من بين الندمان بنشوتين ، انطلق خياله الثاقب حين رأى الحمرة يعب فيها الشارب في الظلام ، فهاجت في نفسه (كوامن الفارسية الدفينة) – وقد تهيج به تلك الفارسية دون أن يصطنع لها الهياج – فبدت (الفكرة المحوسية) وهي (عبادة الكواكب) . وهل كان تقبيل الكوكب إلا مظهراً من مظاهر تلك العبادة المحوسية العتيقة ، إذ كان أهلها يعبدون الشمس ويستقبلون لألاءها المفتان بالعيون والقلوب . (وما أجد أشنى للعابد من ثم المعبود) .

تلك سوانح من خيال فارسي لاح به أبو نواس في خلال شعره . وإن في شعره لمن هذه الصور أطياً كثيرة .

وقد احتفى الرواة والأدباء من أقدمين ومحدثين بتجديد أبي نواس ، فزعموا أن تجديده كان في مفاتيح القصائد : أبدل فيها ذكر الأطلال البالية بالحمرة والقناني . ولو التفتوا إلى هذا الضرب من المعاني الجديدة في شعره مما لم يألّف العرب ، لأمكنهم الفرصة من الكلام على (فن أبي نواس في صميم تجديده) .

إن ديباجة الشعر التي جاد بها أبو نواس عرف مثلها العرب ، بل عرفوا خيراً منها ، لكن معانيه هي التي كان يلوب على مثلها قبله الكثير . ولست دائماً مع الجاحظ الذي يقول : المعاني مطروحة في الطريق ، فإن هذه المعاني النواسية لم تكن لقي مطروحاً في الأرض ، وإنما كانت منضدة كواكب ونجوماً في درب الهجرة .

٨- نطاق شعر الحرب في هذا العصر

يتناول شعر الحرب في العصر العباسي الأول حتى آخر أيام المتوكل موضوعات كان فيها غنى للحماسة العباسية كلها . وقد درستها في هذا الكتاب دراسة فنية حيناً ، ومنوطة بالتاريخ حيناً آخر . وقد توزعت هذه الموضوعات نواحي مختلفة ، فإن شعر الحرب كان متنوع الحروب الداخلية ، وكان يصدر عن الحروب الخارجية . وقد قيل في حرب البحر ، كما قيل في حرب البر ، وفي جميع ذلك قال شعراء العصر العباسي الحماسيون شعرهم الحربي ، وسأذكر هذه الضروب واحداً بعد آخر في فصوله التي تحويه .

٩- نماذج من شعر الحرب في العصر العباسي

إن في الكلام على وصف الجيش في الشعر العباسي ما يعطي صورة مجموعة لنماذج الشعر الحربي ، إذ كان الجيش هو مجموعة رجال الحرب وعدتها ، ففي الجيش أبطاله وكماته ، وسلاحهم وكُرَاعهم . وإن مجال الموازنة بين أقوال الشعراء في الجيش وقياس بعض أوصافهم على بعض لأوسع مدى لمن يصدر عن هذه الموارد من الكلام .

لقد نظر أكثر شعراء بني العباس إلى الجيش نظرات متشابهة ، وتصوره كل منهم في حالة إن بعدت به قليلاً عن رفيقه ، فإنما تقر به إليه بقدر ما اصطلاح عليه وصفهم للقتال ، ونظرهم للسلاح والأبطال . وإذا كنت أعد ابن الرومي أتم بياناً للموصوف وأوفى وعياً للصورة ، فإنني أبدأ بوصفه للجيش .

رثى ابن الرومي يحيى بن عمر ، وكان يحيى بن عمر ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب . فوجب أن يكون بهذا النسب مضطهداً لدى العباسيين كغيره من العلويين والشيعة ، وكان قد حاق به ضرر وسوء حال فحبب إليه كل ذلك الخروج على العباسيين ، فخرج في طوائف من الزيدية بناحية الكوفة . فجرد عليه المتوكل من غلبه وجز رأسه . وجلس العباسيون بعد قتله يتقبلون تهنئة الناس أفواجاً بموته .

وكان ابن الرومي نزاعاً للشيعة ، مصارحاً في ميله إليهم وامتداحهم وإجراء طرف من شعره في دعوتهم .

فهو إذن حين يرثى يحيى بن عمر إنما يرحم السياسة العباسية في عقر خطرهما ، إنه يرثى من خرج على تلك السياسة ، فاستطاع بما أوتيته من دقة التصوير وسبق في الإلمام بوحدة الموضوع أن يحيى خلال هذا الرثاء بقطعة رائعة من شعره يصف فيها الجيش الذى سوف يهب لحرب العباسيين ، جيش الثوار الذين ما زالوا يكمنون في ضمير الزمان . وما هبة ذلك الثار إلا يوم يؤوب حق الطالبين إليهم بعد أن نزعه منهم العباسيون فتدار عليهم يومذاك الكأس التى أداروها .

ألم ابن الرومى - في وصفه الواعى - بما ينبغى أن يوصف به الجيش الصاحب للجب .
فهذا الجيش الذى يصفه :

فجر تضيق الأرض من زفراته ، وتهرب الوحوش من زجله وصياحه ، تلمع سيوفه على مدى الأبصار كأنها البرق ، وتسطع عليه شمس الضحى بومض بعد ومض فيحسب بحراً يموج ، شب شعاعه بين الأرض والسماء فتراه النور التى تحمد للجيش جودها بالقتلى والجرحى فتحوم عليه . وحين ينبطح عليه نظر الناظر يقع على حرج من الأخراج فيحار لهوله ، رجاله وفرسانه عدد الجراد ، وفوق الجياد رجال كأنهم الليث ببسالته . يلتحم رجال هذا الجيش بالعدو التحاماً لا يترك فرجة تنفس فارساً عن خيله ، ولو أن سحابة أمطرهم لما وقع صوبها على أرض . ولقى ماؤها يتدحرج على رؤوسهم وأجسادهم ، وقد لمعت رماحهم كما يلمع الفتيل المشتعل .
فثل هذا الوصف الواعى ، يقوله ابن الرومى في الجيش الذى سيغير على العباسيين
لإنصاف الطالبين :

لعل لهم في منظوى الغيب ثائراً	سيسمو لكم والصبح في الليل مولج
بمجر تضيق الأرض من زفراته	له زاجل يننى الوحوش وهزمج ^(١)
إذا شيم بالأبصار أبرق بيضه	بسوارق لا يستطيعهن المحمج ^(٢)
توامضه شمس الضحى فكأنما	يرى البحر في أعراضه يتموج
له وقدة بين السماء وبينه	تلم بها الطير العوائى فتهرج
إذا كر في إعراضه الطرف أعرضت	حراج تحار العين فيها فتخرج ^(٣)

(١) الهزج الكلام المتتابع .

(٢) المحمج الشديد النظر .

(٣) الحراج جمع الحرج وهو المكان الكثير الشجر . وتخرج تحار .

يؤيده ركنان ثبتان رجلة
عليها رجال كالليوث بسالة
تدانونا فما للنقع فيهم خاصة
فلو حصبتهم بالقضاء سحابة
كان الزجاج الهذميات فيهم
وخيل كأرسال الجراد وأونج^(١)
بأمشالها يثنى الأبي فيعنج^(٢)
تنفسه عن خيلهم حين ترهج^(٣)
لظل عليهم حصبها يتدحرج
فتيل بأطراف الردينيّ مسرج

على أن هذه الطير التي تلم بالجيّش الذي وصفه ابن الرومي تذكرني بالنسور التي وصفها
الناطقة الذبياني ، وهي محلقة فوق جيش الغساسنة ، لكن النابغة تبسط بوصف هذه النسور
التي هي لوازم كل جيش محارب ، وأجمل ابن الرومي الكلام عليها .

وتثير هذه القطعة التي يوفق ابن الرومي فيها بوصف الجيّش قطعة تشابهها لأبي الطيب
المتنبي ، فتلمع في الخاطر إحداها ثم تلمع فيه الثانية . ولولا ضرورة المقارنة ههنا ولزوم
المقام ؛ لأخرت وصفه للجيش إلى الباب الثالث من هذا الكتاب .

يصف أبو الطيب جيش الأمير محمد الحسين بن طغج يوم نزل عليه بالرملة ؛ فيجعل
السبيل إلى وصف هذا الجيش مدحاً لهذا الأمير بأنه لا يتلقى الحرب إلا به فيقول :

وذى لجب لا ذو الجناح أمامه
تمر عليه الشمس وهي ضعيفة
إذا ضوؤها لاقى من الطير فرجة
وينحى عليك الرعد والبرق فوقه
أرى دون ما بين الفرات وبرقة
وطعن غطاريف كأن أكفهم
بناج ولا الوحش المثار بسالم
تطالعه من بين ريش القشاعم
تدور فوق البيض مثل الدراهم
من اللمع في حافاته والهمام
ضراباً يمشي الخيل فوق الجماجم
عرفن الردينيات قبل المعاصم

تلك تهاول أي الطيب وهي في هذه الأبيات تحصر الوصف في الجيش :

(١) أنه لجب .

(٢) لا ينجو منه طائر في السماء ولا وحش على الأرض .

(١) أونج أكف من ونج ككرم .

(٢) يعنج يرد ، من العنج وهو رد البعير عند العرب .

(٣) ترهج تثير الغبار .

- (٣) تقع عليه أشعة الشمس ضعيفة لما يحجبها فوقه من غبار ورايات .
 (٤) تصل إليه أشعة الشمس من بين ريش القشاعم .
 وهذا الوصف الأخير (تهويل مغرق) فقد جعل النور لكثرتها فوق الجيش قد منعت الشمس أن تتسرب إليه .
 (٥) يقع عليه ضوء الشمس مدوراً كالدرهم ، إذ يمر من بين النور التي فوقه .
 (٦) لمع سلاحه وهماهم رجاله تخفى عليك البرق وتضم الأذن عن الرعد .
 (٧) يريك هذا الجيش من فعاله بين الفرات وبرقة ضرباً تمشي الخيول عليه فوق الجماجم .

(٨) أبطال هذا الجيش غطاريف ، وقد تعودت أكفهم الطعن بالرماح ، قبل أن تكون لهم معاصم (وهو تهويل ممعن في غلوه) .
 فهذه الأوصاف التي سكبها المتنبي على الجيش شارك في بعضها ابن الرومي في قطعته السابقة عن الجيش الذي أنذر به العباسيين في رثائه ليحيى بن عمر .
 لقد شرح ابن الرومي (صوت الجيش) وأجمله المتنبي . وكلاهما ذكر الشمس ووقعها على الجيش واختلفا في عرض صور الشمس على الجيش ، فابن الرومي يجعل الشمس إذا وقع ومضها على الجيش جعلته يرى كالبحر المتعرج ، ويكتفي بصورة واحدة . أما أبو الطيب فيتناول وصف الشمس على جيش ابن طغج بصورتين :

- (١) امتناع الشمس من الوقوع على الجيش لما يظلمه من الغبار وكواسر الطير .
 (٢) أن الشمس تتخلل ريش القشاعم فتقع على الجيش مستديرة كالدرهم .
 وهو معنى يحبه أبو الطيب ويؤثره في وصف الشمس على الأرض ، وقد جاء به مرة ثانية حين وصف شعب بوان ببلاد فارس ووقوع الشمس على تلك المغاني الطيبة من خلال أوراق الشجر دنانير تفر من البنان .

ولعل أبا الطيب حين مدح أمير الرملة كان مشغولاً بالدرهم فجاءته القافية في تمثيل وقوع الشمس على الجيش (بالدرهم) ، لكنه في شعب بوان — وقد استغنى — صارت تلك الصورة ذهبية في خياله فقرنها (بالدنانير) فقال :

وَأَلْقَى الشَّرْقُ مِنْهَا فِي ثِيَابِي دَنَانِيرًا تَفَرُّ مِنَ الْبَنَانِ

وذكر ابن الرومي في قطعته هذه برق السلاح وفاته الرعد ، فجمع بينهما المتنبي .

أما القشاعم التي نشرت ريشها فوق الجيش — كما يقول أبو الطيب — فقد ذكرها ابن الرومي وعنى بها الطيور العوافى — الطالبة للمعروف — التي تلم بالجيش وهي فرحة هزجة. ومثل ابن الرومي للخيّل بفرسانها كأنها عدد الجراد وعليها رجال كالليوث، ثم رسم صورة لهذا الجيش وهو ملتحم بالأعداء التحامة لم تترك بينه فراغا، ومثلها أبو الطيب ماشية فوق الجحام وعليها الغطارييف الذين تمسوا بضرب السيوف فكان أكفهم ضربت بها من قبل أن يخلقوا.

ولا ينبغي في باب المقارنة بين هاتين القصيدتين أن يكون تعاور الشاعرين على المعاني ذاتها مثلبة لللاحق بعد السابق، إذ ليس بين هذه المعاني سبق ولحاق بعد أن طرقها العرب المتقدمون متفرقة أو مجموعة. وليس على القطعتين من مياسم الجدة سوى الغلو والإغراق الذي لم يعرفه الأوائل. فابن الرومي يمعن في الغلو فيقول: لو وقع على هذا الجيش مطر لتدحرج ماؤه عليه ولم ينسكب على الأرض، تهويلا لكثرة عدد الجيش وتلاحم المتقاتلين وأبو الطيب يغلو فيقول ناسبا إلى أبطال الجيش معرفة بثقاف الرماح (كأنها أسطورة) فأكفهم عرفت الطعن بالرمح قبل أن تنبت في أطراف المعاصم والسواعد.

فإذا فرغت من المقارنة بين المعاني لدى الشاعرين لم يبق لدى من الوجهة الفنية سوى المقارنة بين الديباكتين. فابن الرومي أتى ببعض الغريب مدفوعاً إليه، لا راضياً، لأن قافية قصيدته تدفع الشعر إلى مثل ذلك الغريب. أما لحمة شعره فجاءت — كدأبه في فنه — صافية التركيب سليمة من الركاكة والتزيد، وكذلك قطعة أبي الطيب. وما كان لأبي الطيب وابن الرومي أن يعرض ديابكتيهما على التنقير إلا كل منتطح في الأدب، متزيد في العيب على البارعين. ولا يستطيع النقد أن يفاضل بين القطعتين لأن لكل منهما طابعاً فنياً ومظهراً خاصاً يختلف عن الآخر وإن توافقا في بعض المعاني. وكفى أن يكون ابن الرومي مجيداً إذ كان يصف الجيش على وجه التصور والخيال، ويصفه أبو الطيب على حال الحضور والمعاينة.

* * *

ووصف البحترى الجيش، وأبو عبادة كثير الخيال ولوع بذكر الطيوف يؤثرها بكثير من شعره حتى كاد يسمى (شاعر الأطياف) وخیال (علوة) الحلبية يسرى في أكثر قصائده، فلا عجب إذا وصف الجيش من صورته المنقوشة على (إيوان كسرى).
لقد تمثل جيش كسرى في قصيدة الإيوان حين شاهد صورة أنطاكية على جداره، والظاهر أن كسرى لما بنى إيوانه، أراد أن يسجل على جدارنه مفاخره الحربية ومآثر

جلوده ، فصور له الرسامون صورة الجيش الفارسي وقد غزا أنطاكية فأوقع بالروم . ولا شك أن تلك الصورة التي شاهدها البحترى على الإيوان كانت صورة ملحمة فارسية رومية في (أنطاكية) . ولذلك قال (ارتعت بين روم و فرس) وكلمة ارتعت لا يستعملها مثل البحترى إلا في معناها من الخوف والرغبة التي تعترى المرء وهو يرى الجيش الملتحم . وإلى جانب هذه الصورة التي شاهدها البحترى على جدار الإيوان صورة ثانية تمثل أنو شروان في زحام المعركة وقد رفرفت المنايا على رؤوس المقاتلين من الهول ، وكسرى معمل قيادته يدفع الصفوف إثر الصفوف وهو تحت علمه الأكبر (الدرفس) . فكسرى في بهرة المعركة ، وهذا ليس بكاف في فن البحترى (صاحب التلاوين والتزييق) . ولذلك فقد أفرغ البحترى جعبة فنه على تلك الصور الفارسية المنقوشة فعرضها في نطاق فنه ، فإذا كسرى أنو شروان في لباس أخضر فوق أصفر ، وهو يختال ، وعليه حلة مصبوغة بالورس . وحين قال البحترى إن هؤلاء الأبطال يتعاركون بين يدي كسرى وهم صامتون خافتون لا نائمة لهم ولا جرس ، رجع إلى الصورة الجامدة التي على الحائط ، لكنه سرعان ما حركها بما أوتي من صنعة في التجسيد والتجسيم ، فوصف أبطالها على أنهم (جد أحياء) يهوى أحدهم بالرمح ويصد الآخر الرمح بالترس ، ثم جرد من الخيال حياة ، فتصور الأبطال يتحاربون وهم خرس فأظهر الحركة وأخفى الصوت ، ثم عاد إلى الشك بنظره وشعوره ، فجعل ارتيابه بحقيقتهم سبيلا إلى مد يديه إلى لمسهم ليتقراهم و يعرف حالهم بين الخيال والحقيقة .

إنه يقول في السينية الرائعة :

فإذا ما رأيت صورة أنطاكية — ارتعت بين روم و فرس
والمنايا موائل وأنو شروان — يزجي الصفوف تحت الدرفس
في اخضرار من اللباس على — أصفر يختال في صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه — في خفوت منهم وإغماض جرس
تصف العين أنهم جد أحياء — لهم بينهم إشارة خرس
يغتملى فيهم ارتياي حتى — تقراهم يداى بلمس

ولم يكن البحترى في هذه القصيدة إلا ألعوبة بيد الفن ، فحين زار الإيوان نظم قصيدته فيه على البيان والخيال ، وخلع على الإيوان كله من أبوابه إلى شرفاته روحا منطلقة ،

فإذا الإيوان يخفق بكل ما كان فيه من وقوف في الزحام ووفود متعاقبة وقيان وسط المقاصير .
وقد خرج البحترى من نطاق نفسه وحسه ، فخلط وجوده في صوره وخيالاته ، حتى
اشتبه عليه الأمر فتوهم أنه ينادم على الشراب كسرى ويطربه مغنيه (البلهذ) فقال :
وتوهمت أن كسرى أبرويز - معاطى والبلهذ أنسى
ولم يخل شعر الكثير من شعراء العصر العباسي من وصف الجيش حتى أن بشارا
وهو الذي ليس عليه من حرج في أن يترك ذلك قد جرى في مضمار المبصرين وكاد يسبقهم
حين وصف جيشا حاربه عمر بن هبيرة قال فيه :

وجيش كجنج الليل يزحف بالحصا وبالشوك والخطى حمر ثعالبه
غدونا له والشمس في خدر أمها تطالعنا والطل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه وتذكر من نجى الفرار مثالبه
كأن مشار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وقد مضى القول في قيمة هذا الشعر الحربى عند بشار . وقد ترك بشار الشعراء بعده
ينظرون إلى فنه فيحبون تقليده ، كما فعل ابن المعتز حين وصف الجيش فقال على غرار بشار :
وجيش كمثل الليل تسود شمسه ويحمر من إعناته البر والبحر
وكنى بشارا مؤونه العلم بفن التعبئة العسكرية كلمة (يزحف) فإن فيها كل معاني التعبئة .
والظاهر أن بعض الشعراء كانوا يصطنعون الشعر الحربى ، وهم يعلمون أن وصف
الجيش عنوان هذا الشعر عندهم . فوقع بعضهم بتصنع ظاهر وكلفة مريرة ، فحسبوا أن
ذكر الخيل والسيف والرمح هي التي تثير معاني الحماسة في النفوس كما فعل الناشئ
حين قال :

جيش يفوت الظن حتى لا يرى ما غاب من أنظاره محدودا
وكأنما جعل الإله رواسى الأعلام - أعلاما له وبنودا
وترى وتسمع لمعه وحفيفه فتظن فيه بوارقا ورعودا

وليس وصف الجيش بكاف لمعرفة الفن الحماسي عند الشعراء ، فإن في الكلام على
شعر الحرب عند كل واحد منهم مجالا للنقد والتحليل ، ومندوحة للحكم والتقدير ، وسبيلا
إلى معرفة فهم الحماسي ، والحربى .

الفصل الثانى شعر الحرب الداخلية

١ - سيوف القرامطة

تجوز المؤرخون فى كلامهم على العصر العباسى فسموا من شق العصا على الدولة (خارجيا) ، فكان عندهم الزنادقة العصاة ، والشيعه الغلاة المناوئون ، وأصحاب النحل ومذاهب الإباحه وذوو البغى ، خوارج . ومن هذا القبيل عدوا (القرامطة) رأس الخوارج . بل كان الخارجى عندهم فى أكثر ما يعنون هو (القرمطى) .

وأراهم قد ذهبوا مذهبا غير عادل ، فإن الخوارج الذين فى عصر بنى أمية وبخاصة فى صدر ذلك العصر ، كانوا زهادا مبتهلين ، وعبادا قانتين ، فضلا عما كانوا يتحلون به من الفروسية الباهرة ، والبطولة الحارقة (التي تقدم وصفها عند كلامى على شعر الحرب فى الأدب الأموى) مع الشهامة والمروءة فى أمر النساء والأعراض .

لكن القرامطة - وقد تتبع آثارهم من مناشئ أمرهم إلى ذهاب ريجهم - كان صاحبهم الأول يدعو إلى إمام من أهل البيت النبوى^(١) ، ثم لم يلبث هو وأتباعه وأعقابهم أن صاروا زنادقة ملحدين ولصوصا سفاكين . وهم وإن كانوا على شئ من الشجاعة والبأس ، إلا أنهم كانوا مثالا للجبين والخذلان فى أكثر مواقفهم التى حاربهم فيها العباسيون . فليس إذن من العدل فى التاريخ ، والإنصاف فى الوصف ، أن نعد القرامطة وأمثالهم مثل الخوارج .

لم تكن للخوارج فى العصر الأموى شعبذات وحيل تنجم ونيرنجات يخادعون بها الناس ، وإنما كان لهم السيف لسانا والحرب معوانا ، ولكن القرامطة كانوا أصحاب تلك

(١) الطبرى ج ١١ ص ٣٣٧ .

أول القرامطة رجل من ناحية خوزستان نزل سواد الكوفة مظهرا للتقشف والعبادة ، ومرض فحمله رجل اسمه (كرميتة) على ثور له وجاء به إلى بيته ، فغلب عليه اسم صاحب الثور فسمى (قرميطة) وكرميتة بلغة النبط أحمر العينين ، وكان صاحب الثور أحمر العينين .

الحليل ، فقد روى أن واحداً من أوائلهم وهو (هاشم بن حكيم) لقب (بالنبي المقنع) لأنه كان يضع على وجهه قناعاً من الذهب^(١) فذكر ابن القارح في رسالته لأبي العلاء^(٢) أنه كان «قصاراً أعور فصنع لنفسه وجهاً من الذهب وخوطب برب العزة» .

وظهر من القرامطة (مقنع) آخر في الرملة بفلسطين أيام المعتصم كنيته أبو حرب فوضع على وجهه القناع لئلا يعرف ، وكان أموياً فزعم لجمعه أنه السفيفاني المنتظر ، واتبعه من القرويين والحراثين مائة ألف فأحاط به المعتصم وناجزه الحرب وأسره^(٣) .

والظاهر أن القرامطة كان رؤسائهم مولعين بستر الوجوه ، فظهر منهم (مبرقع) ثالث أيام سيف الدولة ، فالتفت عليه القبائل وافتتح مدائن بأطراف الشام ، فنهض إليه سيف الدولة وحاربه وقتله ، وعاد إلى حلب ورأس القرمطي المبرقع على رحمه^(٤) .

فذكرني وجه الذهب والقناعان بمشابهة مطابقة في حوادث التاريخ الفرنسي . فقد كان الداهية «ريشيليو» ألزم أحد الأمراء ممن كان له الحق في العرش أن يلبس على وجهه قناعاً من الذهب وأبده على وجهه إخفاء له ، وحبسه في إحدى قلاع البحر صرفاً له عن الملك حتى مات صبراً .

وأعلمنا تاريخنا أن من القرامطة (زكرويه) ثم (الحسن) ابنه . وقد نهضا في سواد الكوفة ثم في الشام ، وأن منهم (عليّاً بن أبي هاشم بن صدقة الكاتب) ظهر أيام المعتضد ، وأن منهم الصناديقى البغى الذى ذكره ابن القارح وأبو العلاء في رسالتهما ، وأن منهم القرمطى الخطير (أبا سعيد الجنابى) ، وقد ظهر بالبحرين ، فاستفحل أمره ، حتى هدم المدن وأحرقها وسبى النساء وقتل الأطفال والشيوخ ، وبلغ به الفتك أن وصل إلى مكة فقال ابن القارح «إنه قتل فيها ألفاً واستملك من النساء والغلمان من ضاق بهم الفضاء كثرة وأخذ حجر الملتزم وظن أنه مغناطيس القلوب» ، ونهب المحاريب وجواهر الكعبة وقناديل حرمها^(٥) وقد ملأ هذا القرمطى أوائل القرن الرابع الهجرى بأهوال جرائمه ، وحاربه الخليفة

(١) في الطبرى ٣٣٨/٩ ، ٣٤٢ أن خروجه كان بمرور خراسان ، ثم قتله المهدي فأرسل عليه قائده سعيداً الحرثى . وذكر الطبرى أن اسم المقنع (حكيم) . أما سيد أمير على فيسميه (هاشم بن حكيم) في كتابه (مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى) مصر سنة ١٩٣٨ ص ١٩٩ .

(٢) رسائل البلغاء ط ١٩١٣ ص ١٩٨ .

(٣) تاريخ الطبرى ج ١١ ص ٥ .

(٤) يتيمة الدهر للثعالبى ط مصر سنة ١٩٣٤ ج ١ ص ١٨ .

(٥) صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعيد القرمطى المطبعة الحسينية بمصر ص ٧٠ .

المعتصد فلم يقو عليه ، ولا قدر عليه الخلفاء الذين جاءوا على أثره .
وقد أجمعت كتب الفرق والنحل والأهواء أن هؤلاء القرامطة جميعاً كانوا يستبيحون
المحرمات ، وأنهم غلاة الإباحية ، وهدمة الشرائع ، ينكرون الحياء ويقوضون المجتمع
والأسرة بتعاليمهم الفوضوية الفاحشة ، وآرائهم التي تمت إلى المجوسية ، كما ذكر ذلك
أبو منصور البغدادى^(١) وقد عاصر أواخر حركاتهم .

* * *

فأين هؤلاء القرامطة البغاة من الخوارج الأوائل الذين كانوا يقطعون الليل سجوداً ،
والنهار حرباً لرفع كلمة الله .

أما أشعار القرامطة في الحرب فقليلة ، بل نادرة وكان ينبغي لهم أن يتركوا لمن يبحث
عنهم شعراً في الحروب الكثيرة التي قاموا بها ، وقد كان الدم حللاً لهم ، وإني لأراهم
سفاحين رجمة مولعين بتسكاب الدم فلا يشفيهم إلا إراقتهم ، وليسوا غريبين عن مذاهب
التحليل النفسى المعاصر ، فإن أمثال (فرويد) وأهل فلسفته ينبغي أن يعدوهم من فريق
(الساديين Sadistes)^(٢) وهم المصابون بالسفك واجتراح المفاخش واستباحة الأعراض
والموغلون في رؤية الدم ، وطريقهم أن يبسطوا ويضربوا ولا تبرد غلتهم الجاحدة إلا بإراقة
الدم . وفي المحرمين نفر كثير من الساديين أمثال هؤلاء القرامطة ، وفي علم النفس الحديث
بسطه لوصف هذا الضرب من الناس أصحاب الشذوذ . ولست أستغرب ندرة ما وصل إلينا
من أشعار القرامطة ، فإن الرواة لم يحفظوها تحرجاً وتأثماً فربما تضمنت حضاً على الإباحية
وانتهاك الحرم وبث الإلحاد . فغاضت هذه النماذج من دنيا الرواة كما غاض أكثر الشعر
الذى قيل في مثل ذلك .

من هذا الشعر القرمطى ما قاله كبير القرامطة أبو سعيد سليمان الجنباني وقد كتبه
للمسلمين بعد أن انهزم واعتصم بهجر^(٣) :

أغركم منى رجوعى إلى هجر وعما قليل سوف يأتيكم الخبر

(١) الفرق بين الفرق ط المعارف بمصر عن نسخة برلين سنة ١٣٢٨ ص ٢٧٢ .

(٢) نسبة إلى المركز دو (ساد) وهو فرنسى مشهور في الأدب الشاذ الذى يصف الجرائم . وقد كتب
أدبه صورة عن نفسه التي كانت مملوءة بسفك الدماء واجتراح الفحشاء . وقد سجن من جراء جرائمه وفي سجنه
كتب أدبه الشاذ هذا . ولد دوساد في سنة ١٧٨٠ ومات سنة ١٨١٤ .

(٣) الفرق بين الفرق الصفحة السابقة .

إذا طلع المريخ في أرض بابل وقارنه النجمان فالخذر الخذر
ألست أنا المذكور في الكتب كلها ألست أنا المبعوث في سورة الزمر
سأهلك أهل الأرض شرقاً ومغرباً إلى قبروان الروم والترك والخزر

ويتبين من هذه الأبيات التي تهدد وتصول ، وتحذر ثم تهدد ، بأنها إنذار بحرب لا تبقى ولا تذر ، أن القرامطة كانوا يؤمنون بالتنجيم و (بالرجعة) وهي من المذاهب الباطنية ، وأن سليمان هذا كان يدعى أنه نبي مرسل وأنه مبعوث في سورة الزمر . وقد رجعتُ إلى السورة فتبينتُ أنه إنما أراد بها قوله تعالى « وأشرق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون » . وقبل هذه الآية آية تشير إلى البعث وهي « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » .

إن القرامطة لم يتركوا شعراً حريباً يؤثر عنهم ، وإنما تركوا أخباراً طوالاً في جرائمهم الكثيرة ، وإن خيراً للشعر الحرابي ، وهو مناط الحماسة ومعرض المروءة ووليد الحمية ، أن يخلو من فتك القرامطة ، ووصف بغيهم ، ومراتهم في المظالم والفضال .

٢ - علوى البصرة

وتصوير ابن الرومي لمذبحة الزنوج

أنكر المؤرخون أن يكون (علوى البصرة) على بن محمد الذي ثار أيام المعتمد على الله - منتهى النسب إلى على بن أبى طالب ، فقد وصفوه بأنه كان متحيراً في إثبات نسبه الطالبي .

ولكن التاريخ حفظ لنا أنه كان علويًا ، فعلمتُ نهوضه بالفتنة بسبب مظلمة العباسيين للعلويين ، وأخذهم منهم حقهم الأول في الخلافة .

وعلمتُ إطاعة الزنج لهذا العلوى ، وهبوبهم لندائه ، بما كان يقاسى العبيد من ظلم الرق ، فكانت ثورتهم في وجه أسيادهم حقاً من حقوقهم الإنسانية ، ومطلباً نبيلًا من مطالب الحياة ، على نحو ما ثار بعدهم بمئات السنين زنوج أمريكا في وجه أسيادهم الظالمين وما زالوا يثورون حتى الآن وبخاصة في جنوب أفريقيا . وقد بزغت في النصف الثاني من القرن العشرين ظاهرة الحرية والكفاح من أجلها لدى الشعوب الأفريقية حتى ظفر منها

من ظفر بالاستقلال وما زال الآخر يكافح ويجالد حتى يكتب له الظفر . ولقد علل المؤرخون الغربيون أن قضية الرق في أمريكا كانت من أعظم الأسباب التي أدت إلى الحرب الأهلية بين أهل الجنوب وأهل الشمال في الولايات المتحدة ، تلك الحرب المريعة التي لم تكن تقل في نكباتها وأهوالها عن الحرب الأهلية الإسلامية أيام على ومعاوية ، حتى كتب النصر لجيش الشمال ، فهذأت هذه الحرب ، وكان من أعز ثمراتها تحرير العبيد ، وكسب من جراء تحريرهم أحد رؤساء أمريكا (أبراهام لنكولن) لقب (محرر الرقيق) وكان قبله الرق في أمريكا سوقاً لها نخاسوها ، ولها بضاعتها الإنسانية المزجاة .

لكن ثورة العبيد في أمريكا ، كانت لوجه الحرية فحسب ، ولم تكن مقرونة بدعوة دينية أو مستغلة لغرض سياسى خاص .

أما ثورة الزنوج في البصرة ، فقد استغلها (العلوى) ووجهها في غير ما ينبغى من حقوق الإنسان . إن العلوى عزم في أمره على النهوض في وجه العباسيين وجعل العبيد وسيلة لبلوغ أغراضه السياسية الخاصة . لقد صلى وخطب السودان فأهاجهم على قلب الحكومة ، مستعيناً بفقرهم واستعبادهم ، فأطعمهم بالحرية ، وتمليكهم الأموال والمنازل ، وحلف لهم على نصرتهم^(١) ، فثاروا وتوافوا جمعوا على جموع حتى صاروا عدداً كثيفاً لا قبل لأحد بحربه ، ومعهم كل أهبة الحرب من سلاح ومال وخيل . وقد حازوا ذلك المال والخيل إذ كانوا يراوون البصرة وأنحاءها ويغادونها بالمناوشة والنهاب ، قبل أن يفتكوا بها فتكهم الكبرى ، ثم ما زال العلوى يؤرث بهم نار الثورة حتى قطع بهم الطرق ، وحتى دخل بهم على البصرة فأحرق الدور ، وأنهبهم ما كان فيها أياماً ، وأحرق أسواقها وكلاها . وكان قائده (أبو الليث) يحض الزنوج على المقتلة والحجرة بكلمة (كيلو)^(٢) حتى أفنى المدينة وقتل أهلها ، وهرب من فاز منهم إلى الدساكر والأنحاء القاصية .

وتحولت دعوته الأولى التي كانت مطالبة بالحرية للزنوج إلى سفك دماء ، وانتهاك محارم ، وهدم بلاد ، واستحلال نساء محرمات . وانتهاك أموال . مما لا يأتيه البرابرة والمتوحشون . وانتهى به الأمر بعد هذا الإجرام إلى ادعاء النبوة والرسالة ، فكان قرمطياً فظيعاً . فأعمل العزم في حربه الخليفة العباسي (أبو أحمد الموفق أخو المعتمد على الله) فحاربه أربع عشرة سنة^(٣) حتى استطاع في آخرها أن يقتله فيحز رأسه بعد تقطيع أطرافه ، ولم يستطع أهل

(١) تاريخ الطبرى ج ١١ ص ١٧٧ .

(٢) الطبرى ج ١١ ص ٢٢١ .

(٣) من سنة ٣٥٥ - ٣٧٠ للهجرة (الطبرى ١١ / ٣٢٦) .

البصرة عودة إليها ، واستقراراً فيها ، حتى استراحوا من رزيته (وخسر الزوج قضيتهم)
التي ثاروا من أجلها ، فظلموا أرقاء .

وقد ذكر أبو العلاء المعري أمر العلوي في رسالته إلى ابن القارح فروى له أبياتاً فقال ^(١)
« ما أدفع أن تكون قيلت على لسانه » .

وكيف كان أمر هذه الأبيات فقد أوصلها إلينا أبو العلاء وهي أبيات حربية ،
نفيد منها كنه هذا المذهب الذي نهض به صاحب الزنج ، فهو يقول :

قتلت الناس إشفافاً على نفسي كى تبقى
وحزت المال بالسيف لكى أنعم لا أشقى
فن أبصر مشواى فلا يظلم إذن خلقنا
فوا ويلى إذا مات عند الله ما ألقى
أخلدأ فى جوار الله أم فى ناره ألقى

فنستطيع أن نتبين من هذه الأبيات السهلة التي قيل في سهولتها كثير من شعر المحاربين ،
أن العلوي ينبغي أن يكون قاهناً في أوائل ثورته ، وقبل ادعائه النبوة واشتراعه نهب المال وسبي
العرض . ففيها تظلم وتبرير لسبب قتله الناس ، فهو قد قتل الناس من خوفه الموت على
نفسه لأنه إذا ترك قتل الناس قتلوه . وما أحسب هؤلاء الناس الذين عناهم إلا العباسيين
الذين قتلوا العلويين بالسيف وقتلهم بجرمانهم حق الحكومة والمال ، وجاروا عليهم بصنوف
العذاب والانتقام ، كما جارت النزعات الحزبية الذميمة في عصرنا .

ثم فسر ثورته بأنه قام بها ليحوز المال بالسيف ، فكان له ذلك ، لأن حقه في نعم
الحياة وبقاء العمر حملاه على عمله . ثم توقع لنفسه الموت ، فكان يرى حفته بين عينيه ،
فنصح الناس إذا رأوا مثواه الأخير أن يعتبروا بأمر ثورته ، فلا يظلموا الخلق حقوقهم .
ثم يظهر في بيته الأخيرين خشوعاً لله وخوفاً من ناره . ولعل ذلك كان منه على الحقيقة أول
أمره . أو خداعاً للزوج الذين هبوا معه .

لست بسبيل التاريخ ، فأتبسط في وصف هذه المذبحة من وجهة التاريخ والسياسة ،

ولإنما أنا بسبيل شعر الحرب . وقد أحدثت هذه الفتنة صوراً من صورة الشعر ، إن ضمن بتقديرها التاريخ ، فإن على الفن والأدب أن يعرف لها قدرها . وهي قصيدة من صنع ابن الرومي الذي كان أكثر الشعراء العباسيين طول نفس وإلماما بوحدة الموضوع ، واستقصاء للكلام في الوصف . فهو الشاعر المقتن الذي سجل هذه الثورة الزنجية في شعره بقصيدة طويلة يكنى أن ندرس جانباً منها لتبين موضعه من شعر الحرب في عصر بني العباس . لأنه شعر يصور ثورة حربية لم يشهد قبلها العرب مثلها في حروبهم الأهلية كلها .

بدأ ابن الرومي (ملحمته) عن مذبحة البصرة بوصف أهلها الآمنين فصور كيف بغتهم العبيد بالسيوف ولم يكن لديه أصدق في تشبيه العبيد من ذلك التشبيه الذي اصطلاح عليه كل من رآهم وهو أنهم (قطع الليل) ثم بيت واحد أعطى صورة الحريق الأكبر فقال :

بينما أهلها بأحسن حال إذ رماهم عبيدهم باضطلام
دخلوها كأنهم قطع الليل إذا راح مدلم الظلام
إذ رموهم بنارهم عن يمين وشمال وخلفهم وأمام

وقد أفاد ابن الرومي التاريخ . فإن المؤرخين لم يذكروا أن هؤلاء العبيد الذين ثاروا كانوا عبيد أهل البصرة وخدامهم^(١) ففسر ذلك ابن الرومي فكان قوله (عبيدهم) مؤكدا ما ذهبت إليه من أن هؤلاء العبيد إنما ثاروا على أسيادهم من طول الجور والاستعباد . ثم ينتقل ابن الرومي إلى مرحلة ثانية من قصيدته فيصف أفعال الزوج التي أجترحوها . لقد صور الذين هربوا للنجاة كيف تلقاهم الزوج على وجوههم بالسيوف وكيف كان الأب يرى مقتل ابنه الغالي ، والرضيع الذي ضربوه وهو على ثدى أمه ، والفتيات العذارى اللواتي سبوهن فكانت وجوهن وأقدامهن ملطخة بالدماء . ثم كيف اقتسمهن الزوج بينهم بقسمة السهام . ثم صرن إماء بعد أن كن يملكن الإماء والخدم . وكل هذا لم يذكره المؤرخون بالتفصيل فقال ابن الرومي مفصلاً :

كم ضنين بنفسه رام منجى فتلقوا جبينه بالحسام

(١) يروى بعض المؤرخين أن هؤلاء العبيد كانوا يكنسون السباخ في ظاهر البصرة لكنهم لا يتبحجون في هذه الرواية ، فلم يذكروا علاقة هؤلاء العبيد بأسيادهم ، ولم يعرضوا لفكرة الحرية التي قامت في رؤوس العبيد .

كم أب قد رأى عزيز بنيـه وهو يعلى بصارم صمصام
 كم رضيع هناك قد قطعوه بشبا السيف قبل حين الفظام
 كم فتاة مصونة قد سبوها بارزاً وجهها بغير لثام
 من رآهن في المساق سبايا داميات الوجوه كالأقدام
 من رآهن في المقاسم وسط الزنج - يقسمن بينهم بالسهام
 من رآهن يتخذن إماء بعدد ملك الإمام والخدام

وهي صور تهويلية مثيرة متتابعة ، يزجها ابن الرومي بما وهب من براعة في فن التصوير الشعري ، وكأنه يريد بها أن يستل الرحمة من قلوب من يعطف على فتنة الزوج لمطالبهم بالحرية ، وما أحسب أولئك الزوج قد اتخذوا النسوة البيض لهم إماء ، إلا ثأراً للعبودية وانتقاماً .

ثم جعل ابن الرومي المرحلة الأخيرة من قصيدته وصفاً تهديماً قصور البصرة وتحريق أركانها ، وانطراح القتلى والأشلاء في ساحاتها . وجعل أواخرها حضاً للقوم الكرام على محاربة العبيد الطغام واشترط عليهم الغياث ، فإن قعدوا عن حرب العلوى صاحب الزنج ، فإنهم شركاؤه في اللعنة وفي الآثام فقال :

بذلت تلکم القصور تلالاً من رماد ومن تراب ركام
 سلط البثق والحريق عليها فتداعت أركانها بانهدام
 وخلت من حلولها فهي قفر لا ترى العين بين تلك الأكام ،
 غير أيد وأرجل بائنات نبذت بينهن أفلاق هام

* * *

انفروا أيها الكرام خفافا وثقالا إلى العبيد الطغام
 إن قعدتم عن (اللعين) فأنتم شركاء (اللعين) في الآثام

ويظهر من بيت (انفروا خفافا) أن ابن الرومي نظم هذه القصيدة و (الحرب الزنجية) قائمة بعد خراب البصرة) . وقد ذكر غير ابن الرومي هذا الحادث الجلل لكن أحداً من الشعراء لم يحسن تصويره ووقف الشعر عليه ، كما أحسن ابن الرومي ووقف . وعلى التمثيل

أذكر البحترى فإنه مدح أبا أحمد الموفق وذكر علوى البصرة ، لكنه أضاع شعره فى المدح والاحتيال على معانى الثناء ، تاركاً لباب الموضوع وهو وصف حرب العلوى ومذبحة الزنج^(١) .

وكفى بابن الرومى أن يروح تياهاً بهذا الوصف ، وقد قعد عنه البحترى ، وتاريخ الأدب العربى يعرف ما كان بين الشاعرين من التهاجى والتحاسد من أجل الشعر .

(١) ديوان البحترى ط هندية سنة ١٩١١ ج ١ ص ٢١ .

الفصل الثالث

شعر الحرب الخارجية في الشرق والغرب

١ - فتنة بابك الخرمي

ليس للأدب أن يمعن في السياسة ، فبحسبه أن يعرض للحوادث والفن التي أثارت شعرا حماسيا ذا أثر في - وهو ما يتصل بموضوع هذا الكتاب - فإذا استطعت أن أتبع بالدراسة والتحليل هذه القصائد والمقطوعات من شعر الحرب والحماسة ، التي قالها زعما الشعر الحماسي في عصر بني أمية أبو تمام والبحري فقد بلغت هذه الغاية الفنية في أدب العصر العباسي التي قصدت إليها .

وإذا كان أبو تمام والبحري هما علمى هذا الفن في العصر العباسي الأول ففي دراسة أشعارهما الحماسية كفاء لتبيان موضوعات شعر الحرب في زمنهما ، لأن في قصيد هذين الجبارين أصدق مرآة للحياة الشاعرة ، وأبدع صورة للحماسة العربية والبطولة والفروسية التي تولى بعدها أبو الطيب المتنبي الزعامة فيها .

وأظهر مياسم الحرب في شعر أبي تمام قصائده في الحروب التي وقعت زمنه في شرق العراق وفي غربه .

أما حروب الشرق فكانت فتنة ، كبراها حرب الأفشين قائد المعتصم لبابك الذي خلع الطاعة ، واعتصم بجموعه في أرض (البذ) وإقليم أذربيجان . فقاتله الأفشين . وإنه ليهمي عند الكلام على شعر الحرب في هذا العصر أن أدل على ما كان للعنصر التركي من الخطر في جسم الدولة العباسية بعد العنصر الفارسي الذي ابتلى به العرب زمن بني أمية وصدر الدولة العباسية ، فصارت حياتهم السياسية منوطة بأيدي قوادهم الخطرين كالأفشين . وإيتاخ وبغا ، ووصيف ، وسواهم من الترك . وكان ذلك ذنوب خلفائهم ، فقد استعان المنصور والمأمون بالخراسانية ، واستعان بعدهما المعتصم بالترك . فقويت شوكة هؤلاء القواد الغرباء عن العربية ، وصار الأمر إلى أيديهم ، حتى بات الخليفة حاكما باسمه فحسب . ومن ههنا

بدأ انهيار العهد العباسي من الوجهة السياسية .

وكان بابك الخرمي كغيره ممن نهضوا بالفتن يبدؤون ثوراتهم (بدعوة روحية) فقد تحرك بالثورة منذ عهد المأمون^(١) فكان من أصحاب (جاويزان) بن سهل صاحب أرض (البذ) فادعى أن روح جاويزان دخلت فيه ، وأخذ يضرب في تلك الأصقاع بالعبث والفساد ويهلك الحرث والنسل حتى أصاب أهل خراسان والرى وأصبهان مجاعة ، فتناحروا على الطعام يدفعون عن أنفسهم الموت ، وظل بابك يؤلب الجموع على العباسيين وفيهم الترك والفرس ، وفيهم من نقم على بني العباس . وقد اعتصم بمنطقة الجبال حتى أقص مضاجع العباسيين وأعجزهم أمره زهاء ربع قرن^(٢) ، وهي فسحة من الزمن تكفي أن تتعب دولة في لقاء عدوها مهما تكن مصابرة وجلدة قوية .

وقد حير أمر بابك دهاء المأمون ، بعد أن عجز عن حربه قائده صدقة بن علي المعروف بزريق ، وبعد أن أسر بابك أصحاب « صدقة » الذين كان يوجههم إلى حربه واحداً بعد واحد ومات المأمون وهو عاجز عن بابك^(٣) .

وأعلل عجزه عن إسكات (فتنة الشرق) بما كان آخذاً نفسه به من (حروب الغرب) فإن حروبه المتوالية جعلته يحارب في (جبهتين) على مصطلح عصرنا ، فتشتت قوته وتوزعت هذه الساحات الحربية جنوده ، فعمجز في جميعها . ولما صارت الخلافة بعد المأمون إلى المعتصم تبصر فرأى أنه محاط من جانبيه بما أحيط به أخوه المأمون من « فتنة الشرق » و « حرب الغرب » .

وأراه قد ثقف السياسة الحربية فلم يتعرض لما تعرض له أخوه من النهوض لحرب عدويه في آن واحد ، فأملى للروم ، وجعل حربه معهم مناوشة وصداء ، لامنازة والتحاماً ، حتى استطاع أن يأخذ بابك أخذة واحدة ، فجاء به الأفشين مغلول العنق ، مصفود اليدين ، مكسور الشوكة ، مفلول الجمع .

ولئن تسلم المؤرخون وصف معارك الأفشين ، طاووين الكشح عن بطولة بابك ، فقد

(١) تاريخ الطبري ج ١٠ ص ٢٤٤ .

(٢) كانت قومة بابك الخرمي سنة ٢٠٢ ومقتله سنة ٢٢٣ للهجرة .

(٣) قال أبو المحاسن صاحب النجوم الزاهرة (ج ٢ ص ٢٢٣ ط دار الكتب المصرية)

« إن بابك أفسد مدناً كثيرة في مدة عصيانه ، وأخرب عدة حصون وأباد العالم وعجزت الخلفاء والملوك عنه لفراره ، وطالت أيامه نحو العشرين سنة أو أكثر » .

سار على غرارهم الشعراء فوصفوا الأفشين سيد الحرب وبابك نذلها، ولعلمهم قد فعلوا مثل ذلك مع الأفشين فوصفوه بالنذالة والخبث حين حبسه المعتصم ، لخلعه الطاعة ، ومكاتبته « للماذيار » نائر العجم وقوله له ^(١) : « ومعى الفرسان وأهل النجدة والبأس فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا العرب والمغاربة ويعود الدين إلى ما كان عليه أيام العجم » . وليس يعيننا أن يكون الأفشين تارة في رأى التاريخ بطلا ، وتارة نذلا ، وإنما الذى يهمننا أن نرى إلى صورته في إطار الحماسة العباسية على لسان الشعر ، ومن أجدر من أبى تمام حبيب بن أوس الطائى ، أن يصف لنا حرب الأفشين لبابك ، وكان منها قريباً ، وبها عليمأ ، وعند الخليفة أثيراً .

لأبى تمام شعر كثير في هذه الفتنة ، ولكن أجمعه لوصف وأوعاه لبيان ، هو قصيدته الكبرى التى يهتئ فيها المعتصم بعد صلبه بابك في سامرا .

* * *

إن الأفشين ليعود من حربه فيوجه إليه المعتصم أخاه هرون ليتلقاه بالترحاب ثم ينزله قصره في (الحظيرة) ويخلع عليه ما أثقله بالذهب والجوهر ، ويغنى أهله وأعوانه ثم يتوجه ^(٢) ويريلسه وشاحين بالجوهر ويصله بمليونى درهم ، ثم يعقد له على السند « ويدخل الشعراء عليه يمدحونه » .

ولعل شاعرنا أبا تمام كان خير هؤلاء الشعراء . أما قصيدته الكبرى هذه فيصور فيها أبو تمام ، أول الأمر ، خوف الناس من بابك وسيادة الفوضى الاجتماعية ، إذ عدا الضعيف على القوى ، وعجز الأبطال عن حرب هذا الفاتك فقال ^(٣) :

خاف العزيز به الذليل وغودرت نبعات نجد سجداً للضال ^(٤)
قد أترعت منه الجوانح رهبة بطلت لديها سورة الأبطال

(١) الطبرى ٣٦٧/١٠ .

(٢) الطبرى ٣٣٤/١٠ .

(٣) ديوانه المطبعة الوهية كان العرب ١٢٩٢ هـ ص ١٣٠ .

(٤) النبع شجر صلب كان العرب يتخذون منه القسى والضال شجر طرى لين وهو تعبير بلاغى أراد به الشاعر تمكين المعنى السابق في خضوع الرقيق للضعيف والقوى للضعيف وذكر الشاعر كلمة نجد على التمثيل لأن الضال والنبع من نبات نجد .

وكانت « أرشق » مكاناً جرت فيه الوقعة الأخيرة بين الأفشين وبابك ، فجعل أبو تمام أرشق « يوماً » سيراً على غرار العرب في تسمية الوقائع ، وكان يكثر منه ذلك في شعره الحربى ، فوصف في هذا اليوم المسلمين كيف ساروا إلى حرب عدوهم وهم رجال في جسامهم أسود في قلوبهم .

فطلع عليهم بابك وعانينهم فارتاع ولاذ بالفرار ، واتخذ خدع الحرب فلحقوه في البلاد التى اعتصم بها بعد فراره ، فقال الطائى :

يا « يوم أرشق » كنت رشق منية للخرمية صائب الآجال
أسرى بنو الإسلام فيه وأدخلوا بقلوب أسد فى صدور رجال
لما رآهم « بابك » دون المنى هجر الغواية بعد طول صيال
تخذ الفرار أخا وأيقن أنه صرى عزم من أبى سمال^(١)

ثم صدمته الجنود بعد عسر تعقب وطول جهد فروعته الفوارس وعليها خير السلاح في هضبة (أبرشتويم ودروز) فكان ذلك تألّى الزمان بيوم النصر وكانت الوقعة (بيتاً) فصبر عليها المسلمون حتى كسبوا المعركة . وقد حدد أبو تمام زمن المعركة بأنه كان ليلاً ثم طول النهار حتى الزوال ، وعين يوم اللقاء فكان الخميس ، وكل ذلك زيادة منه في حفاوة الوصف والإحاطة بالصورة ، مما أعده مساعفة في الشعر لحوادث التاريخ ، ودليلاً على تحديدها ، شأنه في أكثر شعره الحربى والروى الذى ساعف التاريخ العربى .
ثم يجعل أبو تمام ملائكة السماء تحارب مع المسلمين . وقد امتاز شعر الإسلام بهذه المعانى الدينية يدعم بها الشعراء إيمان الجنود .

ويروع من أبى تمام وصفه لكتائب الأفشين ، وقد أخذتهم جموع بابك ففتحهم محوا بسيوفها الرقاق وعطفت عليهم الرياح ، فطافت بهم كأنها الرياح .
وقد كان أبو تمام كريماً مع الفتيان الذين حارب بهم بابك فوصفهم بأنهم وإن كانوا كلاباً لأنهم حاربوا مع بابك ، لكنهم ماتوا موت الأسود ، وفي قوله هذا أثر من آثار

(١) صرى بوزن جنى . وصرى عزم أى ثابت العزم وأبو سمال ، أعرابى شرد له بعر فقال يخاطب الله « لئن لم تردّها على لا عبدتك » فأصابها وقد تعلق زمامها بموسجة فقال : « علم ربى أنها منى صرى » أى عزيمة قاطعة ويمين لازمة (اللسان) فيجى معنى البيت إن بابك فر فراراً أقسم فيه لا يلوى . وكانت قسمه في العزيمة والتأكيد كقسم أبى سمال .

المصانعة في الشعر الحربي بما ورثه شعر العباسيين عن شعر الأمويين لكنه كان قليل الخطر في تغيير الحوادث السياسية في العصر العباسي .

وقد أنصف أبو تمام أبطال بابل ، فوصف بأسهم وفروسيهم بما لم يكن يجرؤ عليه شعراء العصر الأموي في التمدح ببطولة أعدائهم .

فقال الطائي في بقية ذلك عن بابل :

هيئات روع روعة بفوارس	في الحرب لا كشف ولا أعزال
يوم أضاء به الزمان وفتحت	فيه الأسنة زهرة الآمال
وسروا بقارعة (البيات) فزُحزحوا	بقراع لا صلف ولا مختال
نزلت ملائكة السماء عليهم	لما تداعى المسلمون نزال
لم يكس شخص فينه حتى رى	وقت الزوال نعيمهم بزوال
فالبد أغبر دارس الأطلال	بيد الردى أكل من الأكال
ألوت به (يوم الخميس) كتاب	أرسلته مثلاً من الأمثال
كم صارم غضب أناف على فتى	منهم لأعباء الوغى حمال
سبق المشيب إليه حتى ابتزه	وطن النهى من مفرق وقذال
قاسى حياة الكلب إلا أنه	قد مات ضبراً ميتة الرئبال

وقبل أن يصور أبو تمام خاتمة بابل أرخ زمن أسره ومقتله ما بين رمضان وشوال ، وجعل الظفر طلع مغارس الرماح فقال :

إن الرماح إذا غرسن بمشهد	فجننا العوالى في ذراه معال
لما قضى رمضان فيه قضاءه	شالت به الأيام في شوال
ثم وصفه مغلولاً منصوباً على (الفيل) يطاف به للتحقير ، ثم صورته مصلوباً .	

٢ - خلو الطوسي

لما أنشد الطائي أبا دلف العجلي باثنية التي مدحه بها فحاز إعجابه ، واختلب له بمعانيها قال أبو دلف :

ادفعوا لأبي تمام خمسين ألف درهم . ثم قال له : ما مثل هذا القول إلا ما رثيت به محمد بن حميد الطوسي بالرائية ، وددت والله أنها لك في . فقال الشاعر :
« بل أفدى الأمير بنفسى وأهلى وأكون المقدم قبله ، فقال له الأمير : « أنشدنى القصيدة ، إنه لم يمّت من رثى بمثل هذا الشعر ^(١) » .

وليت شعري لو رد البطل العظيم محمد بن حميد الطوسي إلى الدنيا ، وقرأ ما قاله أبو تمام في وصف بطولته وذكر حربه لأكب على قبر شاعره في الموصل فلبل بدمعه ثراه . ولودّ لو كان له مقول الطائي بديل سيفه ورمحه فيحسن له الشكر ، بعد أن أحسن به الفخر ^(٢) ، ويعد قليلاً ما فعل ابنه (أبو نهشل) من بعده حين بنى على الطائي قبة على باب الميدان في الموصل ^(٣) إكراماً له لراثته أباه .

أما الرائية التي تمناها أبو دلف أن تكون قد قيلت فيه فقد كاثرت بها من نشر ديوان أبي تمام فقالوا إنها رثاءه (لمحمد) ، وقحطبة ، وأبي نصر بن حميد الطوسي ^(٤) . وكأنهم كانوا يريدون أن يحلوا بأردية الخلود بنى الطوسي الأبطال المناجيد الذين اشتركوا في حروب زمنهم ، فكان منهم نفر في حرب بابك ، ونفر في حروب الروم ، وكان من نصيب (محمد بن حميد) أن يقتله بابك الخرمي ^(٥) . ولولا أن في القصيدة ذكراً لمحمد وحده لعدتها قصيدة قيلت في الجندی المجهول الذي قتل في سهوب خراسان ، يتنازع شرقها ألوف من الأبطال الشهداء .

فلتنبأ إذن روح محمد ، ولتقر عيناً في محشرها عند الشهداء ، فإن أبا تمام خلع عليها حلة لا تبلى :

إن محمداً هذا الفتى ، مات في حرب جبارة . ولعله فاته فيها أن يكون منصوراً فقهرته السيوف وهي تقطعه ، والرماح وهي تطعنه ، لكنه مات ميتة الأبطال ، منصوراً في زحام

(١) أخبار أبي تمام للصولي ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٣٧ ص ١٢٥ .

(٢) أقام المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، مهرجاناً حافلاً في دمشق تخليداً لذكرى أبي تمام وكان له يومان مشهودان أقيمت فيهما القصائد في أدبه وشعره ، وألقى مؤلف هذا الكتاب في هذا المهرجان قصيدته (ذكرى حبيب) في أبي تمام حبيب بن أوس الطائي ونشرت في (المجلة) عدد أكتوبر ١٩٦٠ بالقاهرة .

(٣) هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام للبديعي ط مطبعة العلوم بمصر سنة ١٩٣٤ م ص ٤٩ .
وقد أقامت حكومة العراق في زماننا حديقة في الموصل حول قبر الطائي وجعلته في ضريح جليل مثل شعره .

(٤) ديوانه ط بيروت ١٨٨٩ م ص ٣٢٩ وط مصر ١٢٩٢ هـ ص ٢١٤ .

(٥) تاريخ الطبري ، حوادث سنة (٢٢٣) ج ١٠ ص ٣٣٣ .

قهرة ، وفوات نصره ، وما مات محمد حتى تكسر سيفه بيده ، وأحاطت به الرماح فمات شريفاً ، وإنه لبين شدى الموت فيبصر بمنجاة وفرار ، لكن عقله يزجره عنهما ، فيرده إلى الحرب وإلى الموت ، وذلك هو الحفاظ المر والخلق الوعو ، اللذان ركبا فيه . وإن نفسه لأبوية ، فن شأثلها أنها تعاف العار يوم المعركة ، وترى الإقدام إيمانها ، والفرار الذى هو العار كفرة .

فإذا فعل محمد بن حميد وهو فى شدى الردى ؟

إنه ضرب برجله الثرى فأثبتها فى مستنقع الموت ، ولم يزحزحها عنه ، وكأن رجله تكلمت وحاورته فقالت : « علام وقفتنى فى حومة الوغى ومبرك الجراح » فقال لها : « من تحت أخمصك الحشر » .

وكيف يكون من تحت أخمصها الحشر ؟

إن مستنقع الموت هو الجثث التى تكدست حتى نفعها ثراها فى حمأة من الدم ، فهناك أثبت المغوار قدمه ليسلك ذلك السبيل فيرتد فى أطباق الثرى بين جثث قتل هو أصحابها . وترمّ عظامه ، وتجول الأدهار ، فينبت يوم الحشر من مكان قدمه ...

وعجى للطائى أكان يريد أن يقول إن محمداً دفن وهو بطل ليبعث فى لأمتة ومفاضته ، عليه سلاحه وبيده حسامه فيعيد الحرب جندة كما كانت : (فيكون الطائى أشعر الناس فى الحماسة) ؟

وملك الطائى سحر الصور ، وإفتن بالألوان ، فأرانا محمداً أسقط مضرجاً بدمه فى ساحة المعركة ، وجاء عليه الليل فأحال ثياب موته الحمر التى يلبسها الأبطال سكان الدنيا ، إلى ثياب زاهية خضر من سندس وهى لباس الشهداء فى أهل الخلود .

فيا لهفة عليه من بطل دار القدر بخيله وحربه ، فسلبته الخيل بعد أن كان يحميا ، وأحرقته نار الحرب وكان يصلها .

وإن السيوف البيض ، وكانت زمنه باترة ، صارت بعده مبتورة حزناً عليه !

* * *

ففى مات بين الضرب والطعن ميتة تقوم مقام النصر إن فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السمر

وقد كان فوتُ الموت سهلاً فردّه
ونفس تعاف العار حتّى كأنّما
فأثبت في مستنقع الموت رجله
تردى ثياب الموت حمراً فما دجا
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها
وقد كانت البيض المآثي في الوغى
إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
وقال لها من تحت أخمصك الحشر
لها الليل إلا وهي من سندس خضر
وبزته نار الحرب وهو لها جمر
بواتر فهي الآن من بعده بُتّر

لقد حق لأبي دُلْف أن يتمنى لو قيل هذا الشعر الحماسي الرائع فيه ، فحسد عليه وهو حى ، صاحبه وهو ميت . وكان أبو دلف عظيم قواد ومِدْرَه حرب ، في زمن المأمون والمعتمد^(١) فما نفعه مديح يقول الطائي مثله كل يوم في غيره . فلقد مدحه بكرم الوفاة وطيب الأصل وأطال وما فيهما لمثله غنى . إن أبا دلف كان يريد أن يخلده الطائي بذكر حروبه وشجاعته وإقدامه وبأسه ، وهو الذى طعن في حرب من حروبه فارساً فأنفذ الطعنة إلى فارس آخر من ورائه .

هذه هي المآثر التي كانت أشقى لروح الأمير البطل أبي دلف لو لحظ الطائي وفهم ، وأحسب أن الحياء غالب أبو دلف عن التصريح ، وشغل عطاؤه أبا تمام عن فهم معاني التلميح .

٣ - فتح عمورية

كانت فاجعة (زبطرة) على أيدي الروم سبباً في فتح عمورية ، بل كانت جواب انتقام صاعق رد فيه (المعتمد) على « تيوفيل » بن ميشيل الثاني إمبراطور بيزنطة . وكان كل من الخليفة العباسي أمير المؤمنين ، وعاهل الروم ، يرى الآخر ألد الخصوم . فالبلاد وقد كانت للروم قبل فتح الإسلام ، تركت الروم بعده ناقمين على ضيعة الأرض ، مرتاعين من سطوة أهل الدين الجديد . والمسلمون وقد فتحوا الأمصار وأقاموا شعار الدين لزمهم الجهاد لنشره وتنشيت أركانه ، فكان حتماً لزاماً أن يظل الصدام بينهم وبين الروم زمناً متطاولاً ، أرخى كلا كله على شواطئ الحوض المتوسط منذ سار « الصحابي » « ميسرة بن

(١) هبة الأيام الطبعة السابقة ص ٩٣ .

مسروق» وهو أول مجاهد في الإسلام «أطلع درب الروم من المسلمين»^(١).
 وكان من أوليات الشعر الحماسي ، الذي قيل في حرب العرب للروم ما قاله أسعد
 الكامل ، في رواية عبيد بن شرية وكان من الفرسان الشعراء^(٢) .

وغسان حازوا بلدة الروم كلها وفي الروم صيرنا الملوك الأقالوا
 فدوخت أرض الروم حتى تركتها ثانيا طحون علوها والأسافلا

وليس على من حرج إذا ارتأيت أنه كان على المسلمين في فاتحة الفتوح أن يتموا
 الجهاد في اكتساح البلاد حتى شواطئ بحر اليونان فتكون القسطنطينية في حوزتهم وما والاها
 من جوار البلاد في الأناضول فلا تقوم للبيزنطية نامة في بواقي العهود ، وينقطع دابر التناوش
 الذي ظل بين بلاد الإسلام وبلاد الروم على الثغور منذ عهد الراشدين إلى أواخر الحروب
 الصليبية . وكانت ضحاياه لا تحصى وسباؤه ونهبه في حدود التهاويل غير التحريق والتدمير .

يلخص « فاسيليف » فاجعة « زِبْطُرة »^(٣) مستعينا بمؤرخي العرب كالطبري وابن
 الأثير^(٤) ، لكنه يذكر أموراً فيها زيادة خطرة قد استقاها من المصادر البيزنطية ، فقد
 روى أن تيوفيل إمبراطور الروم — وكان القائد الأعلى للجيش البيزنطي — جهز جيشاً في
 سنة ٨٣٧ للميلاد من مائة ألف مقاتل فيهم بلغار وروس ، وفيهم فرس أتباع «بابك الخرمي»
 هربوا إلى بلاد الروم بعد اندحاره فجاء هذا الجيش إلى « زبطرة » ، وكانت زبطرة على الخط
 الذي يفصل بين الإمبراطوريتين العربية والبيزنطية ، على مقربة من بلدة « الحدث » وكان

(١) جاء ذكر ميسرة بن مسروق في تعليقات ولیم ناسوليس الإيرلندي على فتوح الشام للواقدي طبعة كلكتة:
 سنة ١٨٥٤ س ١٥ نقلا عن كتاب الإصابة .

وقد غلط ناسوليس فليس في الإصابة ذكر لميسرة بن مسروق وإنما الذكر لمسروق وحده فقد أرسله أبو عبيدة
 ومعه علقمة بن حكيم إلى دمشق وفلسطين وشهد حرب اليرموك وكان أميراً على بعض الكراديس (الإصابة الطبعة
 الشرقية بمصر ١٩١٧ ج ٥ ص ٨٨) .

ولكن الذي ذكر ميسرة هذا هو صاحب (أسد الغابة في معرفة الصحابة) طبعة جمعية المعارف المصرية
 سنة ١٢٨٦ (ج ٤ ص ٤٢٦) فقال إن ميسرة بن مسروق العبسي أحد التسعة الذين وفدوا على الرسول صلى الله
 عليه وسلم من بني عبس وقد خاطب الرسول لما حج حجة الوداع وحسن إسلامه وكان له عند أبي بكر منزلة حسنة .
 (٢) ص ١١ من تعليقات ناسوليس على الواقدي (السابقة) .

(٣) Sozopetra

(٤) تاريخ الطبري الطبعة الأوربية ج ٢ ص ١٢٣٤ . الكامل لابن الأثير المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠١

فيها المسلمون ، ففتحتها تيوفيل ، وأهلك أهلها وسبهاها ، ثم أحرقتها واسترق نساءها وصبياتها فساقهم إلى القسطنطينية ، وكان في جيشه جماعة من الأكراد الصابئين ففتكوا فتكاً ذريعاً بالمسلمين ، وكان اسم قائدهم « نصرا »^(١) وأنه لما قفل تيوفيل بالغنيمة إلى بلاده ، هرب من زبطرة جمع من المحرقة دورهم والمسلوبين ، وساروا حتى بلغوا قصر الخليفة المعتصم في سامرا ، فلما بلغ الخليفة الخبر قفز إلى ظهر جواده ، وأعطى الأمر بالنفرة من ساعته وتوارى نحن على شبهه ذلك من الوصف ، إلا أنها تزيد في هذه الحادثة فتذكر امرأة عربية من أهل زبطرة صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم^(٢) :

— وامعتصماه !

فلما بلغ المعتصم استغاثتها وهو يجالس على سريره صرخ .

— لبيك لبيك . .

وصاح في قصره ، النفير النفير « ثم ركب جواده وسَمَطَ خلفه شيكالا وحديداً وحقيقية فيها زاده ، ثم عباً العسكر وجمعهم في " دار العامة " »^(٣) وأحضر قاضي بغداد وثلاثمائة وثمانية وعشرين رجلاً من " العدول " فأشهدهم على ما وقف من الضياع ، وما يجب أن يصير بعده من أمر الخلافة « وهذا دليل على صدق إغاثته ، وثبته الخالصة لنصرة العرب والمسلمين .

وقد طاف خيالاً بهذه المرأة التي صاحت في أرجاء زبطرة وهي تساق مع السبايا والرجال المصفودين ، في صف طويل نحو بلاد الروم ، يحرسه فرسان بيزنطيون شداد جلال ، وبأيديهم السياط . بحث عنها فلم أجدها شفاء لغايل ، فإن اسمها عند ياقوت بمعجم البلدان (شراة العلوية) وهي عند أبي الفداء في تاريخه وعند ابن الأثير في الكامل « امرأة هاشمية » . ولم يأبه لها فاسيلييف وسواه ممن رأيت تاريخهم للمعارك العربية الرومية .

* * *

(١) يشير فاسيلييف وشارحوه إلى أن اسم (نصر) هذا قد اختلف فيه فقد كان العرب الذين معه ينادونه برسيس أو نريسيس وهو theophobe بالرومية وأن اسمه في الفارسية المزوجة بالأرمنية (نرس) . هامش ص ١٣٨ رقم ٣ من كتاب (Byzance et les Arabes) وفي هذا إيضاح لتحقيق شخصيته التي أذكرها في البحث القابل

(٢) تاريخ أبي الفداء المؤيد الطبعة الأولى الحسينية بمصر ج ٢ ص ٣٣ .

(٣) يذكر فاسيلييف أن الخليفة المعتصم أمر بنقش اسم عمورية في هذه الحملة على تروس الجنود وكتابة اسمها في أعلامهم ، وأجد ذلك منه تمكيناً لفكرة حربه ونهوضه إلى غزو بلاد بيزنطة وكانت عمورية قاعدة عزتها التي منها صدرت الأسرة العمورية بأباطرة الروم وولد بها تيوفيل نفسه الذي سار إليه المعتصم يحاربه في بلاده .

(٤) مادة عمورية .

و شاء المؤرخون البيزنطيون — كما يقول فاسيليف — أن يصبغوا ثأر المعتصم حين فتح عمورية (صبغة انتقامية) لنفسه لا للعرب ولا للإسلام . فرغموا أن زبطرة بلد المعتصم التي ولد فيها ، وأنه قوض مدينة عمورية لأنها كانت دارة الأباطرة الروم وبيت كرسيهم ، وحمى بطارقهم ، ولأن الأسرة العمورية البيزنطية التي حكمت قسطنطينية وكان منها « ميخائيل الثانى وتيوفيل وميخائيل الثالث » ولدت فى عمورية مثلما ولد المعتصم فى زبطرة . وفات فاسيليف أن يدعم رده على المؤرخين البيزنطيين بحادثة المرأة الهاشمية ، وبأن المعتصم داهية السياسة كان يتهاى للفتك بالروم منذ استراح من بابل ، كما أسلفت الإشارة إلى ذلك ، فقد سأل بعد ظفـره ببـابك^(١) « أى بلاد الروم أمنع وأحصن ، فقيل عمورية لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام وهى عين النصرانية وبُنكها^(٢) » ، وهى أشرف عندهم من القسطنطينية » .

* * *

عرّف المعتصمُ التاريخَ بحذقه فى السياسة وفن الحرب فجهاز جيشه وأحسن تعبيته ، وكان معه أقوى قواده وأبرعهم . فكان معه : الأفشين ، بغا ، أشناس ، عمر الفرغانى . أحمد بن خليل بن هشام ، عبد الوهاب بن على ، عجيف بن عنيسة ، جعفر بن دينار ، عبد الله بن الخياط ، وصيف ، محمد كوتاه .

وقد قسم جيشه كراديس على كل فريق واحد من هؤلاء القواد ، وجهزهم بالأنقال والزاد والسلاح ، وجعل نفسه على فريق ، وسير بين يديه الطلائع ، وكانت خطته الحرية أن يهدم (أنقره) قبل (حصار عمورية) إذ كانت عمورية فى بهرة الأناضول ، وأنقره فى شمالها إلى الشرق ، بمثابة حصن لها وملجأ .

ولولا أن حق الكلام لأبى تمام فى وصف حصار عمورية وفتحها ، لأرسلت الوصف على أسوار عمورية وأبراجها ، فصورت كيف دكها المعتصم بكتائبه وجيوشه ، وكيف ذل له كبير قوادها «البطريق ياطس» وكيف ألح عليها أمير المؤمنين بالمجانيق والعراصات والحملان

(١) تاريخ الطبرى ٣٣٥/١٠ .

(٢) بنكها أى أصلها .

(٣) الحملان Beliers وهى أعمدة من خشب تُخزن رأسها على هيئة رأس خروف كان يستعملها العرب والروم لذلك الحصون ، يحملها أفواج أثر أفواج ، فيتأخرون بها عن السور خطى ، ثم يهجمون هجمة رجل واحد راكضين وقد اسدودها إلى حجارة فى صدر السور فلا يزالون كذلك يلحون بالنطح وبالصدم حتى يتداعى السور ويتشفر

والدبابات حتى ذلك حصونها وثل بروجها ، وأحسن التأديب للروم والانتقام منهم ، ثم عاد إلى سامرا عود المنقذ الأعظم والقاتح المنصور .

ولست أفصح المجال لأبني تمام في وصف فتح عمورية قبل أن أذكر أسرى الروم وما حدث في الحصار (مما لم تذكره كتب العرب البتة ، وإنما ذكرته كتب البيزنطيين ونقله فاسيلييف) وقد دام حصار المسلمين لعمورية خمسة عشر يوماً^(١) في شهر آب سنة ٨٣٨ للميلاد^(٢) . ويقول فاسيلييف^(٣) كان يدافع عن عمورية (خمسون قائداً بيزنطياً)^(٤) قتل أكثرهم منهم :

ياطيس Aetius

البطريق تيوفيل Théophile

الخصي القائد تيودور المعروف بالقوي Théodore

القائد قسطنطين Constantin

القائد بازوئيس Basoés

الرئيس كاليستوس ميليسينوس Kallistos Mellissenos

وأن الذين قتلوا من الروم بلغوا سبعين ألفاً . وأن الكتاب البيزنطي المسمى ، حياة القديس آغوروس Agauros وكتاب ، نيقيتان ، المسمى الصلح الثاني والستين لشهداء

والدبابات استعمالها المعتصم في هذا الحصار ووصفها الطبرى (ج ١٠ ص ٣٤٠) فقال « وعمل المعتصم دبابات كباراً تسع كل دبابة عشرة رجال ، وأحكمها على أن يدرجها على الجلود المملوءة تراباً حتى يمتلئ بها الخندق . والظاهر من وصف الطبرى أن الدبابات حصون منقلبة سيارة وهو وصف يطابق مصطلح عصرنا في دبابات حروبه المسماة (tank) أو السيارات المصفحة .

(١) يقول الطبرى (ج ١٠ ص ٣٤٣) وغيره من مؤرخي العرب إن المعتصم قفل بعد إناخته على عمورية بخمسة وخمسين يوماً وذلك في رمضان سنة ٣٢٣ للهجرة (ولم يذكروا أيام الحصار) .

(٢) في المصادر البيزنطية التي كتبها ميخائيل السورى Michel le Syrien والمؤرخ الرومى جينيوس Génésius فيما يروى فاسيلييف أن رجلاً من الروم يرفده آخر يسمى مانيقوفاغوس المنجم Manikophagos تلميذ (إليون) الفيلسوف قد شك رسالة في سهم وأرسله إلى عسكر المعتصم ، فوجد المعتصم في هذه الرسالة أن اخطأوا السور من صورة الثور الحجرى المنحوت على وجه من وجوهه ومن جهة الأسد الرخامى ، ففعلوا ذلك فتداعى السور . (هامش ص ١69 من كتاب فاسيلييف Byzance et les Arabes .

(٣) ص ١٧١ من كتابه السابق .

(٤) ويذكر فاسيلييف أنه كان لعمورية أربعة وأربعون برجاً محصناً .

عمورية ، acta Sanctorum Martiti يذكران أهوالا مما لقي الروم في عمورية^(١) ، وما ذاق أسراهم من عذاب وتنكيل ، وأن القائد اليوناني ديجينيس أقريطاس Digenis Akritas نظم أشعارا يبكي فيها مصرع أنقرة على أيدي العرب ويذكر نكبة عمورية .

* * *

والآن فلأدع شاعر الحروب الرومية في عصره أبا تمام الطائي يصف لنا بقوله العبقري وفنه المصور ، كيف كان أمر عمورية بين المسلمين وبين البيزنطيين .

وصف أبو تمام ما كان من أمر المنجمين الذين رأوا طوابع حرب عمورية قبل أن يثب المعتصم إليها ، وقد حقق المؤرخون ذلك التنجيم ، فروى السيوطي أن المعتصم لما تجهز لغزو عمورية ، حكم المنجمون أنه طالع نحس^(٢) ، فلم يعبأ بذلك المعتصم ، كما يدلنا شعر أبي تمام الذي بدأ بأبيته الكبرى به فهكم بطوابع المنجمين يعلمهم أن القول للوابع الرماح لا لسوابع النجم :

والعلم في شُهْبِ الأرماع لامعة بين الحميسين لا في السبعة الشهب
وكر على المنجمين بأبيات تهدم شعبذتهم ، وأحاديثهم الملفقة ، وكذبهم على الناس .
بما يزخرفون من القول في أبراج الكواكب .

استفتح الحماسة الرومية بوصف الفتح الذي تتعايا عليه الخطب ولا يحيط به الشعر :
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب
وانطلق يرسم بمياسمه الفنية مراحل هذه الوقعة فأجمل الحكم بفوز المسلمين واندحار المشركين فقال :

يا يوم (وقعة عمورية) انصرفت عنك المني حُقْلاً معسولة الحلبِ
أبقيت جسد بني الإسلام في صمد والمشركون ودار الشرك في صيب
ثم مثل عمورية بغادة سافرة الحسن تأبت على الأزواج والخطاب ، فلم ترض بكسرى
بعلا ولا بملك التبابعة ، وما تزال من عهد الإسكندر في ميعة الصبا وذلك كناية عن أن

(١) يحقق فاسيلييف أن عمورية Amorium قد أصبحت اليوم ضائعة الأثر إلا بقايا منها تسمى (القصر) وأن عن يمينها وشمالها تقوم قريتان إحداهما (حاجي عمر) والثانية (حاجي حمزة) .
(٢) تاريخ الخلفاء لجلال السيوطي ط الباب الحلبى بمصر سنة ١٣٠٥ ص ١٣٢ .

عمورية كانت — كما سلف ذكره — بيضة الروم ، وموئل ملوكهم ، وكانت حين وصفوها للمعتصم في معزل ، فلم يقصدها أحد من الفاتحين .

وأنتج أبو تمام وصف هذه المرأة التي مثل بها عمورية ، بأن أختها (أنقرة) قد عدتها فلم يكد الخراب يدب إليها حتى دب إلى عمورية ، فكان لها أعدى من الحرب :

وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها كسرى وصدت صدوداً عن أبي كرب^(١)
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد شابت نواصي الليالي وهي لم تشب
جرى لها الفأل نحسا يوم (أنقرة) إذ غودرت وحشة الساحات والرحب
لما رأت أختها بالأمس قد خربت كان الخراب لها أعدى من الحرب

ونحن نسامح شاعرنا العظيم ، فقد كان قبل حين ، يتهمكم بالمنجمين ويرميهم بالتخرص ، فما باله الآن يقول بالفأل وأنه جرى نحساً لعمورية فهدمت كما تهدمت أنقرة ؟

لكنه بعد ذلك يعرض علينا تهاويل من الصور فإن عمورية أحرقتها أمير المؤمنين بيوم لاهب ، ذليل الصخر والخشب ، فإذا ليلها الأفحم ناصل اللون ، أو أن الشمس طلعت في سواده ، ثم يضاعف هذه التهاويل ، فيلف الظلام بالدخان ، والنار بالضياء . كل هذا تصوير للحريق الذي أخذ عمورية فبدل ليلها نهاراً :

لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار يوما ذليل الصخر والخشب
حتى كأن جلايب الدجى رغبت عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

وبعد أن نفدت تلاوين أبي تمام في الليل والنهار ، والشمس والظلام ، وصف تهم عمورية وصغارها ، وبمناجاة منظرها ، وحط فكرة هذا المصير في هذا البيت :

لم يعلم الكفر كم من أعصر كنت له المنيّة بين السمر والقضب
ثم غالبه فنه الخاص فقال :

تدير معتصم بالله منتقم لله مرتقب في الله مرتغب

وبذكر المعتصم يصب الطائي عليه كل صفات الحماسة فيجلوه بطلا غدى الحروب ،

(١) أبو كرب هو أسعد بن مالك الحميري اليمني وكان ملكاً من ملوك التبابعة .

وباقعة الجيوش . جيش الرعب يسبق إلى البلاد جيشه ، وهو وحده جيش .

لم يغز قوماً ولم ينهض إلى بلد إلا تقدمه جيش من الرعب
لو لم يقدر جحشاً يوم الوغى لغداً من نفسه وحدها في جحش لجب
وقد تمهل الطائي فأبطأ ، فأين حصار عمورية ؟ وأين البطارقة على أبراجها ؟ وأين عديد
الروم وعدتهم فيها ؟ إن أبا تمام يُجمل كل هذا فيقول للمعتصم :

رمى بك الله برجيهما فهدمها ولو رمى بك غير الله لم تصب
من بعد ما أشوها واثقين بها والله مفتاح باب المعقل الأشب
والطائي يأبى أن يخل الشعر من الحكمة ، فقال بعد ذلك :

إن الحمامين من بيض ومن سمر دلوا الحياتين من ماء ومن عشب^(١)

وهو معنى لا يوجد بمثله إلا صبور على الحكمة ، متمرس بالعقل والخيال ، يجعل
الرماح والسيوف أشطان بئر يتدلى منها دلوان يمتاحان الماء ، وبسبيلها يكون العشب الثابت
بعد الإرواء .

وليس من عجب — على الرغم من صنعة أبي تمام — أن يكون الحمام سبب الحياة ففي
الموت الحياة .

وتهتف (المرأة الهاشمية) التي صاحت بزبطرة وبلغ صدى هتافها إلى مسامع أبي تمام ،
فيلبها بشعره ، واصفاً أمير المؤمنين كيف لبأها بإهراق كأس الكرى ، والصدوف عن
مراشف الغيد العراب .

لبيت صصوتا زبطرياً هرقت له كأس الكرى ورضاب الخرد العرب

وبعد أن لبى صوت الزبطرية فعاف من أجلها ثغور الغيد ، مؤثراً ثغور الروم ،
مصلتها سيفه الذي أجاب به النداء ، ذلك بيضة الشرك وقوض خيمته فترك عمودها منعقراً ، ولم يعرج
على أوتاد الخيمة وأطنابها ، لأن الخيمة بعمودها ، وإذا تقوض لم يبق بعده للأطناب
والأوتاد من ذكر . وهي (معان رمزية) في حماسة أبي تمام يريد بها أن المعتصم عمد إلى
دائرة الشرك البيزنطية فهدمها ، ولم يعرج على قراها التي حولها أو دساكرها فقال :

حتى تركت عمود الشرك منعقراً ولم تعرج على الأوتاد والطنب

(١) في نسخة المطبعة الأدبية لديوان أبي تمام سنة ١٨٨٩ بيروت ورد : دلا الحياتين من ماء ومن عشب .

وأعتقد أن أبا تمام كان يعبأ بحوادث التاريخ في شعره ، ولم يكن ليتسامح فيها ، إذ كان يتخذ منها وسائل لتلوين معانيه ، وتخليد شعره ، فيربطه بالقيم التاريخية التي لا تنسى . فهو يذكر أن (تيوفيل) صاحب الروم حين رأى جد الحرب بذل المال لوقف جريها ، ولكن الحرب ذات التيار والعيب قد غلبته وكانت الجارفة .

ولم يذكر أبو تمام وقت هذا (البذل) وأراه ليس واقعاً في إبان الحصار والفتح ، وإنما كان بعد ذلك ، أى بعد فراغ المعتصم من عمورية ، وعزمه على الرحيل ، لأن مؤرخي العرب لم يذكروا أن تيوفيل حاول الصلح أثناء الحصار ولا روى ذلك البيزنطيون ، فأنا أجد فاسيلييف يذكر^(١) أن المعتصم بعد إنزاله الرزية^(٢) بعمورية عرض عليه تيوفيل صلحا ، فوجد نفسه مضطراً لقبوله ، لأن الأفشين كان بدأ بعصيانه ، وقد (تبودلت الأسرى) بعد ذلك بين الروم والمسلمين سنة (٨٤٥ م ٣٢١ هـ) وافتدى تيوفيل قريبه (قسطنطين بابوتزيكوس) .

وزيد فاسيلييف فيقول : إن تيوفيل ملك الروم أرسل في تلك الفينة المحزنة إلى المعتصم ، سفيراً من قبله ، هو (بازيل) بطريق خرشنة يطلب السلام وفكاك (ياطس) وقدم للمعتصم جزية لكل أسير عمورى مائتي (سانتوناريا)^(٣) فرفض المعتصم طالباً تسليم (نصر الكردي)^(٤) الذى تنصروا حاربه معهم ، وتسليم (مانويل) وكان مانويل قائد جيوش البيزنطيين في حرب العرب .

ويذكر الطبرى^(٥) « أن ملك الروم وجه رسولا في أول هجمة المعتصم على عمورية فأمر المعتصم أن ينزل الرسول على موضع الماء الذى كان الناس يستقون منه ، وكان بينه وبين عمورية ثلاثة أميال ، ولم يأذن له في المصير إليه حتى فتح عمورية ، فلما فتحها أذن له في الانصراف إلى ملك الروم فانصرف وانصرف المعتصم يريد الثغور » .

فيتين من رواية الطبرى أن رسول ملك الروم لم يتسن له أن يكلم المعتصم قبل الفتح وقفل بعده من حيث جاء ، ويظهر من رواية فاسيلييف ، أن تيوفيل (عرض صلحا)

(١) ص ١٧٤ ، ١٧٥ من كتابه السابق ، بالأصل الفرنسى .

(٢) يسمى الفرنجة غزوات المسلمين للروم في هذه البرهة Razzia رزية .

(٣) عملة بيزنطية .

(٤) وهو رأس الحمرة الذين فروا إلى الروم وكانوا يحاربون المعتصم مع بابك في منطقة الجبال .

(٥) ٣٤٣/١٠ .

بعد فتح عمورية ، وأن المعتصم قبل هذا الصلح مضطرا . وقد توسط أبو تمام بين الروايتين فقال :

لما رأى الحرب رأى العين (توفلس) والحرب مشتقة المعنى من الحرب^(١)
غدا يصرف بالأموال جريتها فعزّه البحرُ ذو التيار والعَبَبِ
ويتضح بعد ذلك من قول الطائي أن تيوفيل بعد أن خاب في بذل المال لوقف الحرب
هرب وهو أخرس الحجة فقال عنه :

ولى وقد أُلجم الخطى منطقه بسكته تحتمها الأحشاء في صخب
وبعد أن ذكر الطائي صورة تيوفيل الهارب ذكر عدد القتلى في وقعة عمورية :
تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب
وكان الموسم موسم دخول على الصيف - كما يظهر - من نضج التين والعنب .
وعاد الشاعر الشامي إلى ذكر الحرب ، وقد عاوده خاطر المرأة الهاشمية « المخدرة
العذراء » التي كان لإنجاده سبباً في هذه المعركة التي جثا فيها الرجال على الركب من الهول ،
والحرب قائمة في المأزق الحرج :

والحرب قائمة في مأزق لب تجشوا الرجال به صغراً على الركب
كم كان من قطع أسباب الرقاب بها إلى (المخدرة العذراء) من سبب
ولئن كان من عادة شعراء الحماسة أن يمزجوا الحماسة بالمديح ، فإن الطائي قد يترك
المديح إلى أواخر القصيدة ؛ كمدحه للمعتصم في آخر هذه البائية الخالدة ، وقد أبت عليه
حكيمته المتعددة إلا أن يحط في هذه الأواخر درة من دررها (فجعل الراحة الكبرى لا تنال
إلا على جسر من التعب) فقال :

خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب
وترك أعين الزمان رواصد لهذا المعنى حتى جاء شوقي فتناوله - وهذا دليل خلود الطائي
ومعانيه - فقال (أعدت الراحة الكبرى لمن تعب) .

(١) ورد ذكر اسم (تيوفيل) في شعر الحماسة العربية (ثوفل) و(توفل) وأبو تمام يورده هنا على أصله

(Theophilos)

وربط الطائي حروب المعتصم بحرب بدر ، كدأب غيره من الشعراء السابقين في مثل هذه الرابطة فقال :

فبين أيامك اللاتي نصرت بهـا وبين أيام بدر أقرب النسب
وتنحى وهو يتم القصيدة أن يحثم الصغار على أوجه الروم ، وأن تتلألاً بالبياض وجوه العرب :
أبقت بني الأصفر المصفر كاسمهم صفرَ الوجوه وجلت أوجه العرب

٤ - أسد الثغور

كان أبو سعيد بن محمد الثغري ، وأسميه (أسد الثغور) عاملاً للعباسيين على أرمينية ، وسائر ثغور الروم في شمالي سورية .

وقد تقصيتُ عمال المسلمين على أرمينية - وهي أكثر أقاليم الثغور خطراً ومنها باب الروم ومسيرة (الدرب) ^(١) - منذ عهد الرشيد إلى زمن المتوكل على الله لكي أعرف خطر أبي سعيد بينهم فوجدتهم :

(١) سعيد بن مسلم بن قتيبة الباهلي

(٢) يزيد بن مزيد

(٣) خزيمه بن خازم (زمن الرشيد سنة ١٩٠ هـ)

(٤) أسد بن يزيد بن مزيد

(٥) ثابت بن نصر بن مالك (سنة ١٩٣)

(٦) صدقة بن علي المعروف بزريق (زمن المأمون سنة ٢٠٩)

(٧) العباس بن صدقة بن علي (سنة ٢١٤)

(٨) (أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري المروزي) (زمن المعتصم كله)

(١) سمي العرب منذ جاهليتهم الطريق إلى الروم خاصة (درباً) ، فلم يكن الدرب في لغتهم إلا طريق بلادهم إلى ديار الروم . وكان أول من أشار إلى هذه التسمية أمرؤ القيس حين بكى صاحبه عمر بن قميثة لانقطاعهما في طريق الروم فقال الملك الضليل :

بكى صاحبي لما رأى (الدرب) دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصراً

ويسمى المؤرخون الغربيون هذا الدرب (La grande Route impériale) وكان هذا الدرب يمتد من القسطنطينية إلى ديار الشام . وقد رأيت آثاره بين أنطاكية وحلب ما تزال إلى اليوم وهو في عرض ثلاثة أمثار مفروش بالحجارة العراض الملساء ، قد أثرت فيه الزلازل فأزالت كثيراً منه .

(٩) أحمد بن سعيد بن مسلم بن قتيبة (زمن المتوكل سنة ٢٣١)

(١٠) يوسف بن محمد وهو ابن أبي سعيد الثغرى (زمن المتوكل سنة ٢٣٧)

ووجدت أشدهم بأساً على الروم وأخطرهم حرباً هو أبو سعيد محمد بن يوسف الثغرى ، فقد سلخ أيامه منذ ولاه المعتصم على أرمينية في سنة ٢٢٠ للهجرة^(١) إلى موته في خلافة المتوكل سنة ٢٣٧^(٢) فعرف تلك الثغور وبني كثيرًا من الحصون التي هدمها الروم وكان الأسد القائم على أرباض العواصم^(٣) .

ورأيت أن حظ أبي سعيد من المؤرخين السياسيين — كما أشار إسكندر فاسيلييف^(٤) — كان حظاً سيئاً فقد كانوا يذكرونه بغير حفاوة ، وكانوا يعمرون به لماماً دون أن يشيروا إلى غزواته للروم ، ودفعه لجيوشهم المناوشة والمهاجمة ، وكان شأنه مع هؤلاء المؤرخين شأن غيره من عمال الخلافة على أرمينية ، فاستسر قدره في تضاعيف الحوادث التاريخية ، وبات خطره مثل سواه من العمال والقواد ، يذكره المؤرخون بسطور ، ثم يغيبونه في صفحات فكانه ضائع أو غريق بين تلك الحوادث الزاخرة .

لكن الشعر أنصفه ، وكانت نصفته على أيدي شاعري بني العباس أبي تمام والبحري اللذين استوليا على أمد الشعر في زمنهما فإن هذين الشاعرين — وأحفاهما أبو تمام — سجلا في شعرهما وقائع (أبي سعيد) وحروبه في قصائد كثيرة جعلها وقفاً عليه ، حتى كانت قصائدهما هذه فيه شاغلة جزءاً كبيراً من ديوانيهما .

ولأنى أجعل هذه القصائد الحماسية مصدراً لتصوير بطولة أبي سعيد ، ورسم بأسه في الثغور وسلطانه على الروم ، فمن خلالها يتبين أن أبا سعيد كان البطل العظيم في حروب عصره ، وأنه لم يكن كما أشار إليه المؤرخون ، عاملاً من العمال على الثغور ، وإنما كان سوراً إنسانياً منيعاً حصنت به الخلافة العباسية نفسها من الروم ، طوال سبع عشرة سنة حتى

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٣٠٧ .

(٢) المصدر السابق ج ١١ ص ٤٤ .

(٣) سمى العرب العواصم بذلك لأنها كانت تعصمهم من الروم وغيرهم من يجاورونهم فهي كالثغور التي أقاموها مقام الأنواء من الجسوم .

(٤) Vasiliev : Byzance et les Arabes الترجمة الفرنسية طبع معهد التاريخ الشرقى في بروكسل

غلب عليه لقب الثغرى ، نسبة إلى الثغور ، وهذا ما أذهب إليه ، وكان لقبه من قبل (المروزي) .

ولعل أبا سعيد بما كان موصوفاً به من الكرم والسماحة والمعروف ، قد اجتذب إليه شاعري عصره ، فأكثر فيه المدائح ، حتى لو أحصينا ما قاله أبو تمام والبحترى في المعتمصم أو المتوكل لأربت قصائدهما في أبي سعيد على عدد ذلك ، وهذا فضل الشعر على التاريخ ، فلولا أبو تمام وأبو عباد لما عرفنا صور الحماسة الاثثة التي كان أبو سعيد الثغرى متحلياً بها ، ولا استسر خبره مثل غيره من القواد والمحاربين الكثيرين .

كلا الشاعرين ذكر في شعره حروب الروم ، وأعطاهما من أبياته النصيب الأوفى ، وكلاهما نظر إلى بطولة أبي سعيد ، وكلاهما صور هذه البطولة في شعر حماسي كثير رائع (وفي الكلام على شعر الحماسة عند البحترى - فيما يلي - مجال لوصف صور من شعر البحترى في أبي سعيد) .

أما أبو تمام - وهو أكبر شاعر في عصره - فكان عليه ألا يكون في معزل عن حروب العرب والروم فإن بيزنطة كانت دائمة القيام في وجه العرب ، وجيوشها كانوا لا يفارقون ظهور الخيل ، ولا يغمدون السلاح من حدود القسطنطينية إلى أرمينيا في العصر العباسي كله .

ومنذ ظهرت في شعر الطائي هذه الحوادث الحماسية كانت دليلاً على حياة هذا الشعر .

كان البيزنطيون يغيرون على ثغور العرب فيهدمون حصونها ، ويدبحون رجالها وشيوخها ويسبون نساءها ، ثم يعملون أيدي الحريق والنهاب في متاع المسلمين فإذا انقضوا من ذلك عادوا إلى بلادهم ، معهم أسرى العرب وسبايا نسائهم وقد زادوا على الألوف . ولم يكونوا يتركون الصبية ، فلطالما أسروا منهم الألوف في بغتاتهم الكثيرة ، وقد يبقى هؤلاء الأسرى في تلك البلاد الرومية وراء الثغور - إن لم يقتلوا - سنين وأياماً حتى يفادى بهم ، أو يغزو العرب تلك البلاد منتقمين وحين ذلك يكيلون للروم بالصاع صاعاً فيخربون ديارهم ، ويهدمون حصونهم ، ويسبون النساء ، ويأسرون الرجال .

وقد ذكر مؤرخو العرب كافة تلك البغتات وهاتيك الانتقامات بشيء من التفصيل ، غير أن الكتب الرومية كانت أكثر دقة في وصف الحوادث . ومن هذه الكتب استقى

بعض المؤلفين المعاصرين في الغرب كتبهم التي ألّفوها عن علاقة العرب والبيزنطيين أمثال (فاسيلييف وماريوس كانار ، وشارل ديبل ، ورونسيان ، وكارادوفو وشارل أومان ، وخاصة المؤرخ شلمبرجه) وغيرهم .

ففي دراسة هذه الكتب الغربية ومقارنتها بتواريخنا كتاريخ ابن خلدون وابن الأثير وتاريخ الطبري والمسعودي وغيرها من عيون كتبنا التاريخية ، نتوصل إلى استجلاء حقائق حروب العرب مع الروم ، وعلاقاتهم السياسية بهم ، وهذا ما حاولت ههنا دراسته في حروب العرب مع البيزنطيين من أيام المعتصم إلى عهد سيف الدولة ، ليكون بداية لهذا الضرب من الدراسة الأدبية التاريخية التي كانت ما تزال تنقص أدبنا المعاصر ، وتفتوت تاريخنا الكبير .

لقد كانت الفروسية هي الصدى الأدبي للحرب البيزنطية العربية ، وإن في جميع الشعر الذي قاله أبو تمام والبحترى في حروب العرب مع الروم وفي ترتيبه بإضافة ما قاله أبو الطيب المتنبي وأبو فراس الحمداني في حروب سيف الدولة وما نظمته الشعراء في حروب الصليبيين زمن الملكين نور الدين العادل والبطل صلاح الدين الأيوبي (الملحمة) أية ملحمة لحرب العرب للروم ، ما زال أدب العرب يحن إليها حين المحروم الملهوف .

لقد حرمننا المؤرخون ذكر غزوة أبي سعيد الثغرى للقسطنطينية فلم يذكر أحد منهم أنه بلغ أسوارها ، لكن أبا تمام خلد لنا هذه الغزوة التي مد فيها أبو سعيد رماح فرسانه إلى حدود القسطنطينية ، فوصفهم في الشطر الأول من قصيدته الرائية — التي قالها فيه — وصف جيشه بأنه كان جيش فرسان . . . وهل يستطيع غير الخيول سيراً في أرض الأناضول الوعرة الثلجة ؟

حمل أبو تمام قصيدته في وصف هذه الغزوة كل ما ينبغي أن تحمل من مياسم الوقائع فذكر القسطنطينية وأسوارها . وذكر أن أبا سعيد بلغ الخليج .

وأرى الخليج هو خليج البوسفور لا غيره من الخليجان ، والظاهر من قصيدة أبي تمام أن أبا سعيد لم يفتح القسطنطينية ، وإنما رجع دون حصارها ، وأنه طرد أمامه ، في مسيره إليها جيوش الروم حتى التجأت إلى الأسوار . فقد فصل من الدروب من جهات أرمينية . ومعه جيشه العرمرم الجرار ، حتى بلغ بعض الحصون البيزنطية ، وكان قائد جيش الروم

(منويل) ^(١) ففر والتجأ إلى مكان خفي ، وجعل يعاين فلول جيشه مارة به فيتلقاها بتسكاب الدموع على الخذلان .

ثم جعل أبو تمام الشطر الثاني من قصيدته هذه مدحاً لشجاعة أبي سعيد ، وتصويراً لحنكته وصورته ، وخصاله النبيلة ، وأنه كوكب الإسلام ونصير الدين وحامى الثغور فقال ^(٢) :

لولا جلاد أبي سعيد لم يزل للثغر صدر ما عليه صدار
قدت الجياد كأنهن أجادل بقرى (دُرُولِيَّة) لها أوكار ^(٣)
حتى التوى من نقع قسطها على حيطان قسطنطينية إعصار

وسكت أبو تمام على هذه الأبيات من صنعته الفنية التي سأذكرها في كلام خاص يتعلق بفن حماسه — بعد هذه البحوث — فشبّه الخيل بالأجادل وجعل بلاد (درولية) أوكاراً لها . ولم يترك هذه الصورة مقصورة على البيت ، وإنما عداها إلى البيت الثاني ، فجعل غبار الأرض تحت سنابل هذه الجياد أعاصير تهب على أسوار القسطنطينية .

ثم وصف النار التي أوقدها أبو سعيد في القرى على مقربة من الخليج فحمل الهواء شررها إلى البسفور ، وعلل رجوعه عن حصار القسطنطينية بأن أهلها قد كفاهم ترويعه حصاراً ، وهم الذين تولاهم سلطان صولته فكان لهم بمكانة الموت من النفوس ، كما أتبع قوله :

أوقدت من دون (الخليج) لأهلها نارا لها خلف الخليج شرار ^(٤)
إن لا تكن حصرت فقد أضحى لها من خوف قارعة الحصار حصار
فهناك نار وغى تشب وهاهنا جيش له لجب وثم مغار
خشعوا لصولتك التي هي عندهم كالموت يأتى ليس فيه عار

ثم مثل كيف سار جيش العرب من درب الروم ، وكان لجباً تصيح منه الأرض فيسمع له صوت وكأنه خوار الثيران ، فضى مبكراً في النهار سارياً في الليل حتى بلغ

(١) مانويل Manuel قائد بيزنطى عظيم أعجز العرب في كثير من المعارك .

(٢) ديوانه الطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٢ هـ ص ٧٢ .

(٣) درولية Dorylee إقليم في درب الروم واسم البلدة البيزنطية ، وهو اليوم (أسكى شهر) .

(٤) يريد بأهلها ؛ القسطنطينية .

(حصن الحمة البيضاء) وحصن (القفل) والخليج الذى هو من جسم القسطنطينية بمنزلة
الشعار على البدن ، وفرت جيوش الروم أمامه ساكنة تختنق أنفاسها خوفاً منه ، وعلماً بسطوته
وبأسه :

ولقد فصلت من الدروب إليهم بعمررم للأرض منه خوار
أن يتكرر ترشده أعلام الصوى أو يسر ليلاً فالنجوم منار
(فالحمة البيضاء) ميعاد لهم و (القفل) ختم و (الخليج) شعار^(١)
والمشي همس والنداء إشارة خوف انتقامك والحديث سرار

بعد هذه الأبيات صور الطائى هروب (منويل قائد الروم) وبكائه على جيشه
المهزوم - كما تقدم - فقال :

أن لا تتل (منويل) أطراف القنا أو تثن عنه البيض وهى حرار
فلقد تمنى أن كل مدينة جبل أشم وكل حصن غار
إن لا تفرّ فقد أقمت وقد رأت عيناك قدير الحرب كيف تفار
لما أتتك فلوهم أمددتهم بسوابق العبرات وهى غزار

ذاك الوصف الحربى الممزوج بالمدح ، يجعله الطائى نظاماً حماسياً وكأنه وحدة ، ثم
يتم أماديجه بلون آخر وهو مدح الكرم والمودة وعون الإسلام .

أكثر حبيب مدح أبى سعيد ، وقد أحصيت مدائحه فيه فوجدتها أربعاً وعشرين
مدحة ، لم يبدل الطائى مثلها لأحد كثرة وتحسيناً ، وإن شعره فيه سحر ، وشعره فى غيره
شعر . وهو كالمثنى فى مدح سيف الدولة ، وحروب أبى سعيد التى سجلها أبو تمام والبحترى
جديرة أن تقرن اسمه باسم سيف الدولة . وما أحسب المثنى فى وصفه لحروب سيف الدولة
مع البيزنطيين إلا مشابهاً وتالياً لوصف أبى تمام والبحترى لحروب أبى سعيد الثغرى .

* * *

لم أجد فى شعر أبى تمام ما يشير إلى أنه كان يزور أبا سعيد فى أرمينية وينزل
عليه ضيفاً كما وجدت ذلك عند البحرى - وسأذكره فى مكانه الآتى - وإن فى

(١) وردت كلمة (حتم) بالخاء المهمله وأراها المعجمة بفوقية لأن القفل وهو اسم ذلك الحصن كان
مختوماً أى مقفلاً كل الإقفال . والحمة عند العرب نبع الماء الساخن .

إقبال الشاعرين على مدح هذا الفاتح العظيم الذى لم يعبأ به المؤرخون السياسيون ، دليلاً على كرمه وبسطة يده ، وارتياحه للمعروف والبذل ، ووجهه للشعر والشعراء .

وقصائد أبى تمام فى أبى سعيد كثيرة مثبتة فى ديوانه ، أكثرها فى حروبه مع الروم ، وبعضها فى سائر وقعاته ، فقد كان لأبى سعيد مشاركة فى حروب بابك تحت إمرة الأفشين ابن كاووس ، حتى كان هو الذى أمسك بابك آخر أمره يوم التجأ من أذربيجان إلى تخوم أرمينية فكان تسليمه على يديه ، فقيد أبو تمام كل ذلك فى شعره . يقول (كانار)^(١) إن وقعة (عقرقس) كانت أشهر وقعات أبى سعيد وأضرها على الروم وأشراها ، ولذلك نرى أن أباً تمام قد ذكرها ثلاث مرات ، وقد ذكرها البحترى مرتين ، وأرى أحسن صورة لها عند أبى تمام فى قصيدته القافية التى أولها^(٢) :

ما عهدنا كذا بكاء المشوق كيف والدمع آية المعشوق

ذكر فى أولها أباً سعيد بأنه رمية نزلت على الروم بالدهاية الدهياء . صور جنوده وعليهم الدروع السلوقية . ثم جعل يذكر الضواحي الرومية ويسمى أسماءها واحدة إثر واحدة ، وفى أكثرها حصون وحواليها أسوار — وكان ينحت تلك الأسماء فى العربية نحتنا — فإذا فتح أبو سعيد حصناً أو مدينة احتوى على ما فيها من المال والسبي . ثم غادر الموت فيها ، وترك الأهلين هاربين ، تأخذهم حداد السيوف ، ولهب الحريق .

وقد حصلت معركة (شوارع) فى مدينة قسطنطين^(٣) — كما يعبر أهل عصرنا فى الحروب الكبرى التى عرفوها — فرجت لهولها أسوار القسطنطينية وهى مدينة (فروق)^(٤) . فحاز الأسرى أبو سعيد ، وأسر البطريق ، حتى إذا بلغ وادى عقرقس حدثت (المعركة الفاصلة) فاستبسل الأبطال واستماتوا ، وصاح الإسلام صيحته الكبرى مستعينا بأبى سعيد استعانة الغريق ، وقد بلغ أبو سعيد فى هذه الغزوة خليج البوسفور مرة أخرى . ومن غرائب التقصير فى تاريخنا أن مؤرخى العرب يحملون القول ويعممونه فى فتنة رجل يسمى (نصراً) وكان من أصحاب بابك الخرمى ، يذكر هؤلاء المؤرخون أن نصراً اعتصم

(١) كتب ماريوس كانار فى أواخر كتاب (Byzance et les Arabes) لفاسيلييف (فصولاً جاء فيها قوله ذلك فى ص ٤٠٠ من الكتاب المتقدم ذكره .

(٢) ديوانه السابق ص ١٠٧ .

(٣) مدينة قسطنطين من بلاد بيزنطة وهى غير حاضرتهم القسطنطينية .

(٤) الصفحة نفسها من الذيل السابق لماريوس كانار .

بإقليم « الجبال » فحاربه المعتصم بإسحاق بن إبراهيم بن مصعب^(١) ، فأمن إسحاق بجمعه تقتيلاً ، وبلغ من قتل منهم نحواً من مئة ألف سوى النساء والصبيان ، فلم يجد نصر بدأ — بعد إلحاح القتل عليه — سوى الفرار إلى الروم بجيش كبير . وكان هذا الجمع يدعى (بالمحمرة) .

هذا كلام ابن جرير الطبري الذي يقول أيضاً إن صاحب الروم (تيوفيل) خرج لحرب المسلمين ومعه مئة ألف وأكثر ، منهم الجند نيف وسبعون ألفاً وبقيتهم « أتباع من الحمرة »^(٢) الذين كانوا خرجوا للجبال (فلحقوا بالروم) حين قاتلهم إسحاق بن إبراهيم ابن مصعب » وجمع ابن الأثير هذا الخبر وجاء به أكثر اقتضاباً^(٣) .

إلى ههنا يطلعن مؤرخونا طلع هذا الأمر لكن المؤرخين الغربيين ودارسي آدابها من المستشرقين يكملون وصف هؤلاء الحمرة الحرمية ، فيقول ماريوس كانار^(٤) مستعيناً بتاريخ (ميخائيل السورى) المكتوب بالرومية أن أحد قواد بابك الحرمي ويسمى (نصراً) فر يجمع من الحرمية ملتجئاً إلى الروم سنة ٨٣٣ للميلاد ، ثم يذكر أن اسمه بالرومية (إلياس تيوفوب)^(٥) .

ولم يكن ماريوس وحده الذى أشار إلى هذا ، وإنما شاركه فى هذه الإشارة المستشرق الروسى فاسيليف^(٦) ، فقال إن جيشاً فارسياً كان حليفاً للبيزنطيين وعلى رأسه تيوفوب حارب المسلمين مع تيوفيل إمبراطور الروم ، فلما دحر الأفشين تيوفيل ، بلغ الخبر القسطنطينية بأن عاهل الروم قتل ، فخاف تيوفيل على ملكه ، وخف إلى القسطنطينية وقد خلف مكانه على الجيوش تيوفوب هذا فثار جنده يريدون أن ينصبوه مكان تيوفيل ، فأبى تيوفوب (أى نصر) ، ففعلوا بالرغم عنه ، وجاءوا إلى مدينة (سينوب) ليقوموا بذلك . ويقول المؤرخ الرومى (ميخائيل السورى) إن الإمبراطور حين هم بأخذ تيوفوب على

(١) الطبري ٢٠٥ / ١٠ .

(٢) ينسبهم الشهرستانى إلى طائفة من الغلاة ، وأنهم خرميون من جهات أصفهان سوا بالحمرة ثم سوا وراء النهر بالمبيضة . وذكر صاحب النجوم الزاهرة (ج ٢ ص ٤٢) أنهم أول ما ظهروا بمرجان . وأرى أن اسمهم كما يدل لونه أنهم كانوا فريقاً يلبس الثياب الحمر ، وآخر يلبس الثياب البيض أو كل فريق يتخذ سمة من اللونين كما تتخذ الجيوش فى زماننا سيات مشابهة ، أو أنهم عدلوا عن اللون الأحمر إلى الأبيض .

(٣) التاريخ الكامل الطبعة الأثرية سنة ١٣٠١ ج ٦ ص ١٨٥ حوادث سنة ٣١٩ هـ .

(٤) صفحة ٤٠٠ السابقة من ذيل كتاب فاسيليف .

(٥) Alias Théophobe

(٦) Byzance et les Arabes p. 159

جريته هذه نفّض له تيوفوب حقيقة حاله . وأنه برىء مما قام به صحبه .

ثم يعود فاسيلييف مستندا إلى المصادر البيزنطية فيذكر ^(١) أن تيوفوب (ويسميه نصرا) قد حارب مع الروم (أبا سعيد الثغرى) وقتل في معركة من تلك المعارك .

وحسبما يقول ميخائيل السورى ^(٢) إن النصوص البيزنطية تذكر أن رأس (نصر) هذا أهدى إلى تيوفيل ملك الروم ، وإن الخليفة حينما بلغه مقتل نصر فرح واستراح .

قلت ينبغى أن يكون هذا الخليفة هو المتوكل ، وينبغى أن يكون تيوفيل صاحب الروم قد فرح أيضاً بقتل (نصر - تيوفوب) إذ كان قد حاول حين غيابه فى القسطنطينية أن ينصب نفسه مكانه على الروم إمبراطورا .

* * *

كذلك ساعف شعر أبى تمام الحماسى فى تحقيق هذا الحادث الجليل الذى ليس له ضريع فى تاريخنا ، ولا وضوح لذكره ، فإن جيشا من جيوش المسلمين يفر بقائده ، ويلتجىء إلى الروم فيحارب معهم المسلمين أمر لم يشرحه تاريخنا شرحا مستفيضا ، وكان بحسب التاريخ البيزنطى أن ينير لنا هذا الحادث فى شكله المتقدم ، وأن نلتجىء إلى شعر أبى تمام فنستوضح به المعالم فلطالما كان شعر أبى تمام فى حروب الروم منيرا للصورة وموضحا لألوان الحوادث ، وهذا فضل الشعر العربى على التاريخ ، فإنى رأيت ما أضاعه التاريخ حفظه الشعر فى كثير من الحادثات . فى قصيدة الطائى القافية التى تقدم مطلعها ، يصل فيها إلى ذكر هؤلاء الحمرة على رأسهم صاحبهم (المحمر الزنديق) وقد حاربوا المسلمين مع الروم فدحرم أبو سعيد وجاس خلال ديارهم .

وصف الطائى تلك الغزوة فى ديار الروم خلال القرى ، وما لقي الروم من ويل بأيدي المسلمين بادئا بأن أبا سعيد الثغرى سار إلى الروم :

فى كَمَاة يُكْسُونُ نَسْجَ السُّلُوقِ وتعدو بهم كلاب سلوق ^(٣) ،
يتساقون فى الوغى كأس موت هى موصولة بكأس الرحيق . . .

(١) 176. J. المصدر السابق .

(٢) هامش رقم ١ فى هذه الصفحة السابقة من كتاب فاسيلييف .

(٢) شبه خيولهم العادية بهم بالكلاب السلوقية لشدة عدوها وإثارة لطريقته الفنية .

وطئت هامة النواحي فلما أن قضت حقها من (القبذوق)^(١)
 ألهبها الشياط حتى إذا أشفت - بإطلاقها على (الناطلوق)^(٢)
 شنها شزباً فلما استباحث (بالبقلار) كل سهب ونيق^(٣)
 سار مستقداً إلى البأس يزجي رهجاً باسفاً إلى الأبيق^(٤)
 ثم ألقى على (درولية) البرك محلاً باليمن والتوفيق^(٥)
 فحوى سوقها وغادر فيها سوق موت طمت على كل سوق
 فهم هاربون بين حريق السيف صلنا وبين نار الحريق
 واجداً (بالخليج) ما لم يجد قط - (بماشان) لا ولا (بالزريق)^(٦)
 وقعة زعزت مدينة قسطنطين - حتى ارتجت بسوق فروق
 كم أسير من سربهم وقتيل رادع الثوب من دم كالحلوق
 يستغيث البطريق جهلاً وهل - يُطلب إلا مبطرق البطريق^(٧)
 ثم ناهضت في الفلول رجالا ورجالا بالضرب والتحريق
 وبوادی عقرقس لم تعرد عن رسم إلى الوغى وعنيق^(٨)
 جأر الدين واستغاث بك الإسلام - من ذاك مستغاث الغريق

- (١) وردت في الطبقات الثلاث من الديوان (القبذوق) بالياء وصوابها بالياء (القبذوق) وهي مدينة محصنة واسمها بالرومية Cappadocce وهي من (سيواس) اليوم .
 (٢) في نسخ الديوان (الباطلوق) بالياء وصوابه بالنون وهو أرض الأناضول واسمها بالرومية Anatolique .
 (٣) البقلار Bucelaire اسم منطقة في ديار الروم .
 (٤) الأبيق Opsikion اسم بلدة رومية ذات حصون .
 (٥) ألقى البرك أى برك الحمل : وأراد به إقامة الجيش وراحته بعد السير .
 (٦) الخليج يريد به الزعفران و (ماشان) و (الزريق) بلدان روميان (ماشان Nicheia) و (الزريق Isauric) .
 أنظر هذه البلدان في الخريطة المثبتة في آخر الكتاب وهي منقولة عن رسالة Arabic lists of the Byzantine Themes

تأليف E.W. Brooks طبعة جمعية الدراسات الهيلينية سنة ١٩٠١ .

- (٧) يريد أن يقول : إن بطريق الروم كان في الأسرى فهو يستغيث ولكن ما أجعله فبمن يستغيث وإنما نحن نطلب بحرنا الذى بطرقه أى جعله بطريقاً وهو ملك الروم نفسه .
 (٨) عقرقس Aqarqas ، العنيق ضرب من سير المطايا كالرسم .

يوم بكر بن وائل (بقضات) دون يوم (الأحمر) الزنديق
 يوم حلق اللوات ذاك وهذا - اليوم في الروم يوم حلق الخلق
 أورث (صاغرى) صغاراً ورغما وقضت (أو قضى) قبيل الشروق^(١)
 كم أفاءت من أرض (قرة) من - قرة عين وربرب موموق
 إن أيامك الحسان من الروم لحرر الصبوح حمر الغبوق
 معلمات كأنها بالدم المهرق يوم للنحر والتشريق

وهي قصيدة كبرى في أربعة وسبعين بيتا تكاد تكون (نشيداً من ملحمة الحرب الرومية)
 قالها أبو تمام الطائي في أبي سعيد الثغرى وختمها على عادته بالمديح والثناء وطلب العطاء .
 وذكر أبو تمام (نصرا الحرى) مرة ثانية في شعره بأبي سعيد الثغرى في قصيدة ميمية
 فذكر فيها معركة عقرقس وسابقها وحرب أبي سعيد للروم الكافرين و (للخرمية الغاوين)
 فقال يخاطب أبا سعيد :

جدعت لهم أنف الضلال بوقعة تخربت في غمائها من تخرما^(٢)
 لأن كان أمسى في عقرقس أجدعا فن قبل ما أمسى (بميمذ) أخرما
 ثلثهم بالمشرفى وقلما تلم عز القوم إلا تهلما
 قطعت بنان الكفر منهم (بميمذ) وأتبعها بالروم كفاً ومعصا^(٣)
 وكم جبل (بالبد) منهم هدرته وغاو غوى حلمته فتحلما^(٤)
 فإن يك نصرانيا النهر (آلس) فقد وجدوا وادى (عقرقس) مسلما^(٥)
 به سبتوا في السبت بالببيض والقننا سباتا ثلوا منه إلى الحشر نوما

(١) صاغرى (صقارية بالتركية) ، واسمها بالبيزنطية Sangarios وأقضى ، بلدتان في الروم . -
 وقرة Koron .

(٢) أراد بجناس تخربت الإشارة إلى الخرمية .

(٣) ميمذ مكان في ديار بابل الخرمى في إقليم الجبال من بلاد فارس . وكان قد حارب لمحمة إسحاق
 ابن ابراهيم بن مصعب في هذا الموقع وجز آدانهم حتى وجه إلى المعتصم بستان ألف أذن . وقد قال أبو تمام في
 ذلك قصيدة على النون (ديوانه الطبعة السابقة ص ١٦١) .

(٤) البذ موطن بابل الخرمى .

(٥) نهر آلس Halys وهو اليوم يسمى بالتركية (قزىل إيرماق) ومعناه النهر الأحمر .

ولم يبق في أرض البقلار طائر ولا سبع إلا وقد بات مولدا
ولا رفعوا في ذلك اليوم أثلباً ولا حجراً إلا رأوا تحته دماً^(١)

* * *

وسائر القصائد الحماسية التي قالها الطائي في أبي سعيد الثغري من هذا الضرب تجمع معانيها بين تنكيل بالروم وكسر شوكتهم ، وتفنن في أداء هذه المعاني التي تدل على قهر (نيوفيل) إمبراطور الروم وترويع بلاده ، حتى شبه الردى بعاشق يعشقه فهو أنى هرب فالردى يلاحقه ، كقوله :

ولما رأى (نيوفيل) رايتك التي إذا ما استقامت لا يقاومها الصلب
تولى ولم يأل الردى في اتباعه كأن الردى في قصده هائم صب
كأن بلاد الروم عمت بصيحة فضمت حشاها وأورغا وسطها السقب^(٢)
(بصاغرة) القصوى (وطمين) واقتري بلاد (قرنطاؤوس) وابلك السكب

وسنجد البحترى — عند الكلام على حماسياته في حروب الروم — محتفياً بفروسية أبي سعيد الثغري وتخليد معاركه ، لكنه يجيء تالياً لأبي تمام .
وتوفى أبو تمام قبل أبي سعيد بتسع سنين . فأورثه في حياته وفي مماته ذكر بطولة لا تمحى ، وخلد معاركه مع الروم في شعر كتب له الخلود ، ولئن كان أبو سعيد قد أحسن إلى أبي تمام في العطاء — كما يروى أبو بكر الصولي — فإن الطائي قد أحسن له بالتخليد والثناء . فقال فيه يذكر إكرامه إياه ولا ينسى أن يمن عليه بشعره :

وحفت بي العشائر والأقاصي عيالاً لي وكنت لهم عيالاً
فقد أصبحت أكثرهم عطاء وقبلك كنت أكثرهم سؤالاً
فأين قصائد لي فيك تأتي وتأنف أن أهان وأن أذلاً
من السحر الحلال لمحتنيهِ ولم أر قبلها سحراً حلالاً

وهو وإن فاته أن يرثيه إذ سببه إلى الموت ، فإن البحترى لم يفته ذلك فوصف بطل الثغور في حياته وبكاه في مماته .

(١) الأثلب التراب .

(٢) رغا صوت ، والسقب ولد الناقة .

وطالما كان البحترى (متمما) لأبى تمام وتلك سنة الفن فى بعض الشخصوس الأدبية ،
إذ يكون أحد الأدباء فى حاجة إلى التكامل فلا يتم إلا بأديب آخر يتقيل ظلاله ، فيمضى
على غراره ، ويعزف على قيثاره .

٥ - روميات البحترى

ظل (أبو سعيد الثغرى) هو البطل المهيمن على الثغور ، وهو الحارس الجبار للحدود
الإسلامية بين ديار الروم وملئك الإسلام . وكانت (أرمينيا) سلسلة الحصون الدفاعية
والهجومية غربى أرض العراق (كما قدمت فى الكلام على شعر الحرب عند أبى تمام) . وكان
حمًا لزاما على شاعر مثل البحترى - وقد تقيل ظلال أستاذة أبى تمام - أن يحذو حذوه
فى امتداح (أسد الثغور) وأن يجرى على غراره فى صناعة الفن والإكثار من الألفاظ
الموسيقية ذوات الجرس .

لكن فنه يدق فى وصف بطولة أبى سعيد أكثر مما عند أبى تمام من دقة وفن ، فكفاه
أن يذكر بيتا واحدا فيه شوكة أبى سعيد وبطشه فى ديار الروم ، ذلك أن الروم كانوا
من هول النكبات التى أنزلها فيهم الثغرى يكفى أن يذكر اسمه لديهم حتى تأخذهم الراجفة
وحتى صارت الأمهات تفرع أطفالها باسمه ، فكان إذا بكى الطفل وألح بالعسر قالوا له :
— جاء أبو سعيد ، جاء أبو سعيد . . .

فيكبت بكاءه ويسكن شغبه .

وذلك حيث يقول عنه البحترى فى قصيدة على النون :

فزَعُوا باسمك الصبي فعادت حركات البكاء منه سكونا

وإنى أرى فى هذا البيت وحده غنية عن قصائد فى تصوير بطولة أبى سعيد الثغرى
وبطشه فى ديار الروم ، وحماية حدود العرب .

وفى هذه القصيدة يصف البحترى وقعة (عقرقس) التى وصفها أبو تمام فيصور إذلال
أبى سعيد لكل الروم ، ويذكر أنهم ليسوا ناجين منه ولو اعتصموا بالنجوم فيقول :

ربما وقعة شملت بها الروم - فباتوا أدلة خاضعيننا

قد أمنا أن يأمنوك على حال - ولو صيروا النجوم حصونا

ثم يذكر (فريقي خيوله) . والظاهر أنه كان في هذه الواقعة فرق فرسانه فرقتين ، موجهاً كلا منهما في وجهة ، ليحيط بالثغور التي يريدونها من موقعين . وإنه لوصف جميل للخيال العباسي في اليوم العبوس وعليهن الدارعون يحوسون خلال بلاد الروم ، وقد أهزلهن طول السير فكن خفافاً ضئيلات اللحوم كوعول الجبال ، ولا قرون لهن سوى الرماح فيقول :

وتوافت (خيالك) من أرض - (طرسوس وقاليقلا بأردندونا)^(١)
عابسات يحملن يوماً عبوساً لا ناس عن خطبه غافلين
زرن بالدارعين أرض (البقار) - فأجلوا عن (صاغرى) صاغرينا
قد طواهن طين الفيافي واكتسبن الوجيف حتى عرينا
كوعول الهضاب رحن وما يملكن - إلا صم الرماح قرونا

ويلاحظ أن البحترى يمشى على غرار أبي تمام في الجناس بين مدينة (صاغرى) وكلمة صاغرين ، وكذلك يفعل فنه في مدينة (طمين) وكلمة (يطمئن) في بقية الأبيات التي يصف بها ظفر أبي سعيد بعقرقس ، وتفليقة الهام في قرى الروم ، وأنه استساغ شراب دم الروم فكان عنده كماء زمزم في التبرك والتماس طاعة الله فيقول :

ونفير إلى عقرقس أنفرت فكنت المظفر الميمونا
ثم يقول :

همه في غد بتفليق هام في قرى (العازرون والمازرونا)
ولعمري ما ماء زمزم أحلى عنده من دم (بزارميننا)
غيروان في طاعة الله حتى يطمئن الإسلام في (طميننا)

كذلك كان نصيب حامى الثغور من الشعر العربي أن يخلده فيه جباران من جبابرة الشعر في العصر العباسي وهما أبو تمام والبحتري ، وكان محتوماً على الشاعرين أن يأبها إلى حروب الروم ، لأنها أعظم الحروب التي شغلت العباسيين ، وكانت ديدناً لهم في زمن المعتصم والمتوكل .

(١) قاليقلا هي Cilicيا والمعاصرون يسمونها قلقيليا أو كيليكيا وهي أوائل الأناضول من الجنوب واسم بلدة أردندون بالرومية Rhodandos .

وأعقب الاهتمام بهذه الحروب المتوالية بين الروم والعرب أن يتتبع البحترى بشعره ابن (أبي سعيد) فيصف حروبه وصفه لحروب أبيه ، وكان (يوسف بن أبي سعيد الثغري) كأبيه صاعقة منقضة على الروم ، وقد بلغ في بعض حروبه خليج البوسفور ولولا أن عاجلته منيته بأيدي بطارقة أرمنية لاستأصل شأفة البيزنطيين من الغرب كله حتى حدود البلقان .

وقد غنى البحترى بحروب الابن ، كما غنى أبو تمام بحروب الأب ، فكانت له قصائد غر يصف بها غزوات بن أبي سعيد في حرب الثغور ، منها قصيدته التي يشير بها إلى عبوره الدرب ومسيره في أرض الأناضول ، وهدمه الحصون التي في طريقه ، وإيقاده النار في قرى مسيره حتى بلغ (مجمع البحرين) ويقصد بهما البحر الأسود والبحر الأبيض ومجمعهما ما ندعوه اليوم بحر مرمرة ، فقال في شعر ينبض حماسة وشجاعة وتنسكب ألفاظه ومعانيه على فن يصرفه البحترى في سبيل الحرب ووصفها ، ولا ضير عليه أن يبدأ مثل هذا الشعر الحربي بغزل وصبوة وحنين إلى (علوة) فيقول شاعر الطيف والخيال :

وطيف سرى حتى تناول فتية	سروا يلبسون الليل حتى تمزقا
وما قصرت في (درغنون) رماحنا	فيرجع منها الطرف غضبان محنقا
أظالمة العينين مظلومة الحشا	ضعيفته كفى الخيال المؤرقا
ولا وصل حتى تقضى الحرب أمرها	بمفترق أو فضل عمر فلتقى
وما هو إلا يوسف بن محمد	وأعداؤه والموت غربا ومشرقا
وعارضه المستمطر الجود إنه	تجهم فوق (الناطلوق) فأطرقا
وأضعف (بالقباذقين) سجاله	وأرعد (بالأبسيق) شهرا فأبرقا ^(١)
فحرق ما بين الدروب أتبه	إلى (مجمع البحرين) حتى تحرقا

ويظهر من هذه القصيدة أن البحترى (كان حاضرا في هذه الغزوة ومصاحبا) ، لابن أبي سعيد لتكون مشاهدة الشاعر لهذه المعارك الرومية المتتابعة والحصار المضروب على بلد بعد بلد ، سجلا باقيا في الشعر وخبرا مذاعا يسير في البلاد^(٢) على نحو ما عهدنا في

(١) ثنى البحترى القيدوق وهو إقليم Cappadocia .

انظر الخريطة التي عربتها في آخر الكتاب .

(٢) وعلى هذا النحو ما أثر عن الشاعر الإنكليزي الحديث (رديارد كبلنج) من اصطحاب بعض الجيوش

الإنكليزية له في غزواتها وذكره ذلك في شعره .

عصرنا من عناية المحاربين باصطحاب الخبرين الصحفيين ، والمراسلين العسكريين في المعارك ليكونوا شهوداً عدولاً على الظفر ، وليذيعوا الأخبار في عرض الدنيا وطولها ، وقد بلونا خطرهم ، فكان لهم في نشر الدعوة أبعد أثر وأوفى نصيب .

كذلك ذكر البحترى أنه كان حاضراً هذه السفارة الحربية في الخريف وقد سلخوا فيها ثلاثة أشهر فقال :

وبرد خريف قد لبسنا جديده فلم ننصرف حتى نزعناه مخلقا
وبدرين أنصيناهما بعد ثالث أكلناه بالإيجاف حتى تمحقا

ويذكر بعد ذلك الخيل ، فتحنو عليها حوانيه ، بنبل الشعور وحب لهذه البهم اللواتي يجهن الفرسان ، وسرى مثل هذا الحب للخيل عند صديق الخيل المحرب لها أبى الطيب المتنبي ، والبحترى يعرف مواطن الحسن منها وفضلها على الفرسان والترحال فيقول :

فلم أر مثل الخيل أبقى على السرى ولا مثلنا أحنى عليها واشفقا
وما الحسن إلا أن تراها مغيرة تجاذبنا حبلا من الصبح أبرقا
فكم من عظيم أدركته صدورها فبات غنيا ثم أصبح مملقا
إلى أن يقول عن بطله ابن أبى سعيد :

حوى كل ما دون الخليج ولم يدع فؤاداً بما دون الخليج معلقاً^(١)

وبعد طويل من المدح والثناء يتحم قصيدته معرضاً بطلب النوال والثواب . وما أحسب البحترى قد شخض إلى الثغور إلا طامعاً في المشاركة بالحرب لتخليد ذكره الحماسي ، وإن يكن راغباً في أخذ المكافأة والعطاء .

وكان هذا فعله معه ومع أبيه ، فقد كان يشخص إلى الثغور فيزورها ويمدحهما ، ويحصل منهما على مال كثير - وكانت زيارته للابن بعد الأب ، وكان المال الذي يجودان به عليه لا يجود عليه بمثله الخليفة المتوكل ، فهو يقول للأب ويمن عليه بمفارقة العراق من أجله ، وفيه دجيل وروضة (غمى) سعيّاً إليه وإيثاراً لخلود الذكر .

ولولاك ما اسخطت غمى وروضها ونهر دجيل بالذى رضى الثغر

(١) أراد بالخليج ، (البوسفور خليج القسطنطينية) .

ولا كان غزو الروم بعض مآربي وهى ولا مما أطلبه الأجر
وأذكر أيامى لديك وحسبها وآخر ما يبقى من الذاهب الذكر
وأقرر أن آخر قصيدة قالها البحترى بابن أبى سعيد - قبيل مقتله - هى الرائية التى

أولها :

لك الويل من ليل بطاء وأواخره وشك نوى حى تزم أباعره
إذ كان مصرعه بعد وقوع حوادث ذكرها المؤرخون ، وذكرها البحترى فى هذه
القصيدة ، وقد كانت هذه الحوادث أسباب قتله .

ذلك أن المتوكل لما استعمل (ابن أبى سعيد) على أرمينية - بعد وفاة أبيه - نشر عليه
(بقراط بن آشوط) بطريق بطارقة أرمينية فحاربه ابن أبى سعيد وأخذه فقيده ، وبعث به
إلى باب الخليفة فأسلم بقرط وابنه . فغاض ذلك ابن أخى بقراط فتألب هو ولفيفه على ابن
أبى سعيد . وكان الثلج واقعا فحصروه والحاربين الذين معه فى مدينة (طرون) ، فخرج
إلى باب المدينة فقاتلهم حتى كل أصحابه وأسروا ، فطلب أصحابه النجاة فشرط عليهم الروم
أن ينجوا عراة ففعلوا ، فهلكوا من البرد ، وتساقطوا هلكى فوق الثلوج ، وسقطت أصابع
قوم منهم فنجوا . ولما ضاق الحصار على ابن أبى سعيد ويئس من المدد بعد أن حال الروم
بينه وبين أعوانه ، خرج إلى الروم بما بقى معه من الجمع الضئيل فقاتلهم حتى قتل ،
فوقع قتله ، من نفس المتوكل موقعا أليما ، فأرسل « بغا الشراى » فى سبيل النعمة له ، فجاء
بغا ديار الروم ، وفتك فيها الفتك الذريع فقتل نحو من ثلاثين ألفا من الروم وسبى الخلق
الكثير .

فكانت قصيدة البحترى تلك ، هى الأخيرة فى حياة البطل الثانى فى حروب الثغور .
فقال يذكر الحوادث التى ذكرها التاريخ خالعا عليها حلة شعره وتزويق فنه ، ونافخا فى
أبياتها روحا من الحماسة تنطق الحديد بزجرة وهزيم . وذكر أسر العرب « لبقراط بن
آشوط » بعد أن شاغب الإسلام خمسين عاما يعيث بالتخريب أيام لا ناه له ولا زاجر فقال :

إذا خرس الأبطال فى حمس الوغى علت فوق أصوات الحديد زماجره
ولا عز للإشراك من بعد ما التقت على السفح من عليا (طرون) عساكره
وما كان (بقراط بن آشوط) عنده بأول عبد أسلمته جرائره

وقد شاغب الإسلام خمسين حجة فلا خوف ناهيه ولا الحلم زاجره
ولما التقى الجمعان لم تجتمع له يداه ولم يثبت على الخوف ناظره
ولم يرض من (حرزان) حرزا يحيره ولا من جبال الروم ريذا يجاوره^(١)

ثم وصف البطريق وقد جاء مكبلاً بالحديد فقال :

تضمنه ثقل الحديد وأحكمت خلاخله من صوغه وأساوره
ولم يبق (بطريق) له مثل جرمه (بأرآن) إلا عازب اللب طائره^(٢)
كسرتهمو كسر الزجاجه بعده ومن يجبر الوهى الذى أنت كاسره
وقد علم العاصى وإن أمعت به محلته فى الأرض أنك زائره
حسام وعزم كالحسام وجحفل شداد قواه محكمات مرائره

* * *

وقف البحرى كثيرا من شعره على الروم فى حروبهم مع العرب حتى صححت به حوادث من التاريخ ووضحتها ، ولو اقتصر المحقق على التاريخ وحده لرأى عصر المتوكل عصر تخاذل على الثغور وانكفاء أمام الروم . ولكن قصائد البحرى ألحقت عندى عهد المتوكل بعهد المعتصم فى غلاب العرب للبيزنطيين وصمودهم فى وجوه غزواتهم ، ولو كان المتوكل مثل المعتصم قووما بالخلافة . بعيداً عن الزلل واللهو ، لأكمل ما بدأ به المعتصم من (حروب الغرب) ، ولكن بطانة السوء التى كانت عنده قصرت أمد حكمه فتقاوى الروم بعد مصرعه واشتدوا ، وكثر عدوانهم على ثغور المسلمين .

وقد وصف البحرى — فى إحدى قصائده فى المتوكل — وفد الروم وحضورهم مأدبة المتوكل ، وقد قدموا للمخاطبة فى مفاداة الأسرى ، فاقصر من وصفه على طعامهم ومجلسهم إلى الموائد ، وذهول عقولهم من هول ما طالعوا فى قصر الخليفة وما عاينوه وسمعوه وكانت (مفاداة الأسرى) معروفة بين العرب والبيزنطيين منذ كانت الحروب بينهما ، وكان يقوم بأمر الفداء زمن المتوكل رجلان من دهاة الساسة وهما « نصر بن الأزهر »

(١) الريد حرف من حروف الجبل .

(٢) كان البيزنطيون يطلقون لقب البطريق على قوادهم . فليس البطريق رجل دين عندهم فحسب وإنما هو رجل حرب . وكان عندهم الإمبراطور نيسيفور فوكاس أخطر قائد لحروبهم مع المسلمين بطريقاً كذلك — وأران إقليم قريب من مملكة الخزر شمال الجزيرة Aran .

« شنيف الخادم » وقد شخص نصر هذا إلى القسطنطينية سفيرا في أمر الفداء من قبل المتوكل على الله ، فلبث هناك أربعة أشهر ، وكان « موضع تبادل الأسرى » على « نهر اللامس » في مدينة « سلوقية »^(١) .

وكانت طريقة المفاداة من أطرف ما عرف عن الأقدمين ، وذلك أن يعقد العرب جسرا على النهر ويعقد الروم جسرا آخر ، فيرسل العرب الرومى على الجسر ، ويرسل الروم العربى على جسره ، ويكون المشرف من جانب الروم بطريقاً من البطاريق . وقد كانت الإمبراطورة (تذورة Théodora) أم ميخائيل الثالث معاصرة للمتوكل ، كما كان تيوفيل معاصرا للمعتصم .

ويقول « فاسيليف » إن الحرب لم تكن على الدوام بين العرب والروم ، وإنما كانت تنقطع حيناً فيحدث بين المملكتين مصادقات ، وألفة وسفارات ، ويكون بينهما التهادى ، فلقد أرسل الملك تيوفيل أحد علماء النجوم إلى قصر المأمون لأموور تتعلق بعلم الرياضيات كان يحبها المأمون .

وأن مجلس العرب في المآدب المملوكية البيزنطية كان قبل مكان « الفرانك » وأن مسلمى الشرق كان لهم المكانة العليا في هذا النظام ، وكان البيزنطيون يسمونهم (الأصدقاء)^(٢) . وقد أثر العرب بنظام حكمهم في نظام الحكم ببيزنطة فكانت الطريقة العامة للحكومة العربية مثل طريقها عندهم^(٣) ، وقد شبه فاسيليف استبداد الترك بالخلافة حتى صيروها اسمية في يد الخليفة ، وفعلية في أيديهم زمن المتوكل ومن بعده ، بما كان مثل ذلك عند الزعماء القواد الرومانيين الشرقيين واستبدادهم بالمملكة دون الإمبراطور وكان يعرف هؤلاء المستبدون باسم (الحكام Les Prétoriens) .

وسرى في الكلام على شعر الحرب لدى المتنبي المقارنة والموازنة بين الجيشين العربى والبيزنطى في القيادة ولبوس العسكر وعتاد الحرب وغير ذلك . وقد وجدت ابن الأثير^(٤) يذكر عادة قطع الرؤوس عند الروم ، وحملها والطواف بها كما عند العرب ، فقد روى أنه في عهد قسطنطين بعد المملكة « تزورة » خرج خارجي من الروم يقال له أرميناس ودعا

(١) نهر اللامس هو Lamios بالرومية و (قوق صو) بالتركية . وسلوقية (سلفكر) بالتركية .

انظر الخريطة العربية عن (بروك) في آخر الكتاب ، وراجع تاريخ الطبرى ١١ / ١٩ .

(٢) كتاب فاسيليف Byzance et les Arabes ص ١٢ . بالفرنسية .

(٣) المصدر السابق ص ١٢ .

(٤) الكامل في التاريخ ط أوربا ج ٩ ص ٣٤٢ .

إلى نفسه فكثّر جمعه حتى زاد على عشرين ألفا ، فأهم قسطنطين أمره وسير إليه جيشا كثيفا فظفر به وقتله ، وحمل رأسه إلى القسطنطينية .

ومن كل ذلك يتبين أن العرب والروم في العصر العباسي كانوا متشابهين في أمور الحرب وقوام الحكومة وطريقة العقاب .

كذلك كانت الحروب بين العرب والروم زمن العباسيين ، تنقطع قليلا لتتصل طويلا ، وقد حرص العرب على إعداد جيش منظم فائق التعبئة ، له زعماؤه وله قواده ، وفيه فرقه ، وله عطاؤه وجراياته . وقد كان معدا على الدوام لكل وجهة ، ورهنا للعمل في كل حرب ، وقد قدر فاسيلييف جيش المعتصم المؤلف من الترك والبربر بسبعين ألفا^(١) .

٦ - خاتمة أسد الثغور

ينسحب البحترى على آثار أبي تمام في كل شعره ، على الرغم مما لزم الآمدى من تفضيله في موازنته ، ولم يكن أبو تمام معلما للبحترى فحسب ، بل كان قدوة لكل من قال الشعر العربي بعده إلى اليوم .

روى صاحب معجم الأدباء أن البحترى « صار إلى أبي تمام وهو بجمص فعرض عليه شعره ، وكان يجلس للشعراء فيعرضون عليه أشعارهم^(٢) » .

وقد لزم البحترى أبا تمام فعلمه الصناعة وهده السبيل في أساليب النظم ، وأغراض الشعر وفنونه وثقافته ، فرأيت طبيعيا أن ينسحب البحترى على آثار أستاذه في المعاني والموضوعات ، حتى في شعر الحرب فيمدح بطولة أسد الثغور (محمد أبا سعيد بن يوسف) ويخلد ذكر حروبه بقصائد كثيرة ، تقارب في عددها قصائد أبي تمام في حارس الحدود الإسلامية تلقاء الروم ، وزاد عليه فيها أن مدح ابنه (يوسف بن محمد) من بعده وامتد عمره حتى رثى الأب وابنه ، وبكاهما ! راثيا الفروسية والبأس ، وباكيا على المكرومة والجلود .

(١) كتابه السابق ص ٤ .

(٢) معجم الأدباء ط دار المأمون بمصر ج ١٩ ص ٢٤٩ .

وقد أفادنا في شعره بأبي سعيد ما لم يذكره المؤرخون ، وشرح ما مجموعه إذ ذكره .
 فلقد كنت أتقصي أخبار أبي سعيد فوجدت الطبرى يقول عن خاتمته في سطر واحد
 « إنه هلك فولى المتوكل ابنه يوسف بن محمد مكانه في حروب الروم ، فضبط أرمينية
 ووجه عماله فيها » . فكانت كلمة (هلك) — وقد عودنا الطبرى أن لا يستعملها إلا
 للمصادرین والمقتولين ، والمغضوب عليهم من أعوان السلطان — باعثة عندى القول بنكبة
 وقعت بأبي سعيد شأن النكبات التى كانت تقع حيناً بعد حين بالولاة والحكام فى زمن
 العباسيين دسيسة وكيدا ، وانتقاما وقهرا ، فنقبت فى شعر البحتري فإذا هو يرثى لأبي سعيد
 وقد (سلم) إلى كاتب نصراني (لسعيد الحاجب) ، وأمر بتعذيبه والغلظة عليه فى المطالبة
 والاستخراج^(٢) فيقول فيه :

هذا ابن يوسف فى يدى أعدائه يُجزى على الأيام بالأيام
 نامت بنو العباس عنه ولم تكن عنه أمية لو رعت بنيام

فيكون من هذين البيتين أن أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى قد اتهمه أعداؤه
 وحساده باحتجان مال الدولة أو ضاق به الخليفة إذ رأى شاعره البحتري قد خصه
 بأروع مدائح ، فسلمه المتوكل إلى حاجبه الكبير ، وسلمه هذا إلى كاتبه ليعذبه
 ويغلظ عليه بالعذاب فيستخرج منه أموال الدولة التى احتجتها فى ولايته على الثغور .

وقد وجدت أن هذه الطريقة فى المصادرة والتعذيب وتكليف بعض الأمراء والحكام
 بمصادرة بعض وتعذيبهم ، مما انفردت به الدول العربية القديمة دون دول الغرب ، وكانت
 هذه الطريقة معروفة ومتداولة فى عهود الدول الإسلامية القديمة ، كما جرى أيام المتوكل
 « لنجاح بن سلمة » وكان على ديوان التتبع على العمال ، فأراد الإيقاع بخصومه فوجد نهزة
 ذلك حين اعتزم المتوكل بناء قصره الجعفرى ، ووجد الإنفاق عليه معسرة ، فقال له
 (نجاح) لو سمعت نصحى فى مصادرة رجال أذكركم لك لأخرجت منهم كل الإنفاق
 على قصرى . فقال الخليفة سم من شئت ، فذكر له (الحسن بن مخلد) وكان على ديوان
 الضياع ، و (موسى بن عبد الملك) وكان على ديوان الحراج . فلجأ هذان المحتجان
 لرعيمها الوزير عبيد الله بن يحيى فسعى (بنجاح بن سلمة) إلى المتوكل وقلب عنده الآية ،

(١) ج ١١ ص ٤٨ .

(٢) ديوانه ط هندية بمصر ٢٦٤٪ ٢ .

فإذا المتوكل يأمر الوزير بمصادرة (نجاح) وإذا الوزير يسلم (نجاحا) إلى خصميه الحسن وموسى ليقتلاه — ولا يسلمه لصاحب الشرطة — فيجوران عليه بالحبس ويقتلانه شر قتلة بعد أن يحمله بصنوف الضرب والعذاب على الإقرار بالمال الذي عنده ، وقد ظهر أن لديه الألوف الكثيرة من الدنانير .

فيكون إذن واضحاً أن ساعياً اتهم (أبا سعيد) عند المتوكل بأخذه مال الثغور ، فصادره المتوكل على ذلك النحو المتقدم ، وعزله عن حرب الثغور وأطاع فيه حساده ، فقال البحرى :

صرفوك عن حرب الثغور بقدر ما عرفوك يا ابن محمد بسواكا
والروم تعلم أن سيفك لم يزل حتفا لصيد ملوكها وهلاكها
لن يأخذ الحساد مجدهك بالمنى الله أعطاك الذى أعطاك

ثم لا يلبث بطل الثغور — كما يظهر من قول البحرى فيه وقد رثاه مرتين — أن يموت بعيداً فى البلد المنقطع ، حيث لا يزار ولا يلم به أنيس ، فى قبر إذا مر به الأبطال ، ذكروا بطولة صاحبه فكسروا فوقه رماحهم ، وشققوا عليه الرايات .

وقد استراح الروم من حروبه فناموا ملء جفونهم ، بعد أن أيقظهم سيوفه طوال عهده على أرمينية فيقول (١) :

لا يهنيء الروم استراحتهم فقد هدؤوا بأفواه الدروب وناموا
أمنوا وما أمنوا الردى حتى انطوى فى الترب ذاك الكر والإقدام
يا صاحب الحدث المقيم بمنزل ما للأنيس بحجرتيه مقام
قبر تكسّر فوقه سمر القنا من لوعة وتشقق الأعلام

ثم يصرح البحرى بنكبته وأسبابها ، فيصوره قد توسد يده فى لحده وبقى شامتوه أحياء فيقول :

وبرغم أننى أن أراك موسدا يد هالك والشامتين قيام

ولا شك أنه بعد مصادرته وتعذيبه ، قد عاد إلى أرمينية وفيها أهله ، وجمعه ، مؤثرا الابتعاد عن دار الخلافة التى أصبح فيها مهانا ، وكان من أعظم الأبطال ويدعى بالأمير

أيام المعتصم ، فمات هنالك حزنا ، وكان قد عود ابنه يوسف الحرب وجعله يألف مداخل
ديار الروم ومخارجها ، فلذلك أرى أن المتوكل قد اضطر بعد مهلك الأب إلى عقد ولاية
الثغور لابنه .

لكن هذا الفتى لم يلبث أن لحق بأبيه ، إذ وثب عليه بطارقة أرمينية — كما ذكرت —
فقتلوه وقطعوه ، وبلغ المتوكل أمره فانتقم له أروع انتقام^(١) .

(١) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٠ .

الفصل الرابع

الحرب البحرية

١ - الحرب البحرية عند العرب

حاول العرب منذ أيام عمر بن الخطاب أن يكتنوها (الحرب البحرية) ويعرفوا خطرها وكانت السياسة والفتح يقتضيانهم معرفة أخطار هذه الحرب واكتناها البحار من أجلها ، لأن سواحل الشام التي أخذوها من أيدي الروم ، كانت مرتبطة التجارة والحكومة بالقسطنطينية وسواحل أوربا الجنوبية . وكان للروم أسطول ، وهم أمة قبل المسلمين عرفوا البحار ومخروا عباياها .

فلما ملك المسلمون مصر كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص عامله عليها أن صف لى البحر . وكان عمر يقصد (بحر الروم) فكتب إليه عمرو بن العاص^(١) : « إن البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف ، دود على عود » .

فأوجس عمر خيفة على المسلمين من البحر وأوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه وهو يقول : « والذي بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما وتالله لمسلم واحد أحب إلى مما حوت الروم » .

ولما بلغه أن (عرفجة بن هرثة الأزدي) سيد بجيلة غزا عمان في البحر أنكر عليه ذلك وعنقه إذ ركب البحر للغزو .

ولم يكن المسلمون أمة حرب في البحر حتى عصر معاوية ، وكان معاوية محبا لأسباب الحضارة يغرى العرب بها ويحملهم عليها ، وأعدده أول من فتح باب التطور للأمة العربية منذ كان عاملا لعمر على ديار الشام ، فقد كانت طقوس حفلاته مشابهة لطقوس الحفلات عند الروم من حشد العسكر على جانبي الطريق وقرع الطبول . وقد أنكر عليه عمر ذلك لما زاره (زيارته التفتيشية) التي جاء بها إلى ديار الشام وبيت المقدس^(٢) فقال له « يامعاوية

(١) مقدمة ابن خلدون الطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٩٣٠ ص ٢١١ .

(٢) قال عمر : لأسيرن في الرعية حولا فإنى أعلم أن للناس حاجات تقطع دوفى أما عاملهم فلا يرفعونها إلى وأما هم فلا يصلون إلى (التاريخ الكامل لابن الأثير ط أوربا ٤٢٩/٣) .

أأنت صاحب الموكب آنفاً مع ما بلغني من وقوف الناس ببابك » . فقال معاوية : يا أمير المؤمنين إننا في بلد قريب من العدو الرومي وبيننا جواسيسه ، فلا بد لنا من إظهار مثل ما ترى ليحسن وقع خطبنا عنده . فأعجب بفعله عمر وتحفظ في إقراره عليه ، ولم ينهه ، فلا غرابة إذ من معاوية أن يدخل الحرب البحرية على الجيش العربي زمن خلافته ، فيخرج العرب من بداوتهم إلى الحضارة ويجعلهم أنداداً للروم في حرب البحر ، ولم يكن على الماء من عدو لهم غير الروم . وإن بلاد الشام والأناضول وسواحل مصر كانت يومئذ خطاً محيطاً بحوض الروم ، وأسطول البيزنطيين يعبر ذلك البحر من القسطنطينية إلى السواحل الأفريقية جيئةً وذهوياً ، دون أن يجد في طريقه معارضاً . وكانت أمم الفرنجة والصقالبة والروم مهرة في ركوب البحر وأهل تجارات ، وقد عرفوا الحرب البحرية من طويل الزمان وما راع الروم إلا معاوية وقد عبأ أسطولا عربيا يرسل فيه المسلمين ليجاهدوا على أعواده وليركبوا البحر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

ولم يكن عمرو بن العاص ليخاف من البحر مثل عمر ، فلما استقر أمره في مصر بعد فتحها أبه للبحر ، وعرف أنه عين الخطر من جهة الروم فعنى بالحرب البحرية ، وكان لديه أسطول جسيم . فقد ذكر المقرئزي^(١) أن عبد الله بن سعيد بن أبي سرح « كان أمير البحر في شواطئ مصر سنة ٣٤ للهجرة وكانت مراكب المسلمين نيفاً ومئتي مركب » وكان (بسر بن أرطاة) أميراً للبحر ، معيناً لعبد الله بن سعيد ، وكان خصمهم في إحدى المواقع البحرية مع الروم (ابن هرقل) فقاتلوهم بالنبال والنشاب ثم التحمت المراكب وعددها من قبل الروم ألف مركب فاقتتلوا بالسيوف حتى هزموا الروم وشتتهم ، وسميت هذه المعركة البحرية (بغزوة ذى الصواري) في مياه الإسكندرية بعد فتحها أيام عمرو بن العاص وكان مع عبد الله (علقمة ابن زيد) و (كريب بن أبرهة) من أمراء البحر ، وقد كان للنساء العربيات نصيب في هذه المعركة البحرية . فقد روى المقرئزي أن أمير البحر عبد الله بن سعيد كانت معه امرأته (بسيسة ابنة حمزة بن يشرح) وكان الناس يغزون بنسائهم في المراكب ، وكانت بسيسة تشارك في القتال وتعطى رأيا فيه ، وهلك عنها عبد الله فتزوجها علقمة بن زيد ، وهلك عنها هذا ، فتزوجها كريب بن أبرهة^(٢) .

(١) الخطط للمقرئزي ط مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ ج ١ ص ٢٧٣ .

(٢) شأن العرب بعد الإسلام في الحروب حين كانوا يتزوجون الأيامى زوجات الأبطال والشهداء جبراً لخواتمهن وصوناً لكرامتهن .

وقد تفصّل أخبار (معركة الصواري) هذه (جاستون فييت)^(١) فذكرها في الجزء الذي ألفه عن (تاريخ الوطن المصري) في مجموعة (جبرائيل هانوتو) وقال إن (ماريوس كانار)^(٢) تعقب ذكر هذه المعركة في (كتب الروم) و (العرب) فتوصل إلى أن قائد الأسطول الرومي في هذه المعركة كان البطريق (مانويل) وأن الجنود البيزنطيين خرجوا من الأسطول إلى البر ودخلوا الإسكندرية فخف إليهم (عمرو بن العاص) بجيش برى ، وكان يعينه أسطول عربي فهزم العرب الروم في البر ، ورمى الروم بأنفسهم على مراكبهم ، وقتل رئيسهم البطريق (مانويل) في معركة جرت في شوارع الإسكندرية بين العرب والروم . . . وإن العرب منذ تلك المباغطة فكروا ببناء أسطول ضخم يناظر أسطول الروم^(٣) . وكان المصريون من أبرع البحارة أيام البيزنطيين قبيل الفتح العربي لمصر ، فصاروا لدى العرب بناء أسطولهم الجديد .

وذكر (جاستون فييت) أن معاوية في سنة ٦٤٩ للميلاد قاد أول أسطول عربي في البحر وكانت معركته الأولى مع الروم ظافرة فبشرت بنجاح حربي قابل .

وناقش جاستون فييت نفسه في اسم هذه المعركة فقال إن العرب تسميها (معركة الصواري) لأن أعمدة المراكب البيزنطية والعربية قد التحم بعضها ببعض في هول التقابل . أما ماريوس كانار فيدعي (أن الصواري) اسم قرية على البحر في ساحل مصر بالقرب من مكان يسمى (Phoenix) أي العنقاء .

وقد هدأ نهزام الروم في هذه الواقعة جيشهم البحري حتى كان (تيوفان البيزنطي) المؤرخ « يقرن هذه الحية التي منى بها الروم ، بحية واقعة اليرموك » .

وفات جاستون فييت أن المقرئ صاحب الخطط قال : إن الصواري اسم مكان في مياه مصر وأنه ليس ماريوس كنار أول من قال ذلك^(٤) .

وكان أمراء البحر في خلافة عثمان بن عفان^(٥) عبد الله بن نافع بن الحصين ، وعبد الله

(١) جاستون فييت كان أستاذ اللغات الشرقية في جامعة باريس ، وكان مديراً للمتحف الوطني في القاهرة ، ألف كتاباً جليلاً عن مصر في عهد الإسلام منذ الفتح إلى حملة نابليون ونشر هذا الجزء في المجموعة التاريخية الكبرى المسماة (Histoire de la Nation Egyptienne, Par Gabriel Hanotaux) طبع بلون بباريس سنة ١٩٣٧ tome IV .

(٢) ص 28 من هذا المصدر .

(٣) ص 29 من المصدر السابق .

(٤) الخطط للمقرئ الطبعة السابقة ج ١ ص ٢٧٣ .

(٥) التاريخ الكامل لابن الأثير ط أوربا ج ٢ ص ٧٢ .

ابن نافع بن عبد القيس ، وعبد الله بن قيس الجاسي ، وكان لهذا الأخير نحو من خمسين غزوة في البر والبحر ، ولم يغرق في غزواته في البحر أحد من جمعه .

وذكر (آغابايوس المنبجي)^(١) في (كتاب العنوان)^(٢) أنه في السنة الثالثة لعثمان ،

ركب معاوية البحر وصار إلى قبرس ، فافتتحها وكان معه ألف وسبعمائة سفينة مملوءة سلاحاً وأموالاً . وأن معاوية^(٣) غلب في البحر (قسطوس) ملك الروم وأحرق سفنه وهزمه . ولحقه إلى الروم فلبجاً (قسطوس) إلى صقلية ، وفي السنة الرابعة عشرة لمعاوية^(٤) غزت العرب الروم في البحر فانهزم أسطول معاوية وأحرقه الروم . ثم غزوا سواحل سورية فجاءوا إلى صور وصيدا في السنة نفسها .

فيتين من روايات آغابايوس المنبجي^(٥) أن الحرب البحرية كانت سجالاً بين المسلمين الروم في عهد معاوية ، ويقول ابن خلدون^(٦) « إنه استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خوفاً لهم وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته ، استخدموا من (النواتية) في حاجاتهم البحرية أمماً ، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته وشغفهم الجهاد فيه ، فأنشأوا السفن وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، والعساكر والمقاتلة ، لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر على حافته

(١) كتاب العنوان لأغابايوس المنبجي من المصادر النفيسة للتاريخ الإسلامي وأول من ذكره المستشرق (Assemanic) سنة ١٧٤٢ في جدول نشره لمجموعة المخطوطات الشرقية في مكتبة فلورنسا ثم عقب بعده المستشرق (هوار) فأشار إليه سنة ١٩٠٢ م حتى جاء (اسكندر فاسيلييف) المستشرق الروسي فنقله من العربية إلى الفرنسية ونشرته على أجزاء متفرقة (مجلة) آباء الكنائس الشرقية التي تصدر عن باريس باسم Patrologia Orientalis Fascicule 3 tome VIII العنوان (٢) كتاب العنوان بإشراف فاسيلييف طبع باريس ١٩٠٨ (220) من

مجموعة (Patrologia Orientalis)

(٣) المصدر السابق ص (224)

(٥) أما آغابايوس المنبجي مؤلف كتاب العنوان Kitab al-unvan فهو مؤرخ عربي رومي يقال له (i.gapiu) بن قسطنطين المنبجي وكان أسقف منبج في القرن العاشر للميلاد وكان للحوادث التي ذكرها في كتابه أثر بعيد في توضيح المعالم التاريخية لدى المؤرخين الروميين . ولم يأبه له العرب كثيراً ، وقد عني في كتابه بتاريخ الروم وحوادث الفرس كما عني بحوادث التاريخ العربي (من مقدمة فاسيلييف على الجزء الأول من الكتاب) .

(٦) مقدمة ابن خلدون الطبعة السابقة الصفحة نفسها .

مثل الشام وأفريقية والمغرب والأندلس .

وما جاء عبد الملك بن مروان حتى كان العرب قد تفرسوا بآفات البحار . ولم يعد يذعرهم فيها الذعر . مما دعا عبد الملك أن يكتب إلى عامله على أفريقية حسان بن النعمان ، بأن يتخذ داراً لصناعة الآلات البحرية والسفن ، (وهو ما يعبر عنه في زمننا بترسانات) وكانت استجابة عامله إلى ذلك وسيلة إلى فتح صقلية .

ثم أخذ العرب في الأندلس بهذه الضرورة البحرية فأنشؤوا الأساطيل . ولا ريب في أنهم كانوا أقرب إلى تجويدها من المشرقين . لوجودهم في الغرب ، ولأن الأمة الإسبانية كانت أمة بحار ، وصاحبة أساطيل . فكان تقليدهم واقتباسهم في ذلك أسهل وأجدى . . . لكن الأسطول العربي بقي ضعيفاً تلقاء الأسطول الرومي في الحوض الأبيض ، لحدائثة عهد العرب في ذلك ، ولاشغافهم في حروب الشرق فيما وراء النهر من بلاد فارس ، وبالفتن الداخلية في أرجاء العراق وديار الشام .

ولم يكن بدعا من العباسيين أن يحصنوا الإسكندرية من جهة البحر^(١) ، وأن يكلفوا من كان في سيف البحر في الشام ومصر من الصناع والنوتية ، أن يصنعوا السفن البحرية ، لا سيما اللبنانيين القداحي ، فإنهم كانوا بحريين من سواحل لبنان ، والأمة الفينيقية التي كانت على سواحل لبنان هي التي علمت الأمم القديمة فن السفن ، وشق البحار ، وكان شجر الأرز في لبنان هو الذي تصنع منه أخشاب السفن معوانا على ذلك .

فلم يلبث العباسيون أن أوجدوا لحيشهم أسطولا ضخما يكاد يبدد الأسطول البيزنطي ، ولا شك أن هذا الأسطول كان في إبان عظيمته وقوته . أيام الرشيد والمعتصم ، ثم تخاذل وتضاءل بعد عهد المتوكل . ودليل على أن البيزنطيين قد اجترؤوا في عهد المتوكل على أن يشقوا البحر الأبيض من شماليه إلى جنوبيه ليغزوا مصر ، ما روى صاحب (النجوم الزاهرة) الذي عني خاصة بالحوادث التي لا بست تاريخ مصر . أنه في سنة ٢٣٨ هـ^(٢) وهي موافقة لخلافة المتوكل قصد الروم دمياط في ثلاثمئة مركب فكبسوا البلد ، وسبوا ستمئة امرأة ، ونهبوا وأحرقوا وبدعوا . ثم فصل هذه المباغثة الرومية^(٣) ، فقال : « إنهم

(١) مقدمة ابن خلدون الطبعة السابقة ص ٢٩٣ .

(٢) ج ٢ ص ٢٩٢ .

(٣) ص ٢٩٥ .

تركوا دمياط بعد أن حاربهم أهلها ، إذ كان الجند الموكل إليهم حراسة دمياط ، غائبين في القاهرة ، حفاوة بجفل كان أقامه ليلة العيد عامل المتوكل « أبو رجاء عنبة بن إسحاق » ثم إن الروم الذين نزلوا من الأسطول ذهبوا من دمياط إلى بلدة (أشموم)^(١) ، فلم يقدروا عليها فعادوا إلى بلادهم ولحقهم أبو رجاء بجيوشه فلم يدركهم .

وقد ذكر هذه الحادثة الطبرى^(٢) ، وذكر أسماء الربانة الذين قادوا الأسطول ، وكان ثلاث فرق ، كل فرقة مئة سفينة ، فأرسي (ابن قطونا) بدمياط ، فأحرق سفن المصريين التي كانت في شطها ، وسبي نساء قبطيات مع المسلمات ، وأحرق المسجد الجامع بدمياط والكنائس ، وحاز المال الكثير والسلاح .

* * *

يقول « ستيفان رونسيان »^(٣) في كتابه (الحضارة البيزنطية) عند كلامه على (البحرية البيزنطية) إن البيزنطيين لم يكونوا يعبئون بحرب البحر ولا (يعطونها كل أنفسهم) قبل أن يستفحل أمر العرب ، فلما أنشأ العرب أسطولهم قضت الضرورة على البيزنطيين أن يبذلوا جهودهم في تنظيم أسطولهم وإعداده على الدوام « للمصادمات العربية » وأن أسطول البيزنطيين أبعد أسطول العرب عن القسطنطينية مرتين حافظ على جزيرة صقلية من غزوات العرب .

وكان أسطول البيزنطيين يهمل أمره كلما ضعف أسطول العرب ، وكان العرب يفرغون كل ما في وسعهم على أن يأخذوا من الروم صقلية ثم كريت ، وأن يجعلوها قاعدتين للمهاجمة الدائمة على بيزنطة واليونان في بحر (إيجه) حتى كان عهد (تذكورة وميخائيل الثاني) ثم من بعدهما (بازيل) فنفخ هؤلاء روحاً جديداً في الأسطول البيزنطي ، وأنشؤوا دور صناعة السفن على شواطئ بحر الروم ، وكان أعظم أمير للروم على البحر يوم ذلك (أوريافاس Oryphas) ويقول رونسيان إن المؤرخ الرومي (تيوفان قونطيناوس^(٤)) يصف غزوة

(١) يسميها الطبرى (اشتموم) وهي اشموم على ما ورد في معجم ياقوت .

(٢) تاريخه ٤٨ / ١١ .

(٣) La civilisation Byzantine .

تأليف Stevan Runcima الأستاذ بجامعة كامبردج ، الترجمة الفرنسية طبع بايو بباريس سنة ١٩٣٤

ص (١٥٧) .

(٤) Théophan Continuatus .

بحرية قام بها سنة ٩٠٤ للميلاد أحد أبطال البحر عند المسلمين وهو ليون (الطرابلسي^(١)) ، فبلغ تساليا^(٢) ، فنهبا وأقام فيها زمنا ولم يستطع الأسطول الرومي أن يقف في سبيله ، أو أن يجلي العرب عن تساليا إلا بعد سنين إذ حاربه الروم وقتلوه .

وفي عهد (نيسيفور فوكاس) سنة ٩٦١ للميلاد أصبح الأسطول العربي (في حيز العدم) واستطاع هذا الإمبراطور الجبار أن يقول فخورا : « أنا وحدي سيد البحار^(٣) » . لكن الحروب المتوالية لم تلبث أن عفت على آثار الأسطول البيزنطي ، وهدمت دور الصناعة البحرية على ساحل البحر ، ثم عاد الروم إلى النهوض حينما بعد حين ، بحرب البحار حتى كانت الحروب الصليبية .

* * *

أما المعتصم الذي كسر شوكة الروم في البر ، بعد خراب عمورية ، حتى لم تقم لها قائمة في البحر في زمنه ، فكان ذا نزعة للحرب البحرية فقد بنى سفينة كبرى سماها (الزو) وكان يجب أن يشهد العسكر في البحر ، كما فعل ذات مرة إذ أمر (بعرض عسكري بحري) وذلك أن (الزط) وكانوا ألوفاً وقد شمسوا عليه ، ثم أطاعوا وسلموا ، فأمر بعرضهم في دجلة وكان عددهم سبعا وعشرين ألفاً فيهم اثنا عشر ألف مقاتل ، فأمر بقائده (عجيف) الذي كسر الزط ، أن يمر بهم^(٤) (وهم في زواريقهم على هيئتهم في الحرب معهم الأبواق ، حتى دخل بهم بغداد) وكان المعتصم يشاهد هذا العرض وهو في سفينة الزو حتى مر به الزط على تعبثهم وهم ينفخون في الأبواق .

ففي تسريح الخيال نحو هؤلاء الزط وعددهم اثنا عشر ألفاً . يمكن للفكر أن يحسب عدد سفنهم ، وأن يتمثلهم وعليهم دروعهم ، وبأيديهم سيوفهم ورماحهم ونشابهم ، والأبواق في أفواه النافخين ، تملأ سماء (الشماسية)^(٥) التي كان يعرضهم فيها المعتصم ، وأحسب أن هذا أول عرض بحري عرفه العرب . وكان الأمين قبل المعتصم ، معنيا بالسفن البحرية ؛ وكان يجعل بعضها للترهة ، فقد بنى سفينة (الدلفين) وقد وصفها (أبو نواس) بقصيدة .

(١) Lecn de Tripoli

(٢) Thessalonique

(٣) المصدر السابق من كتاب رونسان

(٤) تاريخ الطبري ٣٠٦/١٠

(٥) مكان بسامرا .

وذكر أبو الفداء المؤيد^(١) أن الأمين عمل خمس حراقات في دجلة على صورة أسد وعلى صورة الفيل والعقاب والحية ، وعلى صورة الفرس ، وأنفق عليها مالا عظيما ، حتى قال أبو نواس يصف هذه السفن ويعجب لما فيها من الهيئات والأشكال مما لا يعرفه العرب وإنما كان معروفا عند الروم :

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرن برا سار في الماء راكبا ليث غاب
عجب الناس إذ رأوك عليه كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات سور ومنسر وجناحين تشق العباب بعد العباب

والظاهر من قول أبي نواس أن (العقاب) كان (قطعة) جبارة من قطع الأسطول عند الأمين وكان يركبها في حروبه البحرية ، وكانت ذات منسر ومقدم وجناحين ، والمراكب ذوات الأسوار من اختراع العرب كما يرسم ذلك المؤرخ الفرنسى (شلمبرجة) في كتابه عن الإمبراطور (نيسيفور فوكاس)^(٢) فقد أثبت فيه صورتين للسفن الحربية العربية في العصر العباسي ؛ وهى سفن مسورة فيها بروج مبنية على طريقة أبراج الحصون بشرفاتها المكشوفة المحيطة بوسطها التى يسميها الفرنجة (Créneau) وفيها مقاذف جسام ومنجنقات . كما أثبت شلمبرجة صورا ثانية للسفن العربية البحرية التى كانت تحمل قذائف النار .

٢ - أسطول المتوكل والمعركة البحرية

لئن تغفلت المتوكل (تدورة) (تيدورة)^(٣) ، فأرسلت أسطولها إلى غزو دمياط - كما قدمت - فإنه كان يملك أسطولا جرارا ثقيلا . لم يصفه المؤرخون - جريا على عاداتهم في اقتضاب بعض الحوادث القيمة الخطيرة - وإنما الذى نهض بوصفه وحده هو البحرى

(١) تاريخه ج ١ ص ٢١ .

(٢) سأصف هذا الكتاب عند الكلام على شعر الحرب لدى أبي الطيب المتنبي وعصر الحمدانيين في

حروبهم مع البيزنطيين .

(٣) Théodora وكانت تسمى (تيدورا الفاصبة) وهى من الأسرة العمورية حكمت بيزنطية من

سنة ٨٤٢ إلى سنة ٨٥٦ للميلاد . فهى معاصرة للمتوكل إذ كانت خلافته حسب أعوام الميلاد من سنة ٨٤٧ إلى

سنة ٨٦١ الموافقة للهجرة من سنة ٢٣٢ إلى سنة ٢٤٧ .

والمؤرخون البيزنطيون الذين نقل عنهم المستشرقون المعاصرون ، فقد ذكر (ماريوس كانار)^(١) أنه لم يصف أحد من مؤرخي العرب هذه الحملة البحرية أيام المتوكل التي سار فيها الأسطول العربي نحو بيزنطية وأن البيزنطيين يسمون قائد أسطول المتوكل Apodenar وهم يعنون (أحمد بن دينار) ، وأن المؤرخين البيزنطيين يذكرون هذه الغزوة البحرية التي انتهت بهلاك الأسطول الرومي ، بسبب الإعصار والعواصف البحرية .

ذلك ما لاحظته (ماريوس كانار) على تاريخ الغزوة البحرية أيام المتوكل ، لكن البحري قد وصف هذه الغزوة وصفاً رائعاً حتى قال عنه النويري صاحب نهاية الأرب^(٢) : « لم يصف أحد من المتقدمين والمتأخرين القتال في المراكب إلا البحري » ، فكانت هذه القصيدة من البحري^(٣) نفيسة القدر ، في شعر الحماسة العربية ولاسيما كونها (في الحرب البحرية) عند العرب ، التي غزا فيها (أحمد بن دينار بن عبد الله) بلاد الروم ، وقد ذكر البحري اسمه في هذه القصيدة وفضله على البحر . بعد أن تولى الإمرة عليه وتديبره فيه ، وحمله الرماح العوالى على الماء ، فكأنه ليس يمحخر في البحر فقال :

بأحمد أحمدا الزمان وأسهلت لنا هضبات المطلب المتوعر
ولما تولى البحر والجود صنوه غدا البحر من أخلاقه بين أبحر
أضاف إلى التدبير فضل شجاعة ولا عزم إلا للشجاع المدبر
إذا شجروه بالرماح تكسرت عواملها في صدر ليث غضنفر

ثم يصف البحري أوان سفره بالأسطول ، وقد ركب (أمير البحر) أحمد بن دينار (قطعته البحرية) الخاصة واسمها (الميمون)^(٤) وكان الوقت صباحاً .

ولا يفتر أبو عباد — على عادته — عن التلاعب بالمعاني وقلب الألفاظ فقد جعل ابن دينار هو المظفر والميمون غدا تحته بعد أن غدا هو فوقه . ويظهر من وصف البحري أن ابن دينار مضى في أسطوله بادئ السير على هيئة « عرض بحري » ؛ فوصفه وقد

(١) في أعقاب كتاب (فاسيليف) (Byzance et les arabes) المتقدم ذكره ووصفه .

(٢) ج ٦ ص ١٩٧ .

(٣) ديوانه ط هندية بمصر ج ٢ ص ٢٣ .

(٤) أعدها من سوابق العرب في فن البحار إذ كانوا يسمون (قطعهم البحرية) بأسماء خاصة كالعقاب التي سماها الأمين ، والميمون هذه ، وقد جرت على ذلك الأمم الحديثة حتى سمنا مسميات كثيرة لقطع الأساطيل الغربية مثل (أجاكس) و (آرک رويال) عند الإنكليز و (جان دارك) عند الفرنسيين .

(أطل) ثم (مر) وكأنه فارس على حصان مشهر ، ثم كانت بعد هذا العرض (زججرة النوتى فوق العلاء)^(١) وقصد بها البرج المرتفع فى وسط السفينة الذى يمر الصارى الكبير من أسفله إلى أعلاه ، ومنه يستكشف النوتى طريق البحر ، وما زججرة النوتى إلا (الأوامر العسكرية) للجنود البحرية وقد صور البحرى نظاهم واصطفاهم لتلقى الأوامر من رئيسهم (الإشتيام) (Ichtyame)^(٢) فمثله فى وصفه بأن النوتيين وهم فى حضرته كانوا يغضون أبصارهم وهم فى صفين متقابلين كأنهم وقوف فى سماطٍ انتظاراً لمرور الأمير العظيم فقال :

غدوت على الميمون (صبحا) وإنما غدا المركب الميمون تحت المظفر
(أطل) بعظفيه (ومر) كأنما تشرف من هاذى حصان مشهر
إذا زججر النوتى فوق (علاته) رأيت خطيباً فى ذؤابة منبر
يغضون دون (الإشتيام) عيونهم وقوف السماط للعظيم المؤمر

ثم قفز البحرى من هذا الوصف الهادئ المطمئن إلى مقدمة المعركة البحرية وهى قفزة مألوفة فى عادة شعرائنا الأقدمين ، فى ضيق الدرع وقصر النفس فى الشعر ، فصور كيف اهتز الأسطول لهبوب الريح . فتسلق الإشتيام أعالى الصوارى (ليشد القلاع) صموداً لريح الجنوب العاصفة ، فكانه على جناح عقاب ، ذاهب فى السماء . ثم ينكفئ هذا الأسطول فى الماء ، فيندفع متلفاً بعبابه ، فكان الماء أبراد محبرة ترفع بها جسمه .

ويلتفت البحرى بعد ذلك إلى جنود البحر ، فيصفهم بأنهم ملتفون حول ابن دينار ، وهم ركابون للهول معاقرون لكؤوس المنايا ، فيهم دارعون وفيهم حسر قادة الآلات الذين ليس عليهم الحرب : وإنما هم متخفون من الدروع ومن عائق الثياب ، أمام آلاتهم

(١) العلاء فى اللغة سندان الحداد . ومن شكله ذهبت إلى أن البحرى أراد به (برج الصارى) فى السفينة الذى يكون فيه المرصد ومكان النوتى الآمر ، ودليل على ذلك أن البحرى شبه وقفة النوتى فيه كوقفة الخطيب فى رأس المنبر .

(٢) الإشتيام كلمة معربة ولفظها فى الفرنجة (Ichtyame) وقد ورد فى معجم (Augé) الفرنسى أن (إشتى) كلمة يونانية معناها المسيح المنقذ (Christ Sauveur) و (آم) من معانيها الروح والحرارة فكلمة إشتيام التى أوردها البحرى فى وصف من يسمى بها بأنه ذو أمر ونهى ، ينبغى أن تكون وصفاً لرئيس المركب الذى ينقذه ، ويكون له فى البحر بمنزلة المسيح . والكلمة فى أصلها رومية . وذكر معناها صاحب (لسان العرب بمادة شتم) فقال (الإشتيام رئيس المركب) .

يديرونها وكان الدارعون ضاحين للعدو والحاسرون في غير ذلك .

فقال في هذا الوصف وهو يعنى المركب (الميمون) :

إذا عصفت فيه الجنوب اعثلى لها جناحا عقاب في السماء مهجر^(١)

إذا ما انكفا في هبوة الماء خلته تلمع في أنشاء برد محبر

وحولك ركابون للهول عاقروا كؤوس الردى من دارعين وحسر

وآذن البحترى بوصف (المعركة البحرية) فصور الجنود وهم يميلون (بالنشاب) ،

فحيثما مالت أكفهم بحد الحديد مالت المنايا .

ثم باشرنا (قذف اللهب)^(٢) ، فرشقوا بالنار فأحرقوا السفن وجسوم من فيها ، حتى

(شَمُّ القنار) وهو اللحم المشوى ، وقد خاطب البحترى ابن دينار كيف صدم بجنوده هؤلاء

الصلاد ، جنود البيزنطيين ، أصحاب اللحي الشقراء (صهب العثانين) فكان ضرب جنود

المسلمين عليهم كإيقاد النار المشتعلة :

تميل المنايا حيث مالت أكفهم إذا أصلتوا حد الحديد المذكر

إذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم ليقلع إلا عن شِواء مقتر

صدمت بهم (صهب العثانين) دونهم ضراب كإيقاد اللظى المستعر

وقد وصف (شلمبرجة) البيزنطيين والمسلمين في الحرب البحرية فذكر القذائف النارية

التي كان العرب يستعملونها في أساطيلهم في العصر العباسي وقد نقل هو هذا الوصف عن

المؤرخ Saulcy بأن العرب افتتوا فنا في القذائف النارية ، لم تعرفه الروم .

وذلك أنهم اخترعوا (الرمانة العربية) يصنعونها من الفخار . وكان عندهم ثلاثة أسماء لها .

الزيت المحرق ، النار البحرية ، الشعلة الذائبة .

وكانت هذه (الرمانة) تشتعل وهي على سطح الماء وقد تلحق بالجنود السابحين

الهاربين^(٣) .

(١) عصفت هذه الريح على أسطول ابن دينار مصداق لما ورد عند المؤرخين البيزنطيين كما نقل ماريوس

كنار من أن المعركة كانت محفوفة بالعواصف المهلكة .

(٢) وهو ما يعبر عنه بلغة الفرنجة في عصرنا (Projectile de feu) وفي لغتنا اليوم (صواريخ نارية)

وكان يسمى عند الروم الأقدمين (feu Grégeois) : (النار الأغريقية)

(٣) قلت لعمري هذا هو وحى (الطوربيد) torpille عند الأمم الغربية المعاصرة . انظر هذه

الصور الأصلية للرمانة المتفجرة في ص ٥٩ من كتاب شلمبرجه .

ويقول (شلمبرجة) إن هذه الرمانة قبلية كانت تحشى بالنفط يرميها العرب على الأساطيل البيزنطية أو على الحصون المحاصرة ، وهى حين تنفجر تنفذ شعلتها من كل الجهات فى الأسفل كما فى الأعلى فتصدع كل شئ حتى الحجارة ، وأن البيزنطيين صاروا يستعملونها ، وقد أثبت هذا المؤرخ صوراً ثانية لهذه (القبلة العربية) وهى على شكل الحجرة الصغيرة ذات فروع وفى كل فرع ثقب . وأثبت فى كتابه صوراً لسفن من الأسطول العربى ، وقد صفت هذه القنابل على أخشاب فيه ، معدة لحملها ، واحدة بجانب الثانية ، وفى كل سفينة عدد كثير منها^(١) .

ثم يصف البحرى الروم بأنهم أصحاب اللحى الشقراء ، كانوا يسوقون أسطولا لم تلبث سفنه أن تقشعت وتكشفت (كسحائب الصيف) بعضها كان سفناً قوية صلبة ، كالسحاب الممطر ، وبعضها كان سفناً سخيفة كالسحاب الجهام الذى ليس فيه مطر . وضج البحر بين الرماح المشجرة والسيوف المتراطمة على الحديد ، فكانت هذه الأصوات فى الأسماع مثل أصوات الإبل الهادرة الحجرية ، وكانت السفن المتقارعة فى هذه المعركة الهائلة تتدانى رؤوسها فكأنها أعناق وحوش نافرة ، كان يؤلف بينها ، ويروض شماسها (أحمد بن دينار) . ذلك سحر البحرى فى تصويره للمعركة البحرية حيث يقول عن الروم :

يسوقون (أسطولا) كأن سفينه سحائب صيف من جهام ومطر
كأن ضجيج البحر بين رماحهم إذا اختلفت ترجيع عود مجرجر
تقارب من زحفهم فكأنما تؤلف من أعناق وحش منفر

فكان البحرى فى تشبيه ضجيج البحر والرماح بالفحل الصائح ، وتشبيه تلاقى المراكب من رؤوسها بأعناق الوحش النافر ، بدوى الخيال لم تصقل الحضارة خياله ، وهو الذى عرف البداوة فانطبعت عليها حدائته .

ويظل البحرى يخاطب فى القصيدة أحمد بن دينار مما يبعث على الحكم أنه أنشده إياها بعد عودته من المعركة ظافراً ، وفى حفل استقباله عند أوبته من غزوة الروم فى البحر . فيذكر أنه لم يترك المعركة البحرية حتى انتهت الحرب عن أعناق مقطعة ورؤوس مطيرة ، والهام المقطعة تدلنا على أن العرب خالطوا بسفنهم سفن الروم ، فقفروا إليها وأعملوا السيوف فى رجالها ، فقطعوا رقابهم ، ودليل هذا التقارب قول البحرى بأن ابن دينار نا

(يقارب الزحفين ويؤلف بين أعناق السفن) والهام المطير هو أثر القنابل الفخارية التي كانت تنفجر فتطير الهام عن الأجسام .

ثم يعلمنا البحرى فى آخر القصيدة ، بأن أحمد بن دينار بن عبد الله فارسى الأصل (ابن كسرى) قديماً وحديثاً ، (فهو يستحق لقب سليل الملوك) وهو بذلك اللقب جدير بأن يصدع صحرة ابن قيصر (ملك بيزنطية) وهو دليل على أن أسطول الروم ، كان بقيادة ابن صاحب القسطنطينية ، وأرى أن هذه الغزوة البحرية التي كانت فى خلافة المتوكل قد حدثت فى أوائل خلافته ، وإبان قوته على الروم تلك القوة التي ورثها عن والده المعتصم ، وعن أخيه الواثق ، فى حوالى سنة (٨٥٠ للميلاد) زمن تيودورة على عرش القسطنطينية أى بعد حكم تيوفيل^(١) المعاصر للمعتصم ، والذي كانت فى أيامه وقعة عمورية . وقد ذكره أبو تمام فى رومياته الحربية .

وفى نهاية القصيدة وصف البحرى فرار (ابن قيصر) طائراً على ألواح خشب طويلة مسمرة ، ويعنى البحرى بذلك مركبه المصدوع بعد المعركة وقد ساعدته الرياح العاصفة فنجاً من الهلاك . إنه لمحتمل فى التفسير لشعر البحرى أن تكون الرياح قد عصفت فى إبان المعركة أو عند انتهائها ، فرضى ابن دينار بهذا القسط من النصر ، فأوقف الحرب وتركها خشية من متابعة الالتحام مع الأعداء وما يجز ذلك من سوء العقبى ، أو أن ابن قيصر نفخت شراعه الرياح فطار به مركبه ، فكان بذلك مولى للرياح التي أطلقتته .

وراح هذا المهزوم الرومى يرى الموج بنظرة المصعوق المرعوب ، إذ كان يود أن يراه مندفعاً متدافعاً فى ظهر سفينته الهاربة ، يزجها على يد الرياح ، حتى فاز فى فراره متعلقاً بأرض الروم الكبيرة ، وفاته الردى الذى كان مسرعاً إليه .

وقول البحرى (الأرض الكبيرة) يدلنى على أن المعركة البحرية جرت فى مياه الروم البعيدة عن القسطنطينية ، أى فى مياه الإسكندرية وما جاورها ، إذ تمكن (ابن قيصر) من أن يفر من المياه التي فى أرض الروم الصغيرة ، إلى أرض الروم الكبيرة ، وينبغى أن يكون ابن قيصر هذا هو البطريق الذى كان أمير البحر على أسطول الروم فى معركته مع العرب .

(١) حكم تيوفيل Théophi'c من سنة ٨٢٩ إلى سنة ٨٤٢ للميلاد وهو من الأسرة العمورية .

ففي ذلك يقول البحترى لابن دينار :

تقطعها فيها وهام مطير	فما رمت حتى أجلت الحرب عن طلي
ملياً بأن توهي قناه (ابن قيصر) ^(١)	وكننت ابن كسرى قبل ذاك وبعده
وطار على ألواح شطب مسمر	جدحت له الموت الزعاف فعافه
عليه ومن يول الصنيعة يشكر	مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها
ثنى في انحدار الموج لحظة أخزر	إذا الموج لم يبلغه إدراك عينه
تنقصه جرى الردى المتمطر	تعلق بالأرض الكبيرة بعدما

ولولا ما أعرف من براعة البحترى في التصور والتخيل ، لجزمت أنه كان في هذه المعركة البحرية ، كما كان في وقعة (عقرقس) بأرض الروم .

(١) يشير هذا البيت إلى أن قائد البحر (ابن دينار) من أصل فارسي .

الفصل الخامس

خصائص شعر الحرب في العصر العباسي

١ - فن أبي تمام في شعر الحرب

يقول (بول فاليري) : « أنا لا أقول الشعر لكني أصنعه وأبنيه ». وما أجدرني بأن أصف أبا تمام بما وصف فاليري به نفسه ، فأبو تمام في الشعر صناع بناء ، بل هو في الألفاظ والمعاني (معماري ومهندس) .

انظر إلى أبياته ، أى بيت شئت . من أية قصيدة ، تجد ميسمه بادياً ، وطريقته في النظم متجلية . وفكر في التصوير الإسلامى إلى عهده تجد (الزخرف العربي) (Arabesque) يملأ جدران المساجد ، ويزوق المحاريب ، ويلتف حول الكوى والنوافذ ، في القصور والدور . وإنك لتعلم أن فن التصوير في الإسلام ابتلى بعواقب التزمت ، فوجد العرب المصورون منجاة لهم من ذلك بالزخرفة والتلايف ، والتشجير والفسيفساء ، فكان (التناظر) أساس هذه الفنون فإذا صور مصورهم مربعاً ومسلسين عن يمين ، كان عليه أن يصور مربعاً ومسلسين مثلهما عن يسار ، وإذا خط دائرة من فوق ، لزمه أن يخط دائرة من تحت ، وأن يكون بين الدائرتين من فواصل التلايف ما يناظر حول خط واحد ، وما يتحاكى في نطاق الصورة .

من هذا (الفن التناظري) ، ومن ذلك المذهب في محاكاة الخطوط كان الطائي صاحب طريقة البديع في الشعر العربي ، والباعث عليها منذ عهده ، على أن العرب في جاهليتهم وإسلامهم وإن عرفوا هذه الطريقة ، فإنما كانت تأتيمهم على رسلها بغير تكلف ، وكان في القرآن مضرب أمثال لها ، لكن أبا تمام جعلها دأباً في الصنعة ، وتعمداً في القريض فصار بها معروفاً واتخذ فيها أستاذاً لمن بعده من الشعراء ، وتلك سنة في أكثر المذاهب الأدبية أو الفلسفية ، فإنها تنسب إلى من يتخذها دأباً ، ويعتنيها كالدين ، ومثال ذلك فيكتور هوجو فقد نسب إليه مذهب (الرومانطيين) والمتقصى لعروق هذه النزعة في

الأدب العالمي، يجد أصلها في الشعر الروماني القديم عند (كاتولوس). ثم يراها في الأدب الفرنسي متسربة في فن (مدام دوستال) و (شاتوبريان) قبل أن تصير إلى زعامة (فيكتور هوجو) فيحمل لواءها ويهجم بها على المذهب الكلاسيكي حاطماً مياسمه القديمة. وقد ناقش مثل هذه الفكرة أبو القاسم الآمدي في موازنته، بين أبي تمام والبحري^(١) فقال يزعم المحتجون بأبي تمام، أنه انفرد بمذهب ابتدعه وصار فيه أولاً وإماماً متبوعاً، حتى قيل هذا مذهب أبي تمام، ثم قال ويزعم أصحاب البحري أن هذا الأمر ليس من اختراع أبي تمام ولا كان سابقاً فيه، بل سلك مذهب مسلم بن الوليد، واحتذى مثاله، وأفرط وأسرف. ثم أتبع الآمدي قوله، بأن مسلماً أيضاً غير مبدع لهذا المذهب وإنما هو موجود في أشعار المتقدمين.

ولاذ كان أبو تمام من طلع الشام فإن طريقته سميت « بالطريقة الشامية » في الشعر العربي عصر بني العباس وطبع على غرارها، الشاميان البحري وأبو العلاء.

ذلك ميسم أبي تمام، وقد كان يطبعه في كل شعره، وفي فنون قوله، فإذا درست فنه في شعر الحرب، فلنما أدرس إذن فنه في كل شعره. ولعل أجد من جرس الكلام في حربيات أبي تمام، ما يوافق جرس السلاح وصليل الدروع وخفق البنود والموسيقى العسكرية. وليس عندي أفضل لدراسة فن أبي تمام في شعر الحرب من أشعاره التي جعلتها شواهد للكلام عليه.

فن فنه في الشعر الحربي في بابك أنه جعل يوم أرشق وسيلة (للتناظر اللفظي) الذي دللت عليه في مذهبه فيقول:

يا يوم (أرشق) كنت (رشق) منية^(٢)

ويجعل هذا دأبه في أكثر الألفاظ التي سميت بها البلاد البيزنطية، فيقول في قصيدته عن معارك أبي يوسف الثغري في ديار الروم، وقد ذكر البلدين - (صاغري وأوقضي وأرض قرّة):

أورثت (صاغري) صغاراً ورغماً وقضت (أوقضي) قبيل الشروق
كم أفاءت من أرض (قرّة) من قر عين وربرب موموق

(١) طبعة الجوائب بالآستانة سنة ١٢٨٧ هـ ص ٦.

(٢) أرشق جبل عند البذ. مدينة بابك الحرمي (ياقوت).

وليس هذا لعباً بالفاظ كما زعم ناس من الناقدين ، وإنما هو (موسيقى لفظية) و (إيقاع بالحروف) ، فبين أرشق والرشق ، وصاغرى والصغار وما فى شبه ذلك تألف " ناغم ، ولحن للكلام ، صاغ أبو تمام أشعاره فيه وساق عليه معانيه وكانت معانيه خالصة فزادت خلابتها .

وطال ما تشوف نفر من النقاد إلى شعر الغربيين ، وعجبوا للموسيقى التى فيه فلاموا شعرنا ورأوه - كما حسبو - محروماً هذه الموسيقى ، وفاتهم أن الموسيقى زينة شعر أبى تمام وأضرابه ، وأن العرب عرفوا قبل أولئك الغربيين المعاصرين هذه الموسيقى اللفظية بألف عام . وكما تكون اللحون متآلفة بالوتيرة ، فإنها تكون متخالفة ومتقابلة . فهى تارة بين صعود وحيناً بين هبوط ، وهى تنساق خلال ذلك بين الدقة والرهافة ، والجمامة والجهارة .

كذلك فن أبى تمام فى شعره الحربى ، فقد يأتى بنغمة على (السينات) يؤلف بين أجزائها بالطباق والمقابلة وبالجناس ، فيقول إن أبا سعيد الثغرى :

فى كماء يكسون نسج السلوق وتعدو بهم كلاب سلوق
يتساقون فى الردى كأس موت هى موصولة بكأس الرحيق
ثم يقول :

سار مستقداً إلى البأس يزجى رهجاً باسقاُ إلى (الأيسق)
فحوى سوقها وغادر فيها سوق موت طمت على كل سوق

فهذه خمس عشرة سيناُ فى أربعة أبيات ، تسرى فى السمع مثل لحن حربى ، وتنزلق على اللسان فى أنشودة حماسية .

أما فن أبى تمام الولوع (بالأضداد) فى المعنى وفى اللفظ ، فما أحبباً إلى نفسى أن أبحث عن مرده ومنبعه فى شىء من خلقه وقوام شخصيته ، فقد روى عن مسهل عيشه أنه كان يخدم حائكاً ويعمل عنده بدمشق^(١) فوجدت من ههنا عدوى مذهبه فى الصناعة ،

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان تصحيح البارون أوسلان ط باريس سنة ١٨٣٨ ج ١ ص ١٨٠

ودائرة المعارف الإسلامية الترجمة العربية ج ١ ص ٣٢٠ .

فإن صناعة الحائك عمل فنى يقوم على هندسة الأشكال ، وقد يعتمد إلى تصوير الأضداد فى الوضع والتقسيم ، وإذا جرينا مع علماء النفس المحدثين ، وجدناهم يردون أعمال المرء إلى أوائل ما يتمرس به فى صغره ، فكان لنا من نظريتهم هذه مساعد على تعليل السبب فى فن أبى تمام فى الصناعة اللفظية والطباق المعنوى ، وما إلى ذلك من فنون البديع ، ومن هذه الفنون ذكر الشئ وضده ، وتكاد تكون الأضداد أكثر أنواع البديع عند أبى تمام .

وإذا انسابت فى السمع بانيته فى فتح عمورية ، تملك أبو تمام من النفوس الشاعرة فصرفها كما يشاء فنه ، إنه ليشعرها حيناً بحصار عمورية وبهدمها ، مستغلاً ما عندها من الإيمان بالدين ، فيقابل بين معنيين ويجعل الأول علة للثانى ، فيقول للمعتصم :

رى بك الله برجها فهدمها ولو رى بك غير الله لم تصب

ويهدد السمع حيناً آخر بازدواج اللحن ومزاوجة اللفظ على أنغام الطاعة لله فيقول :

تدبير معتصم بالله منتقم لله مرتقب فى الله مرتغب

(وقد أشرت إلى هذه الظاهرة فيما سبق) .

ولا يظهر فنه الحماسى فى اللفظ وحده ، وإنما يتجلى فى المعانى أيضاً ، وكان أبو تمام صانع اللفظ وصيقل المعانى ، ومتى لف معانيه بالحكمة بالغ فى سحر النفوس ، إنه يقول فى أبى سعيد والروم :

ثلثمهم بالمشرفى وقلمنا تثلم عز القوم إلا تهدما

فطرح فى مطارح الحماسة هذه الحكمة التى لا تفى ، فما من أمة شق الدهر شقاً فى عزها إلا آل ذلك إلى هدمه وزواله .

وحين ذكر أن أبا سعيد حارب الخرمية فى (البذ) فى بلدة (ميمذ) قبل أن يفر منهم فريق إلى الروم ، أتبعهم بمعركة الروم ، فكفى عن الأمر الأول بالبنان وعن الأمر الثانى بالكف والمعصم ، وهو فى ذلك يذكر الشئ وما يلازمه من فن البديع فيقول :

قطعت بنان الكفر منهم (بميمذ) وأتبعهم بالروم كفا ومعصما

وحين يقول :

يتساقون فى الوغى كأس موت هى موصولة بكأس الرحيق

يذكر الكأس بعد التساقى ولو أنه قال يتساقون فى الوغى الموت لقصر قوله فى حلبة فنه .

وزاد في إحكام هذا الفن أن وصل كأس الموت بكأس الرحيق فجاء بمعنى حماسي لم يسبق إليه ، وهو أن الأبطال وهم يحتسون كؤوس الموت يسكرون بها ، فهم هيام بالردى سكارى بالقتال .

ثم أتبع قوله في الخيل : وطئت هامة الضواحي . . . ثم ألحقتها السياط .

فالضواحي مثل شخص لها هامات ، قد مرت الخيل على هاماتها فداستها ، وفي هذا تهويل للصورة وتجسيم للخيال ، يزيد أثر هذه الخيل التي يشبه في جريها الكلاب السلوقية ، عادية ممعنة في عدوها ، تخفق سنابكها على الحجر كطارق الحدادين ، وفوقها فرسانها الكماة ، بأيديهم السياط ، نازلين بها عليها ، فتثور ممعنة جارية ، وكأنها السهام المرسله ، فهي شعلة لاهبة من النار .

وحين بلل أبو تمام حماسته بالدمعة المحرقة ، وراح يسكبها على بطولة الطوسي ويخلع عليه جنائب الخلود وهو فتى ، قال : إن البواتر اليوم من بعده بتر . ففي كلمتين من حروف واحدة يصف أبو تمام الحزن الخالد على البطل الطوسي ، ويلبس السيوف البواتر حداد التلثم في الضريبة ، والانكسار والخذلان في الحرب .

ومن يدري كيف أنشد أبو تمام قصيدته فيه ؟ وأين أنشدها ؟ ، فإن « المداد الذي غمس طرف رداؤه فيه ثم ضرب به كتفه وصدره » ^(١) ، لما بلغه مقتل محمد بن حميد « يدلني على أن أبا تمام قام عليه مثل (نواحة) فإن تعداد كلمة (فتى) في أول كل بيت خمس مرات ، هو من بكاء الواهين ، وعويل النائحين .

٢ - مياسم عامة لشعر الحرب

لم يحد شعر الحرب في أدب العصر العباسي الأول ، وفي الأعصر التي تلت حتى أواخر عهد سيف الدولة ، عن جوهر خصائصه التي عرفت له في العصر الأموي ، فإن آلات الحرب لم يطرأ عليها تغير ولا تطور ، وبقيت المشابهة رابضة على أكثر المعاني ، مما كان مألوفاً قوله في الحروب السابقة ، لكن حضارة العصر وتمازج العرب بالأفم الفارسية والرومية والتركية ، وفيض الأدب والعلم وعناصر الفلسفة أدى إلى تطور بعيد في طريق الأداء والتلاعب بتلك المعاني الحربية التي جاء بها الجاهليون والأمويون ، وأفضى ذلك التطور إلى ابتكار معان حديثة وإن تكن قليلة لكنها تعد تجديداً في أدب العصر الجديد ، وفي

اتباع أساليب مبتكرة في الصنعة ، تكثر عند فريق وتقل عند آخر ، ولم تكن في العصور السابقة مقصودة لذاتها ، مثال ذلك :

١ - المعاني الحماسية التي جاء بها حبيب بن أوس الطائي ، فإنه مزج فيها الحكمة بالتصوير الفني ، وألف بين الوصف وحسن التعليل ، (وقد ذكرتُ فنه هذا في كلامي على شعر الحرب عنده فيما سلف) .

٢ - (الصياغة) في فن البلاغة ، وهي المزاجية اللفظية والمطابقة بين الكلام ، والمجانسة بين التراكيب ، مما سنه أبو تمام فجعله صنعة مقصودة لذاتها ، أى أن أبا تمام جعل هذا الفن غاية لفظية في أكثر أبياته ، مع الحفاظ على المعاني من الابتذال ، وابتكار المعاني الجديدة التي قاضاه عليها الناقدون بعده كالصولي والآمدي ، وقد ورد دليل هذا عند الكلام على شعره الحماسي .

٣ - (التزييق) في الوصف كما عند البحري - إذ أن أبا عبادة زخرف شعره كله ، فكانت حماسياته - وهي من جملة شعره - مطرزة موشاة بهذا الفن الوسيم .

٤ - (التحويل) في الصورة ، وهو فن أبي الطيب المتنبي - كما سيأتى - فإنه حشد تهاويل الصور في أكثر شعره الحربي ، ومزجها بالحكمة وفصل الخطاب ، كدأبه في كل فنه .

٥ - شيوع الحماسة في وصف الحروب الرومية في شعر العصر العباسي ، وذلك لضرورة الموضوع ، فإن حروب العباسيين مع الروم كانت شغلهم الأكبر ، على خلاف ما كان في عصر بني أمية ، وقد التحم العباسيون بالروم في هذا العصر بحروب متداولة شغلت شعراءهم جميعاً ، وكانت لهم موضوعاً ثاراً ، بينما كان ذلك الشاغل قليلاً في شعر الأمويين .

كانت حروب العرب مع الروم في زمن العباسيين سجلاً ، فقال شعراؤهم فيها شعراً كثيراً يصفون فيه وقعاتها بتفصيل وإحكام وتاريخ ، وقد تناولت وصف هذه الحروب الإمارات التي انفضت من حول العباسيين حين ضعفوا ، فكانت دولة الحمدانيين زعيمة هذه الحرب المستعرة مع الدمستق وسائر الروم أكثر من نصف قرن ، فقال أبو الطيب قصائد جمّة في الروم ، ووقف الشعراء الحمدانيون شعرهم على غزوات سيف الدولة ، فحمل أكثر حماسها أبو الطيب المتنبي ثم أبو فراس الحمداني .

وامتد تلاحم الحرب بين العرب والروم ، فجاوز حدود الجوار ، ولم تعد القسطنطينية آخر تخومه الغربية ولا فيها قيادته ، وإنما تجاوز إلى أوربا حتى جر (الحروب الصليبية) أيام

نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ، وكان ذلك موضوعاً حماسياً زائحاً (ممزوجاً بالدين)
عم الشعراء المتأخرين ^(١) .

٦ - لأن كان (الخوارج) زمن بنى أمية ضرام الفتنة الواعية لتنفيذ فكرة (الجمهورية)
فإن (القرامطة) في عصر العباسيين كانوا نائمة العدوان ومنبع الفن لإشاعة (الفوضوية) ،
وقد كانت حروب العباسيين وحروب الأمراء المنفردين هؤلاء القرامطة ، موضوعاً غزيراً
لشعر الحرب في هذا الزمن وفي أيام هؤلاء الأمراء .

٧ - وجود (الشعر الحربي المذهبي) وأعنى به الشعر الحماسي الذي قاله القرامطة
وبثوا فيه نزعاتهم الدينية الخاصة - وقد ذكرت ذلك في فصل خاص عنهم .

٨ - ضعف التزعة العصبية السياسية في شعر الحرب زمن العباسيين ، بل زوالها في
بعض الحماسة الماثورة ، خلاف ما عهد في العصر الأموي إذ كانت السياسة هي التي تسير
شعر الحرب .

فقصائد أبي تمام وأبي الطيب وغيرها من الشعراء في العصر العباسي اتخذت شعر
الحرب (غاية لا وسيلة) فكان لأبي تمام وللمتنبي روائع في شعر الحرب خاصة ، بوصف
البطولة وتصوير الفروسية ليجعلها سجلاً شعرياً للحرب مقصودة لذاتها ، فكأنهما مضيا في
هذه التزعة على مذهب (الفن للفن) .

ذلك أهم خصائص الشعر الحربي في أدب الشعر العباسي ، مما زاد على جوهره الأصل
الذي كان معروفاً لدى الأمويين ، وثابت الأصول عند الجاهليين .

ملحق

الرمزية والحرب

- ١ -

لا يتباعد معنى الرمزية المذهبية في مفهوم لغات الغرب عن معاني الإيماء والإشارة في
مفهوم لغة العرب ، والفرق بين الرمزيتين زهيد في أصوله ، وإن تشعب في فروعه ، فإذا
رددنا كلا الرمزيتين الغربية والعربية إلى منابتهما ، تبين لنا أنهما صدرا عن نبع طبيعي واحد
هو عدول الإنسان عن التصريح ، إلى التلميح والتلويح ، وتلك طبيعة في كل بيان ، فلقد

(١) راجع كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لشهاب الدين المقدسي .

تكون كامنة حتى يحركها من مكانها ، لسان أو قلم ، فتبدو من خلال الكلام والكتابة في أبرد شتى . بل الرمزية ظرف كان فطرياً في الأدب دعا إليه التشويق للأسماع والتملك للأفهام ، ثم صار لوناً من الترف في الأدب الحديث دعا إليه التعمق في المعاني والتفنن في إيراد الصور الشعرية .

وقد كانت الرمزية العربية فطرية في الجاهليين فكان في ضرورة بيانهم وعبارات لغتهم أن توجد التشابه وتراكيب البلاغة الأولى السليمة من التكلف لتخلع على تلك الرمزية الفطرية حلل البهاء والرواء . ولقد كان بمستطاع امرئ القيس أن يقول عن (عنيزة) إنها طويلة العنق ، فعدل عن هذا التصريح الجاف إلى رمزية كنائية محبة للذوق ، مشوقة للفهم فقال : (بعيدة مهوى القرط) ، ولم يكن في وسع امرئ القيس وكل شعراء الجاهلية وخطبائها إن يحيثوا بعباراتهم عارية جافة ، غير كاسية ، لأن الرمزية كانت فطرة فيهم ، وهى وإن استسرت في كثير من عباراتهم ، فإنما كانت كالقوة الكامنة في الفعل ظهرت صاحبة مجلجلة عند ما مد إليها أبو تمام يده السحرية ، فأخرج تلك القوة الكامنة من حيز فعلها فكانت حركة «مدوئية» وخلع على البيان العربي من بعده أروع جلايبب الرمزية التي سماها العلماء بلاغة ومعاني . وبياناً وبديعاً .

وقد كان رمز الكلام منذ زهد الإنسان باللفظ الصريح . وليس لأدب الغرب أن تدعى في مواجهة الأدب المقارن ، أنها بدأت باستعمال الرمز مكان العبارة ، فإن العرب عرفوا الرمز في لغتهم منذ نطقوا بها في البادية من أعماق الجاهلية ، بل أقول إن في لغة العرب من الرمز ما لا وجود لمثله في لغة ثانية ، قديمة أو حديثة ، فكل عبارات العرب التي أغنى بها علماء البلاغة باب الحجاز والاستعارة والنكاية ، داخله في باب (الرمز الصرف) فإن طول الفارس حين يقف بقامته السامقة رمز له العرب بعبارة (طويل النجاد) ، ورمزوا لكرم الجواد بقولهم (كثير الرماد) ، وبذلك رثت الحنساء صخرأخاها ، وإذا قلت رأيت شمساً ، وقصدت بها الحنساء ، أو قلت أبصرت فيلاً ، وأنت تعنى رجلاً ضخماً ، فإنما أجريت الرمز في أدب كلامك من حيث لا تدري .

إن الذين يؤثرون في نهضة أدبنا المعاصر أن يدخلوا على هذا الأدب الرمزية مخطئون ، لأن الرمزية بين أيديهم في شعر العرب وأديهم ، وكان الرمز طريقة التجديد منذ استعمله الإنسان . إن أهل فلورنسا حين ملوا من اسمها القديم أسموها (الزنبقة) ورمزوا إليها بزنبقة

حمراء ، فلما كتب أناتول فرانس روايته عنها ، ووصف فيها وآثارها ، وأجرى قصته فيها ، وسمها بهذا الاسم أيضاً . وكان الفرنسيون يرمزون لمدينة باريس (بمركب) كناية عن أنها أبداً تجرى في بحر الحضارات .

وليس يبعد عن هذا الرمز الغربي ، ما عرف العرب من رموز في تسمية مدنهم ، فدمشق سموها (الفيحاء) لأن فيها الغوطة والأنهار ، وسموا حلب (الشهباء) ، وأراد الأندلسيون مثل ذلك عند ما قالوا (الزهراء) وكان العرب في هذه الرموز التي خلعوها على مدائنهم وقصورهم ، (خياليين أصحاب معان) ، ولم يكونوا كالأغربيين في تلك التسمية الرمزية لمدنهم وقد سموها بـ (مادية) .

يقول (بيير كورنيه) بلسان أحد أبطال رواياته « وأخيراً تركت الثوب في سبيل السيف » ، وهذا رمز معناه في لغته (تركت لباس الحكام لأكون من رجال العسكر) .

وكان اليونانيون يعنون بكلمة (Sumbolon) ^(١) الكلمات والإشارات المستترة ، وكانوا يستعملون الصور والأشكال رمزاً للشبهات بها وهذا ما صنعه لافونتين حين أشار إلى الجاحد (بثعبان مقطوع الرأس) في القصيدة العاشرة من مجموعة قصائده الخرافية .

ولم يمحض العرب عن ذلك بعيداً في فن الرمز ، فرموزوا (للفتنة المستكينة بثعبان نائم) . ولا أرغب في الاستقصاء فإن الرمز في كثير من كلامنا وكلام الأمم . وأراه في منبته من وحى الدين ، فقصة إيايس في دخوله إلى الجنة متمثلاً بالأفعى رمز لا سابق له ، وما يقوم في الأذهان معنى لكلمة إيايس إلا أن تكون الأفعى الصورة الأولى من هذه المعاني ، وقد استقر في مصطلح الرموز أن يكون المنجل رمز الحصاد أو الموت ، والميزان رمز العدل ، والعلم رمز الأمة ، وراحت الألوان تحمل في ملامحها كثيراً من الرموز .

أخذ العرب نصيبهم من كل ذلك فكان لهم العقاب في الجاهلية وهي راية عهد بها إلى أبي سفيان ليحملها على رؤوس قریش في زحمت القتال ، وكان اللون لهم رمزاً ، فالأحمر رمز المضرين ، والأسود رمز العباسيين .

وكثر الرمز في كلام الشعراء وأعمالهم ، فكان (برناردان دوسان بيير) يقول « إني أحمل زرا من الورد مع شوكة » ، وهو يرمز إلى أمله الممزوج بكثير من المخاوف .

فأذكرتني هذه المخاوف بطيرة ابن الرومي ، فقلت إن طيرته (رمزية خاصة) دبت ألوانها في شعره ، أفلم يسكب رمزيته الفنية على العود في حضن المغنية (وحيد) فجعله طفلاً يرتضع منها ، وكانت رمزيته هذه لا تفارقه في شعره وفي قوله وفعله ، حتى مات فكان وهو يجود بنفسه يسمع العصافير في دوحة مجاورة لبيته ، فقال لآخر عواده « إن العصافير تقول سيق سيق ، وهأنذا في السياق » .

وقد تذكرت رمزية المصريين الأقدمين حين رأيت ، (شاتوبريان) يقول في أول كتابه (عبقرية المسيحية) ، « إن السر طبيعة إلهية ، ولذا فإن أوائل الآسيويين ، كانوا لا يتكلمون بسوى الإشارات » .

فقلت علام لم يقل (الفراعنة) فإنهم أعم شهرة وأبعد عهداً في الدهر بالكتابة والإشارة فلغتهم دنيا من الرموز الصافية ، ومن يدري لعل لغتهم كانت أصواتاً مشابهة للرسوم ، على أن عالم المصرية (ماسيرو) لم يسمعها منهم ، ولا استطاع (شامبليون) الذي اكتشف ، كتابتها بالمقارنة مع كتابات عتيقة إلى جانبها على حجر وجده في بلدة (رشيد) حين جاء مع نابليون في غزاته لمصر — أن يعرف كيف حال النطق بها وما صوت كلامها المرموز . ولم يكن الرمز مقصوراً على قدماء المصريين ، فقد أثر أيضاً عن الهنود ، وامتألت به الميثولوجية اليونانية .

وحين ارتقى الفكر الإنساني وتمرس بالمعقولات صارت الرمزية تعبيراً فلسفياً ، فهي حالة الفكر واللسان اللذين لا يعبر بهما عن الأمور إلا برموز . ومن ههنا أرى لإخوان الصفاء جعلوا الرمز وسيلة إلى غايتهم الفلسفية في التعبير والكلام . وهذا مصداقه فيما قاله (ديديرو) في القرن الثامن عشر حينما تكلم عن الفيلسوف فيثاغورس : إن فلسفته سرية ورمزية ، واضحة لأناس معماة على آخرين .

ومن ههنا أيضاً تصنى كلام الصوفيين ، فكان لفظهم إيماءات عبروا بها عن خوالج الشطحات ، وقد صار لهم من جراء تتابعهم — ناساً بعد ناس — مذهب للتجلى ، ولهم معجم خاص بزمزمهم وإشاراتهم ، وهو وإن يكن معجماً غير مكتوب على نحو المعاجم التي نعرفها ، لكنه مسطور في ضمائرهم ، وإذا لم يحذقه حذاقه كانت الصعوبة في فهم أشعارهم ومقولاتهم الصوفية .

ولقد وجدت الرمزية المذهبية على النحو الذي عرفها فيه (فيرلين وبودلير) وأشياءهما

قريبة الصفات والغايات من الصوفية الإسلامية . فإن الرمزية التي أبدعها فيرلين في تاريخ الأدب الفرنسى وكانت نقضاً للحركة البرناسية فى هذا الأدب ^(١) قائمة على (كلام المعانى خلف كلام المباني) . لقد كان (فيرلين) وصحبه حريصين فى شعرهم على أن تكون تلاوين معانيهم تبعد شيئاً بعد شيء وذلك بأن جعلوا معانى عباراتهم غير محدودة ، وإنما هى منشورة الأطراف مذرورة متدرجة من اللون الصبيغ إلى اللون الناصل الضائع . فهم أبدأ لا يخرجون دخائل نفوسهم إلى خوارج كلامهم ، فيكون لخلجات الخيال مكانة فى الأثر الذى يؤثر عنهم ، وكانوا يحرصون فى أن تشف عباراتهم عن الأسرار الروحية المتناهية فى دقتها جاعلين الموسيقى اللفظية هدهدة لتلك المعانى الشفافة .

وما ذكرت موسيقاهم هذه اللفظية ، إلا مرت بالخطر نغمات النابات الصوفية موسومة بصنوجها ، مواجهة بهفاهها على قصائد ومقطوعات لمحبي الدين بن عربى ، وللشيخ عبد الغنى النابلسى .

وإن (بودلير) الذى سكب خمرته فى كؤوس الرمزية فغنى بها أشعاره الرقاقة فى (زهرات الشر) يذكرنى — على شقائه وبلائه فى نعيم الدنيا — بالخمرة الصوفية الممتعة التى سكبها ابن الفارض فى أشعاره الرمزية الملهمة فسكر بها من قبل أن يخلق الكرم وتسكب الدنان .

* * *

فلا يذهبن إذن ذاهب إلى أن الرمزية تجديد فى أدب العرب المعاصر ، فإن فى أدبنا العربى رمزية كبرى هى كالكنز الدفين فى أطباق الكلام ، وإنما لتحتاج لمن يكشف عن بدائعها للنظرين .

وإذا كان فى الأدب الغربى (فيرلين) و (بودلير) أعظم من رمز فى القرن التاسع

(١) البرناسية مذهب البرناسيين وهم فرقة (الكونت دوليل) وفيهم سولوى برودوم وفرانسوا كوبيه وجوزى ماريا دو هيريديا ، وكلهم شعراء فرنسيون من أواخر القرن التاسع عشر فى فرنسا وجد أدهم فى بحران التأثير الإبداعى ، والوجدانى (الرومانتيك والليريك) فقلب الادب وفن البلاغة والكتابة ، وكان مرام البرناسيين أن يكون الشاعر غير شخصى فى شعره Impersonnel فكانت نزعتهم الكبرى تزويق الديباجة إلى حد أقصى وقلة العناية بالرواء الروحاني ، كانت كلماتهم جلجلة بغير موسيقى ، وبغير فكر . وقد تبسط (دوميك) النقاد الفرنسى فى تحليل مذهبهم فى كتابه : Histoire de la litterature française. Par René Doumic الطبعة الحادية والعشرين سنة ١٩١١ لإصدار المكتبة الكلاسيكية بباريس ص ٥١٢ .

عشر في الأدب العالمي ، وكان الشاعر الألمعي (بول فاليري)^(١) شيخ الرمزية المعاصرة في أوروبا ، فإن عندنا جبار المعرفة (أبا العلاء) وفي شعره من الرمزية ما لا حد لوصفه ورصفه ، وكم أرى من الرمزية الفنية الصافية في بيته الذي يقول فيه :

لبتُ حول الماء من سغب إن غربى ما له مرس
فقلت إن الماء حقيقة الوجود ، والسغب عطش العقل الذي ما زال ظامئاً يبتغى ارتواء من معرفة سر الوجود. والغرب السَّجُل ، هذا العقل الذي رُكب في رؤوس البشر ولكنه محدود ناقص لا يستطيع أن يعرف ما خارج حده وما بعد نقصه ، والمرس وسيلة الوصول إلى حل قضية الوجود .

فالمرى يلوب حول سر الدهر من طول شوقه إلى المعرفة ، ولكن عقله لا يوصله إلى بل الغليل .

وإن يكن (بول فاليري) فيما أثر عنه من رمزية ممعنة قد مزج رموزه بالفلسفة ، فإن أبا العلاء لم يقصر في ذلك ، وإن كان بيت فاليري في قصيدة (المقبرة البحرية) الذي يقول فيه :

زينون ، يا زينون القاسى ، زينون الإيليائى .

يدعو إلى معرفة زينون اليونانى ومذهبه في فلسفة السكون والحركة ، فإن أبا العلاء دعا في كثير من أبياته إلى معرفة فلاسفة أقدمين بحثوا في العدم والفناء والنفس والروح ، ومن لأبي العلاء بمن يظهر رمزية شعره على النحو الذى أظهر فيها علماء الأدب الغربى رمزية الشعراء ؟

— ٢ —

كان عرب الجاهلية إذا حزبتهم الحرب عصبوا لها رؤوسهم بالسواد . فعل ذلك امرؤ القيس حين وثب بنو أسد على أبيه حجر ، وقد أثته وفود القبائل المعادية تعرض عليه الصلح والقداء . وطلع عليها وعلى رأسه تلك العصابة السوداء ، وعصب الرأس على هذا النحو

(١) بول فاليري P. valery أكبر شعراء فرانسة في العصر الحاضر توفي سنة ١٩٤٥ وأشهر قصائده الرمزية (المقبرة البحرية ، وأنشودة الأعمدة) وكان ذا مذهب فلسفى الرمزية يكتب للخواص دون العوام بل يكاد يكتب لأنواده ، وأصحابه ، ولقد كانت رمزية (فاليري) حفية بالمادة اللفظية أكثر من حقاوتها بالمعاني وكان الشعر عنده كالمهندسة والبناء .

كان عند الجاهلين رمزاً للحرب .

وفي حروب على ومعاوية ، رفع قوم معاوية المصاحف على رؤوس الرماح ، فكان فعلهم هذا رمزاً حربياً يدعو إلى تحكيم كتاب الله في أمر السلاح ، كذلك بدت الرمزية عند العرب في اللفظ والتعبير على سنتها ومذهبها في دنيا الأدب وعالم البيان .

ولكن أين الرمزية الحربية في الشعر العربي ؟

١ - يقول عبد الشارق بن عبد الغزى الجهنى أخو (جوين) الذى كان له القتل زينا .

فلما لم ندع قوساً وسهماً مشينا نحوهم ومشوا إلينا
تلاؤوا منزلة برقت لأخرى إذا حجلوا بأسياف ردينا

والحجل عند العرب مشى المقيد ، والرديان مشية فوق الحجل ، فكانت رمزية الجهنى الحماسية رمزية طبيعية غير متكلفة بعامل الفن ، إنه أعرابى مطيل النظر إلى السماء ، وما غير الأعرابى الذى يسبح طرفه فى تقلب السحاب بمسطيع أن يعرف تلاؤ الغادية ، وبرق المزنه ، فلقد شاهد فى طويل ما رعت عينه السماء ، أن البرق يلمع فى سحاب جون ، فيتلاؤ ثم لا يلبث أن يسرى ذلك البرق ، حتى تجاوب سحابة ثانية باللمع والبرق ، وكانت السماء حين يهيج برقها ويحجل رعداً ، لا تقل شأنًا فى الجلبة والرعد عن الحرب التى يعرفها الشاعر على الأرض فى حلبتها وقعقة سلاحها ، فطاف به خيال رمزى جعل الكلام فيه أعز وأعلى فى الاستعارة والتثيل والتصوير من أن يقول : لما لمت سيوف أعدائنا فى وهج الشمس على كتائبهم ، جاوبناهم بلمعان سيوفنا على كتائبنا ، لكنه اتخذ الرمز بديلاً وجعل صدر البيت كله رمزاً مصوراً لحاطره وشافياً لخياله ، وجعل بقية البيت انتقالاً من الرمز الذى حل محل التصريح والتوضيح ، إلى صورة ثانية من مشى العسكر بعضهم إلى بعض ، قبل الالتحام ، فى بطء وحفاظ ، وخفة وحذر .

قد تكون الرمزية فى الشعر القديم فطرية عند بعض الشعراء ، أو رمية من غير رام عند البعض الآخر ممن وجدت عنده ، لكنها فى شعر العباسيين مقصود إليها ، وقد يحمل عليها التعمد أو تكون من فنون الصنعة .

تكثر المعانى الرمزية عند أبى تمام ، ومن استقصى شعره الحماسى وجد عنده من الرمز الكثير ، لننظر قصيدته فى بابك الحرمى ، وقد غدا إلى حربه الأفشين فأسره فى أيام المعتمصم وكان بابك قد قتل الناس ، واعتصم فى مدينة (البذ) فى جهات خراسان ، وجاء به

الأفشين إلى سامرا مغلولاً وفي رجله أصفاد ، فحمله على الفيل المشهر ، فنظر أبو تمام إلى هذه الصورة التي جاء عليها ضبع خراسان ، فألبسه برمزه (طوقاً من دم) تلقاء طوق الخلاخيل الحديدية ، التي دارت حول رجله . فطوق الدم رمز لما سكب من دماء القتلى ، وقد جعله أبو تمام سبباً إلى طوق من دم ، سيدور حول عنقه بيوم الدين فقال :

متلبساً للموت (طوقاً من دم) لما استبان فظاظة الخلاخال

وتظهر الرمزية عند أبي تمام حيناً ملونة تتخذ من الألوان كلاماً كقوله :

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى لها الليل إلا وهى من سندس خضر

فالأحمر رمز حماسى للدم . فصور (الطائى) (الطوسى) مجلبباً بثياب حمر وعنى بذلك تلطح جسده بالدم ، فلما جاء عليه الليل وهو طريح فى فلاة المعمة استحال اللون الأحمر الذى كان دليلاً على حربه إلى لون سندسى أخضر وهو (رمز النعيم والجنان) فأراد بهذه الرموز بديلاً من أن يقول لبس فى موته عوضاً عن ثياب الدم ، ثياب الخالدن فى جنات النعيم . (ولقد عرضتُ لتحليل هذه القصيدة الحربية عند الكلام على شعر الطائى فى حماسة هذا العصر) .

لم يعلم علماء البلاغة بهذه الرمزية الطائية ، وإنما جعلوها نوعاً من أنواع البديع المسمى عندهم بالتدبيح وهو ضرب من الطباق البديعى تزدهم فيه الألوان للكناية أو التورية ، ولو عرفوا أن الكناية والتورية هما من فن الرمز فى الأدب الغربى بلحلت نفوسهم لهذه السابقة فى علم البلاغة العربية .

والظاهر أن أبا تمام — وقد ملك على ناصية الألفاظ الموسيقية — كان يقصد إلى الرمز وإذا كانت الموسيقى اللفظية من خصائص أدب الرمز فإن شعر أبي تمام كله ألفاظ موسيقية ذوات جرس . وقد سماه علماء البلاغة العربية (بالجناس اللفظى) . وقد مزج أبو تمام جرس السلاح بجرس الكلام فى قصائده الحماسية فجمع بين اللحن وألف بين هذه الموسيقى . فشعره الحربى هسيس سلاح ، وصلصلة كلام ، ووسوسة حروف مؤتلفة اللحن كما فى الموسيقى من ائتلاف التناغم .

ويدل على بلوغه قمة الفن الموسيقى فى كلام الشعر مثال واحد من تألف السينات فى قوله ببعض شعره الحماسى :

بسنة السيف والخطى من دمه لا سنة الدين والإسلام مختضب
 إن الأسود أسود الغاب همها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب
 ولو تتبعنا ، لوجدناه يوالف بين الصادات ، والميات ، والنونات في طور موسيقى
 « غريب » .

أما ابن الروى فأحسب أنه ظل يرمق بيت أبي تمام الذى أشرت إلى الرمزية فيه ،
 حتى قال بيتاً يشبهه في رمزيته ومعناه ، حين رثا بطلاً صريعاً لبس حلة الدم .

كسته القنا حـالة من دم فأضحت لدى الله من أرجوان
 فلم يحىء بيت ابن الروى ، وهو الآرى في تصوره وخياله ، أروع من بيت أبي تمام
 ذى الطبع العربى ، وقد يستعين ابن الروى بالرمزية في هجائه فيكون الهجاء عميق المعنى كما
 هجا ابن أبى طاهر بقوله :

رأيتك (تنبختى) سادرا كفعلك بالقمر الباهر

فإنه ليقع في الذهن أن ابن الروى يقول لابن طاهر : إنك تدمنى كما تدم شعاع
 القمر ، فمن عادتك ذم كل ناضر باهر ، والرمز في البيت أن ابن الروى - وهو المعن
 في معانى الهجاء ، جعل ابن طاهر كلباً ، لأن من عادة الكلب أن ينبع النجوم وينبح
 القمر ولكن ابن الروى ، كغيره من شعراء العرب الذين مرت في بلاغاتهم صور رمزية غير
 مقصود إليها ، لم يخل بيته من (رمزية صرفة صافية) ، ولو فعل لأبدل كلمة (تنبختى)
 بتقدختى فقال :

رأيتك (تقدختى) سادرا كفعلك بالقمر الباهر

وحين أرسل شاعر الطيرة على ابن طاهر بيته الثانى ، إرسال النبال استعمل فيه
 (القسى) الشديدة القتل (رمزاً) لقوارص هجائه فقال :

وإن قسى لمبرية بكل أمين القوى حادر

ثم أمعن في رمزية هاجية حين قال في بيته الأخير :

فلا تخش من أسهمى صائباً ولا تأمن من العائر^(١)

(١) السهم العائر الذى يقع طائشاً .

فجعل أسهمه صائبة ، ثم قال : لا تخش منها . وهذا (رمز متناه في دقته) معناه أن ابن طاهر وهو الواقع عليه السهم صائبا ، ليس يصيبه السهم ولا يقع فيه ، لأنه (هباء) فلا عليه من هذا السهم الصائبة .

وأما أبو الطيب المتنبي فإنه استعمل ألفاظ الصوفية في بعض معانيه الحماسية ، وقصائده الحربية لا تخلو من رموز ، وقد عاب عليه صاحب (يتيمة الدهر) ^(١) استعمال كلمات الصوفية المعقدة ومعانيهم المغلقة » .

وقد حسب الثعالبي أن تتابع الحروف في قول المتنبي (لها منها عليها) وهو يصف فرسه ، طريقة صوفية في التعبير :

وتسعدنى في غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد
ولست أرى غير كلمة (سبوح) مواتية للرمز . أما قوله (لها منها عليها) فما فيه شيء من روح الصوفية التي تخيلها الثعالبي :
ولكن الرمز كل الرمز في شعره الحربى حيث يقول في قصيدته بسيف الدولة حينما أم ديار مضر لا اضطراب البادية ثم ارتد على الروم :

لقيت بدرب القلة الفجر لقية شفت كبدى والليل فيه قتيل
وخيل براها الركض في كل بلدة إذا عرست فيها فليس تقيل
على طرق فيها على الطرق رفعة وفي ذكرها عند الأنيس خمول
سحائب يمحطون الحديد عليهم فكل مكان بالسيوف غسيل

رمز أبو الطيب إلى شفاء الكبد بلقاء الفجر ، وما شفاء كبده إلا بطول السرى وتحمل الشوق في فراق الحبيب ، ولكن ما هذا الفجر الذى لقيه أبو الطيب حتى شفى كبده ؟ إنه السيف ، سيف الأفق المحدودب بانحنائه الأبيض ، وهو السيف الذى ضرب النهار به الليل فصدعه وقتله .

ثم رمز في البيت الثانى ، فجعل الطرق التى تدوسها خيل سيف الدولة ، طرقاً فيها رفعة على غيرها من الطرق . ومن أين لها تلك الرفعة وكل درب طريق ، ولكن خيل سيف الدولة إذا مرت بأرض باتت بعدها الأرض مختالة ، وهى خيل إذا ذكرت عند الإنسان جملت

ذكر الإنسان ، لأنها أعز منه قدراً وأبعد بأساً ، وأبقى ذكراً (لما أثرها الحربية) .

ثم رمز في البيت الأخير إلى الخيل (بالسحائب) لأنها وهي تعدو يكاد يحسبها الطرف مرتفعة عن الأرض ، وقد أمعن في رفعها خيال أبي الطيب فجعلها بمنزلة السحائب ، ورمز إلى الفرسان على ظهورها بالحديد . . .

وقد عرف الرمزية الحربية بعض شعراء الجاهلية كزهير بن أبي سلمى فإنه نبه إلى ويلات الحرب بطريق الرمز فقال عنها :

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا ضريرتموها فتضرم

فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها قرى في العراق من قفيز ودرهم

فتغلل لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم تلقح فتثم

ويلاحظ تألف الضاد في عجز البيت الأول . وعلى موسيقى اللفظ يقوم فن الرمزيين ، وقد وفق زهير إلى هذه النغمة الموسيقية الحماسية ، وأحسبه وهو المتأنق في لفظه ، الحولى في قصائده ، قد جاء بها تعمداً فخرج على سجاجة الجاهليين .

ثم استعمل الرمزية في البيت الثاني بأسلوب التهكم ، وكان يعرف قيمة (الغلال) عند العرب وهم في واد غير ذى زرع ، فذكر كلمة (تغل) ثلاث مرات في بيتين ، لكنه صدمهم بهكمه واستهزائه ، حين رمز إلى ويلات الحرب والخطوب بالتقفيز والدرهم تهويلاً للامتلاء ومبالغة بالكثرة ثم زاد التهويل في البيت الذى يلي بغلال من نوع آخر ليس نباتاً ، وإنما هو إنسان وحشى مشؤوم يشب ويكبر ويتزوج ، وينسل فيسد على المتحاربين في (حرب داحس والغبراء) عرض الصحراء والوحوش الحمر الرهيبة .

وكل ذلك رموز حربية متعاقبة فيها بتهاولها ليحبب زهير بن سلمى السلام إلى العرب ولو سبق الدهر بجائزة نوبل للسلام ، أو كانت حرب داحس والغبراء في عصرنا ، لحاز جائزة السلام زهير بن أبي سلمى . إذ كان يدعو إلى السلم وحقن الدماء في دعوة لا تقل في نفع الإنسانية عما عند الغربيين في هذا العصر من دعاة السلام في عصبة الأمم المنقرضة ، ومجلس الأمن الحديث . ولقد كان زهير في أعماق الدهر يدعو إلى سلم نبيلة صحيحة غير السلم التى يدعو إليها دعاة السياسة الغربيون ، ويريدون بها سلب الأمم الضعيفة حقوقها أو إعداد العدة إلى حرب جديدة ، تكون أشد هولاً على الإنسان والعمران ، بنكباتها وفجائعتها .

البَابُ الثَّالِثُ

شعر الحرب في ظل الحمدانيين

الفصل الأول

الدولة الحمدانية

١ - قيام الدولة الحمدانية

قامت الدولة الحمدانية في الموصل ، ثم في حلب زمن الخليفة العباسي المقتدر حوالي سنة ٣٠٢ للهجرة أى في النصف الأول من القرن العاشر الميلادى . وأسرة الحمدانيين أسرة نبيلة عريقة الأصول من أشهر البطون العربية ، يرتفع بها النسب إلى الجاهلية ، ولعل فروسية أهلها وشغفهم بالشعر والأدب نزعة سرت إليهم من جدهم الأعلى في الجاهلية الفارس عمرو بن كلثوم .

لهم تغليون أقحاح نشؤوا من بلدة (رباح) في العراق ، وكانت أيام دولتهم في النصف الثاني من حكم قسطنطين السابع إمبراطور بيزنطة ورومان الثاني من بعده ثم نيسيفور فوكاس . وكان جد الأسرة الأقرب هو حمدان بن حمدون العدوى . فكان من حفدته (سيف الدولة أمير حلب) وأخوه (ناصر الدولة أمير الموصل) .

وقبل أن ينفرد الأخوان الحمدانيان بالإمارة والسلطة كانا من قواد الدولة العباسية . وقد قيض لهما حظهما المقرون بالرأى والشجاعة أن يتبوأ لدى الخلفاء العباسيين المقتدر والراضى والمنتقى أعز مكانة ينزل فيها القواد العظام . فقد أسكتنا نامة الفتن التى قام بها عصاة الدولة حتى خلع الخليفة المنتقى على الأمير الحمدانى أبى محمد الحسن لقب (ناصر الدولة) وعلى أخيه على لقب (سيف الدولة)^(١) ، وبلغ من تكريمهما لنصر الدولة العباسية أن أمر الخليفة بضرب اسميهما على الدنانير والدراهم .

وروى أميد روز Amedroz في تعليقه على كتاب (تجارب الامم) لأبن مسكويه وكان هو الذى قام بنشره^(٢) « إن سيف الدولة ورد بغداد وهو راكب فرسه ويده رمح ،

(١) المختصر في أخبار البشر لأبى الفداء الحموى ج ٢ ص ٨٩ الطبعة الحسينية ، وشمسبرجة في كتابه عن تاريخ الإمبراطور نيسيفور فوكاس ص (١١٩) .

(٢) تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٣٩ هامش . وقد وصفت هذا المصدر القيم في هذه الرسالة . هامش .

وبين يديه عبد له وقد قصد الفرجة وأن لا يعرف فر بشارع دار الرقيق على دور بني خاقان وفيها فتیان يطربون فدخل وسمع وشرب معهم وهم لا يعرفونه وقد خدموه فاستدعى عند خروجه الدواة فكتب رقعة وتركها فيها ، ثم انصرف ففتحوا الدواة فإذا في الرقعة (ألف دينار على بعض الصيارف) فعجبوا وحملوا الرقعة وهم يظنون أنها ساذجة فأعطاهم الصيرفي الدنانير من فوره ، فسأله عن الرجل فقال ، « ذاك سيف الدولة بن حمدان » .

وقد زاد عجبى لهذا الخبر الذى رواه أميد روز عن كتاب التكملة ^(١) فعرفت منه أن مكانة سيف الدولة لدى العباسيين كانت كريمة عظيمة . وأنه كان معروفاً شائع الشهرة في بغداد . وأن الشعب عامة كان به سامعاً ومعجباً بفروسيته ونصرته ، وقد ورد في هذا الخبر أن سيف الدولة خرج مستخفياً (Incognito) كما يقول الغربيون . وفيهم يفعل ذلك لولا أنه كان ذائع الشهرة عند جميع البغداديين خاصتهم وعامتهم . وناهيك بتألق شهرته وانبساط معرفة الناس به ، هذا الصيرفي النجار العيار الذى عرف توقيع سيف الدولة فدفع الدنانير في الحال والوقت نفسه كما جاء في هذا الخبر العجائب ، وقد دلتني هذه الرواية أن نظام الحوالات والسفاتيح كان معروفاً لدى العباسيين ، كما كانت عندهم دور الصيارف .

إذن قامت الدولة الحمدانية الشرقية في الموصل في ديار أهلها العراقيين ، فلم تكن طارئة أو غاصبة ، وقامت الدولة الحمدانية الغربية في شمالى سورية بالفتح والحرب ، فقد كان ملك الإخشيديين قد بلغ إلى أعلى سورية فشد سيف الدولة عليهم بجمعه ، وكان ذلك أوائل طلوع نجمه في الفروسية والشجاعة فاستولى على حلب وسائر الثغور الشامية ، وكان في إمارته حصن الغرب أنطاكية وحصن الجنوب حمص . وكان راغباً في مد سلطانه إلى الجنوب حتى دخل دمشق وسرعان ما خرج منها . ولم يكن في فاتحة عمله الحربى إلا داعية للخليفة العباسى وظل محافظاً على صلته هذه بالعباسيين التى لم تتعد الاسم لكنه بقى مستقلاً في دولته الخاصة وشغلته عن العباسيين بعد تأسيس دولته حروبه الطوال مع البيزنطيين التى أخذت منه طول الحياة حتى قال فيه أبو الطيب في رسالة إليه بعد مفارقتها :

أنت طول الحياة للروم غاز فتى الوعد أن يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أى جانبيك تميل

(١) هو تكملة تاريخ الطبرى لأبى الحسن بن عبد الملك الهمدانى من مخطوطات المكتبة الأهلية بباريس .

٢ - سيف الدولة ورجال دولته

لا نستطيع أن نتمثل عصر سيف الدولة في حروبه وفق ما تقضى الدراسة الحديثة إلا إذا درسنا التاريخ البيزنطى فى القرن العاشر للميلاد ، فإن الكلام على سيف الدولة وعصره الحربى لم يبق مصدره فى كتبنا العربية فحسب ، وإنما ثمة كتب ألفها البيزنطيون ، ونقلها الغربيون ، ذكروا فيها سيف الدولة أمير حلب كما كانوا يذكرون أباطرة القسطنطينية ، وكتبوا عنه وعن حروبه ورجاله ، ووصفوا حلب وما والاها كطراف ما كتب العرب ، بل لم أجد إلى اليوم كتاباً عربياً وقفه صاحبه على سيف الدولة وعصره مثلما وقف المؤرخ شلمبرجه كتابه الكبير الذى سماه : « نيسيفور فوكاس الامبراطور البيزنطى ^(١) » فى القرن العاشر ، وقد تقصى المصادر البيزنطية والمخطوطات العربية التى لم يصل أكثرها إلى أيدي العرب المحدثين ، وتنخل الكتب العربية القديمة حتى استخلص تاريخ سيف الدولة فى كتابه النفيس هذا وقرن سيف الدولة بنقفور الروم ، فأبان أن كلا منهما كان موازياً للآخر فى حروبه وجلاده ، وكان خصماً عنيداً لا يفتأ يهدأ من الوثوب على عدوه حتى يعود فيثور أشد ضراوة وأبعد فتكاً .

وقد نقبت فى كتابه وتتبع حوادث سيف الدولة فيه وهضيت إلى ذلك متتبّعاً قصائد المتنبي فى ديوانه التى نظمها فى حروب سيف الدولة مع الروم : وكنت أنقصها حرباً حرباً لأستطيع أن أحصل على تحديد دقيق ووصف زمنى لما لابس حوادث العرب فى حوادث الروم فى تلك الفسحة من الزمن الذى كان يقتتل فيها سيف الدولة مع نيسيفور عاهل الروم . إن الشخصية العبقريّة التى كانت لسيف الدولة ، لا يستطيع التاريخ مهما جار كاتبه أن ينقصوا من أطرافها شيئاً من مزاياها الرائعة ، ولو أن سيف الدولة كان جرمانياً أو من الرومان لنسج له مؤرخو تلك الشعوب سجل تاريخ مذهب الحروف فإن أمثاله فى البطولة والذكاء وكرم الطبع وبسطة العلم كان نادراً عند الفرنجة .

(١) Gustave schlumberger (Un Empereur Byzantin au dixième siècle , "Nicephor Phocas"

طبعة معهد باريس سنة ١٨٩٠ . وقد وقف شلمبرجه علمه التاريخى على تاريخ البيزنطيين والعرب وكان قبل فاسيليف معدوداً من أوائل الأعلام الذين ألفوا فى هذا الصدد . وكان من أعضاء المعهد الفرنسى المسمى Institut وهو مجمع الأكاديميات الخمس .

ولم ينهض أحد بتسجيل ما اتصفت به هذه الشخصية العربية الفذة مثلما نهض أبو الطيب المتنبي الذي يعد سيف الدولة شرف القبائل وفخر العواصم فيقول فيه :

تَشْرَفُ عدنان به لا ربيعة وتفتخر الدنيا به لا العواصم

وفاته حقه أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر ^(١) فحلل أخلاقه وأبان قدره ، ودرس عصره ، ونهضة الأدب فيه ، واختص شاعره المتنبي بقسط جليل من هذه الدراسة الطريفة . وذكر أبو منصور خطر سيف الدولة على طاغية الروم وفداحة غزواته (كما سيأتي الكلام عليه عند ذكر حروبه) ، وجلالة قدره في الشعر والأدب وبأسه وسلطانه في الإمارة والفتوح .

ويمكن الحكم - حسب ما كتبه عنه المؤرخون منذ عصره وما بعده - بأنه كان قضاء مسلطاً على الروم وكان حمى الثغور وسد الإسلام تجاه سيل الروم العارم ، فكانت الخلافة في أيامه مستريحة من غارات الثغور إذ كان سيف الدولة قد تكفل بها حسب ما تقضى عوامل إمارته واستقلاله بالحكم في منطقة حلب وما والاها من البلدان التي كانت إليه .

وقد ارتكب بنو حمدان ومعهم سيف الدولة غلطات سياسية لا يغفرها التاريخ ، فقد حمل الطمع بنى حمدان على أن يجوروا على بنى عمومهم آل حبيب بصنوف العذاب حتى فر من هؤلاء اثنا عشر ألف فارس إلى بلاد الروم واندمجوا فيها ديناً وحرباً .

ومن غلطاتهم الفادحة أيضاً أنهم كانوا يجورون على الرعية بالحبائيات وأخذ الأموال والمكوس في حدود الظلم والاعتساف . وكانوا يبدخون ، حتى إن قصور سيف الدولة بحلب كانت تبذ قصور الخلفاء في بغداد ، وأروع من قصور القسطنطينية .

أما المؤرخون البيزنطيون الذين كتبوا تاريخ حروب القسطنطينية مع حلب منذ القرن العاشر فإنهم كما يروى (شلمبرجه) كانوا يرون سيف الدولة نفسه الدهر العربي الجاثم في

(١) الطبعة الأولى بمصر سنة ١٩٣٤ ج ١ ص ١١ .

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) لآدم مثر . ترجمة الدكتور أبي ريدة طبع مصر سنة

جوارهم وكان اسمه عندهم في البيزنطية (Apochaudas) وكانوا يسمونه أيضاً (الكافر الحمداني) ويعدّه رجال سياستهم « المحارب الوحيد الأعظم السامى الذى أعلن الحرب المقدسة على النصرانية » ومتى قال أحدهم (الحمداني) فإنما كان يعنى سيف الدولة .
ويقول (شلمبرجه ^(١)) « إن اسم سيف الدولة العظيم يكاد يكون مذكوراً في كل صفحة من صفحات كتابي هذا المثير ^(٢) .

وظل اسم هذا المغوار العربى مشهوراً في حروب الشرق في القرون الوسطى ، ولم تخل من ذكر اسمه صفحة من صفحات الكتب البيزنطية التى ألفت في القرن العاشر للميلاد - كما يروى (شلمبرجه) - وكان اسمه أبداً موصوفاً بأنه أقوى خصم وأشرس بطل على الجيوش البيزنطية . وقد وجدت (شلمبرجه) على ما عنده من تحوط في إيراد الحوادث الإسلامية قد يندر منه حيناً بعد حين طيش المؤرخين الذين لا يملكون شعورهم . فقد كان يرخى زمام القلم وراء ألفاظ طاعنة فينا ، كما فعل وهو مأخوذ بسحر وصفه لظفر كسبه نيسيفور فوكاس على سيف الدولة بعد فتح حلب وإحراقها وهدمها . فنكأ هذا المؤرخ الكبير جراحات صدره المكبوتة منذ ظفر سيف الدولة على الروم ، وقد عجبت له ، فإنه حيناً وصف ظفر سيف الدولة على نيسيفور وجمعه سكب على سيف الدولة من بيانه الرائع صفات المجد والسؤدد التى لم يسكبها عليه مؤرخ من بنى جلدته . فقد قال عنه إنه كان فارساً شجاعاً إلى أقصى ما يمكن من وصف الشجاعة والإغارة وأنه كان لا يعرف الخوف ولا الخور ، وطال ما كان جديراً بأشرف الأعمال وأكرمها ، فهو حامى دمار الديار ومنهض الأدب والمغرم بالفنون ، ومضى هذا المؤرخ في تسكاب بيانه هذا في مدح سيف الدولة حتى قال عنه : « كأن سيف الدولة كان مخلوقاً ليسكن في قصور ألف ليلة وليلة أو في خيام الضاريين في

(١) كتابه السابق عن نيسيفور ص ١٢٠ .

(٢) من الكتب التى اعتمد عليها شلمبرجه في وضع كتابه - وقد جاء في ثمانية صفحة من القطع الكبير .
مخطوطات : عقد المؤلف للمبنى .

تاريخ كال الدين . مخطوط بدار الكتب الأهلية بباريس .

كتاب عن الإمبراطور بازيل البلغارى مخطوط ليحيى بن سعيد بن البطريق الأنطاكي .

كتب بالألمانية : المتنبى وسيف الدولة لـ Dieterici طبع برلين سنة ١٨٤٦ (قد اطلعت على هذا المصدر وأثبتته في مصادرى وهو موجود في مكتبة جامعة القاهرة برقم ٣١١١١ عام) . ديوان المتنبى للواحدى أخرجه Carmina المتنبى ألفه Hamner بالألمانية طبع فيينا سنة ١٨٢٤ .

وكتاب (درهان حمدانيان) وضعه Sauvare طبع المجلة الفرنسية الأثرية بباريس سنة ١٨٨٥ .

عرض الصحراء .

لقد أقام سيف الدولة لنفسه ملكاً في شمال سورية يضارع في نفسه وسلطانه ملك الخلافة ، بل لقد كانت الخلافة في انخزال وضعف في أيامه وكانت تتردى في الهوة السحيقة التي بدأت تسقط فيها منذ قتل المتوكل . فأقام سيف الدولة الدساكر والضياح وأحسن الحرث وأغزر النسل ، وكانت له حلب دار الإمارة ومستقر السفارة ، وفيها قصره في محل يسمى (الحلبة) فكان إذا عاد من غزوته أمر تحت المساء بإقامة المآدب في قصره^(١) فجالت نساؤه وراء الستر معطرات متبخترات ، ونهر قويق ذو الماء البارد يجري في القصر في مجار من المرمر المسنون ، وكان الصوت الفضى الذي يحدثه الماء ينشر البرودة في جو ذلك المكان تحت رواق منصوص على الأعمدة العالية التي تشبه صواري المركب حتى يخيل إلى النظر أن أمير حلب إنما يعيش في عالم جنى ، محفوف بالجمال والطيب .

وكان يهوى أن يسمع وهو حالم الفكر شارد النظر - في أجواز مجده وخلوده - شعراء ومنشديه يرتلون بين يديه آيات مجده الحربى ، ومفاخر معاركه . فإذا هجم قطع من الليل أخذ في المسامرة . وكم كان يحن بكل جوارحه إلى شاعره الأعظم أبي الطيب المتنبي يفيض شعره غلوبة معنى وحرية لفظ في مديح المحارب الذى لا يهدأ . ومن يدرى ؟ لعل « خولة » أخت سيف الدولة في إحدى تلك الأماسى والأسمار كانت تصيح بالسمع ومعها جواربها إلى إنشاد أبي الطيب وهى وراء خصاص من الفضة ، في جو عابق بمجامر البخور فإذا شاعر أخيها وشاعرها يقول :

وما شرقى بالماء إلا تذكراً لماء به أهل الحبيب نزول
يحرمه لمع الأسنة فوقه فليس لظمان إليه وصول

لقد شرقت بدمعها هوى إلى أبي الطيب ، قبل أن يشرق هو أسى بعد عشرين سنة حين ماتت وورده خبر وفاتها في الكوفة فقال يومئذ البائية التي بها :

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبر فزعت فيه بآمالى إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لى صدقه أملاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى

يقول (شلمبرج) « لا شيء يشبه ولوع سيف الدولة بالشعر إلا تلك المساجلات التي

كانت بين الشعراء في فرانسة الذين كانوا يسمون (تروبادور) في (البروفانس) و (لانكدوق) حيث كانوا ينشدون الشعر بين أيدي الأمراء في ولائم كأنها من صنع الأساطير ^(١) .

وكان هذا البطل الذي نذر عمره لحرب البيزنطيين فسكب الغزير من دماهم ، قد أسكن قصره — فعل خاطف من مردة الشياطين — فتاة بيزنطية سايبة الحسن ، وكانت بنت كبير من البطارقة سباهها في إحدى حروبه للروم فتزوجها ، وكان لها عليه سلطان عظيم ^(٢) « فكان يهيم بها مثل بطل من أبطال الروايات ، ويروح وقد نظم عن هيامه بهذه الرومية الحسناء أرق شعره الغزلي ». وقد ذكر أبو منصور صاحب اليتيمة ^(٣) أن هذه الفاتنة من بنات ملوك الروم ، كان يهيم بها سيف الدولة حتى أسكنها إحدى قلاع خولاً عليها من ضراتها ، وذكر له فيها شعراً ، فيه صبرة ، وفيه هيام ، وخوف من العاذلين . ولكن تلك الرائعة المفتان لم تستطع أن تمنع سيف الدولة من حرب قومها ، وكأني به حين كان يتركها إلى مغزى أهلها كان يودعها وهو متمثل بقول شاعره المتنبي :

وللخود عندى ساعة ثم بعدها قلاة إلى غير اللقاء تجاب
تركنا لأطراف القنا كل شهوة فليس لنا إلا بهن لعاب

أما رجال سيف الدولة فلم يصفهم المؤرخون كما تريد السياسة ، وإنما وصفوهم كما يريد الأدب ، فكان أبو منصور الثعالبي صاحب اليتيمة أفضل من أبان أقدارهم وجمع غرر أقوالهم . إنه ليورد الكلام على أدبائهم ويشير إلى أثرهم في بلاط سيف الدولة . ولقد كان الشعراء والكتاب الحمدانيون متصفين بالسياسة والرئاسة ، وبالأدب والبيان معاً . ولم تكن السياسة حتى أواخر العصور العباسية لتفترق عن الأدب ، أفلم يكن الوزير كاتباً ، والقائد خطيباً ، وحاشية الخلفاء والأمراء من الشعراء والأدباء . كذلك فإن رجال الدولة الحمدانية كانوا أدباء حريبين وشعراء من الفرسان ، وكان الشعر والأدب صناعتهم جميعاً ، لأن سيف الدولة نفسه كان أديباً شاعراً ، أثر له شعر جيد روى بعضه الثعالبي ، وكان أمير حلب يعرف مواطن التقب الفنى ، وهذا أحد الأسباب الصحيحة التي رفعت مقام أبي الطيب عنده وجعلته يطمع بالخلود في قصائده الخالدة .

(١) المصدر السابق ص ١٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٤ .

(٣) الطبعة السابقة ج ١ ص ٢٥ .

كان من رجال الدولة الحمدانية أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان ابن عم سيف الدولة وعضده في السلم والحرب ، وإني لأسميه بحق (شاعر الفرسان وفارس الشعراء) . وكان أبو فراس تلو أبي الطيب في شعر الحرب وتأجج الحماسة . وكان من رجال هذه الدولة المصاليات ومن أبطالها المناجيد أبو العشائر الحمداني ^(١) وهو الذي ورد عليه أبو الطيب بإمارته في أنطاكية قبل أن يعرف سيف الدولة ، وقد أسر أبو العشائر في بعض حروب سيف الدولة مع الروم وحبس في حصن (خرشة) ثم نقله البيزنطيون إلى القسطنطينية ومات فيها سجيناً . وفي هؤلاء الرجال أبو وائل تغلب بن داود الحمداني الذي أوفده سيف الدولة لمحاربة الخارجي في أطراف الشام فأسره الخارجي واستنقذه سيف الدولة . وفيهم أبو زهير مهلهل بن نصر بن حمدان رجل حرب وأدب . وبقية من أمراء حمدان بين عمومة وخوالة كانوا منبئين في عمالات سيف الدولة على ثغور الشام . وكان يرفد هؤلاء الأمراء قضاة سياسيون وأدباء ، فقاضى قضاة سيف الدولة الذي كان يحارب معه أبو الحصين علي بن عبد الملك الرقي وابنه من بعده أبو الهيثم . وإلى هؤلاء كان لدى سيف الدولة قواده من غلمانهم وكانوا عماده في حروبه ، فغلامه (نجا) كان يحارب معه وهو الذي شغل جيوش نيسيفور فوكاس يوم تحدرت على حلب حتى تمكن سيده سيف الدولة من الابتعاد . ولكن (نجا) لم يبق خالص الود لمولاه ، فقد خرج عليه في أواخر أيامه حين تقاعس حظه وبدأ أقول نجمه ، وقد روى ابن مسكويه أن سيف الدولة أمسك به وقتله جزاء خروجه عليه . فأمرت زوجته (وهي ابنة عمه وأخت أبي فراس) أن يطرح الخائن (نجا) من مجرى الأقدار ^(٢) . كما أظهر غلامه الآخر (قرعويه) محبة لمولاه وإطاعة في حياته ، ثم جعل بعد موته يتلاعب بابنه (أبي المعالي) وكان هو الذي حارب أبا فراس وأمر بقتله ، ثم ثار بعدئذ على سيده أبي المعالي سعد الدولة بن مولاه سيف الدولة في أيام عزه وسطوته . وكان من هؤلاء الغلمان بعد سيف الدولة أن كاتبوا الروم بالخيانة ، وكان (قرعويه) هو الذي راسل (بييرفوكاس) أحد قواد البيزنطيين واسمه عند العرب (طربازي) حسب رواية (شلمبرجة) وحده نقلاً عن النصوص البيزنطية ^(٣) فدخل الروم أنطاكية بقيادة (ميخائيل بورتزيس) ونهبوها وانفتحت أبواب سورية بعد ذلك أمام جيوش القائد الأعظم يوحنا تريميسيس في

(١) هو الحسن بن علي بن الحسن بن الحسين بن حمدان العدوي .

(٢) تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٠٨ . والكامل في التاريخ لابن الأثير ط أوربا ج ٨ ص ٤٠٨ . في حوادث سنة ٣٥٣ .

(٣) كتابه عن نيسيفور فوكاس ص ٧١٤ .

غزواته اللاحقة ، وكان مراده ومناه الوصول إلى بيت المقدس مسوقاً بنزعته الصليبية المبكرة . وقد غطى على كل أولئك الرجال سيف الدولة وحده كنسر قشعم نشر جناحيه على الصقور ، وكانت تلك عادة سيف الدولة فقد استبد برأيه حتى في أوقات مهالكه ومعاطيه . وقد نقد سياسته ابن مسكويه في تجاربه فقال عنه ^(١) : « كان هذا الرجل ، أعنى سيف الدولة ، معجباً يجب أن يستبد برأيه وألا تتحدث نفسان أنه عمل برأى غيره ، وكان أشار عليه أهل طرسوس بأن يخرج معهم لأنهم علموا أن الروم قد ملكوا عليه الدرب الذى يريد الخروج منه وشحنوه بالرجال ، فلم يقبل منهم ، ولجّ ، فأصيب المسلمون بأرواحهم ، وأصيب هو بماله وسواده وغلمانه » .

والظاهر أن (ابن مسكويه) لم يكن ظالماً لسيف الدولة بنفده لسياسته أو متحاملًا عليه ، على الرغم من النفرة التى كانت بين الفرس والعرب ، وقد كان هذا المؤرخ وأمير حلب فى عصر واحد ، إذ كان المؤرخ كاتباً عند أبى الفضل بن العميد وزير ركن الدولة الذى ورد عليه أبو الطيب بفارس أواخر أيامه .

٣ - لون سياسة الحمدانيين

بينت فى أوائل هذا البحث لون سياسة الحمدانيين تلقاء العباسيين . أما لون سياستهم تلقاء الروم فكانت كما يصفها (شلمبرجة) « محاربة البيزنطيين بصلافة وشجاعة عظمية ودفعهم عن الحدود الغربية إذ كان العدو الأوحى للعرب يومئذ هم البيزنطيون » . ولكن هل كان الحمدانيون يحاربون البيزنطيين لرفع كلمة الله ، وإتمام ما قام به الخلفاء الراشدون ، والخلفاء الأمويون ، كالكوليد بن عبد الملك ، والعباسيون كالمعتصم والمتوكل ؟

أحسب ذلك كان السائد وأن الحرب المذهبية كانت الدافع الأول وأن خوف الحمدانيين على بلادهم من استيلاء الروم عليها كان السبب الثانى . ولعل الحمدانيين كانوا يجمعون بين الأمرين فتكون حروبهم تارة لهذا السبب الدينى وآونة لذلك الدينوى . وكانت أكثر الثغور على أيدى التداول بين الفريقين .

أما سياسة الحمدانيين مع الدول العربية التي عاصرتهم فقد كان سيف الدولة فيها مدره السياسة مع البويهيين ، حتى كان معز الدولة البويهى يوقره ويلتمس البعد عن أذيته ، وكذلك، فإن سياسته مع الإخشيديين كانت بعد أخذه حلب وظلت صلته بالعباسيين حميدة بينما كان العباسيون يضطهدون الشيعة في كل مكان وفي كل سائحة .

٤ - حروب الحمدانيين مع الروم

(١) الجيوش العربية والبيزنطية في عصر سيف الدولة

حارب الحمدانيون البيزنطيين نحواً من ستين عاماً، وافتخر بذلك أبو فراس تلقاء إمبراطورهم حينما جلس لمناذمته^(١). وقد بسطت أسباب هذه الحروب الطويلة عند الكلام على حروب سيف الدولة من شعر المتنبي، فما أحبّ إلى أن أصف الآن صورة لكتيبة عربية من القرون الوسطى من مخطوط عربى يملكه (شارل شيفر) أحد أثرياء الفنون من علماء الفرنجة المعاصرين ، وقد أثبت (شلمبرجة) هذه الصورة في كتابه عن ملك الروم نيسيفور فوكاس ، وهى تمثل خيلاً عرباً متراصة النحور وعليها دارعون بأيديهم الأعلام ، وإن أعلامهم لمطرزة ملونة مخططة عليها وشى كثير وزركشة فنية . وفوقها كتابات منها (لا إله إلا الله) بطراز كوفى ، وهى أعلام عراض . وفى وسط الصورة فارس بين صحبه الفرسان قد أكب على طبل تحت يديه يقرعه بحماسة وعنف ، وقد رفع مقرعة فى الفضاء ، وأهوى على الطبل بمقرعة ، وعلى جانبيه فارسان مع كل منهما بوق طويل ينفخ فيه جهد أنفاسه وهم جميعاً فى سحنات عربية عليها لحى وفوق رؤوسهم عمام مكورة ، ولباسهم سراويلات وقد تبين لى أن هذه الصورة هى صورة الموسيقى العربية التى كانت تمضى أمام الجيش فى العصر العباسى ، عارية من السلاح ، شأن فرق الموسيقى المعروفة فى عصرنا فى جيوش الأمم ، وقد ذكر (شلمبرجة)^(٢) أن قسطنطين الرومى البورفيرى Porphyrogénète وصف فى كتابه المسمى (الإدارة) فى الفصل العشرين كيف كان طراز المسلمين الحاربين مع سيف الدولة وأن (كرىمر)^(٣) الذى ألّف كتاباً عن أدوات الحرب عند

(١) كما سيأتى الكلام فى شعر الحرب عند أبى فراس .

(٢) ص ٢١١ من كتابه السابق .

(٣) أحد المستشرقين الألمان .

العرب قد أخذ عن البورفيرى أكثر ذلك الوصف فقال : « إن جند سيف الدولة كانوا مغاوير محبين للحرب فحينما يكون منهم ألف يدافعون عن مكان فإنه يظل من الإغراق فى المستحيل أخذه منهم . إنهم ليقعدون على ظهور أفراسهم فى المعمة وليس عليهم لباس السلاح التام ، فهم لا يكترون بلبوس (الجانيات) ^(١) ولكنهم يضعون على وجوههم مغافر من المعدن المصفح ، سلاحهم الرماح الطوال والتروس الكبيرة التى تغطى الجسد كله ، وأقواسهم من خشب لين واسع ما بين السيتين ويعسر على الرجل القصير أن يرى بالنشاب » . ولم يكن العرب مثل جنود البيزنطيين ينقلون أداة حروبهم على العجل والدواب وإنما كانت الإبل لحمل أثقالهم . وما كانوا ورحى المعركة تدور ليستعينوا بالطبل الكبير أو القرون النافخة ، وإنما كانوا يقرعون على طبول صغيرة قرعاً عاجلاً متتابعاً .

وهم إذا ساروا أعدوا عدتهم - كما يصفهم شلمبرج - فزحف جيشهم مزيئاً بالأعلام الملونة ترف منها على الرؤوس قصاصات مضفورة تلوح فوق الرماح المنصوبة التى لا ينتهى الطرف إلى مداها . وكانوا جميعاً مزهوين بهذه الأعلام الملونة ، وهم إذا ساروا وثار الغبار وراءهم ترنموا فى مسيرهم بأغان يخرجون أصواتها من أنوفهم نعيماً Chant nasillard مقرونة بصوت الطبل الغامض المبهم وقرع الصنوج ، وكان الفرسان المسلحون لكى يسرعوا فى السير يزحف مع كل فارس منهم جندى راجل وراءه .

يقول (رامبود ^(٢)) لم يكن لباس الجندى العربى مختلفاً عن لباس الجندى اليونانى الذى سلاحه قوس ونبل ودرع ومزراق وسيف وفأس للمعركة . وإلى ذلك مغفر يستر الرأس ودرع من المعدن تغطى الجذع ، وجانيات تستر رجليه والساعدين ومقاود من الفولاذ للخيول ، وكانت أغماد السيوف العربية مرصعة بالفضة ، وسروج الخيول العربية مثل سروج خيول الروم . وكان العرب زمن سيف الدولة يلبسون ضروباً من الدروع اسمها الجوشن تغطى الفرس . . ويقول (رامبود) لم يكن شئ ليعتلف بين الروم والعرب فى نظام الحرب سوى الهجوم ، فإن الروم تعودوا مع البلغار والروس الهجوم المنظم بخلاف العرب . أما باقى فنون الحرب فكانت متشابهة كل التشابه عند الفريقين ، وأما طراز المبارزة فقد وجدت أن شرعته من وضع العرب منذ حروبهم فى الجاهلية ، يتبارز بطلان من كل

(١) الجانيات صفائح من الدرع على شكل الفخذين تشد فوق الساق والرجل من كل جانب .

(٢) ص ٢١٠ المصدر السابق (لشلمبرج) .

جهة ويتعاونان المطاعن والمضارب ، حتى يصرع أحدهما الآخر على نحو ما كان معروفاً عند الرومانيين من صراع الـ Gladiateurs إلا أن هؤلاء كانوا يتصارعون راجلين ولم يكن صراعهم للحرب ولكنه للنجاة من الأسر أو الذنوب ^(١) فإذا فرغ البطلان الفارسان من الصراع ولم يقو أحدهما على الآخر انصرفا فعاد إلى مكانهما غيرهما ، أو وقع أحدهما قتيلاً فجاء مكانه آخر من صحبه . فإذا نفذ المتصارعون هجم كل فريق على الآخر هجمة (السلاح الأبيض) .

ولا شك أن نظام المبارزة بين الفرسان في القرون الوسطى في أوربة مقتبس عن العرب فكان هؤلاء الفرسان الأوربيون يتحاربون على طريقة المبارزة ثم تتلاحم جموعهم كما يفعل العرب . وقد أثبت (بيديه) في كتابه عن تاريخ الأدب الفرنسي ^(٢) صورة لمبارزة بين فارسين من القرون الوسطى متواقفين كل منهما أمام الآخر ويبد كل منهما رمحه وترسه وعليه درعه ، وهذه الصورة منقوشة على وجه كنيسة (أنغوليم في فرنسة) ^(٣) .

أما جيوش البيزنطيين وأخصها جيش الإمبراطور نيسيفور فوكاس فكان كما يقول مؤلف عصر هذا العاهل ، إن الجيش البيزنطي كان على غاية لتمرس والدربة والفن العسكري وكانت المعتقدات الدينية والشعور الوطني يدفعانه إلى أقصى الحمية والحماسة ، وأن الأباطرة البيزنطيين كانوا يجودون بالخيرات الجمة على الجيش ويقطعون الأجناد قطعاً من الأرض ^(٤) .

وقد اعتدل (رونسيان) حينما وصف جيش البيزنطيين فلم يصفه وصف (شلمبرجة) وإنما قال عنه « ولم يكن البيزنطيون (أمة حرب) ولم يكونوا كمحاربى الغرب — وهو يعنى اليونان والأوربيين — فرسان معارك . وكانت الضرورة وحدها هى التى تقتضيهم الاعتناء بالأمور العسكرية ^(٥) » .

(١) لا يزال بناء (القلويزة) جاثماً في ضاحية روما فقد كان يحرق فيه أيام عمرانه على عهد الأباطرة الرومان الأقدمين عرض رياضى يشهده الإمبراطور ورجال الدولة ونساؤها من الأشراف والأعيان ويدخل إليه بالمجرمين والأسرى فيصطرح كل اثنين منهم على حدة فنقتل الآخر سلمن ذنبه وأطلق، وكان ذلك تسلياً لجبايرة روما وطغائها بعد أن يشاهدوا اقتراس الأسود لضرب آخر من الأسرى والمجرمين .

(٢) المجلد الأول ط لاروس بباريس سنة ١٩٢٣ .

(٣) أنغوليم Angoulême كنيسة كبرى على نهر شارانت في طريق أورليان بفرنسا .

(٤) كتاب (شلمبرجة) عن نيسيفور فوكاس ص ١١٨ .

(٥) كتابه بالترجمة الفرنسية (الحضارة البيزنطية) ص (١٤٢) السابق وصفه، الذى يقول فيه إن =

لكن (شلمبرجة) الذى جعل من اختصاصه التنقير فى تاريخ البيزنطيين يصف دهشة سكان الحوض الأبيض المتوسط حين كانوا يعاينون الجنود البيزنطيين بقاماتهم العالية سيوفهم عراض ، ورماحهم طوال سنانها ذورأسين وبجانبه فأس حديد ، ويصفهم هذا المؤلف بأنه لم يكن شئ يقف فى وجه هجومهم ولا من يستطيع أن يهزمهم عن مواضعهم حينما يندفعون أمواجاً وصفوفاً ، ولقد كانوا يبطلونهم أوائل الفرسان فى أوروبا البربرية . وكانت عددهم ثقيلة كل الثقل لا تصلح إلا للمقاومة والفتوح .

ثم أرسل المؤلف أوصافاً فى لباسهم الحربى فكانت على رؤوسهم خوذ ثقالة من الحديد وعلى أطرافهم وجسومهم الزرد المضاعف المظاهر بينه وكان يستترهم تروس كبيرة . وكانوا يحاربون وهم مولون هاربون ، فكانوا يلقون بهذه التروس على أكتافهم فتقيهم النبال ساعة الهزيمة .

ويصف تعبثهم فى بعض المعارك بأنهم كانوا يؤلفون صفاً واحداً ، كنفاً إلى كتف ، متراصاً كالجدار . لا يمكن اختراقه وهذه تعبئة قديمة مورثة ، حدث عنها تاسيت ووصفها بأنها (حائط الحديد) يتلاحم فيه صف الجنود ^(١) منصوبة عليه الرماح ويلمع على رؤوسه المغافر تتلأأ بأيديه التروس المعدنية .

يقول مؤرخ الروم إن الإمبراطور نيسيفور فوكاس ألف كتاباً للروم فى فن الحرب وصف فيه خيالة سيف الدولة بأنها تهاجم عن الرجالة ، وبين فى كتابه هذا أساليب المحاربة الروم للعرب ، ونصائح لهم فى حروبهم مع المسلمين ، وقد ذكر فى أحد فصوله أن العرب يقاومون مقاومة عنيفة فيصمدون وراء مناريس من متاعهم وجمالهم الهلكى . ويوصى الجنود البيزنطيين بأن يتزلوا فى مثل هذه الحالة إلى الأرض ويباغتوا العرب (بالسلاح الأبيض) .

بيزنطة كانت مدافعة حتى قويت فصارت مهاجمة . وإن لقب القائد الأكبر عندهم هو (Akritae) وإن فرق جيوشهم فى القرن العاشر كانت بأيام نيسيفور ذوات أسماء خاصة بها كفرقة tagmata وفرقة Hicanate ومنها الحرس الإمبراطورى . وإن أرض بيزنطة قد سميت مقاطعاتها بأسماء فاتحها وبأسماء بلاد فى يونان . فأرض بيلوبونيز هى تسمية ثانية للأرض الأولى فى بلاد اليونان الغربية ، فأذكرنى هذا ما صنع العرب حينما مصروا الأمصار ، فإن الكوفة موطن أبى الطيب المتنبي كانت تحمل فى سككها أو بقاعها أسماء بقاع اليمن وفى ذلك يقول أبو الطيب فى الحنين إلى هذه البقاع الكوفية :

أمنى (السكون) و (حضرموت) و (كدة) و (السبيعا)

التي قرنها بحب أمه .

(١) لقد عرف المسلمون مثل هذه التعبئة إذ قيل فيها (مثل البنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً) .

وفى كتابه فصل عن حرب الليل (البيات) فيوصى فيه جنوده أن يستعملوا المشاعل والقناديل لإخافة المسلمين ^(١) ، وفيه فصول كثيرة عن السبي والسلب ومحاصرة الحصون .

ويذكر (شلمبرجه) أن العرب كانوا حينما يفتحون بلدة من بلاد الروم سرعان ما يطبعونها بطوابعهم فى الحرث والسقاية ومرافق الحياة .

وكانت جيوش البيزنطيين تهلل بأصوات أناشيدها بدمدمات أشبه بهدير البحر . وقد وصفهم ليون الشماس ^(٢) Leon le Diacre بأنهم جنود نذروا حياتهم للموت وأن من أخفق منهم كان يغرس سيفه فى أحشائه فينتحر ، وكانوا يعتقدون أن الذى يموت بطعنة أعدائه تهيأت له حياة أخرى .

وقد أنشد شعراء البيزنطيين قصائد طوالاً عن حروبهم مع العرب ، ضاع أكثرها فقد روى (رونسيان) ^(٣) أنه فى العصر العاشر للميلاد ^(٤) ظهرت فى بيزنطة ملحمة شعبية مطولة فى عشرة كتب سجل فيها مؤلفوها الحوادث الحربية التى جرت على الحدود الشرقية فى حروب (ديجينيس أقريطاس (Digénis Akritae) الذى قضى عمره ^(٥) فى محاربة المسلمين فى البر والبحر وكانت له أكبر درجة فى الجيش البيزنطى وأن أبا هذا البطل قد أسلم ! ومن يدرى ؟ لعل كتاباً من هذه الكتب العشرة هو عن سيف الدولة وأهوال الروم معه . إذ كان المسلمون هم العدو الخيف للبيزنطيين وهم الخصم الوحيد ^(٦) .

أما تلك الأناشيد البيزنطية التى كان ينشدها الروم فقد كانوا يقولون فيها ^(٧) :
« النصر لله الذى هدم البلاد العربية ، والنصر لله الذى شتت شمل من ينكر التثليث المقدس . والنصر لله الذى جلل بالحياة هذا الأمير القاسى عدو المسيح ، النصر لله النصر لله . »

وكانوا إذا ظفروا على العرب أقاموا فى كنائسهم تقديساً مسيحياً إذ كانت الحرب ضد

(١) عبر بكلمة Sarrasins أكثر المؤرخين البيزنطيين عن المسلمين فى القرن العاشر للميلاد .

(٢) مؤرخ بيزنطى فى النصف الثانى للقرن العاشر الميلادى أرخ حروب سيف الدولة مع الروم ونشر تاريخه بالفرنسية سنة ١٨١٩ فى مجموعة Byzantine بمكتبة Bonn .

(٣) ص ٢٦٧ من كتاب (La civilisation Byzantine) لرونسيان المذكور .

(٤) وهو عصر سيف الدولة والإخشيدين .

(٥) ١٤٧ من المصدر السابق .

(٦) ص ١٥٤ المصدر نفسه .

(٧) كتاب (شلمبرجه) عن نيسيفور فوكاس ص ١٩١ ويقصد البيزنطيون بعدو المسيح سيف الدولة .

العرب في نظر البيزنطيين (حرباً صليبية) .

وليت شعري أى شىء كان يقول جنود سيف الدولة بعد ظفرهم على الروم؟ ما أحسبهم بعد أن يفرغوا من تلاوة آيات الذكر الحكيم إلا منشدين مقطوعات حماسية من شعر المتنبي في سيف الدولة في هزيمة (الدمستق) فيستنون متندرين بفرار عاهل الروم . معجبين بمعاني أبي الطيب في سيفياته التي كانت صدى خواطرهم ، ومراً بطولتهم التي خلدها الشاعر العظيم في حروب سيف الدولة .

(ب) الدمستق وقواده

(الدمستق) Domestique هو لقب إمبراطور القسطنطينية ومعناه (الخادم الأعظم لجيش الشرق) أو (القائد الأعظم لجيش آسيا) Généralissime وكان لقب قسطنطين مالبينوس السابع (Constantin Maléinos) ملك القسطنطينية ، وهو المعاصر لسيف الدولة وقد حاز عاهل الروم هذا اللقب عقب ظفره الكبير على المسلمين ، وهو أيضاً لقب نيقفور الروم Nikiphoros (نيسيفور فوكاس) إمبراطور آسيا الوسطى ولم يصر نيسيفور إمبراطوراً على القسطنطينية إلا بعد حروبه العديدة لسيف الدولة . فكان الدمستق قسطنطين هو الإمبراطور ونيسيفور قائده الأعظم .

وقد نقصت أخبار القواد البيزنطيين في زمن سيف الدولة من خلال المصادر التي وقعت إلى عن حروب البيزنطيين مع العرب في القرن العاشر للميلاد فوجدت أن قواد ملك الروم قسطنطين ^(١) وضباطه في حروبه مع سيف الدولة هم : نيسيفور فوكاس Nicephor Phocas (أعظم القواد) .

ليون فوكاس أخو نيسيفور Léon Phocas

برنغاس Bringas حارب في جزيرة كريت ثم وجهه مولاه إلى محاربة الحمدانيين ^(٢) حنا قرقواس الأرمني Jen courcouas وهو الذي ورد اسمه في شعر المتنبي وأبي فراس (قرقوش) .

(١) ص ٩٩ من المصدر نفسه والهامش .

(٢) حكم قسطنطين السابع البورفير وجيني - هذا - من سنة ٩١٣ إلى سنة ٩٥٩ م وكان بعده على عرش القسطنطينية رومان الثاني من سنة ٩٥٩ إلى سنة ٩٦٣ للميلاد .

ميخائيل بورتزيس Michel Bortzès وقد حارب سيف الدولة ثم ابنه سعد الدولة (توفلس أخو قرقواس Théophile ملباس Mélias برداس فوكاس Barbas Phocas أبو نيسيفور . بازيل Basile

يوحنا تزييمسيس Jen Tzimiscsés وقد صار إمبراطوراً على القسطنطينية بعد أن اغتال نيسيفور .

شماشيق Chamachic ابن جان تزييمسيس وهو الذى ورد ذكره فى شعر المتنبي وأبى فراس باس (الشمشقيق وهو تصحيف صوبته ؛ (الشمشيق) تصغير (الشمشيق) كما سيأتى :

وكانت كلمة (البازيل) لكل عاهل على القسطنطينية أيضاً .

أما قواد العرب فكان ينظر إليهم الروم نظرة المنافس والضريع ، فإن نيسيفور وأخاه ليون كانا يعدان نفسيهما مثل سيف الدولة وأخيه ناصر الدولة أمير الموصل .

وكانوا ينتحون فى لغتهم البيزنطية أسماء لأكثر قواد العرب ، كما سمو (عبد العزيز بن عمرو بن سعيد القطرني قائد (كريد) وأميرها وكان شديد الصولة عليهم (بالقرباس Kouroupas) ومعناه بالرومية (الحاكم ولى الأمر)^(١) ، كما سمو (أبا العشائر) وقد وقع فى أسرهم Apolasar

وكان نيسيفور فوكاس^(٢) كبير أولئك القواد وزعيم الجيش كله وهو الموكل إليه فى أيام قسطنطين حرب سيف الدولة وشن الغارات على الحدود الإسلامية والدفاع عن بيضة الروم إذا هجم عليها جيش المسلمين ، لكن الحيف الذى سجله التاريخ على هذا الجبار العظيم أنه كان مطواعاً لزوجته (تيوفانو) اللعوب ، وكان الشعب البيزنطى يعجب لأمره كيف أقدم على الزواج بها وهى الایم من الإمبراطور رومان الثانى ، التى كانت لها سمعة تعوض فيها الألسن ، وقد جر عليه هذا الزواج خسارة ملكه وعمره ، فقد مهدت تيوفانو

(١) هامش ص ٨٠ من المصدر السابق لشلمبرجه .

(٢) يروى (رونسان) أن أبا الإمبراطور نيسيفور فوكاس كان من دم عربى (كتابه الموصوف

فيا سبق ص ١٩٢) .

سبيلاً إلى عاشقها (تزييميسيس) فقتله — وهلك نيسيفور مخذول الطوى خاسراً للمجد فنُقش على ضريحه هذه الكلمة : « أنت يا من قهرت الدنيا إلا امرأة » ^(١) .

٥ - الأدب الحمداني

يؤلف أدب الحمدانيين الحلقة الذهبية التي وصلت أدب العباسيين الزاهر بما بعده من آداب ظلت تترجح بين صعود وهبوط حتى انحطت أواخر العصر العباسي .

وكان أدب الحلقة الحمدانية شعراً ونثراً مع أخذ بالنحو وفنون اللغة ، فقد كان لسيف الدولة مجالس أدب في حلب بدارة (الحلبة) كانت مجمع الرواة والشعراء ، فطالما استمع ، تحت قباب هذه الدارة في أماسية الرائعة النشوى بالظفر ، إلى قصائد أبي الطيب المتنبي فيه ، وطالما تناظر في حضرته ابن خالويه وسائر الأدباء ، وكان هو الحكم بين المتناظرين . وأرى مجلسه الأدبي الحافل قد سبق إلى ما عرف في أوروبا منذ القرن السادس عشر في فرنسا من الأبهاء (Les Salons) وفي هذا البهو الحمداني الرحيب نوظر أبو الطيب المتنبي في قصيدته الميمية المشهورة وعنف عليه حساده وفيهم ابن خالويه وأبو فراس حتى أوغروا عليه صدر سيف الدولة فضربه بالدواة وشجه فرد الشاعر على أميره بقوله :

إن كان سركمو ما قال حاسدنا فما للجرح إذا أرضاكمو ألم

فقام إليه سيف الدولة وقبله مستغفراً . وشهد هذا البهو أكابر الشعراء الحمدانيين كأبي الفرج البغاء المخزومي وكان يجمع بين الصناعتين ، ورافق سيف الدولة إلى دمشق وقصر عليه مدحه وذكر في شعره ورسائله غزوات سيف الدولة وهو القائل فيه :

(١) كتب هذه الكلمة على قبر نيسيفور فوكاس (يوحنا بطريق ملطية) وأول من ذكرها (ليون الشماس Léon le diacre) وهو مؤرخ بيزنطي في النصف الثاني من القرن العاشر . قص في عشرة كتب حوادث بيزنطية من سنة ٩٥٩ - ٩٧٣ للميلاد وكان أصدق شاهد للحوادث البيزنطية الهامة مع العرب .

أنظر ص ٤٤٨ المجلد ١ من كتاب Histoire de l'Empire Byzantin Par : Alexandre Vasiliev

طبع باريس سنة ١٩٣٢

وهذا الكتاب من أثبت المصادر عن البيزنطيين وقد خصص فاسيلييف المجلد الثاني منه للحروب الصليبية . ومجلدها يقعان في تسعمئة صفحة من القطع الكبير وقد كتب مقدمتهما مؤرخ البيزنطيين المعاصر شارل ديبل الفرنسي

كأنما ادخر الرحمان معظمه دون الملوك لسيف الدولة البطل
 رآه أكرمهم في الخير إن ذكروا وصفا وأفضلهم في القول والعمل
 فهزه وظبا الأسياف مغمدة واستله غير منسوب إلى الفل
 حتى غدا الدين من بعد العبوس به جذلان يرفل من نعماه في حلل

ومن رجال هذا الأدب، الحمداني الشاعر أبو العباس النامي. وكان من فحول الشعراء الحمدانيين قربه سيف الدولة فكان عنده تنو المتنبي كما يقول الثعالبي^(١). ومن أدباء حلب في عهد سيف الدولة أبو الحسين الناشيء وأبو القاسم الزاهي وكانا من الشعراء الظرفاء ومثلهما الوأواء الدمشقي والسري الرفاء. وجاء السري سيف الدولة فلزمه واستكثر من المدح له. وكان في بلاط أمير حلب الشاعران الناثران الأخوان الخالديان أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد، وغيرهم كثير من أهل الشعر والنثر أحصاهم أبو منصور الثعالبي في اليتيمة واسترسل في الكتابة عنهم وعرض غرر أشعارهم وألوان نثرهم.

ووجدت أبا الفداء الحموي يروي في مختصر تاريخه^(٢) أن أبا الفرج الأصبهاني ألف كتاب الأغاني في خمسين سنة وحمله إلى سيف الدولة فأجازه عليه بألف دينار واعتذر إليه. فإذا كان كتاب الأغاني وهو ما هو في عظمة التأليف والتصنيف في الأدب والشعر وأخبار الغناء واللاحون قد ألف في عهد سيف الدولة، فقد كفى الأدب الحمداني فخراً أبداً الدهر. وكان الفارابي فيلسوف العقل والغناء ممن ورد على سيف الدولة. وكان زعيم اللغة في عهد سيف الدولة أبو الفتح عثمان بن جني وزعيم النحو ابن خالويه، وشيخ المؤرخين الشمشاطي، ولم يشهد عصر من عصور الأدب العربي مجمع علم وأدب ولغة وشعر مثل مجمع سيف الدولة غير الرشيد والمأمون. وكان الخلفاء العباسيون الذين عاصروا سيف الدولة يحسدونه على قصوره الممردة، ورجاله الأفذاذ.

وقد قلت لنفسى بعد الوقوف على أدب الحمدانيين وعجبي له إذ زخر بأفاضل الأخباريين وأساطين اللغويين، وأكرم الشعراء، قلت لولا حروب سيف الدولة للبيزنطيين ملأ الدنيا العرب بالعلم والأدب، قال عنه أبو منصور الثعالبي^(٣): إن محمداً القاضي الكاتب وأبا الحسن الشمشاطي جمعا من مختار مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف

(١) يتيمة الدهر طبعة اسماعيل الصاوي بمصر ج ١ ص ١٩٠.

(٢) المختصر من أخبار البشر الطبعة الحسينية بمصر ج ٢ ص ١٠٨.

(٣) يتيمة الدهر ج ١ ص ١١.

بيت من الشعر . وكان لتفرغه لكل ذلك أثر في ازدهار عصره في الشعر وفنون الثقافة المعروفة إلى عهده فكان أغنى عصر عرفه العرب بعد عهد الرشيد ، زمن المأمون .
ثم قلت أسفاً أين الحماسة في شعر هؤلاء الأدباء جميعاً وفي نثرهم؟ إنني نقبت عنها فما وجدت لها أثراً عندهم يذكر ، وإنما وقفت على شعر كثير للأدباء الحمدانيين في زمن سيف الدولة صرفوه في وجوه اللهو ، كالغزل والمطارحات ووصف الفاكهة والغلمان والشراب ، وتوليد المعاني النواسية مما ملأ به الثعالبي جانباً من يتييمته ، فعز عندي حينئذ مقام شاعر الحماسة الحمدانية أبي الطيب المتنبي وتلوه أبي فراس ، وعرفت منزلتهما من شعر الحرب الحمدانية . فلولاهما لما ذكر سيف لسيف الدولة ، ولما خلد ذكر لواقعة من وقائعه الأربعين .

فحق علىّ إذن بعد ذلك ، أن أنفرغ للكلام على شعر الحرب عند المتنبي وأبي فراس وأن أجلى النقاب عن أروع حماسة عرفها الشعر العربي ، منذ عمرو بن كلثوم في الجاهلية إلى يومنا هذا .

والخضر»^(١). إذ أن أبا منصور كان ينظر إلى الشعراء بمثل النظرة التي كان يراها بها الخلفاء والأمراء، وطال ما كان هؤلاء يعدون الشاعر من أداة المناذمة. وغفل أبو منصور عن أنه هو أيضاً أديب مؤرخ، وكاتب مترسل، وأن له شعراً كالذي مدح به أبا الفضل الميكال ولولا أن كتابه (اليتيمة) معدود في جملة الذخيرة من تراثنا الأدبي ككتاب ابن خلكان ومعجم الأدباء والأغاني لما أبتهت إلى حطه من كرامة المتنبي - حين شاء مدحه - فأثقل عاتقه بمئة سيف الدولة الذي ألقى عليه شعاع السعادة وكان من قبل خاملاً مجهولاً.

وكيف اتفق أمر المجد واكتسابه بين سيف الدولة وشاعره فكان كلا منهما كان مرصوداً لآخر. فوجد سيف الدولة شاعره الخالد ووجد المتنبي أميره الأعظم، وإن أبا الطيب كان يعد نفسه ملكاً في شعره وأميراً بلسانه، وها هو ذا الدهر ينطوى عصوراً والمجد يزيد المتنبي حلاًلاً من نوره لا تبلى.

ولم يكن شيء في شعر المتنبي أعذب نغماً ولا أبعد أثراً من (سيفياته الحماسية) التي نسجها على هفوف الصحراء، ومزجها بمحمحات الخيل صافقة سنابكها على درب الروم تسم عليها صدور البزاة بمقدوح الشر، ومزج هذه الصور بصليل السلاح في ضجيج الفرسان وعجيج الغبار. وفي هامة الجيش الذي يسد هزيمة وجوه الجوكان يترنح (أمير حمدان) على جواده المطهيم كأنه فارس الأساطير يهب في عالم الحروب فيملاً (قلقيلاً والناطلوق والقبذوق والأنسيق)، وسائر أقاليم بيزنطة^(٢). برهبة حربه وسطوته وبأسه، حتى تجيء أخباره القسطنطينية فيراع من فيها، ويهب البيزنطيون إلى خيولهم بأثقال الحديد لرد هجمة العرب وسد الثغور، وإغلاق الحصون.

وقد وصف (رونسيان)^(٣) ما كان يجري عند هبوب العرب على بلاد الروم في عصر

(١) يتيمة الدهر للثعالبي الطبعة السابقة ج ١ ص ٩٠.

(٢) أنظر الخريطة التي عربتها أقاليم الروم في آخر الكتاب.

وقد وصف أقاليم بيزنطة هذه (ابن خرداذبة) في كتابه (المسالك والممالك) الذي نشره de goeje سنة ١٨٨٩ بطبعة ليدن. وقد اعتنى أبو القاسم بن خرداذبة بقياس المسافات بين هذه البلاد وبعدها عن حواضر الإسلام ولم يصفها من الوجهة التاريخية أو الاجتماعية. وفي هذه الأقاليم جرى أكثر حروب سيف الدولة مع الروم وأسأؤها بالرومية.

Gilician, Anatolikoi, Cappadocia, Opsikion, Buccelarii. Armeniakol, Paphlagonia, Optimat oi Seleukeia...

وكل واحد من هذه الأقاليم يحتوي مدناً ذكر أكثرها من شعر أبي تمام والبحترى ثم في شعر أبي الطيب وأبي فراس.

(٣) بكتابه السابق عن (الحضارة البيزنطية) الترجمة الفرنسية ص ١٤٨.

سيف الدولة ومن قبله ، وما يتخذ الروم من التعبئة فقال : « لقد حصنت الحدود الإسلامية من جهة الروم تحصيناً قوياً فإذا هجم المسلمون على ناحية كان على الفرقة الرومية الحامية أن ترسل الخبر إلى كل الفرق التي بجوارها ، وهؤلاء يشيعون الخبر فيمن يجاورهم من الفرق وأهل الحصون ، ويتأهب الجميع للدفاع ريثما يأتيهم المدد من جيش القسطنطينية ، وتندب كل ناحية فرقة من حرسها فيتألف جيش سريع التعبئة يرفد الفرقة التي هاجمها المسلمون » . وكانت المعارك بين الروم والعرب سجالاتاً في عهد سيف الدولة يكتب فيها الظفر حيناً للمسلمين وحيناً للبيزنطيين .

المعارك

١ - معركة خرشنة

لخرشنة ^(١) معركة وصفها المتنبى في قصيدته العينية التي أولها :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع إن قاتلوا جنبوا أو حدثوا شجعوا
وقد مر سيف الدولة في طريقه إلى هذه الغزوة على مدينة سمندو Tzamandos وعبر نهر (آلس Halys) الذي ذكره أبو تمام في رومياته وهو نهر عظيم ، ونزل على مدينة ضارجة ^(٢) فأحرق ربضها وكنائسها وأرباض خرشنة وما حوالها ، وأعمل سيوفه ولبث أياماً هناك ، ثم كر راجعاً فعبّر (آلس) وأخذ سمته إلى خرشنة بعد عزلها — بإحراق ربضها وما حوالها — فبلغها ليلاً وحط رحاله في بطن (اللقان) فجاءه الدمستق في ألوف من الخيل وكان سيف الدولة ماهراً بفنون الحرب ، فلم يطلع على الدمستق إلا بسرية واحدة من سراياه ففرح بذلك ملك الروم وهو يظن أنها كل ما في جيش أمير حلب ، وما راعه إلا سيف الدولة وقد طلع

(١) خرشنة Charsianon وهي بين إقليم أرمينيا والبقلار ، وقد وصفها شلمبرج بأنها كانت مدينة ذات قلعة حصينة جبلية في جهات ملطية Mélitène مسيرة خمس ساعات على الفرات . أما (ياقوت) فاقصر على قوله فيها أنها مدينة قرب ملطية من بلاد الروم .

(٢) ضارجة Dharija في أرض البقلار بناحية خرشنة .

ويتبين لي من اسمها بالرومية أنها (ضارجة) لا صارخة كما وردت في قصيدة أبي الطيب هذه . وهو تصحيف لم يشر إلى تصحيحه أحد . وقد روى ياقوت اسم هذه المدينة كما ذكرها ديوان أبي الطيب واستشهد عليها ببيتة هذا :
نحلى له المرج منصوباً بصارخة له المناير مشهوداً بها الجمع
وضبطها ياقوت صارخة بقوله بعد الراء خاء معجمة بعد الراء .

عليه بجيوش تملأ الفضاء كثرة لا قبل له بها . فنشبت المعركة بين الجيش العربي والجيش البيزنطي في بطن اللقان ، هائلة ضارية قتل فيها من فرسان الدمستق خلق كثير ، وأسر من بطارقة رجاله وأعيانهم ما نيف على الثمانين شخصاً وأفلت الدمستق .

وغير سيف الدولة وجمعه مثل هذا الظفر فأبوا مترنجين بنشوة النصر ومعهم — كما يذكر (شلمبرجه) — مئة وعشرون بطريقاً . ولم يعلموا أن الروم قد ارتدوا بقيادة (قسطنطين بارداس) فقعدها لهم في بعض الطريق وأخذوا عليهم بعض مخارم الجبال ، فصبوا عليهم الصخور وأصلوهم غارة شعواء وأمعنوا فيهم قتلاً حتى تشتت جيش سيف الدولة وفر جمعه وتقطع جنده ، فجعل سيف الدولة يستنفرهم فلا ينفرون ، فلم يجد بداً من أن يقتل أسراه خلاصاً من عبثهم وغدرهم ، واجتاز سيف الدولة فنجا وعاد إلى حلب (مهزوماً) .

ولهذا استفتح أبو الطيب قصيدته بذكر من يخذعون بالرجال ويظنون بهم بأساً . وما هؤلاء الرجال إلا أذعياء شجاعة ، جبناء عند القتال .

وفي الأبيات الأولى من هذه القصيدة يقرر أبو الطيب أدب الحرب وشروط الفروسية ، فليست عنده جمال وجه وإنما هي بأس كفاج . وما الفارس إلا الذي يثبت على الخيل ويوقرها إذا خفت وأرادت الفرار ، وكان دمه هو الذي ينسكب من أعطافها فيقول في شرط الفارس :

وفارس الخيل من خفت فوقرها في (الدرب) والدم في أعطافه دفع^(١)

وكان مفروضاً في أبي الطيب أن يتمدح بقيادة سيف الدولة وتوحده بالشجاعة حتى يخفف من أحزان إنكساره في هذه الموقعة فقال :

بالجيش تمتنع السادات كلهم والجيش بابن أبي الهيجاء يمتنع
قاد المقانب أقصى شربها نهل على الشكيم وأدنى سيرها سرع

ثم ذكر مسيره في البلاد البيزنطية لا يعوقه بلد عن بلد فهو يزرع الموت أينما سار في ديار الروم حتى جثم على أرباض (خرشنة) فكان فيه شقاء الروم وبيعها وصلبانها ، فسبي

(١) الدرب طريق الروم . وورد في كتاب مراصد الأطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ج ١ ص ٣٩٧

« إذا أطلق لفظ الدرب فإنما يراد به ما بين طرسوس والروم » .

نساءها وقتل ولدانها وأخذ أموالها ، وأوقد النار في مزارعها الكثيرة .

لا يعتنى بلداً مسراه عن بلد كالموت ليس له رى ولا شبع
حتى أقام على أرباض (خرسنة) تشقى به الروم والصلبان والبيع
للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

وكانت عادة سبي المغلوب وانتهاك ماله واسترقاقه وبيعه وتخريب مدنه وتحريقها ، عادة حرية معروفة منذ كان الإنسان المحارب على الأرض . فإن الأمم القديمة كانت شديدة الضراوة ، فقد كان الآشوريون والكلدانيون يثقبون شفاه الأسرى ويربطونها بحبال يشدونهم منها ، ليقودوهم ، وليعرضوهم على الناس في هذا العذاب والهوان . وكان الفراعنة والرومان يربطون أسراهم بحبال يعلقونها وراء العجلات ثم يطلقون الخيل بالسياط ما وسع السوط . ويشهد عذاب الأسرى القوم الظافرون في حفل عظيم ، كما تقدم وصفه .

وإذا فعل سيف الدولة ذلك بمدن الروم وأسرى البيزنطيين ، فلأنما هو يكيل لهم بمثل ما كالوا به إذ كانت الحرب سجالات بين المسلمين والروم منذ فتوح الخلفاء الراشدين إلى آخر الحروب الصليبية ، يغزو الروم تغور العرب فيحرقونها وينهبونها ويسبون نساءها ويسترقون الرجال ويقفلون بالأسرى والغنائم ، كما فعلوا (بزبطرة) .

فيغزوهم العرب للانتقام أو للفتح ويتقمون منهم مساءتهم التي أسلفوها ويصلونهم النار التي أصلوها كما فعلوا (بعمورية) .

ثم يمضى أبو الطيب بقصيدته — كما قدمت في وصف المعركة من أن الدمستق ظن أن القلة في جيوش سيف الدولة ثم لم يلبث أن طلعت عليه جحافلهم فيصف ذلك متخذاً من عيني الدمستق (اللتين خانتاه في تقدير العدد) وسيلة إلى أداء هذا المعنى معبراً بسواد الغمام عن كثافة الجنود وخفيف الغمام وهو القرع عن قلة الجنود .

لام الدمستق عينيه وقد طلعت سود الغمام فظنوا أنها قرع

ويعكف أبو الطيب بعد هذا البيت على تصوير خيل الحمدانيين فيصف الكماة عليها بأن الرجل فيهم من طول ما تمرس بالحرب وركوب الخيل هو بالنسبة إلى الأعمار الحربية في سن الفطام ، فقد رضع لبان الحرب حتى استتم غذاؤه منها ففطم وهو في عمر الرجال . أى أن الفارس الحمداني سلخ سن الرضاع من الحرب منذ الصبا حتى صار في عداد

الرجال (وسن الرجال هو سن الفطام الحربى) .

وهؤلاء المفطومون الرجال هم على جياذ كسبت بمراثتها على الحرب كل عام من عمرها عامين ، فحوليا وهو ذو السنة الواحدة معدود بمنزلة (الجذع) من الخيل وهو ذو العامين .
فيا عجباً لأبى الطبيب فى مقدرة على الوصف الدقيق واستعماله معانى الأعراب وتعابيرهم البدوية ولقد جعل كثرة السنين فى الحرب شرفاً لعمر الرجال ، وقلة السنين فى عمر الخيل إصالة لها وكرماً مع التمرس بالحرب . فقال فى الجيوش الحمدانية الكثيفة :

فيا الكماة التى مفطومها رجل على الجياذ التى حوليا جذع

ثم ذكر (اللقان) وهو مكان بالروم وراء خرشنة وقد جاءت تلك الخيول راكضة فلا غبارها وكان الماء الذى كرعته الخيول من نهر (آلس) ما زال يعتلج فى حناجرها ، فقال :

يذرى (اللقان) غباراً فى مناخرها وفى حناجرها من (آلس) جرع

فلم يعجب هذا المعنى ياقوتاً فقال فى معجم البلدان ^(١) « وهذا البيت من إسرافات المتنبي فى المبالغة لأنه يقول إن هذه الخيل شربت من ماء (آلس) فلم يتعد حناجرها حتى أذرى اللقان الغبار فى تلك الحناجر . يعنى سارت من آلس إلى اللقان فى مدة هذا مقدارها وبينهما مسافة بعيدة .

وتابع المتنبي وصفه فقال إن هذه الخيل وقد جاءت راكضة ممعنة فى عدوها كان فرسانها يتلقون بها أعداءهم لتدوسهم بحوافرها ، وكان طعن الفرسان وهم فوقها يشق لها طريقها ويحدث لها بين صفوف الروم أجواً تسعها . وأظلمت الوقعة من كثرة ما علا من الغبار ولكن كان يهدى تلك الخيل فى ظلمات تلك المعركة المتلاطمة شمع تضىء ناره ، خلقتها عبقرية الخيال عند المتنبي فجعلته من أجسام الرماح ، وأما ناره التى كانت تضىء فهى الأسنه .

وكانت تلك الخيل العربية الضامرة الواثبة إذ تخشى الروم تدمر عليهم بسرعة ، حتى تركبهم وتغشاهم ، لا يصدها فى قفزها عليهم سهام ، ولا يعوقها عن وثوبها برد بلادهم . فقال فى تلك الخيول وفى الروم .

كأنها تتلقاهم لتسلكهم فالطعن يفتح في الأجواف ما يسع
تهدى نواظرها ، والحرب مظلمة ، من الأسنة نار والقنا شمع
دون السهام ودون القر طافحة على نفوسهم المقورة المزع^(١)
أجل من ولد (الفقاس) منكشف إذ فاتهم وأمضى منه منصرع^(٢)

ولم يترك أبو الطيب وصف البطارقة المقيدين بالأغلال ، وكانت أغلالهم على أيديهم وأرجلهم أمينة لا تخون من وكل إليها الحفاظ عليهم حتى تؤدي بهم إلى السيوف فتضرب أعناقهم . لكن هذه القيود الأمينة غير ورعة لأنها لا تشفق على الأسرى من عض الحديد . وهذه القيود تعوق البطارقة عن الخطو فتثقل خطاهم ، وإذا أرادوا النوم طردت أنقاها النوم عن جفونهم فقال :

كم من حشاشة بطريق تضمنها للباترات أمين ما له ورع
يقاتل الخطو عنه حين يطلبه ويطرد النوم عنه حين يضطجع

إلى ههنا يصف المتنبي فوز سيف الدولة ونصرته على الدمستق ولكنه لا يصارح كيف تحول النصر إلى هزيمة وإنما جعل أولئك الأسرى من الجيش الحمداني الذين وقعوا في قبضة الروم عسكرياً خونة متخاذلين جازاهم الله بما صنعوا من خذل الأمير حين استنفرهم . وقد وصف هؤلاء الجنود لهاونهم على الحرب ، بأنهم كالأموات فليس يأكلهم إلا الضياع فقال :

قل للدمستق إن المسلمين لكم خانوا الأمير فجازاهم بما صنعوا
لا تحسبوا من أسرتم كان ذا رمق فليس يأكل إلا الميتة الضبع

ولولا الإنكسار المر الذي ألم بسيف الدولة لما ذكر أبو الطيب أسرى العرب ، ولا ناقش في أمرهم الروم ، ولا استخف بأسرهم ، ولكان الظفر المطلق سد عليه أمثال هذا الكلام الذي لا يطمع فيه إلا المقهور . ثم يتخذ من أولئك الأسرى عزاء للقهقريز فيزعم أن أسر الروم لهم كان فضلاً على سيف الدولة ، إذ تخلص منهم ، وكانوا جنوداً فيهم الفضل الدنيء ، وفيهم الرعديد . حتى إذا عاد الجيش العربي إلى حلب عاد وهو خالص من أولئك الجنود المأسورين . فقال في هذا التعليل :

(١) المزع الخيول الخفيفة جمع مزوع ، والمقورة الضامرة .

(٢) الفقاس هو Bardas Phocas فولده Nicephore Phocas أى قد هرب ابن فوكاس (نيسيفور)

وسبق الخيل بفراره فلم تدركه « فأجل منه ماسور مشدود ، وأشجع منه مقتول مصروع » .

ولأنما عرّض الله الجنود لكم لكي يكونوا بلا فسل إذا رجعوا
ثم يأخذ أبو الطيب بما أوتي من فن الحماسة ودقة الأداء فيهن الأمر على سيف الدولة
في هذه الهزيمة التي كانت بعد الظفر ، فيجعله بمنزلة من كان فوق الشمس فهو لا يكثر
بمن يرفعه ولا بمن يضعه . ثم يجعل - في شعره - الدهر يسعى إلى الأمير بالعدو . والسيف
مؤتمر بأمره ، ينتظر يوم الانتقام ، وها هي ذى أرض الروم على طاعة في الربيع والصيف
فيقول :

من كان فوق محل الشمس موضعه فليس يرفعه شيء ولا يضع
الدهر معتذر والسيف منتظر وأرضهم لك مصطاف ومرتبّع
ويدل هذا الوصف على أن أبا الطيب كان مع سيف الدولة في هذه المعركة لأنه كان
قد حدث المتنبي بها صاحبه ابن جني فروى له كيف كانت نصرة سيف الدولة وكيف
ارتد الروم على المسلمين .
وإني لأجد الدليل على شهود أبي الطيب لهذه الواقعة والهزيمة قوله يخاطب سيف الدولة
في آخر هذه القصيدة :

وقد حمدتك في هول ثبت له حتى بلوتك والأبطال تمتنع
فيتين من هذا البيت أن أبا الطيب شاهد سيف الدولة وهو يثبت في الهول فحمده على
ذلك ، ثم داخله الشك فتأكد عنده ثباته حير اختبره في هذه الهزيمة التي كان فيها الأبطال
المسلمون يقتلون وجوههم ممتعة .

كما أن (شلمبرجة) يذكر أن أبا الطيب كان مرافقاً لسيف الدولة في هذه الواقعة
وهزيمتها ويقول بأن اسمها (غزوة القفزة) وذلك أن الجواد الجبار الذي كان يركبه سيف
الدولة قفز به من على عدوة الجبل قفزة عجيبة فنجا بها من القتل والأسر ومعه فئة من
الرجال فيهم (أبو الطيب) ^(١) ، وكانت هذه الواقعة عليه أسوأ الوقعات ، وقد حدد هذا
المؤرخ هذه المعركة بيوم ٢٠ تشرين الثاني سنة ٥٩٠ للميلاد ^(٢) .

(١) ص ١٣٣ من كتاب (شلمبرجة) عن نيسفور (هامش) .

(٢) يحدد ابن مسكويه في كتابه تجارب الأمم ج ٢ ص ١٢٥ وقد وصف الواقعة باختصار على أنها
جرت سنة ٣٣٩ للهجرة وسياً وصف هذا المصدر وطبعته .

ويذكر هذه الواقعة (يحيى بن سعيد الأنطاكي) في تاريخه الذي نشره فاسيلييف وكراتشكوفسكي في مجموعها
Patrologia orientalis الجزء XVIII طبع باريس ١٩٢٤ ص ٧٦٨ ، أن سيف الدولة بلغ خرشنة منتصف ربيع =

وظل الدمستق بعد هذه المعركة يراوح ثغور العرب ويغاديهما حتى أتى (مرعش) ^(١) فهم به سيف الدولة ، فلذا بالفرار ، فلحقه بعد التحام قصير ، وكان الدمستق قد ترك أمواله وقتلاه .

ويظهر من شعر أبي الطيب أن الدمستق لما أتى (مرعش) بعد (معركة خرشنة) أوقع في سورها تهديماً ، فشخص سيف الدولة (سنة ٣٤١ هـ) لطرد الروم ، ففرق المال على أهل الثغور الفقراء ، وبني السور فأقامه وعلاه ، وبني القلعة في شاطئ السور . وكان شخوصه بجيش لجب يسد الفضاء ويملاً وجه الليل . وأرى أن المتنبي (لم يكن في هذه السرية) وإنما لبث في حلب . ولما قفل سيف الدولة من طرد الدمستق وإغاثة المنكوبين من أهل الثغور خرج أبو الطيب للقائه . فلما استشرف وفد اللقاء الذي فيه المتنبي ، ولعله كان على ربيع في ظواهر حلب) ترجل المتنبي وصحبه للإلام بسيف الدولة كرامة أن يصلوا إليه راكبين في مكان لقائه ، فقال .

فدينك من (ربيع) وإن زدتنا كرباً فإنك كنت الشرق للشمس والغربا
نزلنا من الأكوار نمشى كرامة لمن بان عنه أن نسلم ركبنا

* * *

هنيئاً (لأهل الثغر) رأيك فيهم وأنتك حزب الله صرت لهم حزبا
فيوماً بخيل تطرد الروم عنهم ويوماً بجود تطرد الفقر والجدبا
سراياك تسترى والدمستق هارب وأصحابه قتلى وأمواله نهبي
أتى (مرعشاً) يستقرب البعد مقبلاً وأقبل إذ أدبرت يستبعد القربا
مضى بعدما التف الرماحان ساعة كما يتلقى الهدب في الرقدة الهدبا
ولسكنه ولى وللطعن سورة إذا ذكرتها نفسه لمس الجنبنا

الأول سنة ٣٣٩ وأنه بعد ظفرو أخذ عليه الروم ناحية في (الدرب) معروفة (بمقطع الأظفار) فأوقعوا به وهلك جمعه وارتجع الروم السبي الذي كان المسلمون غنموه ، وأخذوا سواده وكراعه وأمواله ، وغنموا غنيمة عظيمة ، أفلت سيف الدولة مع نفر يسير (منهزماً) في منتصف جمادى الآخرة من هذه السنة (فتكون غزوته في ثلاثة أشهر) وقد سمي الثغريون هذه الغزاة (غزاة المصيبة) .

(١) مرعش بالرومية Germanikeia .

ولا بد من الإشارة إلى أن ترتيب أبيات هذه القصيدة في كل نسخ الديوان جاءت على صورة واحدة . وذكر البيت الذى يشير فيه المتنبي إلى بناء سور مرعش منفرداً عن (ضميره) ولا صلة له بسابقه وأرى صواب ترتيبه أن يذكر بعد بيت (كفى عجباً) ، فيكون :

كفى عجباً أن يعجب الناس أنه بنى مرعشا تبا لآرائهم تبا
فاضحت^(١) كأن السور من فوق بدئه إلى الأرض قد شق الكواكب والتربا
ثم يتم أبو الطيب القصيدة بوصف الجيش الذى شخص به سيف الدولة :

وجيش يثنى كل طود كأنه حريق رياح واجهت غصناً رطباً
كأن نجوم الليل خافت مغاره فلدت عليها من عجاجته حجبا

وكان ملوك الروم في تاريخ حروبهم مع المسلمين يطلبون منهم الهدنة أو الفداء أو تبادل الأسرى وتدفعهم إلى ذلك أسباب من فتن السياسة التى كانت تقع كثيراً في القسطنطينية ، أو من ضعف الجيوش البيزنطية أو اختلاف قوادها أو لوجود كثرة في

الأسرى . وقد يطلب العرب هم الفداء وتبادل الأسرى أيضاً وقد يطلبون الهدنة .
 وفي كتاب (التنبيه والإشراف) للمسعودي مؤلف مروج الذهب ^(١) باب خاص
 بالأفدية . فمن أيام الخليفة الرشيد إلى أواخر خلافة المتوكل حصل خمسة أفدية جمعت عدد
 ما فودى فيها من المسلمين بين ذكر وأنثى في عشرة آلاف وسبعمئة أسير ^(٢) . وكانت
 تحصل هذه الأفدية على نهر (اللامس) (الذى قدمت ذكره ووصف الفداء عليه) .
 وقد حصلت المفاداة والهدنة بعد أن أرسل ملك الروم وفداً إلى سيف الدولة عقب
 معركة خرخنة وسرية مرعش ، فجاء الرسول البيزنطى فى سبيل الفداء والهدنة ورأى فى
 طريقه قتلى قومه .

فذلك حيث يقول أبو الطيب فى القصيدة القافية :

رأى ملك الروم ارتياحك للندى فقام مقام المجتدى المتملق
 وكاتب فى أرض بعيد مرامها قريب على خيل حواليك سبق
 وقد سار فى مسراك منها رسوله فما سار إلا فوق هام مفلق

وينبغى أن يكون سيف الدولة قد تلقى سفير ملك الروم فأقام له (استقبالاً) فى صفين
 فى سماط وتصدر وهو فى ذلك على عرشه . فوصف أبو الطيب هذا اللقاء بقوله عن السفير :

فأقبل يمشى فى السماط فما درى إلى البحر يمشى أم إلى البر يرتقى

وكان دليل الهدنة المؤقتة بين العرب والروم فى تلك الفترة قول أبى الطيب بعد ذلك :

فإن تعطه بعض الأمان فسائل وإن تعطه حد الحسام فأخلق

(١) طبع ليدن سنة ١٨٩٣ وقوف de goeje ص ٢٨٩ .

(٢) من أمر ما حصل للمسلمين خلال هذه الأفدية مذكره المسعودى فى كتاب (التنبيه والإشراف) هذا ،
 أنه فى الفداء الثالث فى خلافة الواثق أمر القاضى أحمد بن أبى دؤاد ولى الفداء أن يمتحن المسلمين من الأسرى
 فن قال (بخلق القرآن) فودى به ومن لم يقل بذلك ترك بأرض الروم بغير فداء وأن جماعة من الأسرى المسلمين
 اختاروا الرجوع إلى أرض النصرانية إباء منهم أن يقولوا بتلك المقالة التى لا يمتقدونها .

٢ - معركة الثغور

سميتها معركة الثغور لما وقع فيها من سلسلة معارك في أمصار الثغور ، رقد وقعت سنة ٣٤٣ للهجرة بعد أن أطلق الحمدانيون أسرى الروم وانقضت الهدنة إذ كان سيف الدولة في ديار بني مضر يحمّد ثورة بني عقيل وقشير وعجلان ، ويأخذ منهم الرهائن فحدث له رأى في الغزو ، فجاء الثغور حتى بلغ سميساط ، وبلغه أن العدو في بلد المسلمين فخرج إلى بلاد دلوک وصنجة وعرة وموزار وملطية وقباقيب وهنزيط وسمنين ، وهو معمل سيوفه يلقي الروم بالمعركة بعد المعركة حتى انهزموا. وكان يقود الجيوش البيزنطية (قسطنطين برداس فوكاس) القائد (وهو رأس الجيش الأعظم زمن إمبراطور الروم قسطنطين السابع البورفيروجيني)^(١) وثالث أرلاد قسطنطين برداس فوكاس وكان ما يزال شاباً. ففر الأب القائد وترك أبنه أسيراً في أيدي الحمدانيين .

وقدورد في تاريخ (شلمبرجة) لعصر نيسيفور أن هذه الموقعة كانت سنة ٩٥٣ للميلاد^(٢) فراح خيال المتنبي في وصف هذه المعارك بادئاً بتصوير الخيل وهو المولع فيها العارف بحقيقة شياتها وصفاتها ، فرسمها وقد رمى بها سيف الدولة درب الروم إلى العدى ، فانطلقت وكأنها السهام . ومضت وهي تغذ الركض رافعة أذناها وهي في مرح وصهيل تحت الفرسان ، وإنها لخيول شفها الركض لا تقف في بلد نهاراً حتى تسرى إلى غيره ليلاً ، إلى أن كبست الروم فما شعروا حتى رأوها تمطرهم بالحديد وتظلمهم بالسيوف ، كما يصف ذلك أبو الطيب بقوله :

رمى الدرب بالجرّد الجياد إلى العدى	وما علموا أن السهام خيول
شوايل تشوال العقارب بالقنا	لها مرح من تحته وصهيل
وخيول براها الركض في كل بلدة	إذا عرست فيها فليس تقيل
فما شعروا حتى رأوها مغيرة	قباحا وأما خلقها فجميل
سحائب يمطرن الحديد عليهم	فكل مكان بالسيوف غسيل

(١) Constantin Porphyrogénète

(٢) ص ١٣٣ وكتابه هذا موصوف فيما سلف .

وذكر هذه الواقعة ابن سميّد الأنطاكي في تاريخه المتقدم ذكره فقال في ص ٧٧١ يزيد على ذلك أن البطريق لأون الملائني Leon le Maleinos قتل في هذه المعركة .

وكان جنود هذه المعركة من الفرسان فلم يزايلوا ظهور الخيل ، وظلوا يمرون من قرية إلى قرية يسكبون دماء الروم ويخوضون في اللبات والنيران تسايبرهم ؛ والروم بين ذلك صرعى ، حتى أتت خيول سيف الدولة إلى ملطية :

فخاضت نجيع القوم خوفاً كأنه بكل نجيع لم تخضه كفيل
تسايرها النيران في كل منزل به القوم صرعى والديار طول
وكرت فرت في دماء (ملطية) ملطية أم للبنين ثكول
ودون سميساط المطامير والملا وأودية مجهولة وهجول

ووصف المتنبي سيف الدولة كيف فر منه برداس وكيف بقي ابنه قسطنطين ممتلىء القلب عجباً رازح الساق من القيود الوهمية التي يحس بها في الأسر ، ثم جعل المتنبي يتهكم بطول جيوش الروم وعرضها ويعد عليا الحمداني — وهو سيف الدولة — أكل تلك الجيوش وشروبها . ولكم أبدى علماء البلاغة وبعض الناقدين ^(١) امتعاضاً من قول أبي الطيب (على شروب للجيش أكل) لما فيه من تفاهة الوصف والصوغ . ولكنه في معرض الحماسة والبعد عن الصنعة قد أفاد في الرد على تلك الجيوش الرومية ذات الطول والعرض ، فقال في سيف الدولة والروم :

فودع قتلاهم وشيع فلهم بضرب حزون البيض فيه سهول
على قلب (قسطنطين) منه تعجب وإن كان في ساقه منه كبول
لعلك يوماً (يا دمستق) عائد فكم هارب مما إليه يؤول ^(٢)
أتسلم للخطية ابنك هارباً ويسكن في الدنيا إليك خليل
أغرکم طول الجيوش وعرضها على شروب للجيش أكل

ولم يدع أبو الطيب ذكرى هذه المعركة الكبرى التي وقعت في بلاد كثيرة من الثغور فقد ردد هذه الذكرى حين هنا سيف الدولة بعيد الأضحى إذ أنشده في ميدان حلب وتحت دار سيف الدولة وهما على فرسيهما قصيدة التهنئة بالعيد وبالنصر ^(٣) فوصف ابن

(١) يتبسة الدهر الطبعة السابقة ج ١ ص ١٢٦ .

(٢) يريد (بالدمستق) قائد الحملة (برداس فوكاس) واسمه الكامل (قسطنطين برداس فوكاس) الذي قادت ساقه هذه الهزيمة وملك عليه قلبه بالدهشة والتعجب .

(٣) راجع الكتاب القيم الذي ألفه بلاشير عن أبي الطيب المتنبي وهو :

Un Poète arabe du IV^e. siècle de l'Hégire (X^esiècle de j-c) About — tayyib al Motanabbi

طبع باريس سنة ١٩٣٥ حيث يقول فيه عن هذه القصيدة وقد ترجم كل أبياتها إلى الفرنسية في كتابه (ص ١٧٢) إن فيها نفحة حماسية تميزها من سائر قصائد المتنبي ويطرفها ما فيها من وصف الأقاليم

(الدمستق) الذى وقع فى الأسر كأنه قد مات وقد عاش أبوه لفراره ونجاته . وشرح أبو الطيب فى هذه القصيدة أيضاً أن الجيش كله قد وقع فى الأسر . وأن (برداس) الهارب لم يجد له عزاء سوى لبس المسوح التى يلبسها الرهبان والاعتكاف فى الدير . وكان ذلك دأب القادة البيزنطيين حين يخسرون الحروب فيلجؤون إلى الديارات للسلوى . فصور أبو الطيب كل ذلك وخلع على فنه فيه مسحة تهكم فقال فى الدالية بعد اللامية التى أنشدها سيف الدولة فى تهنة العيد :

لذلك سمي ابن الدمستق يومه مماتا وسماه الدمستق مولداً
فولى وأعطاك ابنه وجيوشه جميعاً ولم يعط الجميع ليحمداً
وما طلبت زرق الأسنة غيره ولكن قسطنطين كان له الفدى (١)
فأصبح يجتأب المسوح مخافة وقد كان يجتأب الدلاص المسرداً (٢)
ويعشى به العكاز فى الدير تائباً وما كان يرضى مشى أشقر أجرداً

ومن المفروض أن ملك الروم بعد أسر ابنه جعل يتحجب إلى سيف الدولة ويرسل إليه الرسول إثر الرسول لفكاك ولده ، وقد كان ذلك . فجاءه (رودس) (٣) رسول قسطنطين السابع سنة ٣٤٣ للهجرة فحشد سيف الدولة للقائه جيوشاً حال ثقلها بالباب دون دخول أبي الطيب . فلما أدخل أبو الطيب حيث كان الحفل ، وصف السفير أنه (قبل الأرض ثم قبل كم سيف الدولة) . وأجد هذا عند أبي الطيب تسجيلاً للطراز الديبلوماسى الذى كان يسلم به السفراء البيزنطيون على الملوك فى القرن العاشر للميلاد ، وهو طراز السلام لدى سفراء الفرنجة فى القرون الوسطى ، ولكنهم لم يكونوا يقبلون الأرض ، وإنما كانوا يرجعون خطوتين إلى الوراء وجوههم تلقاء الملوك الذين يؤدون التحية لإيهم ، ثم يمسون الأرض بأطراف قبعاتهم ذوات الريش ، ثم يلوحون بها ميلامع الخطوتين الراجعتين . لكن السفير البيزنطى قد قبل الأرض قبل أن يقبل كم سيف الدولة .

= البيزنطية التى جرى فيها القتال فهى بلا ريب واحدة من أروع قصائد أبي الطيب .

(١) كان ابن قسطنطين برداس قسطنطين فوكاس (فاسمه كاسم أبيه) .

(٢) يجتأب يلبس ، والدلاص المسرد : الدرع البراقة المنسوجة .

(٣) يذكر (بلاشير) فى كتابه عن المتننى ص ١٧٤ أن هذا الرسول كان الحاكم بول (le Magester

Paul) ومعه وفد من السفراء .

وأرى أنه أدى التحية لسيف الدولة لدن مثوله بين يديه ، تلك التحية (الرسمية) وهو يحس بيده الأرض ثم يعيد يده إلى فمه . وهو نظام (البروتوكول الرومى) فقال أبو الطيب عن هذا الرسول وهو يتقدم متجهاً نحو سيف الدولة فى مكان مثوله بين صفين من الكماة :

وقبَل كُماً قَبَلَ الرَّبِّ قَبْلَهُ وَكَلَّ كَمَىَّ وَاقِفَ مُتَضَائِلَ
وَأَخَذَ الْمُتَنَبِّىَ يَمُنْ عَلَى رَسُولِ الرُّومِ بِتَقْبِيلِ كَمِ الْأَمِيرِ فَقَالَ :

مكان تمناه الشفاه ودونه صدور المذاكى والرماح الدوابل

ولم يصرح أبو الطيب فى هذه القصيدة بأن سيف الدولة من " على الرسول بفكاك ابن قسطنطين فقيل سفارة الرسول ، أو أن ابن قسطنطين كان سجيناً أو عزيزاً فى أسره ، أو أنه قضى نحبه فى ديار المسلمين . وليس عليه كل ذلك وهو من الشعراء ، وإنما ذلك على المؤرخين ، فقد ذكر (شلمبرجه) أن الشاب الأسير (قسطنطين فوكاس) ابن قسطنطين برداس قائد إمبراطورية بيزنطة ^(١) مات فى حلب لأن سيف الدولة رفض تسليمه فقال هذا المؤرخ ^(٢) : « لكن سيف الدولة وهو البطل الأبقى على الدوام الشريف فى خلاقه كتب كتاب تعزية إلى أبيه التعس وسلم الجثة إلى نصارى حلب فلفوه بأكفان ثمينة وأدرجوه فى ضريح من أضرحة كنائسهم » .

فكان قول (شلمبرجه) الذى استقاه من المؤرخين البيزنطيين ، وقول الأنطاكى ، تنمة لما جاء فى شعر أبي الطيب عن أخبار معركة الثغور وعقباها ^(٣) .

٣ - معركة الحدث الحمراء

وصف المتنبي (الحدث) بالحمراء ^(٤) لكثرة ما أريق عليها من دماء البيزنطيين . وكان الروم قد خربوا مكانها المنيع منذ سنة ٣٣٧ هـ فجاءها سيف الدولة لإعادة بنائها سنة

(١) أبناء الدمشق قسطنطين برداس فوكاس شيخ القواد البيزنطيين هم :

نيسيفور فوكاس ، ليون فوكاس ، قسطنطين الشاب هذا .

(٢) ص ١٣٤ من تاريخ نيسيفور السابق . وذكر ذلك يحيى بن سعيد الأنطاكى بكتابه المتقدم ص ٧٧١

أنه جرى موت ابن قسطنطين بحلب ودفنه ، ولم يذكر كتاب التعزية الذى ذكره (شلمبرجه) .

(٣) يزيد (بلاشير) فى كتابه عن المتنبي (ص ١٧٦) أن ابناً شاباً لنيسيفور فوكاس مات فى

هذه الواقعة أيضاً .

(٤) قامت الحدث على تل يسمى بالأحمر فسميت لذلك بالحمراء (ياقوت) .

(٣٤٣ هـ) فباشر بيده خط أساسها فدهمه (برداس فوكاس) قائد الروم بعد يومين بجيش من البيزنطيين فيه خمسون ألفاً من الرجال والفرسان ، فيهم البلغار والأرمن ، وكان معه ابنه (نيسيفور فوكاس) فحارب الحمدانيون البيزنطيين ، من طلوع الشمس إلى غروبها ، ولم يكن مع سيف الدولة غير خمسمائة من حرسه الخاص ، فحققت الحماسة في صدور رجاله حين رأوه يشق الصفوف إلى المستق . ويقول (سلمبرجه) لقد انهزم الروم وخسروا ثلاثة آلاف قتيل ^(١) . وأسر سيف الدولة جمعاً من البطارقة والأراكنة Archontes فظلوا في أيدي العرب ، وقتل في هذه الواقعة (ابن بنت برداس وصهره كوديس الأعور ، وأسر قائد بلدى ليكاندوس وتزامندوس وسجن . وهما بلدان بيزنطيان خطيران) أما نيسيفور فوكاس وكان يومئذ أحد القواد في جيش أبيه فلم ينج إلا باختفائه في نفق حتى إذا سطا الليل فر تحت ظلامه ولحق بفلول جيشه المنقطع في الدرب ، المحثث خطاه نحو القسطنطينية .

لم يعتن مؤرخو العرب بتفصيل وقائع سيف الدولة الخطيرة التي غيرت تاريخ الإسلام برمته في غربي العراق زمن الدولة العباسية ، حتى إن شراح قصائد أبي الطيب جميعاً كانوا يقدمون على القصائد نتفاً تبين بعض معالمها التاريخية ، غير أن ذلك غير واف بغرض التاريخ السياسى الذى ينبغى أن يفهم في نوره مثل هذا التاريخ الأدبى . على أن القصائد لا تتطلب في مفاتيحها مثل ذلك ، لكن تاريخ الأدب الصحيح لا بد أن يرفده التاريخ السياسى ليفهم (النص) على وجهه الأسمى . لذلك فقد وجدت (جوستاف سلمبرجه) و(فاسلييف) و(دييل) و(ماريوس كانار) قد أفاضوا في تحقيق التاريخ البيزنطى وربطه بحوادث العرب وانفرد (سلمبرجه) من بينهم بالتوضيح والإسهاب في ربط هذه الحوادث الرومية بحوادث سيف الدولة . وبه قد استعنت ، فقد درستُ قصائد المتنبي الحماسية في الحرب الرومية مستنيراً بالحوادث التاريخية التى رواها عن سيف الدولة والبيزنطيين لتجىء هذه الدراسة الحماسية أقرب إلى القصد ، وأتم لغرض تاريخنا الأدبى الحديث .

فكذلك يقول (سلمبرجه) إن سيف الدولة لم يترك مدينة الحدث حتى أتم بناء سورها وحتى وضعت فيه آخر لبنة بمشارفته ^(٢) في ١٢ تشرين الثانى سنة ٩٥٤ للميلاد ١٣ من

(١) (تاريخ نيسيفور لسلمبرجه) ص ١٣٥ . وقد انفرد (سلمبرجه) بهذه الأخبار الخطيرة وأسماء الأسرى الروم دون مؤرخى العرب .

(٢) إن التواريخ التى جاء بها (بلاشير) لهذه الموقعة في كتابه عن المتنبي ص ١٧٦ =

رجب سنة ٣٥٣ للهجرة) .

ولما استقر الدمستق في القسطنطينية « طلب البيزنطيون الهدنة فرفض سيف الدولة لأنهم كانوا قد قتلوا من قع في أيديهم من الأسرة الحمدانية » (١) .

* * *

وضع أبو الطيب المنتبي عن معركة (الحدث) قصيدة أولى أردفها بعد عام بقصيدة ثانية عن (الحدث) نفسها ، إذ كان الروم عادوا إلى شن الغارة عليها بعد بنائها . أما القصيدة الأولى التي يصف فيها معركة (الحدث الحمراء) فإنه يبدأ وصف المعركة بهويل ، فيتساءل هل كانت الحدث الحمراء تعرف لونها من كثرة الدم الذي صبغ أرضها والنار التي حمرت بناءها وجوها ؟ وهل كانت الحدث الحمراء تعلم أى الساقين يسقيها الغمام أو الجماجم ؟ لكثرة ما ضرب الحمدانيون من رؤوس الروم ، فقال :

هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أى الساقين الغمام (٢)

سقتها الغمام الغر قبل نزوله فلما دنا منها سقتها الجماجم (٣)

فكان ذكر الغمام التي سقتها أمطارها قبل وصول سيف الدولة إليها تأريخاً لوقوع المعركة في الشتاء ، وقد وقعت المعركة والبنائون ماضون في بناء سور الحدث وإعلائه ليكون دريئة المسلمين من الروم والروس ، فكانت المنايا تتلاطم حوله تلاطم الأمواج ، فقال أبو الطيب

بناها فأعلى والقنسا يقرع القنسا وموج المنايا حولها متلاطم

وكيف ترجى الروم والروس هدمها وذا الطعن أساس لها ودعائم (٤)

ثم وصف الجيش الرومي الذي زحف به الدمستق وقواده (وقد أوردت ذكر هذا

= أن موعد التلاحم بين البيزنطيين والحمدانيين في هذه المعركة يوم الاثنين ٢٩ جمادى الثانية سنة ٣٤٣ الموافق ٣٠ من تشرين الأول سنة ٩٥٤ وأن الانتهاء من بناء سور الحدث كان في ١٣ رجب سنة ٣٤٣ الموافق ١٢ من تشرين سنة ٩٥٤ .

(١) هامش ص ١٣٥ من كتاب (شلمبرجه) السابق .

(٢) شرح هذا البيت المعلم البستاني في نسخة الديوان ط بيروت سنة ١٨٦٠ هامش ص ٢٥٦ فقال (أى : وهل تعلم أى الساقين يسقيها : الغمام أم الجماجم ، وحذف الجماجم اكتفاء بالغمام) .

(٣) الضمير في نزوله ودنا عائد إلى سيف الدولة .

(٤) كان في الجيش البيزنطي مطوعة من الروس من جهات شمال أرمينية ومن بلاد القفقاس . وكانت على أفراسهم الجواشن تغطي قوائمهم فذلك قول المنتبي في هذه الجياد المصفحة :

أتوك يجزون الحديد كأنما سروا بجياد ما لهن قوائم

الجيش عند الكلام على وصف الشعر العباسي للجيش (وتبسط في تحليل هذه القطعة الحماسية التي صور فيها أبو الطيب سيف الدولة وقد وقف (يستعرض) جيشه المنتصر ويشهد انهزام جيش الروم ، فكان واقفاً في جفن الردى والردى عنه نائم ، والأبطال البيزنطيون الكلمى من الهزيمة تمر به وهو وضاح الوجه باسم الثغر .

وكان من دأب أبي الطيب المولع بوصف الخيل أن يتبسط في شعره الحماسى عند ذكرها ، فصور هذه الخيل كيف لحقت بالروم المهزمين في قنن الجبال وقد انتشروا فوق جبل (الأحيدب) ^(١) فكانت خيول سيف الدولة تتبعهم في تلك الذرى فتدوس وكور النسور التي كثرت عندها جثث القتلى من الروم فكانت خير وليمة للنسور الجياع . وأن فراخ العقاب وقد هيبتها تلك الخيول لتطل من أوكارها تظن أن الخيول أماتها وقد جاءتها بالمطاعم . وأن تلك الخيول التي تمرست بصعود الجبال ، إذا زلقت قوائمها مشت بسيف الدولة وأجناده على بطونها كأنها الأفاعي تتمشى على الصعيد .

فقال شاعر المعارك الحمدانية مع الروم في هذا الخيال الرائع ، وهو يعنى سيف الدولة والروم :

نثرهم فوق (الأحيدب) نثرة	كما نشرت فوق العروس الدراهم
تدوس بك الخيل الوكور على الذرى	وقد كثرت حول الوكور المطاعم
تظن فراخ الفتح أنك زرتها	بأماتها وهي العتاق الصلادم ^(٢)
إذا زلقت مشيتها ببطونها	كما تتمشى في الصعيد الأراقم

(١) يقول الأستاذ بلاشير في كتابه عن المتنبي ص ١٧٦ إن (الأحيدب) اسم حصن ، وأراه جبلا كما يظهر من شعر المتنبي وكما يدل عليه اسمه . وقد حدد بلاشير جيش البيزنطيين في هذه الواقعة بخمسة ألف من الجنود المنتظمين .

(٢) الفتح جمع فتحاء وهو العقاب . والعتاق الصلادم كرائم الخيل الصلاب .

ثم يستغرب أبو الطيب كرور الدمستق على الثغور حيناً بعد حين بغير أن يحقق به الحجل من كثرة هزائمه وانكساره . وكان جديراً أن يولى ظهره ولا يولى وجهه ، وها هنا يذكر أبو الطيب أحد أبناء قائد الروم الذى قتل فى هذه المعركة وقتل معه صهره وابن صهره فيقول :

أفى كل يوم ذا الدمستق مقدم قفاه على الإقدام للوجه لأم
وقد فجعته بابنه وابن صهره وبالصهر حملات الأمير الغواشم
وكان أبو الطيب أول من وصف هذه الحروب مع البيزنطيين بأنها ليست حروباً خاصة بين ملك الروم وملوك العرب (ولكنها حرب بين الإسلام والشرك) فقال :

ولست مليكاً هازماً لنظيره ولكنك التوحيد للشرك هازم

فكان منه ذلك أول إعلان لوصف الحرب الحمدانية بأنها ملحمة كبرى بين الإسلام كافة والروم كافة . وقد دعا الروم منذ ذلك اليوم لمثل هذا المعنى فعمموا دعوتهم حتى بلغت أوربا وانتشرت فيها كلها . وجعلت هذه الدعوة تقوى فى بلاد الفرنجة وراء البحار حتى تحولت على عهد عاهلتي الإسلام نور الدين وصلاح الدين إلى (حرب صليبية ^(١)) يحىء بها ملوك الغرب الجبابرة إلى حرب المسلمين فى طول الشواطئ الشامية (لسورية) ، وفى عكا وصور وعند أسوار بيت المقدس ، فتكون الغلبة الأخيرة للعرب بعد أن تنصدع تلك البلاد سنين طويلاً ، وقد كانت بركاناً يغلى على الشاطئ الشرقى للحوض الأبيض ، ثم عرفت الهدوء حيناً من الدهر ونامت لتستريح ، ثم نهضت من غفوتها فى تاريخنا الحديث على نار ثانية تلفحها من صوب الغرب . وعلى يقظة قومية هبت لها العروبة فى كل بلاد العرب لتصل حاضرها العربى الكبير بماضيها العظيم

يقول (شلمبرجة) ^(٢) إن أبا الطيب كان مع سيف الدولة فى هذه المعركة الراجحة ، وكان يحارب الشاعر إلى جنب الأمير ، فنظم لهذه المعركة قصيدة أنشدها سيف الدولة فى راحة من المعركة عند المساء « وهذه القصيدة ذات شعر فياض وتفصيل يغرى ، وهى الأنشودة الحقيقية للأبطال المسلمين المتقين الظافرين على المسيحيين » ثم يترجم شلمبرجة قصيدة (الحدث الحمراء) إلى الفرنسية ترجمة دقيقة حافظ فيها على روح الشعر العربى

(١) يقول شلمبرجة فى ص ١٣٩ من كتابه نقلا عن المؤرخ (رامبولد) : إن قسطنطين السابع كان يدعو الشرق والغرب والهيلانيين والفرنك إلى البدء بمصر (الحرب الصليبية) .

(٢) كتابه ص ١٢٨ (السابق) .

الذى خلد فيه أبو الطيب سيرة حروب سيف الدولة .

ولعل اسم المتنبي قد بلغ البيزنطيين وعرفوا خطر شعره عليهم ، فوجب أن يذكره في تاريخ حروبهم مع المسلمين . وكان مؤرخهم (سيدرنوس Cedrenus) وهو أكبر مؤرخي البيزنطيين في القرن العاشر يذكر تلك الحروب ويسجلها بإسهاب وتفصيل .

* * *

كان بناء الحدث الحمراء وتملك العرب الحصنها شوكة في جنب الروم ، لأنها باب الطريق إلى القسطنطينية . فجاء جيشهم الشرق^(١) إلى الإغارة عليها بعد عام من بنائها سنة ٣٤٤ للهجرة^(٢) بقيادة ابن ملكهم (ليون) فوصف أبو الطيب سرية الروم هذه وما دار عليها من الأقدار التي دارت قبلها على آباء الروم وأخوالهم ، فقال .

لا ألوم ابن (لاون) ملك الروم وإن كان ما تمنى محالا^(٣)
أقلقته بنية بين أذنيه وبان بغى السماء فنا
يجمع الروم والصقالب والبلغار فيها فيجمع الآجالا
نزلوا في مصارع عرفوها يندبون الأعمام والأخوالا

ولم يأل أبو الطيب جهداً في تسجيل وقائع سيف الدولة في شعره الحماسي ، فقد كان يحثه عليها : حماسه ، وجهه نافروسية ، وكرم الأمير ، ومطالبته إياه بأن يقول فيها أكرم القصيد^(٤) .

٤ — معركة الدرب

لئن كانت (معركة الدرب) هي آخر معركة وصفها المتنبي لسيف الدولة مع الروم ، وكانت قصيدته فيها هي آخر قصيدة في سيف الدولة قبل رحيل الشاعر من حلب ، فقد وفر

(١) في جمادى الأولى سنة ٣١٤ الموافق أواخر آب سنة ٩٥٥ (بلاشير . المتنبي ص ١٧٨) .

(٢) كان للبيزنطيين جيش خاص كامل النظام والعدة مهيئاً على الدوام لغزو المسلمين في الشرق ولصد غزواتهم في بلاد الروم ، وهو غير جيوش بيزنطة التي كانت معدة لمغازي بلاد البلغار والحروب الأوربية ، وهو غير الفصائل الحارسة التي كانت كل واحدة منها موكلة بإقطاع من أرض الروم لحماية الثغور الرومية من بغتات المسلمين .

(٣) أى تمنى تخريب قلعة الحدث .

(٤) ديوان المتنبي ط بيروت ص ٢٦٤

الدهر على أبي الطيب كبرى حوادثه وأفدح خطوبه ، إذ نجى عينيه — وكاننا تحبان سيف الدولة — أن تشهدا انكساره الأكبر ودوران الدائرة عليه وعلى جيوشه في وقعة (مغارة الكحل ^(١)) التي سحق فيها نيسيفور فوكاس الجيش الحمداني وكتب على سيف الدولة القهر الأخير ، وأقول النجم الحمداني من سماء حلب ، إذ تصدعت أمام جيوش الروم الحرارة أبواب حلب فدخلوها وأحرقوها ، وجن فيها جنونهم في النهب والسلب والقتل والاستعباد .

من لعيني أبي الطيب يوم ذاك ؟ وقد لجأ الأمراء الهاشميون والحمدانيون إلى قلعة حلب فاعتصموا بها ، وهي مشرفة من أعاليها وسط حلب ^(٢) على المدينة التي تخوض في دماؤها خيول الفرسان البيزنطية ، ونيسيفور يحرض عسكره على أن يمثلوا بالقتلى ويعملوا اليد في المال والسلاح في الرجال ، والسبي في النساء ، ما استطاعوا من أقصى الجهد ، انتقاماً لعصور رومية مدخرة الأحقاد في صدور البيزنطيين منذ الأجداد الأوائل . فشفوا أكبادهم في تسعة أيام دامية .

لقد كانت هذه الفاجعة سنة (٩٦١ للميلاد) (٣٥١ للهجرة) وجرنيسيفور الأسرى معه وكلهم من خلص الرجال وسادة حمدان ونساء العرب ، فساقهم مصفودين إلى القسطنطينية فلاً بهم أطرافها وعرضهم الروم في حفل عظيم بساحة (السيرك) ^(٣) وكان بين هؤلاء الأسرى (أبو العشائر الحمداني Apolasar) كما يسميه (سيدرنوس) المؤرخ البيزنطي ، ووضع بين هؤلاء أيضاً أبو فراس الحمداني ، الذي سنرى صورة فروسيته الشاعرة عما قليل — إذ كان قد وقع أسيراً قبيل حصار حلب .

لم يكن أبو الطيب يومئذ في حلب وإنما كان في مصر حزيناً عند كافور ، ومن يدرى لعله بكى طويلاً في الفسطاط على الحبيب الأول غير المعمم فتي الفتیان الحلبي . أو لعله أشفق على نفسه أن يبقى في حلب ، وقد توقع لها مثل هذا المصير الخفيف . وكان قد قوى عليه ضغط الحساد في بلاط سيف الدولة فزهده في المقام . وطالما ذكر همه من الحساد في خلال قصائده الأخيرة التي نظمها في حروب سيف الدولة ، فقوى عنده ذلك الإشفاق على نفسه ، فارتحل بود الخلاص من بلد قد اضطرب حظه في يد القدر وبات معروفاً مصيره الأليم .

(١) يقول سيدرينوس عن وقعة مغارة الكحل بأنها كانت في مكان اسمه andrassos

(٢) من أروع الحصون العربية قلعة حلب وهي في سعتها كدنية وفيها ممرات سرية وأقبية وكانت شرفاتها في أعالي أسوارها مبنية على طراز حربي عجيب ضمن لها الثبات في هذه الغمرة وقد ارتد عنها امبراطور الروم عاجزاً متحيراً

(٣) (شلمبرجة) ص ١٤٣ .

ولست أخلى أبا الطيب من عتاب عنيف على سكوته بعد تركه سيف الدولة ، فهو لم يذكر في شعره (نكبة حلب) وكان عليه أن يذكرها مسفوحاً عليها من ذمعه الصيب وهي إن فارقتها عن قلبي لمساء حسادها إليه فإنها ظلت أبد الدهر له ذاكرة ، وبه مكاثرة ، ولقد رثى خولة أخت سيف الدولة بعدمفارقة السنين . ومن يدري لعله كان نظم في تلك النكبة القصائد الطوال البواكي فكانت من شعره الضائع ، أو لعل هذا الشعر الأخير لم يدعه أبو الطيب لأنه كان يومئذ قد اتخذ الليل جملاً وفر من عند كافور ، وأخذ يضرب بالبوادي ، وكافور يطلبه بالأرصاد حتى بلغ الكوفة وهو خائف من أن يدركه كافور ، وخائف من العبيد الذين معه وفيهم لصوص وقد كان من عادة أبي الطيب إذا ارتحل أن يحمل معه أوراقه ودفاتره وصناده ، ودليلي في ذلك ما رواه البغدادي في خزنة الأدب ^(١) . والبغدادي هذا كان من ثلبة أبي الطيب فلقد سلقه بضروب من السباب والملازم ، فكان مما رواه عن اصطحاب المتنبي لصناده في ترحاله أنه لما بلغ الأهواز نزل عن فرسه وفتح (عيابه وصناده ^(٢) لبلل مسها في الطريق) وما ذكره عن دفاتره وأوراقه التي تكون معه أنه في حادث مقتله حمل (فاتك عليه وطعته في يساره ونكسه عن فرسه وكان ابنه أفلت إلا أنه رجع يطلب (دفاتر أبيه) فقع أحدهم الفرس خلفه وجز رأسه . وصبوا أمواله يتقاسمون بطرطوره ، وأن قاتليه (بدير قنة والنعمانية) اقتسموا عقائله وصفاياها .

فن هذه الروايات التي أوردها البغدادي — نقلاً عن كتاب أسماه (إيضاح المشكل لشعر المتنبي من تصانيف أبي القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني ، وهذا الإيضاح مقصور على شرح ابن جني لديوان المتنبي) — يتبين أن دفاتر أبي الطيب وصناده ومتاعه وأثقاله قد نهبت عند قتله . فلا يبعد أن يكون في هذه الدفاتر شعر للمتنبي كتبه في نكبة حلب وفيه حنان على سيف الدولة وفيه إشفاق ، وضاع هذا الشعر لأن قاتليه نهبوا متاعه وماله ، كما روى البغدادي في كلامه هذا عن أبي الطيب فقال : (إن للمتنبي شعراً كثيراً) والباقي منه الذي تداوله الناس هو برواية أبي الفتح بن جني . وكان ابن جني معاصره ومصاحبه في بعض رحلاته .

* * *

(١) خزنة الأدب ج ١ ص ٣٨٢ .

(٢) العياب جمع عيبة وهي أوعية من آدم يكون فيها المتاع (اللسان) .

فلئن فات أبا الطيب أن يشهد آخر معارك سيف الدولة ويصفها ^(١) فبحسبه ووسع وفائه أن يصف آخر معركة وقعت قبل أن يفصل عن سيف الدولة وهي معركة الدرب .

كان سيف الدولة شاغل البلاط البيزنطي في القرن العاشر للميلاد . وقد تداول الروم وجوه الرأي في أمر الحمدانيين والفتك بهم فأقسم البطريق ^(٢) لملك القسطنطينية أن يعارض سيف الدولة في (الدرب) وسأله أن ينجده ببطارقته وعدده وعدده ، ففعل ملك الروم وجهاز البطريق (شاماشيق chamachic) ابن جان تريميسيس Jen Tzimiscés . لكن ذلك القسم الذي آلى به البطريق على نفسه قد أحثه وخاب فأله ، فاندحر واندحرت جنوده . وكانت هذه المعركة آخر المعارك الظافرة لسيف الدولة على الروم فراح أبو الطيب قبل التوديع « يجود بقصيدة من أعلى شعره كما يقول ابن جني ^(٣) ينشدها مقطوعة من ملحمة ^(٤) الكبرى التي نظمها قصائد في حروب سيف الدولة لتكون (أنشودة الدهر) في فروسية آل حمدان وبطولة ابن أبي الهيجاء سيف الدولة .

بدأ المتنبي القصيدة بالحكمة فلام من يقسم لعقبى الحرب لأن عقباها مجهولة :

(١) بعد نكبة حلب انكرت نفس سيف الدولة فكان يحارب وكأنه جريح وقد أثر في نفسه مصابه بحاضرة الحمدانيين فأصيب بفالج بعد سنتين من فتح حلب بأيدي الروم ، وكان مثل نسر قد رماه صائده فلم يقتله بالرماية الأولى ، فجعل يتحامل على نفسه . وكانت تصيبه غيبوبة يظل فيها نحو ساعة ثم يستفيق « وكانت هذه الغيبوبة من أثر فالجه » كما يروي أحمد بن مسكويه صاحب تجارب الأمم (ج ٢ ص ١٩٩) ولكن كل ذلك لم يقمده عن الحرب والمعارك فقد جرى له مع الروم معارك عدة بين نكبة حلب وموته أي بين سنتي (٣٥١ - ٣٥٦) للهجرة ولم يكن فيها شأنه كما سلف في مزدهر أعوامه الفاتنة . وقد كثرت عليه الفتن في داخل بلاده وفي ديار الموصل في بلد أخيه ناصر الدولة وابن أخيه أبي تغلب ، ووثب عليه بعض غلمانه واحتال لبعضهم فقتله كما فعل بغلامه (نجا) ، وكان مثل شجرة نفدت فتيلاها وبقيت منه ذبالة توشك على الانطفاء .

(٢) من الملحوظ أن كلمة البطريق كانت لقباً لكل قائد عظيم من قواد البيزنطيين .

(٣) ص ٤١٧ من نسخة الديوان للدكتور عبد الوهاب عزام .

(٤) الملحمة في لغة العرب معناها الوقعة العظيمة في الفتنة على ما في اللسان وغيره من معاجم العربية وقد عرفها الجاهليون في معناها هذا ولكنهم لم يطلقوها على القصيدة الحربية وفيها أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم (أنا نبي الحرب والملاحمة) انظر مفيد العلوم للخوارزمي الطبعة العلمية بمصر سنة ٣١٠ ص ٢١٤ باب (ثواب الغزاة والمجاهدين) وكذلك كان شأن الأمويين والعباسيين وقد ورد ذكر (الملاحم) في شعر الشعراء منهم القنطاري الذي يقول :

ولو تستخبر العلماء عنا ومن شهد (الملاحم) الغلابا

فكان معناها عنده مرادفاً للحرب والمعركة ولم يطلق العرب كلمة الملحمة بالمعنى المعروف عند الغربيين سوى في عصرنا الحديث وقد قصدت بكلمة الملحمة في هذا الكتاب المعنى الحديث (أي القصيدة الحربية الكبرى) وهذا جائز في باب المجاز المرسل في العلاقة السببية .

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يفيدك فى إقدامك القسم
ثم ذكر البطريق الذى أحث يمينه سيف الدولة . فقال ، وقد صغر اسمه هواناً وكان
أبو الطيب مولعاً بالتصغير لا يقنع منه بخلسة المغير كما يقول أبو العلاء المعرى . فصغر
أبو الطيب المتنبي اسم قائد الروم فجعله (شمشيق) .

آلى الفتى ابن شمشيق فأحنته فتى من الضرب تنسب عنده الكلم^(١)

وصف أبو الطيب ببيانه جيش الحمدانيين فى هوبه إلى هذه الحرب ، فما فتحت
مدينة (سروج) ناظرها عند الصباح إلا كان جيش سيف الدولة يزدحم منظره فى جفونها ،
فتجلجلت مدينة (حران) على صوته ، وكان مغزاه فى يوم ناضر تخالط وجهه السحب
غير ممطرة فروح عليه الشمس وتجيء . وكان جيش سيف الدولة يطاول الأرض بطوله
وجسامته فلا هو ينتهى ولا هى تنتهى . وفى هذا الجيش خيول ضوامر تلوح شكائهما الحرى
وقد عدت بفوارسها حتى تغمرت من بحيرة (سمنين) فجعلت أفواهاها تنش بالماء وتغمر فيه
اللجم^(٢) .

كذلك يخلع على الشعر أبو الطيب تصاوير وصفه فيقول :

فلم تم سروج فتح ناظرها إلا وجيشك فى جفنيه مزدحم
والنقع يأخذ (حرانا) وبقعتها والشمس تسفر أحياناً وتلتهم
سحب تمر (بحصن الران) ممسكة وما بها البخل لولا أنها نقم
جيش كأنك فى أرض تطاوله فالأرض لا أمم والجيش لا أمم

(١) فى نسخ الديوان جميعها ذكر اسم هذا القائد (شمشيق) وذكره كذلك ابن مسكويه صاحب
ميجارب الأمم (ج ٢ ص ٢١٣) وكل من عرض له ذكره بهذا اللفظ . وهو غلط وصوابه (شمشيق تصغير
شمشيق) . ويدل مطلع القصيدة على دقة التلطف لأخبار الروم فلقد بلغ الحمدانيين قسم البطريق فهب إليه
شاعريهم يحاوبه على قسمه بالظفر بعد انهزام الروم .

(٢) فصل (بلاشير) مراحل المعركة فى كتابه عن المتنبي ص ١٨٠ / ١٨١ فروى أن سيف الدولة
ترك حلب لهذه الغزوة فى ١٤ المحرم سنة ٣٤٥ الموافقة ٢٨ نيسان سنة ٩٥٦ ، فر على الرقة ثم على حران وأران
وأركنين وبلغ هنزيط . وفى المحرم الموافق ١١ مايس بلغ حصن زياد (وهو اليوم خربوط) على الشاطئ الأيسر
من الفرات الشرقى فى الشمال الشرقى من هنزيط anzitene . ثم أرسل من يتعرف له أحوال الروم على نهر ارسناس ، ثم
عبر النهر إلى جيوش البيزنطيين وهم بقيادة (يوحنا تريميسيس) فى تل البطريق . وتل البطريق على الشاطئ
الأيمن من الفرات الغربى ، فهزم الروم وبحقهم وعاد فعبر النهر بعد أن أحرق أرباض الروم ثم حمل على الروم
حملة لاحقة فى ١١ صفر الموافق ٢٤ مايس فأهلكهم وأسر منهم سبعة آلاف أسير وقتل منهم مقتلة . وفى عشية
اليوم الثانى دخل سيف الدولة آمد وفيها أنشده شاعره المتنبي هذه القصيدة الميمية المستوحاة من المعركة .

وشرب أحمت الشعرى شكايها ووسمها على آناقها الحكم^(١)
حتى وردن (بسمنين) بحيرتها تنش بالماء في أشداقها اللجم

ثم أعقب هذه الجيوش العربية سيرها فأغذته حتى جاوزت نهر (أرسناس) فأمر
سيف الدولة جيشه أن يخوض النهر . فيالمنظر الموج وهو ينكشف عن صدور الخيل
فيجفل منها وهي لا تجفل منه . وكان سيف الدولة في مقدمة الجيش أول الخاضعين في نهر
(أرسناس) يعبر بالجيش إلى بلد مقدور عليه الحريق . فيقول المتنبي في هذه الصورة الفنية
ويغنى نهر الروم :

وما يصدك ، عن بحر لهم ، سعة وما يردك ، عن طود لهم ، شعم
ضربته بصدور الخيل حاملة قوما إذا تلفوا قدماً فقد سلموا
تجفل الموج عن لبات خيلهم كما تجفل تحت الغارة النعم
عبرت تقدمهم فيه إلى بلد سكانه رم مسكونها حمم

ويعرض أبو الطيب صوراً فنية من معانيه الحماسية فيجعل السيوف في أكف الحمدانيين
ناراً وقد عبت قبل أن يكون المجوس وما زالت إلى اليوم في اضطرام . وذلك عنده عمر
السيوف وتاريخها في دهر الحروب ، يعبدها الأبطال كما يعبد النار المجوس ، وطال ما عبد
أبو الطيب سيفه ألفا بات بعد خلوصه من كافور يقبل أسيافه ويمسحها من دماء العدى^(٢) :
كذلك يقول عن الحمدانيين :

وفي أكفهم النار التي عبت قبل المجوس إلى ذا اليوم تضطرم

ثم يسرى خياله على وصف الجياد التي كلف بها كلفه بالغيد الأمايد ، وينتقل إلى
وصف السفن (السماريات) التي أعدها سيف الدولة يمتضى عليها بعض الجنود مسارعة
للزحف في طول نهر أرسناس وهي سفن أعدها هنالك (مهندسوه الحربيون) بأرض الروم حين
دعت إليها الحاجة فجأة فكانت من نتاج رأيه فحملت الفرسان في بطونها لاعلى الظهور ،
وكانت خيلاً مكدودة بغير ألم وإنما الألم كان براكيها .

دهم فوارسها ركاب أبطنها مكدودة وبقوم لايها الألم

(١) الشرب ضامر الخيل ونجم الشعرى من نجوم القيط والمراد به أن الخيل من طول ما لاكت شكايها
حميت تلك الشكايم من ذلك اليوم القانظ
(٢) وبتنا نقبل أسيافنا ونمسحها من دماء العدى

ولم تكن هذه (الجياد البحرية) ذوات حلق كالخيول ولا لها شيم مثل شيمها :
 من الجياد التي كدت العدو بها وما لها حلق منها ولا شيم
 نتاج رأيك في وقت على عجل كلفظ حرف وعاء سامع فهم
 وقد أذكرني قول أبي الطيب بنابليون بونابرت ، حين وصف نباهة سيف الدولة وسرعة
 خاطره في تدبير خطط القتال . فكان نابليون كذلك يرتجل منافذ الخلاص ارتجالاً في
 زحام المعارك (نتاج رأى في وقت على عجل) .
 فلما بلغ سيف الدولة صدر الدرب واقع البطريق صاحب القسم فصدم جيشه بخميسه
 الذي كان هو غرته وطلعته ورماحه شعر وجهه .

ودارت المعركة فوق (الدرب) فثبت الروم لسيف الدولة ثبات جسوم بغير أرواح إذ
 جعل أبو الطيب تلك الجسوم الرومية هي التي ثبتت في المعركة (ثبتت طريحة على الأرض
 بغير أرواح) والأرواح هي التي انهزمت (فخرجت من جسومها منعقة هاربة) .
 وقد تمنوا غداة الدرب في لجب أن يبصروك فلما أبصروك عموا
 صدمتهم بخميس أنت غرته وسمهريته في وجهه غم^(١)
 فكان أثبت ما فيهم جسومهمو يسقطن حولك والأرواح تهزم
 وملاأت الخيول الأعوجية^(٢) الطرق خلف الروم المهزمين بعد المعركة ، وجللتهم
 السيوف طوال يومهم فكانت تعلو رؤوسهم .

والأعوجية ملء الطرف خلفهم والمشرقية ملء اليوم فوقهم
 وويل (ابن شمشيق) من تهكم المتنبي وروعة تصويره للمعاني وتجسيدها، فقد تصور أبو
 الطيب أن ابن شمشيق اعتذر من يمينه التي حلفها فسألها . (أن تسمح له فيثنى عن
 الحرب) وقد انثنى فنكص وهرب ، فراحت يمينه تبسم استهزاء به وهو يفر ، وكلما أمعن
 بالفرار أمعنت يمينه متبسمة مستهزئة .

وأسلم ابن شمشيق أليته إلا انثنى فهو ينأى وهي تبسم^(٣)

(١) الغم كثرة الشعر في الوجه .

(٢) المنسوبة إلى أعوج وهو فحل كان معروفاً في العرب . وأراها وصفاً للسيف المحدودة المعوجة وهي سيوف
 العرب وقد أرى التصحيف بحرف الفاء في الطرف وصوابه الطرق بجواز سكون الراء

(٣) على هذا النحو أرى فهم البيت وروايته . وقد روى في بعض النسخ بادئاً بكلمة (وأعلم) كما في
 نسخة بيروت . وفي جميع الروايات كلمة (إلا) بالتشديد - وشمشيق صواب لشمشيق كما صححت ذلك في
 هامش من هذا الكتاب وأبنت الدليل .

وغاب الفتى البطريق قائد الروم ممعناً في هربه بين الأدغال والآجام فأتبعه المتنبي بهذا البيت .

فلا سقى الغيث ما واره من شجر لو زل عنه لوارت شخصه الرجم
وقتل سيف الدولة بالفخر إلى موطنه واندفعت الناس يغنون ويطيرون فرحة بهذا الظفر
العظيم حتى أنساهم طربهم النسب الذي من أجله طربوا . وقد دخل سيف الدولة حلب
على جواده الجبار مردداً شكر الله وبيده سيفه الماضي (ذو شطب) فقال أبو الطيب
يصف ذلك .

ألهى الممالك عن فخر قفلت به شرب المدامة والأوتار والنغم
مقلداً فوق شكر الله ذا شطب لا تستدام بأمضى منهما النعم
ووسم أبو الطيب الروم في (قصيدة الوداع هذه) ميسماً لا يبلى على الزمان ، فقال في
آخرها يخاطب سيف الدولة :

ألقت إليك دماء الروم طاعتها فلو دعوت بلا ضرب أجاب دم

* * *

كذلك يأخذ تاريخ الأدب العربي المعاصر قسطه من دراسة حماسة المتنبي وتصوير
شعره الصورة التي يستحقها أعظم شاعر عرفته العربية ، قد خلد ذكر الحروب ، ووصف
تلاوين الفروسية وتهاويلها في دنيا الحمدانيين مع الروم ، وكتب بيده أكبر ملحمة للعرب
والإسلام بأفخم أسلوب وأعذب بيان . وكان يطبع هذا الشعر الحماسي الرائع بميسم خلود
هو عنوان البطولة ورمز الفروسية العربية ، سيف الدولة .

فلا يعجب علماء البلاغة حين يتدارسون مثل هذا البيت السابق الذي يجعل فيه
أبو الطيب دماء الروم ملقاة في طاعة سيف الدولة يدعوها بلا ضرب فتجيب ، فإنهم متى
تفهموا هذه الحماسة وعرفوا مغامرات صاحبها وجدوا المتنبي غير صائغ للمبالغات ، ولا
ملحف في أوهام التصوير .

٢ - وأما أبو الطيب المتنبي فقائد عسكر

سلاماً أبا الطيب على كروور العصور ، مر على هلكك ألف عام فقام الأدباء في دنيا العرب من أجلك وقعدوا ، ورددوا ملء سمع الأرض شعرك وتدارسوا فنك ، وبسطوا سيرتك وجددوا عهدك ، وعهودك لا تبلى في الشعر ، وسيرتك لا تنهى في فم راويات الزمان . ولقد يأتي عليك ألف علم ثانية بعد ، وأنت مورد ثرار لم يفرغ ما عندك من سلسبيل الشعر والفكر . كتبتُ عنك في مصر وكنتَ فيها قبل عشرة قرون ، ومن يدرى لعل منترك كان على عدوة هذا النيل الجميل حيث أسكن اليوم ، وكنت تزور كافوراً في جزيرة القسطنطينية وتسكن بالقرب منه ، بعين قريرة لكن كان ذلك قريباً يخالطه البعاد ، فقلتُ فيه :

أرى لى بقربى منك عيناً قريرة وإن كان قرباً بالبعاد يشاب

ولو أحسن إليك كافور فلم ينفرك عن مصر نفار الأطيار السواجم عن الأشجار النظرة ، نخلدت بأسه وسطوته . وكان كافور ذا بأس وكان شجاعاً حازماً ذا سطوة . ولكن حظ سيف الدولة أبى إلا أن يستأثر بحبك وحده ، ويحوز الخلود في شعرك ، فقلتُ فيه (السيفيات) وهى لب حرب ، وصفحة مجد ، وعنوان أمة كانت تسكن شمالى بلادى ، فتصد عنها العاديات . لقد أنشدت في شعرك بطولة سيف الدولة ، لأنك ضريعه في ثقاف الرماح واستحلاس ظهور الخيل ، وكان هوى العروبة في قلبك ، فاجتمع على مروءتك النبيلان . الحمية والفروسية . وكثر في شعرك خفق البنود وجلجلة السلاح ، وكنت طروباً فيه لحمحة الخيول التى وقرتها الحرب . وقدحَ حوافرها الدرب .

لقد نام طرفك وأنت قتيل مغدور به — في دير العاقول — حيث يهتف بك الصدى على المدى ، وقد عرفت في حياتك أن العرب معزون بك ، وطال ما تارق أدباؤهم في تفهم شعرك وسبر غورك ، فسهروا جراء قوافيك واختصموا كما تقول ، لكنك تركت الدنيا وأنت غير عالم أن دنيا بنزلة كانت بذكرك مملوءة كما امتلأت بسيف الدولة ، وأن دنيا الفرنج بعدك بألف عام أطلعت في شعرك كتباً لأقوامها بلغت العشرات ^(١) . وقد تبلغ المئات بعد ألف

(١) أعد كتاب المسيو بلاشير عن المتنبي أخطر كتاب صدر عن شاعر سيف الدولة في ديار الفرنجة ، فقد ألفه مسيو بلاشير الأستاذ في مدرسة اللغات الشرقية بباريس سنة ١٩٣٥ في ٣٦٦ صفحة تتبع فيه أبا الطيب من فاتحة أمره إلى خاتمة في دراسة حياته وشعره وتحليل ذلك وترجمته أروع قصائده .

عام تأنى ، فاسمع من خلف الغيوب هذه الأبيات الحماسية التى قلتها فى الخيول والحروب وفروسية سيف الدولة ، إنها ثلاثة أبيات من البائية تخاطب بها سيف الدولة فتقول :

فبتّ ليالياً لا نوم فيها تخب بك المسومة العراب
يهز الجيش حولك جانبيه كما نفضت جناحيها العقاب
وخيلاً تغتذى زريح الموائى ويكفيها من الماء السراب

لقد نقلها شامبرجة أحد المعجبين بك إلى لغة قومه ، وأواخر القرن الماضى فيما نقل من شعرك العجيب فقال : هذه الترجمة لها :

Dans ta course rapide par les meilleurs chevaux auxquels l'Arabie ait donné naissance, tu as passé plusieurs nuits à la poursuite, de l'ennemi, sans goûter les douceurs du sommeil, entouré de tes escadrons qui s'agitaient à tes cotés, comme l'aigle agite ses ailes dans son vol précipité .

Il ne faut aux chevaux de tes cavaliers d'autre nourriture que le vent qui souffle dans les deserts, ils se contentent pour éteindre leur soif de la vapeur qui s'élève sur les terres brûlées des ardeurs du soleil.

* * *

كان سيف الدولة (محارباً بالوراثة)^(٢) بل كان مصاباً بهوى الحرب ، فعبر أبو الطيب عن حقيقة هواه ، وظل يهدد آماله الحربية الجسام فى العزة والنصر ومفاخر الفتح طول عهده معه ، ولم ينس أن يغنّيه فى هذا الهوى وهو بعيد عنه مفارق يوم كان فى العراق سنة (٣٥٢) فأرسل إليه هذا البيت فى قصيدة (مالنا كلنا جو يا رسول) .^(١)

أنت طول الحياة للروم غاز فتى الوعد أن يكون قفول

وقد استغل العباسيون هذا الهوى فى سيف الدولة ، فأعدوه لحماية ثغور الجزيرة من الروم^(٣) وكان الوضع الجغرافى لبلاد سيف الدولة يقضى أن يكون أمير حلب محارباً كبيراً فأعطى سيف الدولة الحرب كل حياته ولذلك يقول عنه الثعالبي فى اليتيمة إنه (قلما ينشط لمجلس الأنس لاشتغاله عنه بتدبير الجيش وملابسة الخطوب وممارسة الحروب ، وقد دعاه أبو فراس ليلة ليسمع غناء أبى عبد الله المنجم ، وقد أحضره من أجله وأرسل إليه شعراً

(١) Gustave Schlumberger (Un Empereur Byzantin au dixième siècle Nicephor Phocas)

طبع معهد باريس سنة ١٨٩ (ص ١٢٨)

(٢) كتاب المتن لبلشير بالفرنسية صفحة ١٢٧ ط باريس سنة ١٩٣٥ .

(٣) كان الخليفة المتى بالله أبو إسحق والمستكنى بالله أبو القاسم والمطيع لله ، أيام الدولة الحمدانية .

يدعوه فيه ، فأجابه سيف الدولة بهذه الكلمة الرائعة :

« أنا مشغول بقرع الخوافر عن المزاهر (١) » .

وقد وقع المتنبي لسيف الدولة وقوع الأليف للأليف فعلق كل منهما بصاحبه حتى فرق بينهما الحساد . وكان في بلاط سيف الدولة شعراء كثير فلم يعجب سيف الدولة أحد منهم كالمتنبي . فكان أبو الطيب (جريدته الحربية) على مصطلح زماننا من جرائد الحروب التي ألفناها .

وأرى أن فروسية المتنبي هي التي كان لها أكبر نصيب في هذا الإعجاب لدى سيف الدولة . كان المتنبي فارساً وقد اكتسب الفروسية من حياته البدوية التي عاشها في صباه ، ألم يصحبه أبوه إلى بلاد الشام فلم يزل ينقله من باديتها إلى حواضرها ، ومن برها إلى مدرها (٢) فأكسبته البادية والتنقل فيها فروسية وشجاعة وفصاحة . وما كان أهل البادية غير فرسان فصحاء ومخاربين .

فلما خالط سيف الدولة رافقه في أكثر حروبه وشهداها معه وحارب فيها إلى جانبه ولقد وفى مطالب الشعر الحماسي من شاعر فارس مثله ، فنظم غرر قصائده في حروب الحمدانيين للروم وكتب له الخلود . فهو أكبر شاعر عربي أعطى الحروب العربية الرومية من شعره أكبر نصيب . فلئن كانت الملحمة العربية الرومية قد بدأت — كما قلت — بشعر أبي تمام ثم بصاحبه البحترى فلقد تلقفها أبو الطيب المتنبي فأنشد أروع فصولها . إنه حشد لها كل ما وسعه فنه من بيان ساحر ، ومعان سامية ، في أنقى لفظ ، وأشرف أسلوب (٣) . وكان سيف الدولة شاعراً (يعبد نفسه في شعر غيره فيه) فوجد في المتنبي بغيته فأمدّه بالمال والتكريم ليمده بخلود المجد وبقاء الذكر .

وكانت الفروسية متبادلة الشعور بين سيف الدولة وشاعره ، فكان إذا شاء سيف الدولة إكرام أبي الطيب أهدي إليه سيوفاً ورمحاً ودروعاً وأفراساً (٤) وكان زى المتنبي في ركوبه

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ط بيروت سنة ١٩١٠ ص ٨٣ .

(٢) يتيمة الدهر السابقة ج ١ ص ٩٣ .

(٣) بقول (بلاشير) في كتابه عن المتنبي ص ١٨٣ عند دراسته لشعره الحماسي إن صوت أبي الطيب المتنبي ليطن مجلجلاً خشناً في قصائده الحماسية كأنه صوت أولئك الجرمانيين الذين تملأ أنفسهم فرحات حشرات أعدائهم المقتولين .

(٤) ص ٣٦٢ و ٣٦٧ من نسخة الديوان للدكتور عبد الوهاب عزام و ص ٢١٧ من نسخة الديوان طبع بيروت سنة ١٨٦٠ للمعلم البستاني .

زى الفرسان ومعه رمحه ، فقد روى الثعالبي في اليتيمة ^(١) أن الحسين بن أحمد الصنوبرى خرج من حلب يريد سيف الدولة ^(٢) فلما برز من السور إذا هو بفارس متلثم قد أهوى نحوه برمح طويل وسدده إلى صدره ، فكاد الصنوبرى يطرح نفسه على الفارس فرقاً ، فلما قرب منه الفارس ثنى السنان وحسر لثامه فإذا هو أبو الطيب المتنبي .

وعرف المتنبي بالفروسية في أشد مواقف حياته وهو (ساعة قتله) فقد قال لعبدہ (سراج) لما قرب (فانتك) منه يريد قتله :

— يا سراج أخرج إلى الدرع .

وأخرجها ولبسها وتهياً للقتال .

وذكره غلامه ببيته الحماسي المشهور :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والضرب والقرطاس ^(٣) والقلم

وقد عرف أبو الطيب الخيل وكان يجد أصائلها قليلة كالصديق ، فبرع في وصفها واقفة وسائرة ، وعادية في الحرب ومتمطرة ، وكان عبقرى الفروسية يشهد بذلك كل شعره ، ويكاد يكون أكثر شعره الحماسة ، فلا تخلوله قصيدة من ذكر الخيل والرمح والسيف ، أحب الخيل والسيف والرمح منذ فاتحة شعره ، فداليته التي يقول في أولها وهو في ميعة صباه :

أهلاً بدار سباك أغيدها .

ملأى بالخيل المرتميات به نحو الممدوح وطافحة بعوالى الرماح ، وبجد السيوف .

وكانت قصيدته الأخيرة التي يقول المتشائمون من نقاده إنه جعل من قوافيها كلمة الملاك فهلك ^(٤) ملأى كذلك بمعالم فروسيته ، ففيها وقع الأسنة وفيها السلاح والذعر والأعداء .

ففي روعة من جلبة السلاح في شعره ، وبوحى من معانيه التي لا تنفذ حول الحرب

(١) ج ١ ص ٩٧ .

(٢) لعل سيف الدولة كان يومئذ خارج حلب لغرض من أغراضه .

(٣) لعل غلامه هو أبو الحسين المستهام الحلبي . فلقد ذكر في (تمة اليتيمة للثعالبي) طبع طهران

سنة ١٣٥٣ هـ نشر عباس إقبال ج ١ ص ١١) أن أبا الحسين المستهام هذا كان غلام أبي الطيب وكان شاعراً . فلا يبعد عندي أن يكون هو الذي حث أبا الطيب على القتال في ساعته الأخيرة ببيته الحماسي المشهور .

(٤) اليتيمة السابقة ج ١ ص ١٨٩ .

والطعان والسير والزوال قال فيه الشريف الرضى : (وأما أبو الطيب المتنبي فقائد عسكري^(١)) .
 وكان ابن الأثير يقول عن فن المتنبي وروعة تصويوه للمعارك « إنه إذا أفاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها . وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها حتى تظن الفريقين قد تقاتلا والسلاحين قد تواصلوا . »
 يقول صاحب الصبح المنبي أيضاً « ولا شك أن المتنبي كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصف لسانه ما أداه بياناه^(٢) » .

ويقول « ديمومبين » : كان المتنبي هو (المسجل التاريخي Historiographe) للأُمير الحمداني حينما احتكت الحضارة الإسلامية بالحضارة النصرانية في القرون الوسطى وإن المرء حين يقرأ المتنبي ينساق فكره أحياناً إلى ذكر لويس الرابع عشر وعبور نهر الراين^(٣) .
 ثم عقد « ديمومبين » موازنة خفيفة بين شعر المتنبي وشعر كورنيه الأكبر من حيث العقل واختيار المعاني وتوقد الحماسة وسلطان المنطق . ثم خرج من هذه الموازنة إلى القول بأن للعرب في الأندلس تأثيراً في الأدب الإسباني وأن هذا الأدب هو الذي تسلسل إلى فرنسه فأثر في شاعرها الأكبر كورنيه أوائل أمره ، وأن أجداد كورنيه النورمانديين الذين تراموا على غزوة صقلية اختلطوا بالعرب الذين من جنسهم المتنبي^(٤) .
 أما الأستاذ ماريوس كنار^(٥) فيقول إن المتنبي كان أعظم شاعر خلد حروب العرب

(١) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي الشيخ يوسف البديعي . مخطوطه بدار الكتب المصرية (رقم ٥٣٣ أدب) أوراقه ١٣٢ ورقة منسوخ في سنة ٢٦٤ للهجرة ، وقد وردت كلمة الشريف الرضى فيه في الورقة ٤٨ .
 (٢) المخطوط السابق ورقة « ٤٧ » .

(الملحوظ أنني أوتر الرجوع إلى المخطوط - وقد يكون مطبوعاً - حفاظاً على رواية النصوص الأصلية)
 أما الغربيون الذين درسوا شعر أبي الطيب فأحق مؤلف فيهم بأبي الطيب هو (بلاشير) كما قدمت . لكنه يخفف من غلواه إعجابه بفن الحماسة في شعر المتنبي فهو يذكر في كتابه عنه (ص ١٨٣) أن روح الحماسة الحقيقية لا تشجع في كل قصائده ، فإن له أبياتاً حماسية رائعة خارقة لكنها منفردة ومنشورة بين سواها من الأبيات التي دونها في القيمة الحماسية ويقول نصاً :

« وإن أفضل ما في فنه الحماسي براعته في وصف بغتات الحمدانيين لبلاد بيزنطة وخطفاتهم الصاعقة في حرب عدوهم وقفولهم مسرعين بالأسرى والغنائم . ولقد كان أبو الطيب يحمل القوم بشعره على أن يشعروا بالرواية العظلى التي كان هو مثلاً فيها » .

(٣) "Al Mutanabbi" recueil publié à l'occasion de son millénaire. طبع بيروت ١٩٣٦ ص ٨٨

مقالة الأستاذ (Gaudeferoy Demonbynes)

(٤) مقالته في المجموعة نفسها لذكرى ألف عام على المتنبي .

مع البيزنطيين فبذ بذلك كل شاعر قبله قال الشعر في حرب الروم ، والمتنبى في ذلك وحيد غير مدافع .

وقد استعان هذا الأستاذ بشعر المتنبى في هذه الحروب على معرفة العتاد الذى كانت عليه الجيوش البيزنطية فاتخذ من قول المتنبى :

أتوك يجرون الحديد كأنما سروا بجياد ما هن قوائم

دليلاً على ثقل جيش الفرسان عند البيزنطيين المسمى بالرومية (Scholorioi) أى المطاردون المدججون بالحديد الذين ركبو خيلاً مستورة القوائم برداء من الدروع يكاد يبلغ الأرض (كما أشرت إلى ذلك فيما تقدم) .

وأردف ماريوس قائلاً : « إن هذه القصيدة الميمية هى المثل الأعلى عند أبى الطيب في سيف الدولة ، والمثال المحتذى للقصص الحربى ، فإن كل نامة حربية أو حركة من هذه المعركة كان المتنبى يرسمها بعبريته المصورة الجبارة » .

وقد كان أبو الطيب إلى فروسيته الشاعرة الخارقة وروعة تصويره للمعارك عفيف الحب ، كان حبه كحب فرسان القرون الوسطى في أوروبا . أفلا نظرت إلى هوى (سيرانودو بيرجراك) بابنة عمه . كذلك كان أبو الطيب ، لقد مات ودفن هواه في ضلوعه . أكانت (خولة أخت سيف الدولة) تحبه . إنه رثاها بعد فراق أخيها بسبع سنين فطوى الجزيرة إليه خبر موتها — فأشرقه بدمعه حتى كاد يشرق به . وكان من قوله :

وأشنب معسول الثنيات واضح سترت فى عنه فقبيل مفرق
وما كل من يهوى يعف إذا خلا عفا في ويرضى الحب والخيل تلتقى

وقد سأله عن معنى هذا البيت فقال لهم أبو الطيب « المرأة من العرب تريد من صاحبها أن يكون مقدماً في الحرب فترضى حينئذ عنه » .

كذلك كان أبو الطيب فارساً في شعره وفي حبه . ومن يدرى ؟ لعل الحب كان وقيد شجاعته عند سيف الدولة لترضى عنه (خولة) فتجده مقدماً في الحرب ، كما يقول .

وبحسبه دليلاً على هذا الحب أن كان ينهز الفرصة ، في عادة الشعراء بدء القصائد بالنسيب ، فيقدم على كل قصيدة رسالة من هواه ، فيأضه بالفروسية كأنها أنشودة البطولة في الحرب ، ورسالة العفة في الحب ، إلى (خولة) . وسجل التخليد (لسيف الدولة) ، عبقرى الحرب .

٣ - فن المتنبي في شعر الحرب

الشعر العربي مثل معادن بعضها قد مزج ببعض - وقد يكون بين هذه المعادن قطعة صافية من الذهب الخالص ، وقطع ممزوجة بمعادن من الفضة وغير الفضة . فعلى الجوهري أن يستخرج ما يريد من السبيكة .

كذلك وجدت شعر العرب سبائك . فأكثره قصائد في شؤون شتى وبعضه القليل في موضوع واحد . وإذا ضربت المثل بشعر الحماسة وجدت هذا الشعر في الأدب العربي قد توزعته ثلاثة أوصاف .

١ - شعر المديح : فإن فيه شعراً حماسياً كثيراً لكنه قد مزج بموضوعات المدح ، فالشاعر يذكر سجايا ممدوحه من كرم ومعروف وشهامة وأعراق ، ثم يذكر شجاعة الممدوح فيعرض إلى ذكر حروبه ووقعاته إن كان من القواد ، أو يذكر وقائع آبائه وجدوده إن كان من الحفلة .

٢ - شعر الفخر : فإن الشاعر المفتخر يعرض إلى ذكر أيامه الحربية إن كانت له مآثرة في الحرب ، أو يفتخر بأيام آبائه وأجداده ، كما فعل الفرزدق . وهذا الضرب من الشعر الحماسي كثير في أدب العرب .

وهذان النوعان السابقان من شعر الحماسة يشبهان السبيكة المخلوطة ، ومهمة دارس الأدب فيهما عسرة لأنه يتنخل أبياتاً ومقطوعات حماسية من بين أبيات كثيرة في شؤون أخرى تتناول المديح أو تتناول الافتخار .

٣ - الشعر الحربي الصريح الذي قيل خاصة لوصف الوقائع والمعامع . وهذا النوع يقل في شعر العرب القديم في الجاهلية والإسلام ، ويظل ممزوجاً مع غيره من الشعر في القصيدة الواحدة . أما في العصر العباسي وخاصة زمن أبي تمام والبحترى ، فقد أخذ شعر الحرب (المتوحد في موضوعه) يظهر في قصائد أبي تمام ثم في قصائد البحترى ، على نحو ما قدمت في الكلام على شعر الحرب عندهما ، وأجلى ذلك وأكثره وضوحاً وحدوداً وصفهما لمعارك العرب مع البيزنطيين في حروب أبي سعيد الثغرى .

ولما جاء المتنبي أصبح هذا الضرب الصريح من شعر الحرب كامل التحديد واضح الظهور في مبادئه وخواتمه . وبرزت حدوده للبيان متميزة من غيرها . فإن

أبا الطيب المتنبي وقف أحسن شعره على سيف الدولة ثم جعل هذا الأحسن رهيناً بوصف الحروب العربية البيزنطية التي نهض بها سيف الدولة طوال عهده على حلب . فكان أن نظم أبو الطيب قصائده الطوال موقوفة على حروب الحمدانيين . ولولا ما كان يأخذ به نفسه من مفاتيح الغزل وختام الحكمة ، لجاءت قصائده مثلاً فنياً رائعاً ينبغي أن يحتذى بعده في كل شعر حربي ، إذ كان يجمع فيه بين سمو الديباجة وروعة المعاني . وقد كانت قصائد العرب الحماسية منذ عرف العرب الشعر إلى عهد سيف الدولة لا تخرج عن أن تكون واصفة لوقعة واحدة أو واصفة لحملة وقائع متتابعة . وكان شعر أبي الطيب في الحرب لا يجيد عن هذين الوصفين ، فكان يصف في بعض قصائده وقعة واحدة وكان يصف وقعات متعددة . وفي كلامي على معارك سيف الدولة التي وصفها المتنبي (فيما سبق هذا البحث) تبين حقيقة هذا التقسيم الفني فإن « معركة خرشنة » ومعركة « الحداث الحمراء » مثال لقصائد المتنبي الحربية التي وصف فيها (معركة واحدة) . أما « معركة الدرب » فهي المثال الآخر لقصائد المتنبي التي وصف فيها (عدة معارك) أو على الأصح (عدة مواقف حربية) في « تل البطريق » ودخول الجيوش العربية إلى (سروج)^(١) عند انحسار الليل وافتتاح الجفون ، وإلام الجيش (بحران) تحت يوم ناضر فيه غمام يستر الشمس ثم ينحسر .

ثم اجتاز الجيش بقلع (أرسناس)^(٢) بعد أن هد عصمتها ثم محاصرة الحمدانيين لحصن (الزان) حتى كانت (الوقعة الكبرى القاطعة) في (الدرب) الذي نذر البطريق القائد أشد النذور ، وأقسم أغلظ الأيمان ليكسرن سيف الدولة وليلقينه فيه فيعارضه بجيش لا قبل له به . فكان أن خاب نذره ونقضت الحرب قسمه كما يصف كل ذلك أبو الطيب بقصيدته الحربية الأخيرة التي أعدها وداعاً لسيف الدولة فكانت آخر شعره في حلب .

ففي هذه الوقعة من الأرض بين (أرمينيا وقلقلا وبر الأناضول) ، جعل المتنبي أعظم قصائده الحربية وفقاً على سيف الدولة في حروبه مع البيزنطيين . وقد كانت هذه الديار الواقعة في شمالي الشام الآخذة إلى الغرب (موطناً فسيحاً للشعر الحماسي) لأن الدولة

(١) Saros سروج عند ثغور الشام قال عنها (ياقوت) في معجمه : ؟ بلدة عربية من حران في ديار مصر ، وحران على طريق الروم من جهة الشام .

(٢) ذكر المسموذي في كتاب (التنبيه والإشراف) طبعة ليدن سنة ١٨٩٣ بوقوف degoeje ص ١٨٩ أن أرسناس اسم نهر يصب في الفرات بين باسورين وقبر سابور وقد رسمه Brooks على خريطته التي عربتها في آخر الكتاب واسمه بالرومية Arzanene .

العباسية لم تصطلح عليها الفتن في الداخل كما اصطلحت على الأمويين ، وإنما كان الخصم الألد للعباسيين والعدو الأشد لكل العالم الإسلامي والعربي ، البيزنطيين . فكان جلاّد العرب معهم طويلاً في تلك المواطن العربية التي ارتبطت أرضها بأروع الشعر الحربي العربي وكانت مهداً لغرر قصائده في عصر بني العباس من أيام المعتصم إلى عهد سيف الدولة . وكان أبطال هذا الشعر (كما ذكرت) أبا تمام والبحترى ، ثم جباره أبا الطيب المتنبي .

ومات المتنبي ومن بعده سيف الدولة وعم الخراب البلاد الحمدانية ، إذ نهض الروم آخر عهد (نيسيفور فوكاس) لإكمال غزواتهم في أرض الإسلام بعد فتحهم حلب ، فاندفع قائدهم الأرمني الجبار (يوحنا ترميسيس) بجيوشه كعباب البحر فاكسح ثغور الشام جميعها وامتد إلى العراق حتى بلغ حدود بغداد ثم أحس ببعد الشقة وقلة الزاد فخاف على جيشه من الخذلان ، فعاد به حيناً إلى جانب أنطاكية ، وقفل هو إلى القسطنطينية ، فقتل مولاه نقفور وكان يهوى زوجته (تيوفانو) واستولى على العرش ، ثم عاود الكرة فكانت النوبة للشام فحارب فيها الإخشيديين .

وقد روى (شلمبرجه) في كتاب جليل آخر عن (الحروب البيزنطية في الشرق والغرب في أواخر القرن العاشر على عهد الخليفين العباسيين المطيع لله وابنه الطائع ^(١)) فكان من من الدهر على الشعر الحماسي أن يسبق في دنيا العرب بحوادث الظفر فيشهدا أبو الطيب وصاحبا من قبله ليسجلاها في شعرهم الباقي ، ويتاح لأعينهم أن تغفو قريرة في أجدائها قبل أو أن الخذلان الذي جلل به الروم أرض العرب حيناً من الدهر ، حتى انجلت سماؤهم فعادت ضاحية ضاحكة وأنجاب أعداؤهم فراحوا يتعرون بالحية ويلوذون بالفرار ، لامة وراءهم صفحات السيوف بأيدي البطلين العظميين نور الدين ، وصلاح الدين .

الفصل الثالث

شعر الحرب عند أبي فراس الحمداني

١ - فروسية أبي فراس

يقول أبو منصور الثعالبي في يتيّمته عند تعداده لمزايا أبي فراس إنه « كان فرد دهره مجداً وبلاغة وفروسية وشجاعة ^(١) » فجمع الثعالبي في كلمة واحدة أعراق أبي فراس وسمو شعره ، إلى حماسته وحربه .

وإن القدر الذي كُتِبَ لسيف الدولة في حرب الروم قد أصاب أبا فراس ، فكان ابن عمه ^(٢) سيف الدولة يميزه بالإكرام من سائر قومه ويصطنعه في غزواته ويستخلفه على أعماله ^(٣) .

وكان يصحب سيف الدولة في حروبه منذ صباه ، فقد قال : « غزونا مع سيف الدولة وفتحنا (حصن العيون) سنة ٣٣٩ وسنى إذ ذاك تسع عشرة سنة ^(٤) » .
وكان هذا الفتى الوسيم يعرف حق القربى عليه وما يطالبه به مجد قومه ، وهو الذي يقرر سبب وجودهم في الدنيا بقوله :

فلم يخلق بنو حمدان إلا لمجد أو لبأس أو لجود
فجمع الشماثل كلها في المجد والبأس والجود . وكان البأس أظهر صفاته ، فنشأ على الفروسية حتى غدا أشجع قومه وأعز فرسانهم بعد سيف الدولة وكان يحمل على وجهه ميسم الشجاعة ، فلقد أصابت خده طعنة من سنان ، وأصابته ضربة في فخذه فشق فخذه عنها ، وجعل يعزى نفسه في جراحاته فيقول :

فلا تصفن الحرب عندي فإنها طعامي مذ بعث الصبا وشرابي

(١) اليتيمة ج ١ ص ٢٧ الطبعة السابقة .

(٢) سَأُبَيِّنُ في الصفحة التالية جدولاً ينسب هذه القربى .

(٣) اليتيمة ج ١ ص ٢٧ الطبعة السابقة .

(٤) كتاب A.bou Firās بالألمانية لمؤلفه رودلف دفوراك طبع ليدن سنة ١٨٩٥ (ص 342) .

وقد عرفت وقع المسامير مهجتي وشقق عن زرق النصول إهابي
وطالت جراحاته فلم تندمل فراح ينفس عن نفسه بالشعر فيقول :

جراح تحامها الأساة مخافة وسقمان باد منهما ودخيل

يقول (شلمبرجة) : « إنه كان ألمع الشخصيات في بلاط حلب^(١) ، وكان سيف الدولة يقدر فروسيته وشعره فيجربى عليه ألف دينار كل سنة ، وأن أبا فراس كان أنجب أهل الفروسية في كل عصره ، وكان جندياً منقطع النظر » .
وأراه قد كُتب له أن يبقى بعد سيف الدولة ابن عمه^(٢) ، فتصرع حلب وتلقى الهوان وهو حي موجود . ويموت سيف الدولة قبله ، فيبقى وحيداً ويصير شريداً على نحو ما سأروى مصرعه الدامي الفظيع .

٢ - تحت أسوار منبج

منبج Bambyce بالبيزنطية ، وكانت تسمى باليونانية القديمة « المدينة المقدسة » (Hiérapolis) ومن تاريخها في الحروب أنها كانت البيت الديني للجوش اليونانية القديمة ومثابة للربان والقديسين ، يجيئونها من الديار البعيدة كل عام . وكانت سوقاً لآسيا طوال

(١) كتابه عن نيسيفور المتقدم ذكره ص 219 .

(٢) أثبت Dieterici وكان أستاذاً بجامعة برلين في كتابه Mutanabbi und Seifuddau Ia طبع ليدن سنة ١٨٧٤ ص ١٤٢ نسب سيف الدولة وأبي فراس كما يأتي تعريبه :

حمدان

(٢) عبد الله أبو الهيجا

(١) حسين

حسن أبو محمد (ناصر الدولة)

علي أبو الحسن (سيف الدولة)

أبو تغلب

سعد الدولة

(٤) سعد أبو العلاء

(٣) داود

الحارث (أبو فراس)

أبو وائل

الزمن القديم ومستجماً تتقابل فيه القوافل الكبرى الذاهبة إلى الشمال والآية إلى الجنوب أما هيكلها فقد هدمه الغزاة الكثيرون من طول ما عاودوه ، بهجمات خيولهم من جنوب وشمال ، أما اليوم فقد انهدم فيها كل شيء قديم ، ولم يبق من آثار ماضيها إلا بقايا الهيكل وانتشرت حوالها قبور المسلمين . وقد نام تحته أبطال مناجيد كانوا في عصر بني العباس أيام سيف الدولة وأبي فراس حماة الديار ، وغلبة الروم .

وصف مدينة منبج قاضي القضاة محمد بن الشحنة الحلبي ^(١) ، وكان من أهل القرن التاسع للهجرة فذكر أن سورها كان إلى أيامه ووصف بناءه .

فليت شعري كيف سأذكر الحارث الحمداني أبا فراس إذا مررت يوماً بمنبج ^(٢) فوقفت حيث كانت تعلو تلك الأسوار .

لأذكر أن جيوش البيزنطيين كانت تنحدر في طول الأناضول وعرضها وقد تجمعت ألوفاً في عسكر مجر لم تعرف بلاد العرب حشد مثله قد أقبل عليها من قبله ، وكان سيف الدولة في كفاحه الأخير المضعوف وانكفائه على نفسه . فما راعه إلا الجيش البيزنطي يسد الشمال فينحدر من جبال طورس ، فاستجاش العدة أمير حلب من فوره ، وهب بمن معه من بقايا الأعوان ليصد رغيل البيزنطيين في مدينة أعزاز في شمال الشام . وحين عاين الخطر الداهم والسييل الرومي ، قفل مسرعاً وأمر بأبواب حلب فأغلقت واستعد أهلها للحصار ^(٣) .

بل لأذكر هذا الجيش البيزنطي إذ انحدر من أقاصي الشمال سنة (٣٥١) للهجرة ، وكان يرغو كبركان ويقصف كعواصف ، وقد حلف نيسيفور فوكاس لا وقف به زحفه إلا عند أسوار بيت المقدس ، فانتشر جيشه في مدن الشمال ^(٤) فكان ابن أخيه (تيودور theodore) قائد الحملة التي حاصرت منبج ، وكانت منبج لإقطاع ^(٥) أبي فراس وكان

(١) الدر المنتخب في تاريخ حلب ووقوف إلبان سركيس الدمشقي ط بيروت سنة ١٩٠٩ .

(٢) ليس اليوم في شمالي حلب بلدة شامية أغن من منبج وأفيج ، فهي في نطاق من البساتين وفيها عيون وسكانها أكثرهم من الشراكسة .

(٣) لم يكن سيف الدولة في حلب حين حاصرها نيسيفور فقد انحدر إلى بعض القرى المنعزلة ولعله فعل ذلك إبقاء على نفسه ليستطيع نصرته قومه إلبان الحصار أو بعده .

(٤) يقول « أومان » في كتابه (الإمبراطورية البيزنطية) - ص ١٨١ (ترجمة الدكتور مصطفى طه بدر) إن سورية الشمالية كلها حتى حمص واللاذقية وحلب وأنطاكية مقر حكم الأمير (سيف الدولة) كانت في حوزة نففور فوكاس حين غزا الثغور والبلاد الشرقية .

(٥) تاريخ أبي الفداء الطبعة الأولى الحسينية بمصر ج ٢ ص ١٠٨ .

متقلداً لها ^(١) فأحضر فارس حمدان للقائد البيزنطى ودافع عن مدينته منبج بضراوة حتى أثخنه البيزنطيون جراحاً وغلبه الرومى بكثرة جمعه ، فوقع أبو فراس أسيراً وأسلم نفسه للروم ومعه سبعون من فرسانه فحمله الروم إلى القسطنطينية .

٣ - روميات الأسير

يروى المؤرخان اليونانيان (سيدرنوس وجليكاس) حوادث حصار نيسيفور فوكاس للحلب وما ذاقت على يديه حاضرة سيف الدولة سنة ٩٦١ للميلاد (٣٥١) للهجرة من القهر والهوان .

ويروى المؤرخون العرب هذه الواقعة فى اقتضاب أو تفصيل .
فيكون من حوادث هذا التاريخ وقوع أبى فراس فى قبضة الروم وبقاؤه سنين فى القسطنطينية . لكن (شلمبرجة) يقول إن أباً فراس نزل فى بلاط القسطنطينية حتى افتداه سيف الدولة سنة ٩٦٦ . وأبو منصور الثعالبي يقول إنه «حصل مثخناً بخرشنة ثم بقسطنطينية وهو يقول فى شعره :

إن زرت خرشنة أسيراً فلقد حلت بها أميراً

فيتبين من الروايتين العربية والفرنجية ومن بيته هذا أن البيزنطيين حملوه أسيراً من منبج إلى خرشنة مثخناً بالجراح ، ثم نقلوه إلى القسطنطينية .

هذا رأى ، ورأى آخر حسب روايتين أخريين عربية وفرنجية . أما الفرنجية فقد رواها (بروكلمان Brockelman) فى فصله المختصر الذى كتبه عن أبى فراس فى معاملة الإسلام الفرنسية ^(٢) ، فقال إن أباً فراس أسر مرتين : مرة سنة (٩٥٥ للميلاد ، ٣٤٨ للهجرة) وهو أمير حمص وحجسه البيزنطيون فى حصن (خرشنة) ففر منه بأن ألقى بنفسه من مشارفه بقفزة مهلكة .

وأسر مرة ثانية فى سنة (٩٦١ م - ٣٥١ هـ) فأخذ فى هذه المرة إلى القسطنطينية . وبقول (بروكلمان) أفسر ما رواه (شلمبرجة) بأن أباً فراس كان أعرج من أثر ضربة فى رجله .

(١) تجارب الأمم لابن مسكويه ج ٢ ص ١٩٢ .

(٢) ج ١ ص ٨٨ .

والرواية الثانية العربية هي رواية (ابن خلكان ^(١)) . ولا أشك أن بروكلمان قد صدر بقوله عنها . فقد روى أديبنا القديم أن أبا فراس أسر أول مرة بوقعة (مغارة الكحل) سنة (٣٤٨) ولم يتعد به الروم خرشنة ، ووصف ابن خلكان خرشنة بأنها كانت قلعة للروم ، والنهر يجري من تحتها ، وقال إن أبا فراس ركب في هذه القلعة فرساً وركضه ، فأهوى به من أعلى الحصن إلى النهر ، والمرة الثانية التي أسر فيها ، هي أسر الروم له في منبج وحملهم إياه إلى القسطنطينية .

فأبو فراس إذن لم يكن في وقعة حلب حين دخلها الروم وأبادوها ، وإنما كان عندئذ في الأسر يتقلب على مثل الشوك من قلقه وأشواقه إلى ابن عمه ، ولم يكن له عزاءه في أسره سوى أن ينعطف إلى أشعاره ، فيسكن تباريحه بحماساتها ، ويبكى لهفة على أمه (صهيبة) . وكانت (صهيبة) نبيلة الصفات في قومها ، ربطتها مودة إلى ابنها كأنها الجنون ، ولذا فإننا نحس طائف هذا الجنون في شعره إليها وهو يتظلم في أسره ، ويحن إلى الوطن ، فإذا هدأ في جنح الليل أرسل طرفه الباكي ، فتخيل أمه العجوز باكية عليه بمنبج ، وهي البارة الرحيمة والعبادة لله التقية ، فسكب خواطر أحزانه على الشعر وبات يقول :

لولا العجوز بمنبج ما خفت أسباب المنيه

وكان يعز عليه لولاها أن يطلب من ابن عمه الفداء (على عادة العرب والروم في تفادي الأسرى كما ذكرت) فقال :

ولكان لي عما سألت من الفدا نفس أبيه

والظاهر أن أمه هي التي كانت تلح عليه ، برسالتها أن يطلب الفداء من ابن عمه ، فشرح هذا في البيت الآخر :

لكن أردت مرادها ولو انجذبت إلى الدنيه

وكم يحزنني أن أذكر أمه — وأنا الفاقد أمي — إذ يقول لها في آخر هذه الرسالة الشعرية :

يا أمنا لا تحزني وثقي بفضل الله فيه

يا أمنا لا تيأسي لله ألطاف خفيه

وكانت أمه تخرج إلى طريق القوافل المارة بمنبج ، فتسأل عنه الركبان ثم لما أعياها

(١) وفيات الأعيان طبعة البارون أوسلان بباريس سنة ١٨٣٨ ج ١ ص ١٨٦ / ١٨٨ .

سؤال القوافل بغير جواب ، خرجت من منبج إلى حلب ، ودخلت على سيف الدولة فسألته فداء ولدها ضازعة إليه شاكية .

ولما طال فداؤه انطوى على نفسه يقول هذا الشعر :

أسرت وما صحبي بعزل لدى الوغى ولا فرسى مهر ولا ربه غمر
ولكن إذا حم القضاء على امرئ فليس له بر يقيه ولا بحر
وقال أصبحاني الفرار أو الردى فقلت : هما أمران أحلاهما مر

وإذا عدنا إلى (شلمبرجة) فإننا نجده يقول إن أبا فراس كان نزل وهو أسير في بلاط القسطنطينية .

ولكني أجد في شعره الذى قاله في القسطنطينية أنه كان يرسف في القيود ، فكان إذن سجيناً عند الدمستق (رومان الثانى ^(١)) ولعله نزل سجيناً بعد وصوله إلى القسطنطينية ثم أطلقه الدمستق ، فكان يدعوه إلى مكالمته ومناظرته في آراء الحرب والدين .

وقد رأيت في شعره أنه حمل مقيداً على الرغم من جراحاته ، وأنه إذ جاء به البيزنطيون إلى خرشنة كان القيد في رجله ، ثم مضوا به في درب الروم وهو مصفود بالأغلال . فهو في إحدى رسالاته الرومية يصف أمه بأنها غليظة حزناً عليه ، فيقول في قيوده :

غليظة بالشام مفردة بات بأيدي العدى معلها
تسأل عنا الركبان جاهدة بأدمع ما تكاد تمهلها
يامن رأى لى (بحصن خرشنة) أسد شرى في القيود أرجلها
يا من رأى في (الدروب) شاحخة دون لقاء الحبيب أطولها
ليست تنال القيود من قدمى وفى اتباعى رضاك أحملها

وفىها يشير إلى سؤال العجوز لسيف الدولة فداءه . وأرى أنه كان في هذه النوبة الثانية من أسره حبساً في حصن (خرشنة) أيضاً قبل أن ينقل إلى القسطنطينية ، لأن إقليم خرشنة واقع في الدرب إلى القسطنطينية فهو يقول بتلك الإشارة .

جاءتك تمناح رد واحدها ينتظر الناس كيف تقفلها

(١) توفى قسطنطين السابع سنة ٩٥٩ للميلاد فنصب البيزنطيون بعده على القسطنطينية رومان الثانى Roman II إمبراطوراً . وكان نيسيفور فوكاس القائد الأكبر لم يشب بعد على العرش .

ولم تكن رسائل أبي فراس إلى أمه من القسطنطينية إلى منبج ، رسائل بكاء والتباعد فحسب وإنما كان فيها شعر حماسي يتأسى به الفارس الحمداني يدعو فيه أمه إلى الاعتزاز ، فهو بعد أن يقول :

وإن وراء الستر أمّا بكائها علىّ وإن طال الزمان طويل
يقول :

لقيت نجوم الأفق وهي صوارم وخضت سواد الليل وهو خيول
وكان أبو فراس يلح بفكاكه في كل قصائده الرومية — كما يظهر من شعره —
ويعاتب سيف الدولة في القعود عن ذلك . وقد أفسح سيف الدولة بقعوده عن فكاك أبي
فراس مجالاً لقول الحاسدين الذين كانوا عند سيف الدولة يؤثرون بقاء أبي فراس في الأسر
حتى لجأ أبو فراس إلى تهديد سيف الدولة بأنه سيلتجئ لأهل خراسان في فكاكه ^(١) .
وقد فات مؤرخي العرب الذين ذهبوا مذهب التعليل الخاطيء إذ زعموا أن سيف الدولة
تجافى عن ابن عمه وقعد عن فدائه ، فاتهم أن يعرفوا الحالة السياسية والاجتماعية التي كان
عليها سيف الدولة حينذاك .

إنه كان كالحارج من الموت ، حاب مهدمة ، ورجاله منفكون عنه ، وبعضهم قتل
أو أسر ، وماله الذي كان في بيته في حلب في (الحلبة) منهب ، حملة البيزنطيون إلى
القسطنطينية ، وغلمانهم شامسون يتربصون به الوثوب عليه ، والرومان ظافرون ظفراً لم يحلموا
بمثله منذ عهد الفتح الإسلامي ، زمن الخلفاء الراشدين حين جاء الإسلام بلادهم . فلم
يعد لسيف الدولة عندهم ذلك المجد الحديدي ، وتلك الصولة التي كانت ترهبهم . كل
هذه الأمور لم يعرض إلى واحد منها ، أحد من مؤرخي العرب بما فيهم ابن خلدون ، كما لم
يعرض لها مؤرخو التاريخ البيزنطي الذي نقله لنا ثقات البحث فيه من مؤرخي الفرنجة .

هذا هو الذي أقعد سيف الدولة عن فكاك أبي فراس وغيره من أعزاء الحمدانيين لديه
وإن أبا العثائر بن حسن بن علي الحمداني ، كان في الأسر أيضاً ، فقد أسر في معركة
تل (البطريق) عند (حصن عرمدا) والذي أسره ليون بن الدمستق وحملة إلى القسطنطينية
ومات في الأسر سجيناً ^(٢) وكان في الأسر من أشرف حمدان ابن أخى سيف الدولة

(١) أعلل مقصد أبي فراس بضرب من التهديد لابن عمه بأنه سيلجأ إلى الخراسانيين الذين جاؤوا ديار
الروم من أصحاب بابك الخرمي بعد هزيمته ومقتله وقد دخلوا النصرانية وأصبحوا في عداد الروم ولعل هؤلاء قد
أصبحوا في الديار الرومية ذوي مكانة ومال وأنهم قادرون على فكاك أبي فراس لو لجأ إليهم .

(٢) من أجل المصادر وأوثقها (تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي) وقد اعتمد عليه كل المحققون بالتاريخ
البيزنطي في العصر الحديث في أوروبا فأضافوا حوادثه التي رواها عن عصر سيف الدولة إلى الكتب البيزنطية
التي وقعت إليهم واستجلوا بها حقائق التاريخ البيزنطي والإسلامي في ثغور الشام وبلاد الروم في القرن العاشر للميلاد .

محمد بن ناصر الدولة وكان أبو الهيثم ابن قاضي سيف الدولة أبي الحصين وخلق كثير من رجاله و (حرسه الخاص) ففقد عن فداء كل هؤلاء . ولا شك أنه قد كان يحزنه موت أبي العشائر وهو الفارس البطل والشاعر الحماسي .

ولقد كان في نية قائد الروم (نيسيفور فوكاس) أن يستأصل شأفة الحمدانيين جميعاً ويلحق سيف الدولة في ملجئه خارج حلب لولا أن عاجلته القلاقل السياسية في القسطنطينية ولولا مقتل ابن أخيه (تيودور) الذي كان قد أسراً بأفراس ، إذ اقتحم ممرًا للقلعة حلب فأسقط عليه الحمدانيون من أعاليه حجرًا رضح رأسه فأهلكه^(١) فتشفي نيسيفور بمقتلة أشرف أسراه على مرأى من الحمدانيين المعتصمين بالقلعة في بهرة حلب ، وحلب يومئذ تموج بدم سكانها . (ولم يرو هذه الحادثة الأخيرة) « يحيى بن سعيد الأنطاكي » ، وإنما رواها « شلمبرجة » .

وحين ارتد نيسيفور فوكاس إلى حاضرة بلاده وجد السبيل إلى الاستيلاء على عرش بيزنطة بمعونة (تيوفانو) زوجة مولاه وعشيقته التي صارت له زوجاً بعد أن آمت من الإمبراطور (رومان الثاني) وهي التي قتلت نيسيفور فوكاس بعد ذلك بمعونة (يانيس^(٢) ترميسيس) عشيقها الأخير^(٣)

وقد شاء الحظ أن يخدم أسرى الحمدانيين وأن يرفع الستار عن كاهل سيف الدولة فأتاح له أن يطلب فكاك أسراه ، وكان البيزنطيون في بحران سياسي واختلاف داخلي ، فقبلوا منه (ملتسمه) .

= وقد نشر (تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي) كراتشكوفسكي وفاسيليف الروسيان المتخصصان بالتاريخ العربي وأدبه أول مرة بالعربية في مجموعة Patrologia orientalis المجلد XVIII طبع باريس سنة ١٩٢٤ مع الترجمة الفرنسية لنصوص هذا التاريخ القيم نقلاً عن أقدم مخطوط في دار الكتب الكبرى في ليننجراد ومكتوب في القرن الخامس عشر للميلاد وقد دلهما على هذا التاريخ العالم الألماني البارون (Van Sosen سنة ١٨٨٣) . ويحيى بن سعيد الأنطاكي هذا من مؤرخي القرن الحادي عشر للميلاد وقد ذكر في أول تاريخه أنه تاريخه « تبعاً لتاريخ (سعيد بن البطريق إذ كان ابن البطريق انتهى في تاريخه بالسنة الخامسة من خلافة الرازي وهي سنة ست وعشرين وثلاثمئة) .

(أنظر هذا المصدر من ص 728 - 787 ففيه نبذ مختصرة عن عصر الحمدانيين وسيف الدولة تنقع غليل الباحث المقارن بين التاريخ العربي والتاريخ البيزنطي) .

(وأسر أبي العشائر وموته ورد في ص 772 من هذاصدر) .

(١) شافني أن أرى هذا المكان في حصن حلب فصعدت إلى موضع الثفرة التي رى منها الحمدانيون ذلك الحجر الذي أهلك المحارب البيزنطي (تيودور) .

(٢) أومان - الترجمة العربية السابقة ص ١٨٢ . (وهو جان ترميسيس وكان من أكبر القواد على حادثة سنة)

(٣) عرب يحيى بن سعيد الأنطاكي في تاريخه اسم Jean بيانيس لكنه أخطأ في إطلاق كلمة (الشمشقيق)

كغيره من المؤرخين على القائد Tzimiscés وصوابها الشمشقيق كما قدمت وهو تصغير chamachic ترميسيس

كذلك يقول (يحيى بن سعيد الأنطاكي) إن سيف الدولة (التمس) من نقفور الملك المفاداة بمن أسرى المسلمين بمن عنده من أسرى الروم فأجابه إلى ذلك وسار سيف الدولة من (ميفارقين ^(١)) إلى سيمساط (وأقام الفداء على شاطئ نهر الفرات) في رجب سنة ٣٥٥ (٢) .

فقدادى بابن ناصر الدولة محمد وبأبي فراس وبالقاضي أبي الهيثم وغيرهم وبغلمانهم ممن أسرهم الروم ، ودفع للروم (أعور حرم) و (ابن بلنطس) وجميع من كان عنده من أسارى الروم ، ولما لم يبق عند سيف الدولة من الروم من يفادى به اشترى من الروم بقية أسرى المسلمين وكان عددهم (ثلاثة آلاف نفس) بمئتين وأربعين ألف دينار رومية وأجحف ذلك به (٣) .

هذا ما رواه الأنطاكي ، وليس فيه الكفاية .

وقد أتم بغية هذا البحث عندي ما رواه أبو منصور الثعالبي في اليتيمة ^(٤) بقوله : « ولما خفف عن أبي فراس ورفه ونظر في أمر الهدنة والأسارى أجيب إلى ملتسمه بعد أن أكرم وبجل » .

فيظهر من هذه الرواية أن أبا فراس عقد الهدنة وكتب صكاً بفك أسره وصحبه فسفر بذلك لسيف الدولة .

ورواية ثانية تكمل هذه أوردها أميدروز amedroz الأستاذ بجامعة اكسفورد وهو ضريع (مارغوليوت) . قال نقلاً عن تاريخ (علي بن محمد الشمشاطي ^(٥)) في حاشية له على كتاب تجارب الأمم الذي نشره ^(٦) :

Miphracta (١)

(٢) عين (شلمبرج) (ص 696 من كتابه عن نيسفور فوكاس) الفداء بجزيران سنة ٩٦٦ . وأبو الفداء بتاريخه الطبعة السابقة ج ٢ ص ١٨ عينه بسنة (٣٥٥) أيضاً .

(٣) ص 803 من المصدر السابق مجلة (Patrologia) .

(٤) الطبعة السابقة ج ١ ص ٦٦ .

(٥) في يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ٨٩ ذكر زهيد للحسن بن علي بن محمد الشمشاطي ، وكان شاعراً في شعراء الدولة الحمدانية وأدبائها .

(٦) ج ٢ ص ٢٢٠ هامش رقم (٢) .

كتاب تجارب الأمم لأحمد بن محمد بن مسكويه طبع شركة التمدن الصناعية بمصر سنة ١٩١٥ بوقوف Amedroz وقد ترجم أجزاءه إلى الإنكليزية ونشره بلندن سنة ١٩٢١ . وأبن مسكويه هذا من مؤرخي أوائل

أن رسول سيف الدولة إلى الروم في هذه المفاداة كان (أبا القاسم الحسين بن علي المغربي^(١)) أرسله سيف الدولة لتقدير المبلغ الذي تكون عليه الفدية ومعه هدية بعشرة آلاف دينار منها ثلاثمائة مثقال مسك .

ولا ريب في أن هذا الفداء أبهظ سيف الدولة وكلفه ما بقي معه من المؤونة بعد أن تضعض ملكه (فيروي صاحب تجارب الأمم ويروي كذلك يحيى بن سعيد الإنطاكي) أن سيف الدولة انصرف من الفداء ودخل حلب وأقام بها ليلة واحدة وخرج وهو عليل من الاسترخاء العارض له . فكان يحمل في قبة^(٢) .

إن هذا الهوان الذي أصاب أمير حلب طحن نفسه . ولا أرتاب في أنه كان السبب في هذا الفالج الذي أصابه ، فأذنت أيامه بالزوال .

* * *

كأن البطل الحمداني خرج من الأسر فجاء حلب ليودع سيف الدولة الوداع الأخير . لقد مات سيف الدولة على فراشه سنة (٦٥٣ هـ . ٩٦٧ م) وكهم كان يؤثر أن يموت في الحرب وألا يجود بنفسه حتف أنفه .

إنه أوصى أن يوضع رأسه في قبره على لبنة كان جمعها (من نفص غبار غزواته) ، فأذكرني مرة ثانية بضريعه نابليون إذ أراد أن ينصب تمثاله على عمود من ذوب المدافع التي كسبها في حروبه . وكذلك كان فقد أقاموا له عموداً شاهقاً في ساحة (فاندوم) بباريس وعليه تمثاله يقف أبداً فوق ذوب المدافع التي هزم عنها أعداءه . كذلك فعل سيف الدولة من قبل نابليون (بثأر ثمة وخمسين عاماً) لقد ذكر صاحب اليتيمة أنه غزا أربعين غزوة له وعليه . وقد تبسط « شلمبرجة » في وصف هذه « اللبنة الحربية المقدسة » فقال إنها كانت مزيجاً من غبار معاركه مع الروم ملبوكاً بعرقه ، فكانت تجمع من ثيابه ومن بدنه قبل أن يستحم عند قفوله من الحرب .

= المثة الرابعة للهجرة وكان في زمن من حياته كاتباً عند أبي الفضل بن العميد الكاتب الصناعي المشهور . وذكر عن ابن العميد فصلاً ضافياً في كتابه ، إذ كان في خدمته بضع سنين . وقد تعصب على سيف الدولة فرماه بالعجب والكبرياء والاستبداد في الرأي . (ج ٢ ص ١٨١) .

(١) هو لاشك صاحب (أبي العلاء المعري) الذي عرف فيما بعد (بالوزير المغربي) ورثاه أبو العلاء في اللزوميات وحده .

(٢) 804 من مجموعة Patrologia السابقة ، و ج ٢ ص ١٩٩ (تجارب الأمم) .

إني لأشعر بحماسة تشيع في أعطافي فتملاً على منافذ العين ومسارب السمع حين أتصور سيف الدولة وقد أسند لاحده خده الأضيّد إلى هذه اللبنة الهائلة في جانب أمه الحنون بمدينة ميفارقين ، وهو الذي كان في الحياة يحب أمه كما يحدثنا شاعرنا المتنبي ، إذ ألبس جنوده التجافيف ^(١) وراح بهم إلى زيارة أمه في (ميا فارقين) . ولم يكن جنوده في هذه الزيارة يسرون إلى الحرب ولكن حماسة سيف الدولة زينت له كرامة البطولة ، فكان جنوده خمسة آلاف ومعهم غلمانهم بالفين . وقد هاجت هذه الزيارة الحنون بلابل أبي الطيب فراح يصف هذا الجيش الذي وقف سيف الدولة يعرضه فوق تراب أمه ، وكان كأنما يريد أن يشعرها ببأسه وسلطانة لتظل في نومها الأبدى مطمئنة عليه . ومد أبو الطيب خياله إلى الخيل فجعل هذا الحيوان الحنون يشارك سيف الدولة بالركة والرحمة ، فهو أبداً كلما ركب الخيل مالت بأعناقها نحو اليمين حناناً من حلب إلى ميا فارقين ، وأمطرت السماء يومذاك فقال عن الغيث :

فزار التي زارت بك الخيل قبرها وجشمه الشوق الذي تتجشم
ولما عرضت الجيش كان بهاؤه على الفارس المرخي الذؤابة منهم
حواليه بحر للتجافيف مائج يسير به طود من الخيل أيهم

وفي هذه الخيل يقول :

وأدبها طول القتال فطرفه يشير إليها من بعيد فتفهم
تجانف عن ذات اليمين كأنها ترق لميا فارقين وترحم

* * *

وعن تلك اللبنة الحماسية قال (شلمبرجة) العظيم :

« هي وحدها في ظلمة قبر سيف الدولة الشاهد الفخور لألف معركة » . كذلك شهد أبو فراس موت ابن عمه سيف الدولة . ولكنه لم يقل في رثائه شعراً ، وكان ينبغي أن ينوح عليه في شعره . ولعل له شأناً كشأن أبي الطيب في نكبة حلب فيما فاتنا من شعره . فحُرم الجبار الحمداني شاعريه . مات المتنبي قبله ، ومات هو قبل أبي فراس ، فلم يرثه أبو فراس . وإن مثل مصابه ليلجم الشعر ويبكم الأفواه .

٤ - حربيّات أبي فراس

هل حاول أبو فراس نظم الملحمة ؟
سألت نفسى ذلك حينما فرغت من دراسة قصيدته الرائية الكبرى التى أولها : لعل خيال
العامة زائر .

وقد سكبها قصيدة على روى الراى ، كلها من بحر واحد فى مثنى وخمسة عشر بيتاً .
فكانت قصيدته هذه قد جاءت إلى عهده أطول قصيدة محكمة فى شعر الحرب ، يفيض
بها شاعر ملء الشوط فى معان قوية ولفظ مكين .

بدأها بالغزل على عادة شعراء العرب القدامى فى عصره ، ثم افتخر بفروسيته وبمجد
قومه ذاكراً سؤالف المحامد لعمومته وأهليه ، حتى بلغ سيف الدولة صاحب حلب ، وناصر
الدولة صاحب الموصل فقال فيهما :

ففينا لدين الله عز ومنعة ومنا لدين الله (سيف) و (ناصر)
وذكر صوراً من مغازى سيف الدولة لديار الروم . وكان بيته الرائع الذى يقول فيه
عن سيف الدولة :

وأوطأ حصنى (ورتنيس) خيوله وقبلهما لم يقرع النجم حافر ^(١)
يهيج عندى خيالاً من معارك سيف الدولة . وإن أبا فراس ومن قبله أبو الطيب
ليعجزهما وصف فروسية سيف الدولة . فأبو فراس يعتذر عن ذلك بقوله فى هذه الملحمة .
ألا قل لسيف الدولة القرم إننى على كل شىء غير وصفك قادر

ووصف فى الملحمة هروب الدمستق بعد أن جرح فى وجهه فقال :
وولى على الرسم الدمستق هارباً وفى وجهه عذر من السيف عاذر
وقد أشار أبو الطيب إلى هذا الجرح فى وجه الدمستق فى قصيدته اللامية فقال يعبر
الدمستق بفراره .

نجوت بإحدى مهجتيك جريحة وخلفت لإحدى مهجتيك تسيل
وأمعن أبو فراس فى ملحمته بذكر ما تبقى من قومه الأبطال بعد طويل الحروب فذكر

أسماءهم وأخماهم حتى قال في آخرها وهو يحل نفسه أن يكون مادحاً متملقاً أو شاعراً مأجوراً:
 نطقت بفضلى وامتدحت عشيرتى فما أنا مداح ولا أنا شاعر
 وقد غلبه الفخر بالقبيلة في هذه الملحمة على التبسط بذكر الحرب وتصوير المعارك .
 وهو إن أجمل الكلام على حروب الحمدانيين للروم في رائيته الكبرى ، فقد تبسط في قصيدته التي قالها بعد أن أضافه الدمستق في مناظرة جرت بينهما في القسطنطينية حين كان عنده أسيراً فكان يزور البلاط ويجالس الملك ^(١) بعد أن فكت قيوده . فقال له ملك الروم ^(٢) « إنما أنتم كتاب ولا تعرفون الحرب ، فقال له أبو فراس نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام ؟ » .

وازدحمت في صدر أبي فراس ذكريات الحروب وهو في أسره وما كسب العرب من نصر على الروم فراح يذكر — في قطعة واحدة — مفاخر الحمدانيين في الحروب البيزنطية وأسرى الروم وأقاليهم وقوادهم بأسمائهم وأيام انكسارهم في حروبهم مع قومه ، فقال وهو يعير الدمستق ويزجره ويقدم صورته في أول بيت بأنه ضخم العنق فيقول ^(٣) :

أترعّم يا ضخم اللغاديد أننا	ونحن أسود الحرب لانعرف الحربا ^(٤)
فويلك من للحرب إن لم تكن لها	ومن ذا الذى يُضحى ويمسى لها ترّبا
ومن ذا يقود الجيش من جَنَباته	ومن ذا يقود العين أو يصدّم القلبا
وويلك من أردى أخاك (بمرْعَشٍ)	وجلل ضرباً وجه والدك العضبا ^(٥)
وويلك من خلى ابن أختك موثقاً	ونحلاك (باللقان) تبتدر الشعبا ^(٦)
أتوعدنا بالحرب حتى كأننا	ولياك لم يعصب بها قلبنا عصبا

(١) أعلل سبب مجالسة أبي فراس لملك الروم واختلاف هذا الأمير الحمداني إلى بلاط الامبراطور البيزنطى (بأن أم أبي فراس كانت بيزنطية) . وأظهر دليل هذا فيما يلي .

(٢) اليتيمية ج ١ ص ٦٥ .

(٣) المصدر نفسه والصفحة . وديوانه السابق ص ١٠٤ .

(٤) اللغاديد لحم الخلق ويقصد بها أبو فراس ضخامة العنق ، والرومان كانوا جسوماً طوالا وأعناقاً ضخاماً .

(٥) أى جعل العضب وهو السيف يجلل وجه والدك بالضرب .

(٦) شدد اللقان وكان أبو الطيب يخففها .

فسل (بردسا) عنا أباك وصهره وسل أهل (برداليس) أعظمهم خطبا^(١)
 وسل (قرقواسا) والشميشيق صهره وسل سبطه البطريق أثبتهم قلبا^(٢)
 وسل صيدكم (آل الملايين) إننا نهبنا ببيض الهند عرضهم نهبا^(٣)
 بأقلامنا أحجزت أم بسيوفنا وأسد الشرى قدنا إليك أم الكتبا
 رعى الله أوفانا - إذا قال - ذمة وأنفذنا طعنا وأثبتنا ضربا

ولو أن أبا فراس كتب تاريخ حياته في حربه لما زاد على البيتين الآتين اللذين يصف
 فيهما هذه الحياة التي كثرت فيها الغارات وركوب المطايا بعد كسر أعدائه في كل البلاد .

جمعت سيوف الهند من كل بلدة وأعددت للهيجاء كل مجالد
 وأكثرت للغارات عندي وعندهم مئات البكيريات حول المراود^(٤)

وهو يسرد في بعض شعره كيف سار بجيش لحب جياش بالصناديد وعليه الرايات
 الحمر تخفق بها الرياح وكان صاحب هذا الجيش سيف الدولة الذي يفرغ ثباته على قلب
 الجيش وجناحه . وقد وصف هذا المسير بعد أن أتى رسول ملك الروم يطلب الهدنة من
 سيف الدولة - بعد حرب من حروبه - (على نحو ما وصفت في كلامي على شعر الحرب
 عند المتنبي) فأمر سيف الدولة الجند أن تركب بسلاحها لاستقبال الرسول وركب هو من

(١) رجعت في هذه القطعة وهي أكثر قطع أبي فراس بأساء الروم وأحشدها ذكراً لحروبهم مع الحمدانيين
 في جملة واحدة ، إلى مخطوط الديوان . وهو أوضح مخطوطاته الموجودة في دار الكتب المصرية برقم ١٨٣٢ خصوصي
 أدب في ٦٧ ورقة وهو نسخة بخط محمد بن أحمد الخياط الشافعي من قبل التاريخ .
 وقد جاءت هذه القطعة في المخطوط بأساء البطارقة والبلاد على وجه في غاية التصحيف والغلط وجاءت بعدها
 نسخ الديوان المطبوعة على هذا النحو من الغلط - فكلمة (بردسا) جاءت في المخطوط وفي نسخ الديوان وفي يتيمة
 الثعالبي (فسل برد ، سل عنا أباك وصهره) . وبردس هو برداس قائد (قسطنطين السابع ملك القسطنطينية
 المعروف بالبرفيريوجيني) .

(٢) في المخطوط والنسخ : (وسل قرقاشا والشمقمق) . وقرقواس هو الأرمي Jean Gourcouas من قواد
 الدمشق (ص ١١٦ من كتاب « شلمبرجة ») .

والشميشيق بتصغير شمشيق هو Ghamachiq ابن تريميسيس على نحو ما بينت فيما سبق في هوامش الكلام
 على حماسة المتنبي .

(٣) آل الملايين هم آل البطريق قسطنطين ماليثونوس (C. Maleinos)

(٤) البكيريات ضرب من النوق ، والمراود الحلقات التي تربط بها المطايا .

داره المسماة (بالدارين) فى ألف جندى من (حرسه الخاص ^(١)) الممالك وعلى أفراسهم ألف جوشن مذهب من دروع الخيول على ألف (فرس عتيق) وألف (خفاف ^(٢)) وركب الناس والقواد على طبقاتهم فى الجيش .

وما أحسب سيف الدولة فعل ذلك إلا ليرى رسول الروم عدة العرب وعديدها وليقوم بتكرمة السفير فى استقباله الرائع ، فوصف أبو فراس هذا المظهر الحماسى بقوله :

علونا جوشنا بأشد منه وأثبت عند مشتجر الرماح
بجيش جاش بالفرسان حتى ظننت البر بحرا من سلاح
والسنة من العذبات حمر تخاطبنا بأفواه الرياح
وأروع جيشه ليل بهم وغرته عمود للصباح
صفوح عند قدرته كريم قليل الصفح ما بين الصفاح
وكان ثباته للقلب قلبا وهيبته جناحا للجناح

كان أبو فراس الحمدانى متمماً لأبى الطيب المتنبى فى قصر سيف الدولة ^(٣) وكان فى وحى هاتين الشخصيتين اللتين تم إحداهما الأخرى شيوع الشعر الحماسى فى عهد سيف الدولة الذى أبدع القصائد فيه هذان الشاعران وإن كان المتنبى عظيم الشعر وأبو فراس عظيم الحرب .

وبحسب أبى فراس ، وأكثر شعره فى الحروب والحماسة ، أن يبق مطاولاً بفروسيته ، وأن تكون مكانته فى الحرب مكانة القواد الذين يجرون الكتائب الظافرة ، وهو البطل الذى يظماً حتى ترتوى السيوف والرماح ، ويظل طاوياً حتى يترك فى ساحة الحرب قتلاه فىأكل قبله الذئب والنسر ، فيقول :

وإنى لجرار لكل كتيبة معودة ألا يخل بها النصر
وأصدأ حتى ترتوى البيض والقنا وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر

(١) يعبر المؤرخون العرب بكلمة (الغلمان) فى حق سيف الدولة وأمثاله من الأمراء عما نسميه فى عصرنا (الحرس الخاص) .

(٢) ديوانه ط بيروت سنة ١٩١٠ ص ٥٩ .

(٣) لم أقصد فى هذا الرأى أن أقيس أبا فراس على قد المتنبى . فأبو فراس فى شجاعته و بطولته قد يفوق المتنبى . لكنه لا يقاس به فى الشعر وفى قصائده الحماسية . فليس للمقارنة من سبيل بين قصائدهما إلا فى الموضوع . أما فى دياجة اللغة وأسلوب السبك . وعبقرية المعانى فإن أبا الطيب المتنبى هو الجبار الوحيد . وقد قصدت إلى أن أبا الطيب كان متمماً لأبى فراس فى بلاط سيف الدولة (إتمام الشخصية فحسب) و (إتمام الموضوع) .

٥ - نهاية النسر الحمداني

ما أشبه النسر بالبطل ! فلقد كان النسر رمزاً للبأس والقوة . ويموت النسر فيتحامل على نفسه جبار الجناحين معكوف المنسر ، منشور الخلب . وكذلك يموت البطل .
وأقل نجم حلب بعد سيف الدولة فغلب عليها ابنه أبو المعالي سعد الدولة ، فأنكر على أبي فراس ولاية حمص ، وكان سيف الدولة جعلها إليه . وكان أبو فراس قد استقر بعمله في حمص بعد فكاكه من الأسر في الروم . فاعتل عليه سعد الدولة وزعم أنه يجور في الحكم على أهل حمص فحاربه بغلامه (قرعويه) .
وكان (دفوراك) من المستشرقين الذين ولعوا بأبي فراس لفروسته (وشخصيته) الشعرية ، ولشعره في حروب العرب مع الروم وشهده المعارك بنفسه التي كانت بين الروم وبين المسلمين ، ولأنه نزل في ملك البيزنطيين وجاورهم .

وقد روى (دفوراك) صورة من حياة أبي فراس قبل نهايته فقال ^(١) « إن أبا فراس أصبح يوم مقتله حزناً كبيراً ، وكان قد قلق تلك الليلة قلقاً شديداً ، فأرأته ابنته امرأة أبي العشائر ^(٢) كذلك فأحزنها حزناً شديداً فبكت وهو على تلك الحال . » فلما ركب جواده للقتال « أنشأ يقول ورجله في الركاب والخادم يضبط السير عليها » وكانت بنته تبكي لحاله :

أبنيتي لا تجزعي كل الأنام إلى ذهاب ^(٣)
نوحى على بحسرة من خلف سرك والحجاب
قولى إذا كلمتني فعييتُ عن رد الجواب
زين الشباب أبو فرا س لم يمتع بالشباب

ثم خرج أبو فراس إلى لقاء (قرعويه) يجمع من الكلبيين تركوه في زحام المعركة ،

(١) كتابه (أبو فراس البطل الشاعر) Rodolph Dvorak طبع ليدن سنة ١٨٩٥ ص 342 . وقد جمع فيه دفوراك شعر أبي فراس الذي رواه أبو منصور الثعالبي في تيمية الدهر . ودرس شعره بمقدمة كتابه بعد أن رأى النسخ المخطوطة من ديوانه في دور الكتب بأوربا . وذكر أنه نقل دراسة الثعالبي (من الجزء الثالث) مع أن هذه الدراسة في كل النسخ العربية جاء بها الثعالبي في الجزء الأول . ويظهر من قدم الطبعة التي نشرها (دفوراك) لكتابه أنه نقل أقوال الثعالبي في أبي فراس عن مخطوط ولعل ترتيبه كان أجزاء مختلفة عن ترتيبها في الطبعات العربية .

(٢) تقدم أن أبي العشائر الحمداني وقع أسيراً فحمل إلى القسطنطينية ومات فيها سجيناً .

(٣) اليتيمة ج ١ ص ٧١ ويذكر ابن خالويه أن هذا آخر شعر قاله أبو فراس قبيل موته .

فوقع أسيراً . ولم يشفق عليه (قرعويه) التركي فكلم بالتركية أحد المماليك ممن كان معه
أن :

— « اقتل أبا فراس » .

فألقى المملوك بنفسه على أبي فراس وكان أعزل ، نزع أعداؤه سلاحه ، فخبطه خبطة
واحدة بدبوس من شوك الحديد على رأسه فسقط الشاعر البطل . ونزل الغادر عن جواده
فجز رأسه وعلقه بركاب أميره^(١) وبقى جسد الصريع رفيق سيف الدولة ومنافس المتنبى في الشعر
والفخر عارياً مطروحاً جزر السباع ، تنوشه جوارح الطير في عرض الصحراء بظاهر حصص ،
حتى مر به أعرابي فأشفق على الجسد الهامد ، فلفه بكفن وأدرجه في التراب . وكان ذلك
في ربيع الآخرة من سنة ٣٥٧ الموافقة آخر شباط سنة ١٦٨ للميلاد^(٢) .

وبلغ أمه (صهيبة)^(٣) الخبر الصاعق فخفت إلى مكان ثراه وطاف بها من هول

(١) تاريخ أبي الفداء الطبعة الحسينية بمصر ج ١ ص ١٠٨ وكتاب شلمبرجه (تاريخ نيسيفور فوكاس)
ص 698 وقد ذكر (دفوراك) في كتابه السالف أن أبا فراس وأخاه (أبا السرايا) كانا شاعري بني حمدان
وكان أبو السرايا الأصغر (ص 9) .

(٢) مات أبو فراس وعمره ٣٧ عاماً .

(٣) يقول شلمبرجه (ص 698) من كتابه عن نيسيفور فوكاس أن (صهيبة Sahyjah) أم
أبي فراس كانت من قديم عهدا (أمة) ثم علا شأنها فصارت عزيزة غالية . وقد وجدت الدليل على أن أمه كانت
بيزنطية من قوله وهو في القسطنطينية أيام أسرهم فقد أرسل إلى ابن عمه سيف الدولة فيما أرسل من القصاصات يعاتبه
بها لعموده عن فدائه قصيدة فيها بيتان يذكر في أولهما أنه قضى في القسطنطينية سنتين إلى يوم قصيدته وأنه
إن خاف من (أخواله الروم) أمراً واحداً تخوف من أعمامه العرب أربعة أمور . والبيت الأول أورده أبو منصور
الشمالي في جملة القصيدة ولم يرد في الديوان ، والبيتان هما :

أقمت بأرض الروم عامين لا أرى من الناس مخزوناً ولا متصنعاً
إذا خفت من (أخوال الروم) خطة تخوفت من أعمام العرب أربعاً

لقد أقر لنا أبو فراس (بهذا) أن أمه كانت بيزنطية ولكنه لم يذكر أنها كانت (أمة) وقد رجعت
إلى معاجم العربية في مادة (صهيج) فلم أجد فيها ولا في مادة (سهيج) إسماً لامرأة بهذا الوزن عند العرب .
فسألت نفسي عن صهيبة (حسبما قال « شلمبرجه ») بأنها كانت أمة ، هل كانت إحدى السبايا من البيزنطيين
أو أن هذا الاسم رومى ؟ ومن يدري ؟ فإن بعض السبايا من الروم كن زوجات للحمدانيين (وقد قدمت في كلامي
على سيف الدولة أنه كانت له زوجة من بنات ملك الروم وكانت أكثر نساءه حظوة عنده فكان يحفظها في
بعض الحصون خوفاً عليها) . فأم أبي فراس إذن بعد قوله (أخوال الروم) امرأة بيزنطية تزوجها أبوه وكانت
من السبايا . وقد روى ابن خلكان في وفيات الأعيان (ط البارون أوسلان بباريس سنة ١٨٣٨ ج ١ ص ١٨٨)
أن ثابتاً بن سنان الصائغ ذكر في تاريخه أن أبا المعالي سعد الدولة قتل أبو فراس في الحرب وأخذ رأسه وبقيت جثته
مطروحة في البرية حتى جاء بعض الأعراب فكفنه ودفنه (كما ورد في قول شلمبرجه) ، لكن رواية ابن خلكان
تسمى أم أبي فراس (سخيبة) ، فيقول إن سخيبة قلمت عينيها لما بلغها وفاته . وقيل أنها لطمت وجهها فقلعت عينيها

التفجع طائف الخيبة الأخيرة فرفعت أصابعها إلى عينيها ففقتأهما^(١) ، كما فعل (أوديب الملك) ، وهبطت بغير وعى ميتة على ثرى أبي فراس ولدها البطل الشاعر ، يملأ أذنها صمماً صوته وهو باك مرنّ في عرض الصحراء ينشد آخر بيت قاله :

زين الشباب أبو فراس لم يتمتع بالشباب

* * *

تلك خاتمة البطل الثاني من آل حمدان ، مات مهدور الدم في بلد أهليه^(٢) ، وكأن الشعر أوحى إليه بمثل هذا المصير حين قال عن أهليه :

أرأني وقوى فرقتنا مذاهب وإن جمعتنا في الأصول المناسب
فأقصاهمو أقصاهمو عن مساعى وأقربهم مما كرهت الأقارب

* * *

لقد فسر سعد الدولة ما كتبت في نفس أبيه سيف الدولة^(٣) كان أبوه يمنعه العقل وتغلب عليه الشجاعة ، فحقق البطل في ظلام ضميره حسده لابن عمه البطل . وراح من الدنيا وهو لا يظهر منه غير المودة لأبي فراس وغير الإكرام . فلما جاء ابنه سعد الدولة خرج من نفسه الغل يفح مثل ثعبان كان حبيساً فأصاب أبا فراس فقتله .

(١) كتاب شلمبرجه السابق ص ٦٩٨/٦٩٩ ولم يذكر شلمبرجه ولا غيره من كتاب التاريخ البيزنطي أن أم أبي فراس كانت (بيزنطية) ولا ذكر ذلك أحد العرب . لكن أبا فراس وحده هو الذى أعاننى على تفسير كلام شلمبرجه بعد بيته السابقين .

(٢) رحم الله أبا فراس ، لقد كان متهوراً . أفلم يطرح نفسه من فوق حصن خرشنة على نهر آلس ، أفلم يبرز لتيودور في ظاهر منبج ومعه سبعون فارساً فحسب ، كذلك خرج في حصص للقاء قرعويه بمحنة من الكلبيين الضعاف ومن يدري لعل أبا الطيب كان يعرف فيه شجاعته المحرومة الرأى ويعرف لابن عمه سيف الدولة الرأى والشجاعة معاً ، فراح يقول في مدح سيف الدولة : (الرأى قبل شجاعة الشجعان) .

(٣) كان سعد الدولة طياشاً في سياسته ، فلعب به غلمان أبيه حتى خشيت أمه على نفسها منه وخافت أن يكون نصيبها كنصيب ناصر الدولة من أولاده فقد أسروه ووثبوا إلى الحكم ، ولذلك فإنها أغلقت أبواب (ميافارقين) وكانت (ميافارقين) حصنها وحصن زوجها قبل موته ، ولم تفتحها لابنها سعد الدولة حتى أخذت عليه اليهود والمواثيق بإطاعتها . وكانت زوجة سيف الدولة هذه امرأة حسيصة من نوادر النساء في الأدب والجمال وهى (أخت أبي فراس الحمداني) بنت أبي العلاء سعيد بن حمدان . وأختها زوجة أبي العشائر الحمداني الذى أسره البيزنطيون ومات في سجنهم بالقسطنطينية .

(راجع تجارب الأمم لابن مسكويه ج ٢ ص ٢٠٨ النسخة المتقدم ذكرها) وكتاب شلمبرجه عن نيسيفور فوكاس ص ٧١٤ نقلا عن Fraytag في كتابه عن الأسرة الحمدانية الذى يروى فيه أن زوجة سيف الدولة هذه كانت تبذ الرجال بالشجاعة وكانت لا تتقاعس عن أن تقود الجيش العربى للمحاربة بعد موت زوجها مع بدل مالها الكثير على الجنود .

فختم الدهر مجد الحمدانيين بعد أن ملأ بهم غرة شعر العرب وأسكنهم التاريخ .
وبقيت ذكرى هذا المجد وهاجة بالنور والنار ، خالدة في أدب العرب الذى امتاز من
أدب الأمم بأصدق حماسة وبطولة وأروع فن وبيان ، على ترادف الزمان .

مؤلفات الحماسة القديمة

١ - كتاب الحماسة للطائي

الحماسة (أى الفروسية Bravour) ^(١) هى القصائد التى تتمدح بذكر الشجاعة فى القتال ، والبطولة فى المعارك . ويرى لويس ماسينيون أنها تضم الجزء العظيم من الشعر العربى القديم وكان لها المكانة الأولى فى (المنتخبات) المسماة « كتاب الحماسة » .
ويعد مارغوليوث أبا تمام شاعراً و (ومنتخباً للشعر Anthologue) ^(٢) ويذكر أن له غير كتاب الحماسة كتاب (المختار من شعر القبائل) وكتاب (المختار من شعر الشعراء الفحول) .

ولا شك أن مارغوليوث قد لخص ما قاله الآمدى فى الموازنة ^(٣) من أن أبا تمام كان مشغولاً مدة عمره بتخير الشعر ودراسته والتنويع فيه وأن له ذينك الكتابين . على أن لأبى تمام كتباً أخرى من المختارات وهى كتب انتقى فيها شعر الشعراء المقلين والقدامى والمحدثين وأن بعض كتبه هذه كانت متداولة فى أيدى الناس .

ولعل يوماً تظهر فيه هذه الكتب التى يسميها الآمدى ومارغوليوث فترى أى ذوق قد استولى على الطائي فى هذه الكتب ، ونعرف أين كتبها ، وهل كان يوم ذلك يعوقه صيف أو يحبسه شتاء . ومن يدرى أين تكون اليوم فلعل بعضها فى رف من رفوف المكتبات الغربية وكان قد عبر البحر إلى ديار الغرب مع آلاف مثله فى أسلاب الصليبيين التى أخذوها من ديارنا . وكيف جاء الأمر فإن أبا تمام قد أغنانا حتى حين بكتاب الحماسة .

فلئن دل على منتخب ذوقه ؛ فإن كتاب الحماسة يدل على أن أبا تمام كان حربى النزعة أو كان يحب شعر الحرب فانتقى أروعها وليس كتابه مقصوداً على الحربيات فحسب وإنما فيه غير الحماسة ، المراثى والأدب والتشبيب والهجاء والوصف والملح ومذمة النساء . وقد غلب عليه اسم الحماسة لأن العرب بها أحق ولها أروى . ولأن شجاعة العرب وما أثرهم

(١) المعلمة الإسلامية بالفرنسية المجلد ٢ ص ٢٦٠ .

(٢) المصدر نفسه المجلد ١ ص ١١١ .

(٣) طبعة الجوائب ص ٢٣ .

الحماسية ألمع سجاياهم وأعرق ما فيهم من الصفات . ولعل أبا تمام أحسن في مقطوعات الهوى ثورة الحب ، ووجد في أشعار الأحزان لهيب الوجد فطبع . كتابه بطابع الحماسة .
وليس هو المتوحد بهذا الاسم في كتب العرب القديمة فثمة (حماسة) البحترى . (وسأحلها) عند الكلام على كتابه الحماسي . و (حماسة) أبي هلال العسكري وحماسة الأعمى الشنتمري المتوفى سنة ٤٧٦ و الحماسة للخالدين الحلبيين وهما أبو عثمان سعيد وأخوه أبو بكر محمد من شعراء سيف الدولة الحمداني أمير حلب ، وحماستهما الآتية تسمى (الأشباه والنظائر) . و (الحماسة) لعل بن الحسن المعروف بشميم الحلبي المتوفى سنة ٦٠١ للهجرة . و (الحماسة) لابن الحجاج يوسف بن محمد الأندلسي البياسي المتوفى سنة ٦٥٣ هـ ، وآخرها (الحماسة) البصرية لصدر الدين علي بن أبي الفرج البصري المتوفى سنة ٦٥٩ هـ .

أما كتاب الحماسة لأبي تمام فقد سمي باسمين . أحدهما شرح ديوان الحماسة لأبي زكريا التبريزي ، تلميذ أبي العلاء المعري . وأقدم طبعة منه التي طبعت بمدينة (بن) بالمانيا سنة ١٨٢٨ ووقف عليها الدكتور (ولهم فريتاغ ^(١)) . والثاني ديوان أشعار الحماسة وأقدم طبعاته طبعة الزهار بيروت سنة ١٨٨٩ .

وقد أفرغ التبريزي في شرحه للحماسة كل جعبة لغته وأدبه . فهو يذكر البيت من القطعة ويشرح ألفاظه اللغوية ثم يفسر معناه . وإذا تضمن البيت اسم (علم) أو ذكر يوم من أيام العرب أو ألمع إلى حادث ، استطرد فترجم لذلك (العلم) وأفاض في ذكر ذلك اليوم وأحاط بالحادث) . وقد يفرض به القول إلى نقد لإظهار خطأ في تركيب أو باتهام بسرقة لفظ أو انتهاب معنى . فإذا فرغ من كل ذلك انتقل إلى البيت الثاني .

وتلك طريقة عامة قد اتبعها أكثر الشراح الأقدمين ، وهي خالية من العرض الأدبي والمقارنة ، وبعيدة عن الدراسة والتحليل .

وقطع هذه الحماسة بين مطولات وقصائر (وقد أوردت منها نماذج عدة فيما تقدم من هذا الكتاب حسب اقتضاء الشواهد في شعر الحرب ووصف الوقائع) وكان أكثر هذا الشعر الحربي جاهلياً وأمويّاً .

ولم يكن أبو تمام متبعاً لطريقة علمية في أنتخابه لشعر الحماسة وإنما كان (يجمعه جمعاً بغير تصنيف) . فقد تجيء قطعة في وصف قوس أو رمح . ثم تتلوها قطعة في طراد

(١) كان أستاذ اللغات الشرقية في جامعة فريديك ولهم .

الخليل . ثم من بعدها الثالثة في السيوف . وتتوزع المعاني شعر الحماسة من أوله إلى آخره من غير نظام أو ترتيب .

فهو لم يتبع ترتيباً زمنياً في شعر الحماسة ، فنحن نجد له قصيدة لشاعر أموي بعدها ثانية لشاعر جاهلي . ومن بعد هاتين قطعة لشاعر من عصر الخلفاء الراشدين ، أو من أعماق الجاهلية .

وإذا كان شعر الحماسة متنوع الضروب ، فكان على الطائي أن يجعله ضروباً حسب موضوعاته أو حسب شعراء القبائل . وكان عليه ألا يخلطه من ترتيب الزمن ، بادئاً بالجاهلية منتهياً بعصره وأيامه . فقد بحث الحماسة الطائية فما وجدت فيها من شعر العباسيين المحدثين أو المولدين إلا النزر القليل . وقد جاءت هذه الحماسة كلها في شعر الجاهلية وصدر الإسلام وفي عصر بني أمية ، حتى إذا كان عصرنا استدرك هذا القصور (سيد علي المرصفي) أحد أدباء النهضة في مصر فألف كتابه أسرار الحماسة قاصداً به ترتيب حماسة الطائي ^(١) فجعل أشعار الحماسة قسمين :

أولهما للموضوعات الأدبية .

وثانيهما لشعراء الوقائع الجاهلية والإسلامية .

وقد قدم الشعر الجاهلي على الإسلامي ، والشعر الإسلامي على العباسي ، وألزم نفسه في حواشيه إتمام أكبر القصائد الطوال التي اكتفى الطائي منها بالأبيات القلائل . وقد عرضه هذا التطويل في ذكر القصيد للخروج بها عن الحماسة التي اختارها الطائي . إذ أن الطائي عمد إلى مواطن الحماسة في تلك الطوال فأثرها بالذكر وحدها .

وإن المرصفي ، وإن يكن من أهل فاتحة العصر ، ففي طريقة شرحه وعرضه لم يزد على ما عرف عند الأدباء الأوائل من حذق بمعاني النصوص مع شرح للكلمات وبيان لأوجه الكلام في الفقه اللغوي ، وطرائق الإعراب . فجاء كتابه لا يختلف في كثير عن شرح التبريزي ، ولا يزيد عليه جدة أو طرافة .

لنا لنعذر أبا تمام — على الرغم من وصف الأدباء الأقدمين له بأنه كان في انتخابه شعر الحماسة أشعر منه في شعره — فإنه لم يقصد إلى الانتخاب وإنما جاءه عرضاً وحمله الزمان عليه . فقد انقطعت به الطريق وهو عائد في الشتاء من خراسان بعد أن قصد بمدحه عبد الله بن طاهر وزير المأمون وأعانه على هذا الأمير أبو العمثيل وأبو سعيد الضيرير ، فأخذنا

له منه ألف دينار مكافأة مدحه وكان عبد الله بن طاهر يعتمد عليهما في تقدير الشعر الذي يمدحه به الشعراء . فلما عاد أبو تمام من خراسان يريد العراق دخل (هَمْدَان) فاغتنمه (أبو الوفاء بن سلمة) أحد أدباء البلد وسرأها فأنزاه وأكرمه ، فأصبح ذات يوم وقد وقع ثلج غطى الطريق وقطعه على السابلة ، فغم أبا تمام سقوط الثلج فقال شعراً يذم فيه الشتاء ^(١) والبرد بتلك النواحي خارج عن حد الوصف كما يقول البديعي . وأفرح الثلج أبا الوفاء ليزداد لزوماً لضيفه الشاعر العظيم فقال له ^(٢) : « وطن نفسك على المقام فإن الثلج لا ينحسر إلا بعد زمان » . وأحضره خزانة كتبه فجعل أبو تمام يطالعها واشتغل فيها مدة انحباسه في دار أبي الوفاء فصنف خمسة كتب في الشعر منها كتاب الحماسة والوحشيات ، وهذه كما يروى التبريزي طوال . ثم إن الشاعر حين تكشفت الأرض وذاب الثلج هم بالذهاب تاركاً في خزائن آل سلمة (مخطوطاته) هذه وانصرف يريد بغداد . فجعل آل سلمة يضمنون بتلك المخطوطات الطائية ولا يكادون يبرزونها لأحد حتى تغيرت أحوالهم كما يروى التبريزي ، فورد عليهم همذان رجل من أهل مدينة (دينور) يعرف (بأبي العواذل) فظفر بكتاب الحماسة وحمله إلى أصبهان فأقبل أدباؤها عليه ورفضوا ما عداه من الكتب في معناه فشهروا فيهم ثم في من يليهم ^(٣) .

وقد افتتح أبو زكريا التبريزي شرحه حماسة الطائي بباب سماه باب الحماسة ، فبدأ بذكر الحماسة لغة ومعنى واصطلاحاً ، وعدد قبائل العرب التي كانت في الجاهلية مشهورة بالحماسة كقريش وكنانة وخزاعة وجماعة من بني عامر بن صعصعة الذين كانوا يسمون (حُمُساً) لتشددهم في أحوالهم ، ثم مزج بين معاني الشجاعة ومعاني الحماسة باقتضاب دخل منه على شرح أول الحماسيات :

لو كنت من مازن لم تستبح لبلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

وكان على التبريزي أن يعرض على قرائه أشهر المعاني التي تداولها شعر الفروسية ، وأن يعرض إلى تحليل القبائل العربية وتقسيمها ، وبيان مواطنها ليسهل فهم شعرها الحماسي ، وأن يفيض القول في ذكر العصبية التي كانت تسيطر على العرب من عدنانية وقحطانية ، وما كان يعترى الطبقات الاجتماعية من فوارق بين أمراء وشعبين وسوقة وصعاليك . ومثل هذا

(١) هبة الأيام للبديعي ص ١٣٧ وأخبار أبي تمام للصولي ص ٢٢٢ (الطبعتان السابقتان) .

(٢) ، (٣) مقدمة التبريزي على شرحه لديوان الحماسة ص ٢ ط أوروبا .

كان مطلوباً من مثله لمعاصرتِه أنضر عهود العرب في العلم ، ولوجوده في أغزر زمن بمؤلفاتهم القديمة .

ولقد نغزده عذرنا لبعض من مؤلفي تلك العصور الذين كان غرضهم الجمع والإطراف لا التنقيح والتصنيف .

٢ - كتاب الوحشيات

كتاب الوحشيات ^(١) المسمى بالحماسة الصغرى هو طوائف من الشعر الجاهلي والمختصرم اختاره أبو تمام حبيب بن أوس الطائي بعد اختياره كتاب الحماسة الكبرى المتقدم ذكره . وقد جرى فيه على وجه يقارب أبواب حماسته الأولى فقسمه إلى أبواب الحماسة والمرائي والأدب والنسيب والسماحة (فيما يتعلق بالأضياف والمديح) والصفات والسير والملح ومذمة النساء .

وقد وجدت في أوله ^(٢) أن أبا تمام (لم يروه وإنما وجد بعده مكتوباً في مسودة بخطه موسوماً بكتاب الوحشيات) .

وقد أورد الطائي في فاتحته قطعة للمنتفق الضبي وختمه بأبيات لنُصَيْب ، أما باب الحماسة فيه فهو مجموع مقطوعات وأبيات من روح الحماسة في كتابه الأول في ذكر الحرب والفروسية وضروب الشجاعة والفخر بالنسب والكرم . وشعر شعرائه لا يفرق في أسلوبه ومعانيه عن شعر أندادهم في « الحماسة » المعروفة .

أما طريقة أبي تمام في كتاب الوحشيات هذا ، فلا تزيد على جمع الشعر دون أن يسير فيه بطريقة علمية أو فن جديد أو أن يتتبع ترتيباً خاصاً ، أو أن يشير إلى مناسبة في ذكر القطع أو الأبيات التي يوردها . وما أوردته من النقد على كتاب الحماسة الكبرى ونقصه الفني وارد على كتاب الوحشيات هذا . وكل ما يمكن أن يضيفه هذا الكتاب ، إلى قيمة أبي تمام أنه يصفه بشاعر جماعاً لنماذج الشعر من كل فن ، في حسن اختيار ، وبراعة في فنون الحماسة . ويدل مذهبه هذا في اختيار الشعر واصطفائه أنه كان

(١) نسخة المخطوطة الفوتوغرافية بدار الكتب المصرية برقم ٢٢٩٧ أدب . (٢٤٣) ورقة ، نسخ أصلها ابن أبي الجيش البوزيحي في ربيع الآخر سنة ٦٣٧ للهجرة .

(٢) ورقة ٢ .

(ذواقه) . ولعل هذا المذهب الذى ذهبه فى انتقاء الشعر هو تفسير لطبعه فى اختيار شعر نفسه وفنون قوله وتنوقه فى ألفاظه وعنايته بالبدیع وسائر فنون البلاغة . وكل هذه الأمور مردها رهافة الذوق وسلامة الاختيار . وكيف تم الأمر فإن أبا تمام كان ذا سابقة فى هذا الفن وهو (فن اختيار الشعر وتأليف الكتب فى نماذجهِ وعيونه) .

٣ - كتاب التنبيه فى شرح أبيات الحماسة ^(١)

وهو كتاب لأبى الفتح عثمان بن جنى . ولا أزيد بالتعريف علم ابن جنى وسعة (موسوعيته) فقد كفاه أن يحمل أعباء اللغة وفنون البلاغة فى عصره ، وأن يتفرد بهما حتى قال عنه مترجموه وفيهم غرس النعمة أبو الحسن محمد بن هلال بن المحسن ^(٢) إنه أقدر أهل عصره بالتصنيف وقد بلغ كتابة الإنشاء لصمصام الدولة وابنه عضد الدولة .

فإذا عرفت ابن جنى بهذا القدر ، قلت إنه سن شروح الشعر الحماسى وإعرابه والنظر فى مشكله لكل من جاء بعده ممن خدم حماسة أبى تمام وسعى لها بالذبوع ، فأنا أعد بذلك ابن جنى أستاذاً لأبى زكريا التبريزى تلميذ المعرى المتوفى سنة ٥٠٢ هـ الذى شرح ديوان الحماسة الطائفة كما تقدم ، فلقد سبق ابن جنى التبريزى إلى إظهار درر الحماسة الكبرى بمئة عام أو تزيد إذ كانت وفاة ابن جنى سنة ٣٩٢ للهجرة .

وقد وجدت هذا المخطوط القيم حاوياً كنزاً فى اللغة والنحو ، وضع فيه ابن جنى خلاصة مجهوده العلمى النحو واللغة وفن العروض . وألفه (للخاصة) مترفعاً فيه عن العامة والدهماء والمبتدئين فى الأدب ، فقال فى مقدمته وهو يشير إلى أنه ألفه لأحد أصحابه الملتبسين .

« وقد أجبتهك أيدك الله إلى ملتمسك من عمل ما فى الحماسة من إعراب وما يلحق به من اشتقاق أو تصريح ، أو عروض أو قواف وتحاميت شرح أخبارها أو تفسير شىء من معانيها إلا ما ينعقد بالإعراب فيجب لذلك ذكره من حيث كان ذلك . »

(١) مخطوطته بدار الكتب المصرية برقم ٤٤ آداب .

(٢) انظر كتاب المبهج فى شرح المعانى لأشياء شعراء الحماسة الطائفة لابن جنى طبعة الترقى بدمشق .

سنة ١٣٤٨ للهجرة لإصدار القدسى وبدير (المقدمة) .

ثم يقول^(١) . « وبعد فإن هذا الكتاب لست أعمله لمبتدئ ولا لمتوسط ، وإنما أخطب به من قد تدرب فكره وقوى نظره » .

أما وصف هذا المخطوط فقد وجدت صفحته الأولى بخط محدث عهده سنة ١٢١٠ هـ وسائره بخط عتيق لعلى بن عبد الرازق بن عمر الجعفرى فى جمادى الأولى سنة ٦٨٢ للهجرة وعدد ورقه ٢٠٤ ورفات .

٤ - كتاب الحماسة للبحترى

أبو تمام يسبق البحترى . فالبحترى الذى تأثر أستاذه الطائى فى شعره وطريقته وفى فنونه وأغراضه ، هو الذى يتأثره فى (كتاب الحماسة) . ولذا نجد البحترى قد ألف كتاباً سماه (الحماسة) وكان كتابه هذا أكثر تنظيمًا فى موضوعات الحماسة من كتاب أبى تمام فالبحترى يجعل حوادث الحرب وسجايى المحاربين وسائل لإيراد الشعر فيها . وجملة هذه الموضوعات الحماسية يدور شعرها فى حمل النفس على المكروه والفتك ، وفى الإصحار للأعداء وفى الأنفة والامتناع ، وفى ركوب الموت خشية العار ، وفى التحريض على القتال . وقد أورد شعراً حماسياً فى ديات القتل والامتناع من الصلح ، وأبه إلى شعور الفرار الذى يعترى الفرسان فى حومات الحروب ، فجاء بأشعار كثيرة فى ذم الفرار وفى الاعتذار منه ، والإقرار به ، وفى الفرار على الأرجل وعلى الخيل ، ولم يخل كتابه من خلجات النفوس كالحب والبغضاء ومن سجايى العرب كالكرم والوفاء والحفاظ والعقل ، فقد أثبت من هذه الخلجات والسجايى شعراً مختاراً ، إلى أن ختم حماسته بنماذج من شعر النساء فى الرثاء .

ويمتاز كتابه بطريقته العلمية من كتاب أبى تمام الذى جاء مضطرباً بغير طريقة ، فالبحترى قسم كتابه إلى أبواب كثيرة متعاقبة التعداد أوفت على الثلاثين باباً ، وبهذا التقسيم (العلمى) مكن الدارسين لحماسته أن يتتبعوا معانى الشعر الحماسى خلال شواهد المتشابهة ، ويروا تطورها بحسب العصور والنقائيل . وقد ورد فى حماسته بعض القطع التى أوردها أبو تمام .

على أن البحترى - على الرغم من نشأته البدوية وضربه فى الصحراء العربية ومخالطته للأعراب حتى تملك زمام الفصحى - يظل فى حماسته دون حماسه الطائى ، ولا تشعر

أبياته المنتقاة بذلك الروح الحربى الذى تشعره حماسة الطائى . ومن المفروض المقبول أنه فى حياته البدوية تدرس بحياة الصحراء وثقف المراتة بالرماح والسيوف ، وتعود ركوب الخيل ، ولقى شظف العيش الذى كان لزاماً للطبيعة البدوية فى عصره . وقد أفاده هذا فى إجابة وصف الخيل والسلاح والإبداع فى تصوير المعارك . وكان حافزاً له ومعيناً حين كان يترك العراق ودار الخلافة لزيارة أبى سعيد الثغرى فى أرمينيا ويقمى عنده ويشهد حروبه مع الروم فيصفها بأروع قصائده الحربية ثم يقل بجوائزه الكثيرة .

أما طبعة الحماسة البحرية فقد صدرت بإشراف المستشرق مارغو ليوث الأستاذ بجامعة أكسفورد بصور فوتوغرافية عن نسخة الأصل وطبعت فى ليدن سنة ١٩٠٩ . ثم طبع المكتب الشرقى فى بيروت بوقوف الآباء اليسوعيين (حماسة البحرى) نقلاً عن نسخة مارغو ليوث الفوتوغرافية .

وظلت حماسة البحرى تالية ، وحماسة الطائى هى الأولى ، فإذا قيل (كتاب الحماسة) وقع فى الفهم كتاب واحد للحماسة هو (حماسة أبى تمام) .

٥ - حماسة الخالدين

وحماسة الخالدين التى ورد ذكرها فى هذا الكتاب ، تحمل اسماً آخر وهو (الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين الجاهليين والمخضرمين) .

وقد أردت أن أذكرها هنا بعد حماسات الطائى لأظهر الفرق العظيم بين حماسة كتب لها الذبوع والطبع والشروح على ما فيها من عيب فى ، ونقص علمى ، وبعد عن التاريخ الأدبى والنقد ، وبين حماسة كان قد ألفها الأخوان الخالديان (أبو عثمان المتوفى سنة ٣٥٠ للهجرة ، وأبو بكر المتوفى سنة ٣٨٠) . وكانا من الأدباء عند سيف الدولة الحمدانى ، وكانا ينغصان على أبى الطيب المتنبى نعمته فى حلب ، ويحسدانه على شعره .

كان من عادتهما أن يؤلفا الكتاب معاً ، وهذه سابقة فى أدب العرب يبذ بها آداب الأمم الراقية ، فإن تأليف الأخوين كتاباً واحداً أمر نادر ، وقد عرف فى فرنسا بعضنا الحديث أن الأخوين (جبروم وجان تارو) كانا يؤلفان الكتاب الواحد فى الأدب والسياسة والنقد وينشرانه ، وعليه اسمهما معاً . وفى أدبنا القديم كما ذكر ابن القارح والمعرى أن

القطربلى وابن أبى الأزهر ألفا معاً كتاباً عن المتنبي .

ومن عجيب هذا الكتاب الحماسى الذى ألفه الخالديان الحلبيان أنه حماسة فنية ، وذو طريقة علمية . فقد جملاه مزاجاً طريفاً لنقد الشعر الحماسى وغير الحماسى مع مقابلته (بأشباهه ونظائره) ، هذا إلى ذكر المناسبات الأدبية والأخبار والتحقيق فى الروايات ، فن أمثال طريقتهما قولهما :

بكره قلوبنا يا آل بكر نغادىكم بمرهقة القتال
ومثله قول الحسين بن الحمام المرى :
نفلق هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلماً
أخذه بعضهم فقال :

قوى هم قتلوا أميم أخى فإذا رميت أصابنى سهمى
وأخذه حرب بن مسعر فقال :

ولما دعانى لم أجبه لأننى خشيت عليه وقعة من مصمم
فأخذ هذا المعنى ديك الجن فقال فى جارية يحبها فقتلها :

قمر أنا استخرجته من دجنة لبليتى وجلوته من خدره
فقتلته وله على كرامة ملء الحشا وله الفؤاد بأسره

ثم ذكر المؤلفان كيف أخذ المعنى أبو تمام والبحترى ، فلما ذكرا قول البحترى :
إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

قالا بعد ذلك :

« وبیت البحترى أطرف وأبدع من بیت المهلهل إلا أنه هو الذى أرشده إلى المعنى ودل عليه » .

فن هذه النماذج التى أوردتها يتبين أن الخالديين أوردوا بيتاً حماسياً للمهلهل ثم كرا بعده بأبيات لشعراء ، وقد زعما أن هؤلاء الشعراء أخذوا المعنى الأول واحداً عن الآخر . وهذا زعم يكثر عند الأوائل من نقدة الأدب العربى الذين لا تطيب نفوسهم إلى حسن الظن والقول (بتوارد الخواطر) وتوافق المعانى ، واتفاق التعابير .

وقد يورد المؤلفان صورة لطريقتهما فى النقد والعرض والمقابلة كقولهما :

« وقد ذكرنا بعض قصيدة عبد بنى الحسحاس التى سماها الفضل الديباج الحسروانى ، وتكلمنا على بعض ما أخذ من غيره ، وأخذ منه من جاء بعده ، وقصيدة الصمة القشبرى عندنا أظرف كلاماً منها وأملح ديباجة ، ونحن نختار منها ما نستماح » .

فإذا ختم الخالديان حماستهما هذه رداً للكلام إلى طريقتيهما فى التأليف فذكرنا بتواضع أنهما لم يكن لهما سوى الجمع والتأليف ثم عرضنا نقصهما على من لعله يأتى بعدهما (فيرذل شيئاً مما اختاراه ويهجن شعراً نقلاه) فيقولان :

« وهذا غير مزر بنا ، ولاناقص لنا ، لأن لكل إنسان اختياره » . فزاد عجبى حين انتهيت من دراسة هذه المخطوطة الشائقة التى أحسست فيها (بحياة الشعر) ووجدت فيها روح صاحبها تدب نابضة فى كل صفحة منها ، ورحت أزعج أن فى نشر هذا الكتاب خدمة للأدب العربى الرجيج فى آراء نقده وطريقة تأليفه وحسن عرضه ، مما يجعل قدمه جدة ، وقيمتة ذخراً . فهو كتاب فى (أدب الحماسة) لا فى (نماذج من الشعر الحماسى) كالتى أوردها أبو تمام والبحتري ، ومن جرى على غرارهما فى حسن اختيار الشعر ^(١) .

(١) رجعت فى كتاب حماسة الخالدين إلى المخطوطة المحفوظة بدار الكتب الكبرى بالقاهرة برقم ٥٨٧ آداب وكنت أول من دل عليها .

خاتمة

حين سفر عمرو بن العاص بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وبين قائد من قواد الروم ، قال له أحد الشاميين من بطانة القائد ، وهو يهم بالخروج :
— أحسنت يا عمرو الدخول فأحسن الخروج .
فاتخذ عمرو أهبة لنفسه وخرج .

وليت شعري هل أحسنت الدخول إلى موضوعي فأحسن الخروج ؟
وكيف اتفق الأمر ، فإن كتب الأدب المتداولة بأساليب العلم لا بد لها من فواتح وخواتيم ، وهأنذا أختتم رسالتي ببحث الأمور الآتية :

- (١) تلخيص أطوار الشعر الحربي
 - (٢) الفرق بينها فنيًا وغائيًا
 - (٣) ميزات عامة لشعر الحرب
 - (٤) مقترحات لاستمرار الدراسة
 - (٥) فكرة عامة من الأدب المقارن
 - (٦) ملحمة لسان الدين بن الخطيب
- والمعراج النبوي ونظم السيرة شعراً

* * *

لقد صدق « إيبوليت تين » من نقاد الأدب الفرنسي في فاتحة عصرنا مستعينا بآراء (العالم كلود بيرنار) حين رد الأدب إلى ظواهر التطور الطبيعي ، فقال إن الأدب وكل آثار الفن والعقل كالحیوان والنبات تولد وتنمو فتعيش وتتحول أو تتقاعس وتموت . إنه أخضع الأدب والفن إلى مذهب التطور . ويحمل بي أن آخذ برأيه في شعر الحرب والحماسة العربية ، فإن شعر الحرب عند العرب قد مر بأدوار التطور الطبيعي ، ولم يشذ في الأدب أو يتمنع على مقاييس العلم : لقد بدأ في جاهليته ساذجاً كحياة قائله ، وقد كانت حياة الجاهلية منبسطة الآفاق ، على نمط واحد فجاء شعر الحرب فيها ممثالاً لها . إنه فيها أبداً أنشودة حماسية بالفخر والبأس ، وبالعزة والبطولة والفروسية ، ممزوج ذلك بالكرم والسماحة والحفاظ على العرض والتفاني في المروءات ، هذا من حيث المعاني التي كانت في الحماسة الجاهلية ، وأما من حيث المباني فقل ما شئت من جزالة وحوك حرمع لإرسال للأسلوب على سجيته بغير تكلف أو تصنع إلا ما صدر عن الشعراء الناحيتين أمثال زهير .

وقد تلقف شعراء الحماسة الأموية هذا الشعر الجاهلى من أهليه فساروا على غرارهم فيه ونسجوا مثل أبراده ، إذ كانت طوابع العصر الأموى عربية محضة ، وقد يصعب على دارسى الأدب أن يقفوا على تفاريق واضحة الخطوط بين الشعر الجاهلى والإسلامى فى الصور الأولى فى الديباجة والحلبك .

أما المعانى فقد بدا فيها تطور ظاهر إذ تجلببت بأردية معاصرة ، وشاع فيها جانب من معانى القرآن الكريم والحديث الشريف وذكر الجنة والنار والثواب والعقاب وما إلى ذلك من المعانى الإسلامية ، وظهر هذا التطور بوضوح فى حماسة الهجائين .

وبدأ التطور ظاهراً بالمعنى والمبنى فى العصر العباسى ، فكان للتمازج الثقافى بين العرب والعجم أثر فى دقة المعانى وروعة الأخيلىة ، أما أساليب القول فظلت مستمسكة بأمويتها حتى كان أبو تمام فخلع عليها تلاوين فنونه فى صناعته اللفظية والبديعية ، وبسط طوابع فنه الصناعى على كل شعر بعده ، ولما جاء أبو الطيب المتنبى بلغ بالحماسة العربية ذروتها .

فإذا صح وصف هذا التطور بأدوار فيكون : شعر الحرب فى العصر الجاهلى ، فى طور المولد والبداءة ، وفى العصر الأموى فى طول النمو والتحضر ، وفى العصر العباسى فى طريق التكامل ، حتى إذا دمرت الحروب الصليبية انحدر شعر الحرب إلى درك التقاعس على الرغم من وفرة الأسباب المعنوية ، لأن شعراء العرب فى عهد هذه الحروب كانوا فى دور ضعف وانخزال فى اللفظ والأسلوب ، وكان أغلبهم صاحب ركة فى القول وصناعته تضج بالكلفة . وحين انطفأت نار الحروب الصليبية بعد نور الدين وصلاح الدين خمد كل وقد فى الشعر الحربى عند العرب حتى فجر النهضة الحديثة غير نفحات فى شعر البارودى ومن بعده فى شعر شوقى ، فكان هذا التطور المعاصر عهد انبعاث بعد الفناء .

أما الفروق بين هذه الأطوار فقد تلوّح فنية وتلوّح غائية ، فإن قليلاً من شعر الحماسة قبل لوجه الفن وحده . وكثيراً منه قيل لغاية من غايات الفخر أو السياسة أو منازع الحزبية . وقد أنكرت على شعر الحرب عند العرب أموراً تتعلق ببواعثه ، ثم رأيتنى مضطراً أن أعظم هذا الشعر الذى جاء معبراً عن خلجات الأنفس العربية القديمة التى ما عرفت إلا الشجاعة والفداء ، والحدود فى سبيل العلاء . وقد يكون فرق آخر بين فنية هذه الأطوار وبين غايتها ، فنجد الشعر الحماسى فى كل أدواره وأطواره يبرز لنا فنه فى شكل (فخر مسلح)

وتتمثل لنا غايته في صورة (عز مسلح) ، فإن أولئك الشعراء جميعاً كانوا يصوغون شعر الحماسة بفن الفخر . وكانت غايتهم جميعاً في ذلك تخليد القوم والاعتزاز بالقوة .
وأما الميزات العامة التي يتميز بها شعر الحرب من سائر فنون الشعر العربي فهي كما أجبدها .

(ا) متانة الدباجة وقوة التعبير ، وفخامة اللفظ ، لأن ذلك مقتضى المعاني الحماسية .
(ب) ذكر السلاح ووصف مضائه والبراعة في مقارعته .
(ج) الإشادة بفروسية البطل ، أو إشادة البطل نفسه بفروسته وشجاعته إن كان من الشعراء .

(د) أغلب قصائد الحماسة وأروع الشعر الحربي قاله شعراء محاربون .
(هـ) التشابه في رواسته وطوابعه ، بخلاف سائر الفنون الشعرية ، فقد نجد فوارق كبرى بين قصائد المديح ، وفوارق بين قصائد الوصف ، ولكن لا نجد كبير فرق بين قصائد شعر الحرب والحماسة من حيث الميسم العام الذي يسمها ، لأنه يقوم على ذكر البأس والنجدة والفخر بالسلاح والكراع ووصف المعارك والقتال .
(و) شعر الحماسة لون فاقع من ألوان الفخر ، فلو عرينا أية قصيدة حماسية من الفخر لم يبق منها في أيدينا غير قعقة السلاح وحممحات الخيل .

وإذ كان عملي في هذا الكتاب الجامعي هو تجربة أولى لدراسة شعر الحرب في أدب العرب فإنني أرجو — كما ذكرت في المقدمة — أن أوفق بعده إلى التوفر على أدب الحماسة العربية ، والكتابة عن عصر صلاح الدين والصليبيين ، ونفسي تجيش بهذا الأمل . كما أتمنى على علماء الأدب العربي أن يعنوا بدراسة هذا الوجه الحربي في شعر العرب ، إذ كان ألصق الأشعار بهم وأنطقها بحقيقتهم في كل أعصرهم ، في ساح بداواتهم ، وميادين حضاراتهم ، لعل يوماً أغر محجلاً يكون فيه للعربية ملحمة جديدة تجمع بين مجدها التالد وعزها الطارف ، فتكمل بذلك ثمرات الشعر الحماسي في أدبنا الحديث . وما رقيت آداب الأمم في قديمها وحديثها إلا برقي شعر الحماسة . فهذه يونان لولا الإلياذة والأوديسة لما كان لها هذا الصوت الصارخ في أدب العالم منذ عتيق الدهر إلى اليوم . وإنه ليحسن من دارسي الحماسة العربية أن يجعلوا الأدب المقارن ديدنا لهم ، فإن تمازج الثقافات يعطي أزهير الأدب الخالد ، فكم بين أشعار هوميروس وشعر الحماسة العربية من أسباب للتشابه في روعة المعاني

ينبل المقاصد تصلح أن تكون بحثاً رائعاً في الأدب المقارن . وقد وجدنا الأهم الغربية في قديمها وحديثها محتفية بشعر حربها حادثة على حماسها ، تجعل ذلك كنفاً لها في الملمات ، وملاذاً وملجأ في الهضات . وما أجمل يوماً يظل أمة العرب وهي تحت كل نجم مشدودة الأواصر بشعرها الحماسي تمتاح منه قواها ، وتقبس علاها ، وتشيع منه في أنفس بنينا وبناتها وقداط البطولة ، وتبعث فيهم المروءة والنجدة مدى الأجيال الصاعدة .

وأما إنهاء الكلام على الملحمة العربية بعد معاناة بحثها طوال هذا الكتاب وتقصى فنونها وموضوعها عند الفرنجة والعرب . فأقول فيه إن العرب وإن تأخروا في نظم الملحمة إلى اليوم وكان بمقدور بعضهم أن يبرع فيها ولكن شغلته شواغل كما اتفق لمسلم بن الوليد التي شغلته الحسان عن حلبات الفرسان وصرعته الغواني بالأعين النجل فما فات شعراء العرب أن يحاولوا معرفة الملحمة وأن يجربوا نظمها ، كما فعل لسان الدين بن الخطيب في ملحمة الكبيرة وابن عبد ربه . على أننا — إذا وسعنا معنى الملحمة إلى عالم الدين وعلونا بها عن محسوساتنا الدنيوية — وجدنا موضوع ملحمة رائعة في آثارنا العربية وهي قصة المعراج ، ولولا ما فيها من أخيلة الواهمين ، لجاءت من أروع الملاحم العربية الدينية . وكذلك فإن بين مؤلفي السيرة النبوية من حاول نظمها ، ولكن كل ذلك لم ينجح كاملاً وكان في طي المحاولات ، والأمل منعقد بشعراء يظلمهم زماننا ، أو بعده سينظمون ملحمة العرب الكبرى وفق فيها الأسمى وطريقتها القويمة ، على غرار ما جاءت به كبريات الملاحم الشعرية التي بقيت سجل الفخر لأمتها على الزمان .

ملحق

صنف القدامى كتباً في (الحماسة) ، ولم يصنفوا كتباً في (شعر الحرب) . فقد أثر عنهم حماسات كثيرة ، إنهم لم يجمعوا بحثاً ، ولم ينسقوه وفق التيارات الأدبية التي جرى فيها فيكون عملهم فنياً . لقد كانوا يحبون الأفراد والقطع في هذا الضرب الذي ألفوا فيه ، فجمعوا شعر الحماسة من كل نوع منفرداً بعضه عن بعض ، منقطع الصلة بما قبله وما بعده ، وكان نظامهم فيه نظام (المجاميع) .

وإنه ليلاحظ الفرق بين معنى شعر الحرب ومعنى شعر الحماسة . فشعر الحرب حماسي بالطبع وليس كل شعر حماسي شعر حرب ، لأن الحماسة — كما ذكرت في المقدمة — لها عند العرب المؤلفين كأبي تمام والخالدين وغيرهما معنى أعم وأشمل من الحرب ومقتضاها من سلاح وحيل وبأس وشجاعة .

فقد زاد هؤلاء على شعر الحرب في معاني الحماسة شعر الفخر والغزل وما قيل في الفضائل والمزايا . وأخذ بهذ الشمول أكثر مصنفى الأدب وباحثوه الأقدمون . وليس هذا بضائر حماسة العرب فإن كبريات الملاحم وأروعها حماسة أنشدت في آياتها خفقات البنود ، وزمازم الجيوش وصلصلات السلاح إلى جانب آهات الأبطال العاشقين ولواعج الهوى بربات الجمال .

كذلك كانت مهمة الباحث الحديث في شعر الفروسية وقصائد الحماسة مهمة شاقة في أدب العرب تجعله ينظر إلى المؤلفين الغربيين بعين حسيرة ، وقد وفقوا في مؤلفاتهم عن فروسية القرون الوسطى ، فصورو وأسهبوا في وصف أولئك الشجعان الذين لزموا ظهور الخيل ، عليهم الحديد ، تغوص رؤوسهم في المغافر ، وتتحرك أجسامهم بصفحات الدروع رماحهم طوال وسيوفهم عراض ، ونعالهم مربوطة بنسوع تلف على الساق .

فيود الباحث العربي لو يغمس اليراع في مداد تاريخ العرب فيكتب فصولاً من الفن يصور فيها أبطال الجاهلية وفرسان الإسلام ، على رؤوسهم الكوفيات الملونة ، والعقل السود أو العماثم البيض ، تلف صدورهم دروع منسوجة من السلاسل ، خفاف لا يثقلهم حديد ،

يجولون كالنسور ، رماحهم العوالى ذوات الكعوب ، وسيوفهم الرقاق المعوجّات . ولهم زفيف
 فى وجه العدى كهبوب الريح ، أشعار الحماسة لسان حالهم وأفصح مقالهم ، أعربوا فيها عن
 معانى بطولة كأنها أسطورية . كان قوامها الشرف والحمية والنجدة ، ورعاية الذمام .
 وأنا أبداً ، كما قرأت على حسام (آشيل) أدب هوميروس ، أسمع فى ليالى طروادة
 نجوى البطل (هيكتور) لزوجته (آندروماك) وعلى رأسها الجميل التاج الوهاج الذى
 أهدهته إليها (آفروديت) .

وكذلك فى كما قرأت على سنان البطل (قطرى بن الفجاءة) أدب الخوارج ، فى
 أبداً أسمع نجواه لزوجته (أم حكيم) تحت ليالى العراق . وأحس فى لفحات اللهب الخالد
 التى شعلها أبو الطيب المتنبي فى شعره الحرى نفحات روحه ، ونبضات هواه ، وهو يتوق
 إلى (خولة أخت سيف الدولة) منشداً شعره عند قلعة حلب وتحت أسوارها ، أو ماضياً
 على جواده مثل فارس وشاعر أسطورى فى بادية الشام . . .

المراجع والمصادر الأدبية

مرتبة على حروف الهجاء بأسماء المصنفات

أخبار أبي تمام للصولي طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ وفاة الصولي (٣٣٥) هـ
أدب الكاتب لابن قتيبة الدينوري طبعة الخانجي سنة ١٣٢٢ هـ وفاة ابن قتيبة (٢٧٦)
أسرار الحماسة لسيد علي المرصني الطبعة الأولى بمصر سنة ١٩١٢ عصر المرصني (النهضة
الحديثة)

الإعجاز والإيجاز لأبي منصور الثعالبي الطبعة العمومية بمصر سنة ١٨٩٧ ، وفاة الثعالبي
(٤٢٩)

الأغاني للأصفهاني طبع مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٣ تصحيح الشيخ الشنقيطي ، وفاة
الأصفهاني (٣٥٠)

أجزاء الأغاني طبع دار الكتب المصرية حتى سنة ١٩٦١
إلياذة هوميروس مترجمة نظماً لسليمان البستاني طبعة الهلال بمصر سنة ١٩٠٤

(عصر هوميروس القرن التاسع ق . م) (عصر البستاني النهضة الحديثة)

تنمة يتيمة الدهر للثعالبي ط طهران سنة ١٣٥٣ هـ
التكملة لشعر الأخطل عن نسخة طهران الخطية وتعليق الأب صالحاني اليسوعي طبع
بيروت سنة ١٩٣٨ ، وفاة الأخطل سنة (٩٠) هـ

جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي الطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٢٣ (وفاة القرشي
سنة ١٧٠) هـ

حلية الفرسان وشعار الشجعان لعلي بن هذيل الأندلسي تصحيح لويس ميرسيه
طبع باريس سنة ١٩٢٢ عصر ابن هذيل الأندلسي القرن الثامن للهجرة)
حماسة البحترى طبع المكتب الشرقى ببيروت بوقوف الأب لويس شيخو اليسوعي نقلا عن

الطبعة الفوتوغرافية التي أخرجها مارغو ليوث .

خزانة الأدب للبغدادى طبع بولاق بمصر سنة ١٢٩٩ هـ (وفاة البغدادى ١٠٩٣ هـ) .

ديوان ابن الرومى الجزء الأول طبع الهلال بمصر سنة ١٩١٧ م والجزء الثانى طبع مطبعة مصر بشرح محمد شريف سليم (وفاة ابن الرومى سنة ٢٨٣) .

ديوان ابن المعتز طبع المحروسة بمصر سنة ١٨٩١ م (وفاة ابن المعتز سنة ٣١٥ هـ)

ديوان أبى تمام الطبعة الوهية بمصر سنة ١٢٩٢ هـ (وفاة أبى تمام ٢٣١) ، 846

ديوان أبى تمام طبع بيروت لشاهين عطية سنة ١٨٨٩ م

ديوان أبى الطيب المتنبي ضبط المعلم بطرس البستانى طبع بيروت سنة ١٨٦٠ (وفاة المتنبي سنة ٣٥٤) .

ديوان أبى الطيب المتنبي تصحيح الدكتور عبد الوهاب عزام طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر سنة ١٩٤٤ .

ديوان أبى فراس الحمدانى طبع بيروت سنة ١٩١٠ م (وفاة أبى فراس سنة ٣٥٧) .

ديوان البحرى طبع الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ (وفاة البحرى ٢٨٤) .

ديوان البحرى طبع هندية بمصر سنة ١٩١١ م .

ديوان جرير الطبعة العلمية بمصر سنة ١٣١٣ هـ (وفاة جرير ١١١ هـ) .

ديوان الأخطل برواية أبى عبد الله اليزيدى طبع بيروت سنة ١٨٩١ للأب صالحانى اليسوعى (وفاة الأخطل سنة ٩٠ هـ) .

ديوان أشعار الحماسة للطائى طبعة الزهار ببيروت سنة ١٨٨٩ م .

ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات شرح الحسن السكرى للدكتور Rhodokanakis طبع فينا سنة ١٩٠٢ وفاة ابن قيس الرقيات (٨٥) وفاة شارحه (٢٧٥) .

ديوان عنتر بن شداد العبسى طبع هندية بمصر سنة ١٣١٥ هـ . وفاة عنتر (٦١٥ م) .

ديوان الطرماع نشر وتعليق كرانكو طبع لندن سنة ١٩٢٧ م وفاة الطرماع (٨٠) .

ديوان الفرزدق إملاء ابن حبيب عن ابن الأعرابى نقلا عن النسخة المخطوطة بأيا صوفيا فى القسطنطينية مع ترجمة فرنسية للمسيو (ر . بوشيه) طبع باريس سنة ١٨٧٠ م (نسخة

بدار الكتب المصرية فى أربعة أجزاء رقم ٣٠٩٠ آداب . وفاة الفرزدق (١١٠) هـ .

ديوان القطامى إخراج بارت Barth طبع ليدن سنة ١٩٠٢ وفاة القطامى (١٠١) هـ .

ديوان مسلم بن الوليد طبع ليدن سنة ١٨٧٥ وفاة مسلم بن الوليد (٢٠٨) هـ .

رسالة الغفران لأبي العلاء المعري طبعة الكيلاني سنتي ١٩٢٣ و ١٩٢٥ . ورسالة ابن القارح مع هذه الطبعة ، وفاة أبي العلاء (٤٤٩) هـ .

رغبة الآمل في كتاب الكامل لسيد علي المرصني طبعة النهضة بمصر سنة ١٩٢٧ .

الشاهنامة للفردوسي - رسالة دكتوراه للدكتور عبد الوهاب عزام طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢ . عصر الفردوسي (٣٢٠-٤١١ هـ) .

شرح ديوان الحماسة للطائي لأبي زكريا التبريزي الطبعة الأوربية الأولى للدكتور فرايتغ سنة ١٨٢٨ وفاة التبريزي (٥٠٢) .

شرح ديوان حماسة البحترى طبع ليدن سنة ١٩٠٩ بصفحات فوتوغرافية بوقوف مارغو ليوث (وفاة البحترى $\frac{284}{827}$) .

شرح القصائد العشر لأبي زكريا التبريزي طبع كلكتة سنة ١٨٩٤ .

شرح ديوان كثير عزة لهزرى بريس طبع باريس سنة ١٩٢٨ (وفاة كثير عزة ١٠٥) .

الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري طبع الخانجي سنة ١٣٢٢ هـ .

شعراء النصرانية في دولة بني أمية للأب لويس شيخو اليسوعي طبع بيروت سنة ١٩٢٥ (عصر الأب شيخو النهضة الأخيرة) .

طبقات الشعراء لابن سلام الجهمي وقوف Hell طبع ليدن سنة ١٩١٦ (وفاة ابن سلام ٢٣٢) .

العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين وقوف W. Ahlwardt

العقد الفريد لابن عبد ربه طبعة سنة ١٣٥٣ بمصر الجزء الثالث (كتاب وقائع العرب وأيامها) .

العقد الفريد لابن عبد ربه طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر سنة ١٩٤٠ وفاة ابن عبد ربه (٤٢٦) هـ .

الجزء الأول (كتاب الفريدة في الحروب) .

عيون الأخبار لابن قتيبة طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٥ .

الجزء الأول (كتاب الحرب) .

الفرق بين الفرق لأبي منصور البغدادى طبع المعارف بمصر عن نسخة برلين سنة ١٣٢٨ وفاة أبي منصور البغدادى (٤٢٩) .

الفصل في الملل والأهواء لابن حزم وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني .

- الطبعة الأدبية بمصر سنة ١٣٢٠ هـ (وفاة ابن حزم ٤٥٦) (وفاة الشهرستاني ٥٤٨) .
 الكامل للمبرد تصحيح محمد الأسيوطي طبع مصر سنة ١٣٠٩ هـ ، وفاة المبرد (٢٨٥) .
 المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين الموصلي طبع بولاق سنة ١٢٨٢ هـ .
 وفاة ضياء الدين الموصلي سنة (٦٣٧) .

المبهيج في تفسير أسماء شعراء الحماسة لأبي الفتح بن جني طبع دمشق الرقي سنة ١٣٤٨
 وفاة ابن جني (٣٩٢) .

مخطوط ديوان أبي فراس الحمداني بدار الكتب المصرية رقم ١٨٣٢ خصوصي أدب
 نسخة بخط محمد بن أحمد الخياط الشافعي (غير معروفة السنة) .

مخطوط الصبح المنبي عن حيشة المتنبى للشيخ يوسف البديعي
 مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٣٣ أدب ، نسخة كتبت سنة ١٢٦٤ هـ (وفاة
 البديعي ١٠٧٣) .

مخطوط الصولى في شرح ديوان الطائي الجزء الثالث . أوله ورقة (١) وآخره ورقة (٢٤٢)
 إلى باب المرائي بخط كبير ، على الصفحة الأولى منه اسم محمود سامي الشهير بالبارودي
 سنة ١٢٧٥ هـ . نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية (رقم ٥٧٣ آداب) .

معجم الأدباء لياقوت الرومي طبعة دار المأمون بمصر ج ١٩ وفاة ياقوت (٦٢٦) .
 معجم الشعراء لأبي عبد الله المرزباني ومعه المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء وأنسابهم
 للأمدى . وقوف الدكتور كرانكو . وفاة المرزباني (٣٨٤) هـ طبع القاهرة سنة ١٣٥٤ هـ
 وفاة الأمدى (٣٧١) هـ .

المعلقات طبع برلين سنة ١٨٩١ وقوف الدكتور آبل .
 المفضليات للزبي برواية أبي محمد الأنباري تحقيق وشرح شاكر وهارون طبع دار المعارف
 بمصر سنة ١٩٤٢ وفاة الزبي (١٦٨) . وفاة الأنباري (٣٢٧) .

مفيد العلوم لجمال الدين بن أبي بكر الخوارزمي الطبعة الأولى العلمية بمصر سنة ١٣٦٠
 عصره (أوائل القرن الخامس للهجرة) .

مقامات الهمداني الطبعة الثانية لليسوعيين ببغروت شرح الشيخ محمد عبده (عصر الشيخ
 محمد عبده) النهضة الحديثة ، وفاة الهمداني (٣٩٨) .

الموازنة بين أبي تمام والبحترى للآمدى طبع الجواثب بالآستانة سنة ١٢٨٧ .
نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة طبع ليدن سنة ١٩٠٥ لفيفيان ، وفاة أبي عبيدة (٢١٠)
نهاية الأرب في فنون العرب للنويرى طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦ السفر السادس
(كتاب قادة الجيوش ومكايد الحروب ووصف الوقائع) والسفر التاسع ، طبعة الدار

سنة ١٩٣٢ .

هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام للبديعى طبع مطبعة العلوم بمصر سنة ١٩٣٤ وفاة البديعى $\frac{١٠٧٢}{١٦٦٣}$
وفيات الأعيان لابن خلكان طبع البارون أوسلان بباريس سنة ١٨٣٨ ج ١ وفاة ابن
خلكان $\frac{٦٨١}{١٢٨٢}$.

يتيمة الدهر لأبي منصور الثعالبي طبعة لإسماعيل الصاوى بمصر سنة ١٩٣٤ الجزء الأول .
وفاة الثعالبي $\frac{٤١٩}{١٠٣٨}$.

المصادر التاريخية

تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطى طبعة البابى الحلبي بمصر سنة ١٣٠٥ ت السيوطى
(٩١١) .

تاريخ الخميس فى أحوال أنفـس نفيس لحسين بن عمر الديار بكرى الطبعة الوهية بمصر
سنة ١٢٨٣ هـ ، ت الديار بكرى (٩٦٦) .

تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى الطبعة الأولى الحسينية بمصر ، ت الطبرى $\frac{٢١٠}{٩٢١}$
تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى الطبعة الأوربية بليدن أعوام (١٨٧٩ - ١٩٠١) .
تاريخ مختصر الدول لغريغوريوس بن هرون الملطى المعروف بابن العبرى وقوف الأب
صالحانى اليسوعى طبع بيروت سنة ١٨٩٠ ت غريغوريوس (١٢٨٦) .

تجارب الأمم لأحمد بن مسكويه الجزء الثانى طبع شركة التمدن الصناعية بمصر سنة ١٩١٥
بوقوف أميدروز Amedroz ونشر لندن سنة ١٩٢١ ت ابن مسكوية $\frac{٤٢١}{١٠٣٠}$.

الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز . ترجمة الدكتور أبى ريده طبع لجنة
التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٠ .

الخطط للمقرىزى طبعة مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ هـ ج ١ ت المقرىزى $\frac{٨٤٥}{١٤٤١}$.

الدر المنتخب في تاريخ حلب لمحمد بن الشحنة الحلبي وقوف اليان سر كيس الدمشقي طبع
بيروت سنة ١٩٠٩ ت ابن الشحنة $\frac{٨١٥}{١٤١٢}$.

السيرة النبوية رواية ابن هشام طبع هندية بمصر سنة ١٣٢٩ هـ . ت ابن هشام (٢١٨) .
شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي طبع القدسي بمصر سنة ١٣٥٠
ت الحنبلي (١٠٨٩) هـ .

صلة تاريخ الطبري لعريب القرطبي طبع المطبعة الحسينية بمصر سنة ١٣٥٨ ت عريب
(٣٦٦ هـ) .

أجزاء من الطبقات لابن سعد طبع لجنة نشر الثقافة الإسلامية بمصر ١٣٥٨ ت ابن سعد
 $\frac{٢٣٠}{٨٤٥}$.

فتوح البلدان لأحمد بن يحيى البلاذري الطبعة الأولى بمصر سنة ١٩٠١ ت البلاذري (٢٧٩)
فتوح الشام للواقدي بتعليقات ولیم ناسوليس الإيرلندي طبع كلكتة سنة ١٨٥٤ ت . الواقدي
(٢٠٧) .

الكامل في التاريخ لابن الأثير الطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٠١ هـ ، ت ابن الأثير $\frac{٦٣٠}{١٢٣٤}$
مختصر تاريخ العرب والتقدم الإسلامي لسيد أمير على طبع لجنة الترجمة والتأليف والنشر
بمصر سنة ١٩٣٨ .

المختصر في تاريخ البشر لأبي الفداء المؤيد الطبعة الأولى الحسينية بمصر ، ت أبو الفداء
 $\frac{٧٣١}{١٣٣١}$.

مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن المسعودي طبع دار الرجاء بمصر ، ت المسعودي
 $\frac{٣٤٠}{٩٥٦}$.

معجم ما استعجم للحافظ البكري الطبعة الأوربية سنة ١٨٧٧ ت البكري $\frac{٤٨٧}{١٠٩٤}$.

مقدمة ابن خلدون الطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٨٨٦ ت ابن خلدون $\frac{٨٠٦}{١٤٠٦}$.

النجوم الزاهرة لأبي المحاسن الأتابكي طبع دار الكتب المصرية ج ٢ ، ت أبو المحاسن $\frac{٨٧٤}{١٤٦٩}$

المصادر التاريخية الجغرافية

- التنبيه والإشراف للمسعودي طبع ليدن سنة ١٨٩٣ بوقوف de goeje .
 مسالك الممالك لأبي إسحق الاصطخرى الكرخى طبع ليدن سنة ١٨٧٠ نشرة de goeje .
 ت الاصطخرى $\frac{٣٤}{٩٥١}$.
 المسالك والممالك لأبي القاسم بن خرداذبة طبع ليدن سنة ١٨٨٩ de goeje ت ابن خرداذبة
 . (٣٠٠) .

المصادر الفرنجية

- تأليف Rodolph Dvorak (فيه نص الثعالبي مع شرح دفوراك ومقدمته) Abou Firâs
 طبع ليدن سنة ١٨٩٥ .
- Arabic lists of the Byzantine themes.
- تأليف F.W. Brooks طبع صحيفة الدراسات الهيلينية ١٩٠١
 Byzance et les Arabes, par Alexandre Vasiliev
- (820-867) الأسرة العمورية
- الترجمة الفرنسية عن الروسية طبع معهد التاريخ الشرقى فى بروكسل سنة ١٩٣٥
- Histoire de l'empire byzantine par A. Vasiliev
- طبع بيكار بباريس سنة ١٩٣٢ (الترجمة الفرنسية) tome I (324-1081)
- Histoire de la nation égyptienne par Gabriel Hanotaux et Gaston Wiet
- طبع بلون بباريس سنة ١٩٣٧ Tome IV
- La Civilisation byzantine, par Stevan Runciman
- الترجمة الفرنسية عن الإنكليزية طبع بايو بباريس سنة ١٩٣٤
- L'épopée Byzantine à la fin du dixième siècle
- طبع هاشيت بباريس سنة ١٨٩٦
- طبع مكتبة هاتيه بباريس ترجمة (جوركان) L'Illiade d'Homère
- طبع مكتبة هاتيه بباريس ترجمة (جوركان) L'Odyssée d'Homère
- Mutanabbi und Seifuddaula : Dieterici
- طبع ليدن سنة ١٨٧٤ (فيه نص الثعالبي مع تعليق دييتيريسى ومقدمته وتحليله)
- Pages choisies des grands écrivains (Homère) par Maurice Croisiet
- طبع مكتبة أرمان كولان بباريس سنة ١٩٢٣ الطبعة السابعة
- Patrologia Orientalis, Fascicule 3, tome VIII.
- كتاب (العنوان) لأغايوس المنبجى فى هذه المجلة نشر فاسيلييف طبع بباريس سنة
- ١٩٠٨
- وفى هذه المجلة tome XV III Patrologia Orientalis

التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ليحيى بن سعيد الأنطاكي نشر فاسيلييف
وكراتشكوفسكى طبع باريس سنة ١٩٢٤ - وبذيل الصفحات ترجمتهما للنص العربي
بالفرنسية : "Histoire de Jean l'Antiochitain"

Un empereur byzantin au dixième siècle "Nicephor Phocas".

طبع باريس سنة ١٨٩٠ Par Gustave Schlumberger

Un poète arabe du IV^e siècle de l'Hégire (Xe siècle de j.c.).

About-tayyib al Motanabbi "Essai d'histoire littéraire".

إصدار مكتبة أمريكا والشرق بباريس سنة ١٩٣٥ Par. R. Blachère

Sayf al Daula : Recueil de textes relatif à l'Emir Sayfal Daula
par Marius Canard.

طبعة جول كابونيل بالجزائر سنة ١٩٣٤

"Al Mutanabbi" recueil publié à l'occasion de son millénaire

طبع بيروت سنة ١٩٣٦

الإمبراطورية البيزنطية لأومان ، ترجمة الدكتور مصطفى طه بدر طبعة الاعتماد بمصر

. ١٩٥٣



الفهرس

صفحة

فاتحة الكتاب ٥

تمهيد

الملاحم والقصص الحربى

- ١ - الملاحم فى آداب الأمم القديمة والحديثة ١١
- ٢ - الشعر الحربى والشعر القصصى ٢٠
- ٣ - الملاحمة فى الأدب العربى ٢١
- ٤ - العرب أمة حرب ٢٧

الباب الأول

شعر الحرب فى العصر الأموى

تمهيد

- ١ - الحياة الأموية الجديدة وشعر الحرب ٤٥
- ٢ - الحماسة الأموية بين الحرب والسياسة ٤٥
- الفصل الأول : شعر الحرب عند الخوارج ٥٨
- الفصل الثانى : شعر الحرب فى أدب الشيعة ٧٤
- الفصل الثالث : شعر الحرب فى أدب الزبيريين ٨٧
- الفصل الرابع : شعر الحرب فى ظل الأمويين ٩٦
- كعب الأشقرى ، شاعر الحروب الأموية ٩٧
- الأعشون الثلاثة فى الحماسة ١٠١
- ١ - أعشى بنى تغلب ١٠١

صفحة

١٠٢	٢ - أعشى ربيعة
١٠٢	٣ - أعشى همدان
١٠٥	الفصل الخامس : الفروسية القبلية
١٠٩	الفصل السادس : شعر الحرب عند الهجائين
١٠٩	١ - حماسة الأخطل
١١٣	٢ - فروسية الفرزدق
١١٧	٣ - بطولة جرير
١٢٢	٤ - خصائص شعر الحرب عند الهجائين
١٢٤	الفصل السابع : شعر الحرب الخارجية زمن بني أمية
١٢٤	١ - شعر الحرب وراء خراسان
١٢٧	٢ - الشعر في حرب الروم

ذيل

١٣٣	الشعر الحربى والرجز
-----	---------------------

خاتمة

١٣٦	الخصائص العامة لشعر الحرب الأموى
-----	----------------------------------

الباب الثانى

شعر الحرب فى العصر العباسى الأول

١٤١	الفصل الأول : تطور الشعر فى العصر العباسى الأول
١٤١	١ - تحضر الدولة
١٤٢	٢ - تطور الشعر وتجده
١٤٣	٣ - هل طرأ على الحماسة التغير

- (ا) وقوف الفتوح حيناً ، وفتور البطولة حيناً آخر . . . ١٤٤
- (ب) القواد الأعاجم ١٤٥
- (ج) الشعراء الأعاجم ١٤٥
- (د) تأثير الفارسية في الخيال العربي وأثر ذلك في شعر الحرب . ١٤٦
- ٤ - نطاق شعر الحرب في هذا العصر ١٥٤
- ٥ - نماذج من شعر الحرب في العصر العباسي ١٥٤
- الفصل الثانى : شعر الحرب الداخلية ١٦١
- ١ - سيوف القرامطة ١٦١
- ٢ - علوى البصرة وتصوير ابن الرومى لمذبحة الزنوج ١٦٤
- الفصل الثالث : شعر الحرب الخارجية في الشرق والغرب
- ١ - فتنة بابل الخرمي ١٧٠
- ٢ - خلود الطوسي ١٧٤
- ٣ - فتح عمورية ١٧٧
- ٤ - أسد الثغور ١٨٧
- ٥ - روميّات البحرى ١٩٩
- ٦ - خاتمة أسد الثغور ٢٠٦
- الفصل الرابع : الحرب البحرية
- ١ - الحرب البحرية عند العرب ٢١٠
- ٢ - أسطول المتوكل والمعركة البحرية
- الفصل الخامس : خصائص شعر الحرب في العصر العباسي
- ١ - فن أبى تمام في شعر الحرب ٢٢٤
- ٢ - ميايم عامة لشعر الحرب ٢٢٨

ملحق

- الرمزية والحرب ٢٣٠

- ١

- ٢

الباب الثالث

شعر الحرب في ظل الحمدانيين

صفحة

	الفصل الأول : الدولة الحمدانية	
٢٤٣	١ - قيام الدولة الحمدانية	
٢٤٥	٢ - سيف الدولة ورجال دولته	
٢٥١	٣ - لون سياسة الحمدانيين	
	٤ - حروب الحمدانيين مع الروم	
٢٥٢	(أ) الجيوش العربية والبيزنطية في عصر سيف الدولة	
٢٥٧	(ب) الدمستق وقواده	
٢٥٩	٥ - الأدب الحمداني	
	الفصل الثاني : شعر الحرب عند المتنبي	
٢٦٢	١ - حروب سيف الدولة من شعر المتنبي	
	المعارك :	
٢٦٤	(١) معركة خرشنة	
٢٧٣	(٢) معركة الثغور	
٢٧٦	(٣) معركة الحداث الحمراء	
٢٨١	(٤) معركة الدرب	
٢٨٩	٢ - وأما أبو الطيب المتنبي فقائد عسكر	
٢٩٥	٣ - فن المتنبي في شعر الحرب	
	الفصل الثالث : شعر الحرب عند أبي فراس الحمداني	
٢٩٨	١ - فروسية أبي فراس	
٢٩٩	٢ - تحت أسوار منبج	
٣٠١	٣ - روميات الأسير	

٣٠٩	٤ - حربيّات أبي فراس
٣١٣	٥ - نهاية النسر الحمداني

مؤلفات الحماسة القديمة

٣١٧	١ - كتاب الحماسة للطائي
٣٢١	٢ - كتاب الوحشيات
٣٢٢	٣ - كتاب التنبيه في شرح أبيات الحماسة
٣٢٣	٤ - كتاب الحماسة للبحري
٣٢٤	٥ - حماسة الخالدين
٣٢٧	خاتمة
٣٣١	ملحق
٣٣٣	المراجع والمصادر الأدبية
٣٣٧	المصادر التاريخية
٣٣٩	المصادر التاريخية الجغرافية
٣٤٠	المصادر الفرنجية
٣٤٢	خريطة (بروك) للشغور الحمدانية والأقاليم البيزنطية
٣٤٣	الفهرس